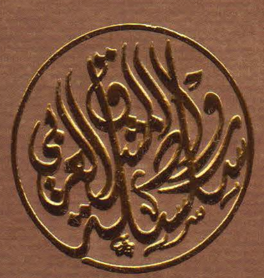


ثورة في الصّحراء

مذكرات حول الثّورة العربيّة الكبرى

للكولونيل البريطاني: توماس إدوارد لورَنس

دراسة وتحرير: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

ثورة في الصّحراء

مذكرات حول الثّورة العربيّة الكبرى

1918-1916

للكولونيل البريطاني

توماس إدوارد لورَنس

(لورَنس العرب)

دراسة وتحرير

د. أحمد إيبش



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

D568. 4 . L4212 2013

Lawrence, T. E. (Thomas Edward), 1888-1935

ثورة في الصحراء/ للكولونيل البريطاني: توماس إدوارد لورنس (لورنس العرب)؛ ترجمة: أحمد إيبش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص.: سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب: Revolt in the desert

تدمك: 1 - 175 - 17 - 9948 - 978

1. العالم العربي -- تاريخ -- الثورة العربية، 1918-1916.

2. شبه الجزيرة العربية -- العادات والتقاليد. 3. الشرق الأوسط -- تاريخ. أ. إيبش، أحمد. ب. السلسلة. ج. العنوان.





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

ثورة في الصّحراء

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثّقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشّرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثّقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشّريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطّمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثّقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثّمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطّباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثّقافة

هذا الكتاب

لورَنس العرب، صانع الملوك، ملك الجزيرة غير المتوّج.. أسماء رنّانة حملها البريطاني توماس إدوارد لورنس الذي تحوّلت سيرة حياته إلى ما يشبه الأساطير، عبر ملحمة حربيّة خلّدها الدّهر إبّان مجريات الحرب العالميّة الأولى، وضمن إطار الثّورة العربيّة الكبرى ضدّ الأتراك. وإذا رحنا نعدّد الكتب والمؤلفات والدّراسات والأفلام العالميّة التي وضعت عن حياته وإنجازاته، لوقعنا في حيرة كبيرة ولضاق بنا المجال.

تحمل سيرة حياة هذا الرّجل الكثير والكثير من المغامرات والمبالغات والمفارقات، ولم يكن أقلّ منها موته بحادث درّاجة ناريّة في عام 1935. وبغية دراسة تاريخ هذا الشّخص الاستثنائي، وإضافة كتب مفيدة وشائقة عن مغامراته في بلادنا، رأينا أنّ من الأفضل عدم الرّكون إلى ترجمة دراسات عنه وضعها آخرون، بل تقديم كتابيه الشّهيرين: «أعمدة الحكمة السّبعة» *The Seven Pillars of Wisdom*، و«ثورة في الصّحراء» *A Revolt in the Desert* وهو طبعة مختصرة عن كتابه الأول. فها نحن أولاء نشرع بالكتاب الثّاني، واعدين بترجمة الأول، مع تصحيح الكثير من الأغلاط الفادحة في أسماء الأشخاص والأماكن التي وردت في التّرجمات العربية السّابقة. ولو لم يكن الكتاب يستحّق إعادة النّظر، لما كنّا لنفعل ذلك أصلاً.

أمّا الكتاب الثّالث الذي سننشره حول لورَنس، فهو الذي ألّفه الصّحافي والكاتب المغامر الأميركي لويل توماس، وكان قد أمضى شطراً من الوقت رافق فيه لورَنس في الأردن وسوريا، وشهد بأمّ عينه العديد من الحملات والمعارك والأحداث وقابل

العديد من الشّـخصيّات، فخرج بمؤلّف ممتع وشـائق، أطلق عليه عنوان: «مع لورَنس فـي جزيرة العرب» *With Lawrence in Arabia*، سـندرجه ضمن سلسـلتنا بعد هذا الكتاب مباشرة.

رجعـت في هذا الكتـاب «ثورة في الصّحراء» إلى طبعة قديمة صدرت في نيويورك عن دار نشـر دبلداي ودوران Doubleday, Doran & Co. عام 1927، في السّنة ذاتها التي صدرت بها الطّبعة البريطانية الأولى.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

بيروت، *14* سبتمبر *2011*

د. أحمد إيبش

لورَنس العرب
بعضٌ ممّا له وما عليه

حين تسير الحقيقة على قدمين فلا بدّ للتّاريخ أن يُشرع أبوابه لها، لا سيّما عندما تكون هذه الحقيقة متعلقة بحياة مجتمع أو شعب بأكمله، ولكن هذا القول الذي نسجّله هنا يصعب تحقيقه في الواقع حين يتعلّق الأمر بشخصية قلّما عرف التاريخ مثل دهائها وتلبيسها، وهو تي إي لورَنس المعروف بلقب «لورَنس العرب».

لقد كان لورَنس أحد أفضل من أنجبتهم بريطانيا وأغربهم في الوقت عينه، فقد يصدق وصفه بالشّريد والمنتصر معاً، البطل والمهرّج، الباحث والجندي، الفيلسوف والسّاذج، الطّفل والرّجل الكبير، وفي مختلف هذه الأدوار لعب دورالمراهق الشّغوف، وربما نتجرّأ ونقول إنه أهم عقلية مراهقة في تاريخ بريطانيا الحديث، من بين الأفذاذ المعروفين لنا على الأقل.

اسم هذا الرّجل كان الكولونيل توماس لورَنس وهو الاسم الذي كان يوقّع كتبه به، كما عُرف باسم جون هيوم روسّ وكذلك تي. إي. شو، وهما اسمان عسكريان استعارهما للتستّر تحتهما خلال العشرينيات والثّلاثينيات من القرن العشرين، وهذا بحدّ ذاته يؤكد ما قلناه عنه من دهاء غير معهود في شخص واحد، ومن واجبنا ملاحظة أنه حتى عندما يستخدم هذه الاسماء فانه كان ينتقيها لإبعاد شبهة التبجّح عنه والظّهور بمظهر طالب الشّهرة. ومما لا شك فيه أن لورَنس لم يُعرف عنه أنه محبّ للوهم في سلوكه الجامح، فقد كان ذلك من قبيل التّصرّف الواقعي، لأنه تمكن من التحوّل إلى نموذج فريد، إلى طائر مغرّد وغريب الأطوار فحقق كل ما أراد أن يحققه، ولهذا

السّبب وصفه ميشيل كوردا في السّيرة الذاتية التي كتبها له مؤخراً بأنه «لورَنس العربي» قاصداً أنه ذلك الرّجل الغريب ذو القامة القصيرة التي حجبت جميع معاصريه، أو ذلك «القزم العجيب والأقرب إلى عالم الأوغاد، لكن مع مسحة من العبقرية» بتعبير أحد رفاقه العسكريين، فماذا عسانا نحن في نهاية المطاف أن نقول عن جندي محترف إلى درجة الكمال، جندي معوّق نفسياً إلى حدّ أنه كان يستأجر رجالاً ليقوموا بضربه بقسوة وذلك بعد عودته إلى بريطانيا، وحتى خلال كتابته لرائعته النّثرية، كتابه «أعمدة الحكمة السّبعة» *Seven Pillars of Wisdom* الذي يعدّ أطروحة متكاملة حول الثّورة العربية، فانه كان عبقرياً بحق، في وصف حقبة الحرب العالمية الأولى.

بعد فشل الهجوم المباشر على الإمبراطورية العثمانية خلال حملة «غاليپولي» سنة 1915 اعتبرت القيادة البريطانية العليا أن الشّرق الاوسط يمثل عملية إلهاء لإبعاد النّظر عن الحرب الدّائرة في فرنسا، وأن الانتفاضة العربية ضد العثمانيين هي إلهاء اضافي «عمل جانبي على هامش عمل جانبي آخر» كما قال أحد المسؤولين يومها، لكن بمساعدة الصّحافي الأميركي السّاخر لويل توماس (الذي سنقدّم كتابه في هذه السّلسلة قريباً) استطاع لورَنس تحويل الثّورة العربية إلى محطة رئيسة جذبت أنظار العالم للتفرّج على العرب الثّائرين على الأتراك عبر الصّحراء.

وفي تلك الأيام لم يكتب لورَنس كتابه ذاك بشكل متعمّد «لأنه لورَنس»، وفضّل تحمّل المعاناة لاستخلاص الدّروس والتلهّي به وحتى استبعاده من رأسه ليعود إلى التّركيز الكامل عليه، وقد كتب مسوّدة الكتاب مرات عدّة إحداها بعد أن فقده في محطة القطار، وهو حادث يؤكد على الازدواجية النّفسية التي كان يعاني منها، قبل أن يتم طبع الكتاب أخيراً سنة 1922، بطبعة من ثماني نسخ، وقد اقتنع لورَنس فيما بعد، بتأثير واضح من بعض أصدقائه، وفي مقدمتهم صديقه الشّاعر روبرت غريفز بأنّ من واجبه نشر كتابه «أعمدة الحكمة السّبعة» *Seven Pillars of Wisdom* على نطاق واسع، ولذلك عمد إلى اختزاله إلى حدود معقولة واعادة طبعه في العام 1926 بطبعة خاصة لبعض الذين يطلبونه.

على أنّ فكرة نشر الكتاب على نطاق واسع كانت تعني طباعة مئتي نسخة منه، حيث باع مئة نسخة منها بمبلغ 30 جنيهاً للنّسخة الواحدة مع العلم أن الصّور والتعليقات الضّرورية على الكتاب وتجليد نسخة كلفته ضعفي هذه المبالغ تقريباً. وكاد يؤدّي هذا العمل إلى إفلاسه مادياً بشكل فعلي، وبالتالي فقد اضطر لورَنس إلى القيام بما كان يتوجب عليه أن يفعله منذ البداية أي إنجاز طبعة مختصرة منه لبيعها للقراء، حيث ظهرت هذه الطّبعة في العام 1927 تحت عنوان «ثورة في الصّحراء» *A Revolt in the Desert* التي نترجمها اليوم، وهي إيجاز لعمل كتابي موجز من قبل، كما أشار الكاتب السّاخر جورج برنارد شو قائلاً بتهكّم عنه إنه «إيجاز الإيجاز» وقد لاقى هذا الكتاب رواجاً هائلاً واستثنائياً، مكّن مؤلفه (لورَنس) من تسديد كل ديونه السّابقة، بل وأدّى به إلى التخفّي عن الأنظار مرة ثانية داخل القوات الجوية الملكية والعمل ميكانيكياً تحت اسم مستعار.

من الواضح أن هذا السّلوك أشبه بألعاب السّيرك، التي تعكس صبيانية لورَنس الابن غير الشّرعي لأحد الأرستقراطيين، وبذلك فقد تفوّق على شهرة والده، لكنه لم يستطع التغلّب على مشكلة نَسَبه. وكان لورَنس قائداً بالفطرة ومحبّاً للعزلة، أراد له والده أن يكون نبيلاً ومثقفاً تبعاً لميوله، لكنه كشف عن نوازع عداونية، وكما فعل الشّاعر المعروف اللورد بايرون خلال ثورة اليونانيين ضد الأتراك في القرن التاسع عشر، كذلك أظهر لورَنس توجهاً حقيقياً للثّورة التي تراود عقول الحالمين أحياناً، وتفهماً أكثر من معاصريه لما يمكن تحقيقه بالمال والسّلاح، وكذلك أظهر بعض الوحشية التي يُبتلى بها هؤلاء الحالمون، حين سمح للقوات العاملة تحت قيادته بإعدام الأسرى.

وفي كثير من الأحيان بدا أنه يعيش خارج عصره، فتشير تقارير من الجبهة الغربية (معارك إيبريس، ڤردان، باسشِنديلِه) إلى سقوط الآلاف المؤلفة من القتلى والمصابين والمفقودين من أجل الاستيلاء على قطعة أرض، وخلال الشّهور الأربعة من عام 1916 في حملة «السُّومّ» لم تتقدّم قوات الحلفاء سوى سبعة أميال لكنها تكبّدت 420 ألف

ضحية من البريطانيين ومئتي ألف فرنسي ونصف مليون ألماني، ومع ذلك كان لورَنس يمـلأ ملفاته بالتقارير الواردة عـن المعارك التي جعلها تبدو معارك انتصار، كأن يقول: مقتل 300 تركي وسـقوط مدينة، بينما يكون الثّمن هو خسـارة رجلين من البدو، وفي إحدى رسـائله إلى صديق له كتب عن معركة جرت سـنة 1917 للاسـتيلاء على سـكة حديدية ما يلي: «اسـتغرق الهجوم عشـر دقائق، فتكبّدوا سـبعين قتيلاً وأصيب ثلاثون إضافـة إلى أسـر ثمانين جندياً» بينما تكبّدت قواته إصابـة واحدة، علماً أنها هربت بعد وصول قوات نجدة تركية ويضيف هو: «فقدت بعض المتاع وكدت أموت أنا شخصياً، وقد أصبحت لا أطيق هذه اللعبة التي تفقدني صبري وتنغّص عليّ حياتي.. لعبة القتل ثم القتل المروّع للأتراك».

كان هو كقائد قادراً على تخطيط استراتيجية شاملة، وقد أصيب بمرض الزُّحار في العـام 1917 لكنه بقي قادراً على التّخطيط الكامل مع الملك فيصل للمعارك، وتقضي خطته بالبدء في التّخلّي عن الخطة العربية السّابقة لاخراج الأتراك من المدينة وسواها مـن المـدن هنـاك، ورأى لورَنـس أنّ النّجـاح الفعلـي للثّـورة العربية يعود إلـى إجبار الأتراك على الجلاء عن المدن الشّمالية مثل القدس ودمشق، ولهذا بدأ سلسلة معاركة بهجمات خفيفة على محطات السّكك الحديدية والتّلغراف والمخافر الصّغيرة لإجبار القوات التُّركية على الانتشـار على مسـاحة كبيرة في المنطقة وتنبيه القبائل العربية إلى شـخصية الملك فيصل الدّاعية للتّوحيد بينهم، وبعد ذلك خطط للاسـتيلاء على ميناء العَقَبة لاسـتقبال القـوات البريطانية وصولاً إلى بناء جيش قـوي وطرد القوات التُّركية إلى بلادها.

لكن هذا الرّجل كان قادراً على عمل المزيد، ففي شهر فبراير 1918 استطاع توريط القـوات العربيـة في معركة عادّية جرت عند قرية الطّفيلـة ووصف المؤرخ بازيل ليدل هارت تلك المعركة بانها «رائعة» لأنه جرى خداع القوات التُّركية لحفر خنادق هناك، بينمـا هوجمت مـن الجانبين بقوات عربيـة، فأدّى ذلك إلى مصـرع 400 جندي تركي وأسر أكثر من ستمئة مقابل نحو أربعين جندياً من القوات العربية.

ولا شكّ في أنّ لورَنس كان شجاعاً وقوياً ممّا مكنه من حسن قيادة القوات الصّغيرة لديـه، وقد ضايقه سـماع أنبـاء عن اتفاق «سـايكس - پيكو» القاضي بتقاسـم المنطقة العربيـة بين فرنسـا وبريطانيـا، ونظراً لطبيعته الحسّاسـة فهم أنه يجري تلويث سـمعته بهـذا الكذب البريطاني على العرب فيما وعدوهم به من الاسـتقلال، وكتب: «لم أعد أتحمّل البقاء ليوم واحد هنا، وسأتوجّه شمالاً» وفي رسالة بعثها لصديق قال: «قرّرت الذّهـاب بمفـردي إلـى دمشـق لعلّي أُقتل فـي بعض الطّريـق» في محاولـة لوقف هذا التردّي، مضيفاً: «إننا ندعو العرب للقتال إلى جانبنا كذباً، وهو ما لا أتحمّله».

لهـذا تـرك قواتـه وراءه وقطع مسـافة 300 كيلومتراً خلـف الخطـوط التُّركية، وقام بتجنيد قوات صغيرة من أبناء القبائل المحلّية في لبنان وسـوريا للإغارة على الجسـور والسّـكك الحديديـة وللتّحريـض علـى الثّورة ضـد زعماء العشـائر الموالـين للدّولة العثمانيـة، وكان عمله أهم محاولة فردية خلال الحرب، رغم خطورتها التي لا يتقبّلها سـوى شـاب متحمّس، وقال في كتابه: «في تلك الأثناء كانت الإصابة بجروح بالنّسبة لي تمثل مخرجاً لي للتّنفيس عن مشكلاتي الدّاخلية». ثم حدث احتلال العَقَبة وتوسيع الثّورة ووقوعه في الأسـر وتعرّضه للضّرب في درعا في حين كان مع قواته يستكشـف مواقع السّكك الحديدية، وربما تعرّض للاغتصاب ايضاً وسماع ألفاظ نابية كما روى بعد سنوات. وكانت مدينة القدس سقطت قبيل عيد الميلاد سنة 1917 فدخلها لورَنس دخول المنتصرعن طريق الجنرال آلِنبي. وبعد تأخير دام أشـهراً عدة (حيث تم إرسـال ما بين 90-60 عسكرياً بريطانياً إلى فرنسا بعد تسريحهم) قام الجنرال آلِنْبي بهجوم في غزة.

وبـدأ العمـل مع لورَنس، حيث قاد قواته يوم 17 سـبتمبر، وهـي عبارة عن وحدتي هجّانة وعدد من الرُّماة مع وحدة مدفعية، وهاجم محطة السّـكك الحديدية التُّركية في درعا. وقد اسـتخدم الجنـرال آلِنْبي القوات الجوية لتدمير الخطوط العسـكرية التُّركية المؤلفة من الجيْش السّابع خلال ساعة. وتتالت الانتصارات على الأتراك حتى سقوط دمشـق في مطلع أكتوبر واستسـلام الحكومـة العثمانية أمام القـوات البريطانية في 31

أكتوبر. ولكن لورَنس لم يحضر تلك النّهاية، ذلك أنّ بريطانيا أرسلت خلفه بعد يومين فقط من سقوط دمشق، فلم يتمكن من مشاهدة الذي حدث للقوات التُّركية وللإمبراطورية. ومع ذلك فإن أقلّ ما يمكن قوله عن تلك المرحلة هو أنّ أحداثها لا تزال محاطة بالضبابية لتأتي كل الأدبيات والوثائق لاحقاً ومنها فيلم داڤيد لين (1962) الملحمي، وليصبح لورَنس بطلاً لكتاب مايكل كوردا Michael Korda الجديد بعنوان «البطل: حياة لورَنس العرب وأسطورته» وفي السّنوات الأخيرة راجت بين المؤرخين نزعة لاستعادة هذه الشّخصية، ولا أحد يدري بدقّة ما هي دوافع ذلك. صحيحٌ أن الرّجل كان بطلاً في البداية لكن من الصّعب التّسامح مع فكرة البطولة هكذا، ولكن البعض يريد تذكيرنا ببطولات لورَنس وإنجازاته، ومنهم كوردا.

وقد عمل كوردا لفترة طويلة رئيس تحرير في مطبعة «سايمون آند شوستر» وهو ابن شقيق المهاجر الهنغاري ألكسندر كوردا الذي أسّس صناعة السّينما البريطانية، واحتكر انتاج فيلم «لورَنس العرب»، وكما في كتبه عن غوليس غرانت ودوايت أيزنهاور أظهر كوردا إعجابه بالنّجاح العسكري. ومع أنه ليس مؤرّخاً محترفاً فإن سيرته عن «وعد بلفور» والتحرّكات التي أدّت إلى قيام الدّولة اليهودية في فلسطين لا تخلو من الشّكوك. ولا بدّ من الإشارة إلى أن الجزء الأخير من كتابه يضع لورَنس في مصاف القدّيسين لدوره في منطقة الشّرق الأوسط.

الحقيقة أنّ هذا التّصريح غريب، لأن مؤلفه كوردا يدرك جيداً أن ذلك الجزء من مشكلة المستقبل الخاصة بهذا الرّسم المتجني لتركة الدّولة العثمانية جعلت الثّروة تتركز أماكن الاحتياطيات النّفطية. في حين بقيت المجتمعات المتطوّرة والمتعلمة والمزدحمة بالسّكان في المنطقة مثل مصر وسوريا والأردن ولبنان تعاني من الفقر. ونقول إن لورَنس لم يستطع إدراك هذه الحقيقة قبل حدوثها، ولهذا يجب على المرء أن يتوقّف كثيراً عند رأي كوردا حول هذه الموضوع بشأن لورَنس.

الحقيقة أنّ لورَنس كان هو ذاته بكل بساطة. ولا نعتقد أن أحداً غير لورَنس العرب بما حقق من صيت كبير كان يمكن أن يُرغم الأمير فيصل وحاييم وايزمان على الجلوس

معاً في يناير سنة 1919، ويوقعا اتفاقية (صاغها لورَنس نفسه) لتشكيل حكومة عربية يهودية في فلسطين! ثم من غير تي إي لورَنس كان بإمكانه تحقيق إنجاز هائل، مع أن استكماله لم يحظَ باهتمام قوات الحلفاء حين جلسوا معاً لاقتسام الشّرق الأوسط فيما بينهم؟

لعلّ أفضل طريقة لفهم هذا الرّجل، هي باعتباره سليل المدرسة البريطانية النّموذجية إلى حدّ بعيد في تلك الأيام، وأنه غير نموذجي فيما يتعلّق بنقائه المطلق، لا في مجمل انجازاته اللازمة لإكمال ما تحتاج إليه تلك المدرسة. وكما قال إدمون ويلسون ذات يوم، فإنّ التربية التي وفّرها عصر «الإدواردیين» للبريطانيين (حيث كان لورَنس يدرس في مدينة أوكسفورد كطالب في المدرسة الثّانوية للبنين قبل أن يدخل جامعة أوكسفورد في العام 1907)، هذه التّربية إنما كانت تهدف إلى تحقيق غرضين مهمّين لا ثالث لهما، ألا وهما تخريج أبناء من طراز كلاسيكي وإنجاب قادة للأمة البريطانية. وإذا طبّقنا هذه المقولة على تي إي لورَنس لرأينا أن هذه التربية حققت أهدافها من نظامها التّربوي، وهو ما شكّل لبّ المشكلة!

لا ريب أن لورَنس حصل على ثقافة مدرسية كلاسيكية، وكانت أطروحته من خلال البحث الذي قدّمه لأول مرة ونال عليه درجة امتياز حول موضوع القلاع الصّليبية، قد شكّلت ركناً أساسياً في حياته العملية تحقق له في صيف 1909، وذلك بعيداً عن القارة الأوروبية بنحو ألف ميل. وقد كان سريعاً وعملياً في استيعاب اللغات، كما قطعة الإسفنج. وهكذا تعلم اللغات الفرنسية والألمانية والعربية والتُّركية واللاتينية ولغة الإغريق القدماء (ومن ذلك أنه ترجم ملحمة الأوديسة لهوميروس سنة 1932 بأسلوب إبداعي حقاً) كذلك استثمر كل مواهبه وملكاته خلال السّنوات التي سبقت الحرب التي اندلعت سنة 1914، حيث كان عمره 26 سنة للعمل في علم الآثار، فكان خبيراً عبقرياً في هذا المجال ايضاً.

على أيّ حال، لقد تلقّى لورَنس تعليماً مدرسياً مضبوطاً كما عُرف عن بريطانيا في تلك الأيام. ومن حيث المبدأ، استخدمت أكاديميات بريطانيا ومدارسها النّظام

المسيحي في التّعليم لتبني عليه نموذجاً استشراقياً حديثاً لا يزال قائماً حتى يومنا هذا، ومـن ذلـك أن البحث في علوم الكتاب المقدّس لا يزال يشـدّد علـى الاهتمام بمنطقة الشّـرق الأوسـط، لكن مع رفض التّعاليم المسـيحية التي كانت سـبباً في التأكيد على أن تحـلّ محـل النّظام التربـوي وتُطبّق على المجتمعـات غير المؤمنة بتلـك التّعاليم. واتضح أن ذلك في نهاية المطاف هو ضرب من التوجه نحو الثّقافة العربية في أصولها والاهتمام بالأصول السّامية «فيلوسيميتزم» وتاريخها التي غمرت الجامعات البريطانية وتسلّلت من خلال هذه الجامعات إلى مكاتب وزارة الخارجية البريطانية.

أخيـراً، لقي لورَنس حتفه فـي حادث اصطدام وهو على دراجـة نارية العام 1935، وعـاش بمـا يكفي فـي حرّية ما قبل أن يُرغم علـى الاختيار بين العـرب واليهود، وإلى حـدّ بعيـد قبل إرغامه على الاختيـار بين أن يخدم بلده بريطانيا وبين مسـاعدة العرب. ولكن العمل الذي أنتجه ميشـيل كوردا عنه لم يوفّـق في فهم أفكار لورَنس فيما يتعلق بالشّـرق الأوسـط، باعتبـار هذه المنطقـة تمثل أكثر من مجـرّد دائـرة للفكر البريطاني. ولهذا السّـبب نقـول إنّ تطوّر هذا الرّجل النّفسـي كان جزءاً مـن تدريبه الفكري. وفي الحاليـن كليهما أثبت انه ابـن بيئته الزّمانية والمكانية. لقد اتجهـت بريطانيا إلى توجيه البريطانيين في لحظات ذهبية إليها، ولكن الالتفات إلى الخلف يعني الإدراك بأنّ تلك اللحظات مثّلت الذُّرى العليا والسّفلى لمرحلة الشّباب، وليس لحظات النّضج الثّابت التـي يطمح إليها المرء، ولا شـك في أن لورَنس كان شـخصية عظيمـة، وفي لحظات الأزمة أثبت أنه كان بطلاً، غير أنّ سيرته الذاتية بما فيها ما كتبه كوردا أخيراً تنتهي دوماً نهاية حزينة بعض الشّـيء. لقد كان لورَنس شـجرة خضراء عَلَت أغصانها في سنواتها الأولى بشـكل غير عادي وأصبح يصعب قطعها.. كان فتى متألقاً وبقي كذلك دون أن يعرف كيف يكون رجلاً ناضجاً.

* * *

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3- أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4- ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أو Gervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خويِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5- نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبزغ، زولنغِن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهِلم وليس ولَيم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميركا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس پكين. وفي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكن ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيڤِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Christian، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6- حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والبرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في البرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7- وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التُّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتّركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نّفْس. وكذلك اسم قَبلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

REVOLT IN THE DESERT

By

T. E. LAWRENCE'



نموذج عنوان الطبعة الأميركية الأولى للكتاب

صدرت بنيويورك عن دار نشر دبلداي ودوران عام 1927

الفصل الأول

ستورز يذهب إلى جدة

وأخيراً ألقينا المرساة في شهر أكتوبر سنة 1916 عند الظّهيرة في مرفأ جدَّة أمام أرض بيضاء تخالها معلقة بين سماء من نار وبين أشباح متأرجحة هاربة على ذلك المرفأ الهادئ الفسيح حيث وهج جزيرة العرب يتساقط علينا كأنَّه الرّصاص المصهور فتضمحلّ له قوانا، وقد ذابت الألوان وتحوّلت إلى لون واحد غريب كالليل الهادئ في ضوء القمر.

أضواء وظلال كثيفة، ومنافذ سراديب، وأزقة مظلمة، وجدران بيوت بيض مرتجة، وضباب يضطرب ويشع داخل المرفأ ويكتنفنا، ويمتد البصر على فراسخ من الرّمال المنبسطة التي لا ظلَّ عليها، ولا يلبث أن يقف على قافلة من التلال المنخفضة التي تتميّزها العين بين الضّباب الحار المنعقد في الفضاء.

وإلى شمال جدَّة قطعٌ من البنايات كأنها ترقص مع السّراب. وبينما كانت الباخرة تلقي مرساها هبَّت الرّيح ترسل في الفضاء أمواجاً متتابعة من اللهب.

وقد أرسل إلينا الكولونيل «ويلسون» ممثل الحكومة البريطانية لدى الحكومة العربية الجديدة سفينة حربية للقائنا، وما كدنا نطأ أرض جزيرة العرب حتى تبين لنا أن تلك الأشباح الرّجراجة مع السّراب لم تكن إلا كائنات حية، وكان علينا أن نحاذي جدران البيوت البيض، ونعبر أزقة السّوق الضّيقة الخانقة حتى نصل إلى دار القنصلية، وكان الذباب كالغيم يتساقط على جموع النّاس القاعدين القرفصاء حول أكوام البلح واللحم، والهبوات تسطع وتضطرب في شعاع الشّمس النّافذ من شقوق السّقوف

الخشبية المستورة بالخيش المهلهل، والجو كبخار الماء شديد الغليان يذيب الأبدان، ولما بلغنا دار القنصلية استقبلنا الكولونيل في قاعة مبنية من جهة بعوارض الخشب المتلاصقة لتحجب الشّمس، ومفتوحة على اتساعها من جهة أخرى لنسيم البحر المنحبس منذ أيام، وأفهمنا أن الشّريف عبد الله ثاني أنجال الحسين الشّريف الأكبر قد دخل المدينة في تلك السّاعة فما كان أحسنها فرصة! وقد تركت القاهرة مع رونالد ستورز Ronald Storrs وقطعنا البحر الأحمر لملاقاته. إذ كان ـ ولا يزال ـ البلوغ إلى مكة محرماً على المسيحيين ولم يكن قضاء مهمّة «ستورز» بالتليفون ووجودي في هذا الظّرف يحقق ما أصبو إليه من التطواف البعيد، وكان «ستورز» السّكرتير الشّرقي في الوكالة البريطانية بمصر الرّجل الثّقة لدى «السّير هنري مَكماهون» في جميع المخابرات الدّقيقة مع شريف مكة لأن معرفته الجلية للعالم العربي وخبرة «السّير هنري» ودهاءه وتودُّد «كلايتون». كل ذلك كان له التأثير العميق على الشّريف. لأن هذه الشّخصية اليقظة رغماً من توجّسها المعتاد قد حكمت حكماً نيِّراً صائباً، وعرف هذا الشّريف بثاقب فكره، أننا نسير على سياسة ناجحة في الشّرق، تمكنه من الانتقاص والعصيان جهاراً على تركية، ولم تُشبْ إخلاصه شائبة قط نحو السّلطان البريطانية طيلة هذه الحرب الخصبة بالمواقف المضمرة الحرجة، وكان «السّير هنرَي» ساعد الإنكليز الأيمن في الشّرق الأوسط لغاية اليوم الذي نشبت فيه الثّورة العربية، وكان لها «السّير مارك سايكس» السّاعد الأيسر، وما كنا ليلحق أمانتنا ونزاهتنا ريبة لو أن مستخدمي مكاتب وزارة الخارجية من جهة أخرى كانوا واقفين على مجرى الحوادث.

وأقبل علينا «عبد الله» ممتطياً فرساً شهباء ومحوطاً بعصبة من عبيده المشاة مدججين بالسّلاح، وهو يتلألأ نوراً وابتهاجاً بنجاحه الحديث العهد في الطّائف، وقد حيته المدفعية باحترام، وكانت هذه أول مقابلة بيننا.

أما «ستورز» فقد كان يعرفه منذ زمن بعيد، وكانت بينهما علاقات طيبة، مع ذلك قد شعرت بعد مداولة قصيرة بيني وبين هذا الآسيوي بأن صداقته لا مواربة فيها، له جفنان يرفّان وفيه سمن ظاهر، ولما يبلغ الخامسة والثّلاثين، يستقبل زواره مازحاً بهجاً هاشّاً إلا

أنـه يلقـى هذا القناع عند المحادثات الجدية فينتقى الألفـاظ وينعطف إلى الدّهاء المتأصل في نسبه، ومن الطّبيعي أن لا تتفق آراؤه مع آراء «ستورز» أحياناً كثيرة: لاسيما أنه كان يرى نفسـه إزاء الفريـق الأقوى، وكنت ألاحـظ وأنقد وأختبر مازحاً كي أسبر غور الأمور، وقد تحققت بأن العصيان في الأشهر الأخيرة لم يأت بفائدة ما، وكان كالذي يدور على ذاته مما يـؤدي حتماً إلى كارثة من جراء هذا الرّكود، وعلى الأخص في حروب أحزاب كهذه، وقد اعتقـدت بأن القيادة الحقة لا وجود لهـا، ولم يكن هناك نقص في الذكاء وأصالة في الرّأي ودهاء في السّياسة. لكني كنت أحاول عبثاً أن أرى الحماس المنشود الذي يلهب الصّحراء ويضرمها ضراماً وكانت زيارتي لجدة لا لشيء سوى البحث عن المحرك الذي لم يزل إلى ذلك الحين مجهولاً، وأقول في نفسـي: ليت شـعري إلى أي حد يسـتطيع هذا المحرك أن يسير مع الثّورة؟! وكان يزداد اعتقادي رسوخاً كلما ازددنا مواجهة ومحادثة بأن «عبد الله» لشدة اتزانه وهدوئه غير صالح لأن يلعب دور النّبي... النّبي المحارب.. النّبي الذي حسب حكم التاريخ، يحسـن الثّورات، وربما ظهرت مواهبه الحقيقية بعد الفوز في وقت السّـلم، وقـد زَجَّ بي «ستورز» في المناقشـة وطلب من عبـد الله وجهات نظره في شـروط القتال. فاسـتعاد الشّـريف رزانتـه وأجـاب: بأنه يريـد أن يفهم البريطانييـن أن هذه القضيـة تعنيهم مباشرة وفي الحال، وأوجز هكذا:

«بمـا أننـا قـد أهملنـا فيما مضـى قطع سـكة حديـد الحجاز فقـد تمكـن التُّرك من الاحتفاظ بوسائل النّقل وادخار المؤن اللازمة لتثبيت أقدامهم في المدينة والاستعداد للمقاومة، فبعد أن دحروا فيصلاً وأبعدوه عنها عكفوا على تجهيز جيش سـيار مسـلح بجميع أنواع الأسـلحة الحديثة ليتقدم إلى رابغ، ثم من جراء تهاوننا أيضاً حرم العرب معـدات المدفعيـة والذّخائر الضّروريـة للدّفاع دفاعاً حسـناً عن المعابـر الجبلية التي يخترقها طريق الجنوب وقد انضم «حسـين مبيريك» شـيخ قبيلة (رابغ) إلى التُّرك، فلو كان جيـش المدينـة قـد تحرّك إلى الأمـام لكان حلفاؤه قـد انضموا إليه. ولـم يبق ثمة أمـام والـدي إلا أن يقوم على رأس شـعبه ـ أهل مكة ـ ويحارب تحت أسـوار المدينة المقدسة نفسها ويموت مجاهداً».

عندئذٍ قرع جرس التلفون: «الشّريف الكبير يطلب ابنه عبد الله للمخاطبة»، فأطلعه عبد الله على ملخص حديثنا فأكد فوراً بأنه وقد بلغ الحد الأقصى من اليأس لا يتردد في الاندفاع إلى الموت، وأن الأتراك سيمرّون على جثته، قبل الدّخول إلى مكة. وانتهى الحديث عند هذه المجاهرة، فابتسم «عبد الله» ابتسامة مبهمة وطلب اتقاءً للكارثة، بأن تشكل فرقة بريطانية من جنود مسلمين ينزلون في السّويس مجهزين بجميع وسائل النّقل مستعدين للتحرّك حالاً والتّقدم إلى رابغ عند خروج التُّرك من المدينة واستعدادهم للهجوم، فما كان رأينا في هذا العرض!؟..

لقد تعهدت بأن أبدي هذا الاقتراح للسّلطات العالية في القاهرة.

غير أنه ليس بخاف، أن البريطانيين ينفرون من نثر جيوش الدّفاع عن مصر ـ التي هي في المحل الأول من الأهمية ـ ليتلهوا على رمال صحراء العرب. ولا يخطرن في بالأحد أننا نخشى عدواً يهاجمنا من جهة القناة، ثم أن البريطانيين ليسوا مستعدين لإرسال جيوش مسيحية للدّفاع عن سكان المدينة المقدسة ضد العثمانيين، فإن بعض المسلمين الهنود المقتنعين بأن الدّولة العثمانية هي وحدها من غير منازع حامية الحرمين يغنمون هذه الفرصة كي يحوكوا لحركتنا السّياسية ثوباً على هواهم ويفسدوا في أعين الرّأي العام غايتنا الحقيقية من جزيرة العرب، وربما كنت أتمكن من دعم أقواله بفائدة ترجى لو أني قدمت تقريراً يتعلق بمسألة رابغ بعد أن أكون قد درست القضية في مكانها واطلعت بنفسي على شعور السّكان أنفسهم، وكنت أود أن أرى «فيصلاً» وأتحدث إليه وأرى ما يلزمه من المساعدة وإقناعه لإطالة مدة الدّفاع في الجبال بواسطة قبائل المنطقة الذين نموّنهم ونجهزهم بعددنا الحربية، أفلا يمكن أن أقطع الطّريق السّلطانية في اتجاه المدينة من رابغ إلى معسكر «فيصل» على ظهر جواد! ودعم «ستورز» أقوالي بشدة ملحاً بضرورة الإسراع في جميع ما يمكن من المعلومات من مطلع عليم يتمكن من مخابرة القائد العام في القطر المصري، فأخذ «عبد الله» التليفون محاولاً أن ينال إذناً من أبيه يمكنني من التجوال في البلاد حراً طليقاً، ولم يخف «الشريف» حذره من خطتي التي اختمرت في فكري، إلا أن «عبد الله» ناقشه

في الموضوع واستطاع أن يلين شيئاً من صلابته وأعطى السّماعة إلى «ستورز» ليصل بمهارته ودهائه إلى إقناع الشّيخ نهائياً، وكم كان حديث «ستورز» شائقاً باللغة العربية، وهو يتكلم بفصاحة أهل البلاد الأصلية وسرعتهم، وإنها لأمثولة لكل إنكليزي في الشّرق يتعلم منها كيف يجب أن يحادث شرقيين حذرين قويي الشّكيمة، ولقد كان من المستحيل مقاومة تلك المحادثة السّحرية! فقد فاز «ستورز» برضاء الحسين، ثم طلب «الشريف» مخاطبة «عبد الله» ثانية وأمره بأن يكتب إلى «عليّ» يستشيره إذا كان لا يوجد مانع في البلاد من زيارتي لفيصل، إلا أن «عبد الله» قد زوّد الرّسول بأوامر وتعليمات قاطعة بفضل نفوذ «ستورز»، وكتب إلى أخيه «علي» بأن يمنحني دون تمهل مطية جيدة، ورفاقاً خبراء مخلصين كي يقودوني إلى معسكر «فيصل»، ما كنت لأطلب أكثر من ذلك، مع أن «ستورز» كان يطمع لي بالزّيادة. وافترقنا لتناول الفطور. لقد حفظنا لجدة التي قطعناها سراعاً للوصول إلى دار القنصلية ذكرى حسنة وطفنا بها عند الأصيل وقد مالت الشّمس إلى الأفق وخفَّت وطأة الحر الخانقة يقودنا «يونغ» مساعد «ويلسون»، هذا الضّابط الذي كان يعجب من كل شيء قديم ولا يهتم لما هو حديث الصّنعة.

لا شك في أن جدَّة هي مدينة تذكر من نواحي كثيرة. فشوارعها تذكرني بدهاليز حديقة ظليلة، وسقوفها الخشبية التي تقي سوقها وهج الشّمس تترك فرجات تظهر منها قدد من السّماء ضيقة، وأسوار بيض عالية على جانبيها، وبيوتها مبنية بخليط من الجص والمرجان على أربع أو خمس طبقات محمَّلَةً على أعمدة مربعة من الخشب وراء واجهات مزينة بنوافذ واسعة مفتوحة على علو البنيان، ومقرنصة بالخشب الرّمادي الأكمد. وفي جدَّة لا يعرفون زجاج النّوافذ، إلا أن صناعة النّجارة بالغة حد الإتقان من الحفر والتطعيم والتشريب الدّقيق، ويشبه فن البناء في جدّة الفن الإليزابيثي من بعض الوجوه، إلا أن هذه الأخشاب لا يمكنها أن تحافظ على جمالها، بل تصبح سراعاً من سقط المتاع فتتآكل الواجهات وتتخللها الثّقوب ويهمل سدها فتتفتت، وعلى المدينة مظاهر النّظافة ويسودها الصّمت العميق كأنها مدينة الأموات، فلا أدوات نقل ـ لأن

الشّـوارع الشّيقة لا تصلح لذلك ـ ولا حيوانات من ذوات الحوافر، ولا ازدحام، فترى كل شـيء صامتاً، بل تشـعر بالانقباض يثقلك، والأسـرار تحيط بـك، والأبواب تقفل أمامك برفق؛ لا كلب يعوي، ولا طفل يصرخ، والسّـوق مقفرة إلا من بعض أشـخاص نيـام، والعابـرون أندر مـن هذا وذاك، ولـم نشـاهد غير أفراد قليليـن محلوقي الرّؤوس واجمين لمشهدنا. عجاف أثقلتهم الأمراض يسرعون الخطى لئلا يلتقوا بنا، أو ينظروا إلينـا، لباسـهم الغنـدورة (درّاعـة) البيضـاء، واللبدة تظلل رؤوسـهم الجرد، والشّـال القطين الأحمر يضـم أعضاءهم الهزيلة المسـتدقة، إلا أنهم حفاة تشـابهوا بأجسـامهم وأطمارهم كأنهم أفرغوا في قالب واحد وارتدوا زياً واحداً.

وكان الجـو ثقيـلاً باهظـاً مميتاً للغريب. غير صالح لحياة البشـر. لا لشـدة الحرارة فحسب، بل لتشبعه بالبخار الحار الذي يتندى منه الجسم عرقاً لا يطاق، وكأننا قد فنينا مـن الإنهـاك وبلغنا أقصى العمر، ولا عجب، فجو جدّة هو الوحيد من نوعه، وليسـت روائح نتن المدن كأزمير ونابولي ومرسيليا، مثلاً هي التي نستنشقها هنا، لكننا نشعر بأنا ننشـق هواء غارت فيه منذ أجيال أبخرة كائنات بشـرية ونستحم في حمام دائم الحرارة والعـرق، كأن جـدة هـذه لم يخلص إليها هواء نقي ولـم يسـلكها الصّبا منذ أن شـيدت بيوتها، وكأن سـتلازمها ريحهـا إلى أن تذهب ريحها، وتنـدك جدرانها.. ولم نجد في السّوق شيئاً يغرينا فنشتريه، ودعا الشّريف «ستورز» بالتليفون في أول الليل، وسأله إذا كان يحب أن يسمع جوقته الموسيقية.

فاسـتغرب «سـتورز»: «أية جوقة؟». ثم هنأ سموّه بحذقه فن المجاملات العصرية، فأجابـه «الشـريف» بأن أركان حـرب الجيش العثمانـي الفائت كان قد تـرك أبواقاً من نحاس بعد أن أسـر الأمير «عبد الله» حاكم الطّائف فأرسل الأسرى إلى مصر وحفظنا أفراد الجوقة في مكة لتطرب الظّافر المنتصر وعزفت موسـيقى «الشريف حسين» أمام سـماعة التليفـون في إحـدى القاعات وسـمعنا الأنغام من قصر مكة على بعد خمسـة وأربعين ميلاً من جدة، ثم شـكر «سـتورز» الشّـريف عنه وعن السّـامعين، وأثنى على الجوقة، فطاب قلب «الحسين» الشّـيخ، وأمر أن تسـير هذه الجوقة المسـكينة بأقصى

سـرعة إلـى جدة لتحيي لنا بعـض ليال، ثم قـال: «ورجائي أن أتصل بلياليكـم تليفونياً فأسمع الأنغام وأشارككم سروركم».

في اليوم الثّاني، ردّ «ستورز» الزّيارة لـ «عبد الله» في خيامه المضروبة خارج المدينة جوار «قبر حواء» ثم زارا معاً مستشـفى الجيش والثّكنات ومكاتب البلدية فاسـتقبلهما العمدة والحاكم، وكانا يتحدثان عن المالية ويتناقشـان في لقب الشّـريف، وفي علاقة الحسـين مـع أمراء العرب، وفي سـير الحـرب، وفـي العلاقـات والبروتوكولات بين أميـر مكة والحكومـة البريطانية، وكم كانت هذه المحادثـات مملة، وكم كنت أتجمل بالصّمـت مقتنعـاً بأن «عبـد الله» ليـس بالرّجل الذي ينقصنـا، بيد أني كنـت أميل إلى «الشـريف شـاكر» أصدق أصدقـاء «عبد الله» وابن عمـه، وكنت أرجو منـه أكثر فائدة لغرضنـا، وقـد كان «شـاكر» هذا رجل الطّائـف الضّخم منذ حداثة سـنه، رفيـق الصّبا لأولاد «الحسـين». ولم يبرح يلهو ويعبث بين أخصائه أو بين سـواد العامة بأبهة تتفق مع ثروته العظيمة وشـجاعته وثقته بنفسـه، ولـم أر رجلاً قط أسـرع تحولاً من العظمة الباردة إلى الحماس الملهب. ولا أفصح لساناً منه وأمتن بنية وأشد تعلقاً بالزّهو وملاذ الحياة، وكان الجدري قد نقش وجهه نقشـاً ونتف شعر رأسه نتفاً فأصبح أصلع لامعاً، عاكسـاً ما يختلج به جنانه كمرآة السّيارة المسـرعة تعرض كل مايجري في داخلها... وإذا كان «عبـد اللـه» هو القائد العام في حصار الطّائف فإن «شـاكراً» كان يقود الجنود إلى المعركة بحمية لا مزيد عليها، إلا أن اندفاعه أرغمه على الانسـحاب بعد أن امتنع رفاقه عن اللحاق به إلى الثّغرة المفتوحة في السّـور. فعاد سـليماً من غير جراح، لا عناً رفاقه، هازئاً من جبنهم ونكسهم، ساخراً من عدو منهزم كاد له كيداً دنيئاً بصب الزّيت على بيته الفسيح وإحراق مكتبته الثّمينة الزّاخرة بالمخطوطات العربية.

وقـد تعشـى «عبـد الله» في تلـك الليلة عنـد الكولونيل «ويلسـون» فاسـتقبلناه في الرّدهـة الخارجية أمام سـلم دار القنصلية وكان وراءه مسـتخدموه وعبيـد بيته العامر. وعلى خطوات منا لفيف من الرّجال ذوي اللحى.. بؤساء.. يرتدون أسمالاً، يحملون أبواقاً من النّحاس قد انطفأ لونها.

فأشـار إليهـم «عبد الله» بيـده وقال مفتخـراً: «هذه موسـيقاي»! فأجلسـوهم على مقاعـد خشـبية وراء الرّدهـة وأرسـل إليهم «ويلسـون» السّـجاير، ثم دخلنـا إلى قاعة الطّعام المشـرفة على البحر المتفتحة لمرور نسيمه، وما كدنا نأخذ أماكننا حتى عزفت موسيقى «عبد الله» يحيط بها حرسه ببنادقهم وكانت كل قطعة تنطق على هواها مستقلة عـن الأبواق الأخرى، أغاني تركية محزنة نفرت منها آذاننا وتهلّل لها وجه «عبد الله»، ثـم طلبنا أنغاماً ألمانية لنريح أسـماعنا فما لبثوا أن لبّوا طلبنـا، ولكن بإيقاع مضطرب، وعزفـوا نشـيد (ألمانيـا فوق الجميـع)[1]، وكان في الوقت نفسـه قد أخذ شـريف مكة سماعه التليفون ليشاركنا سرورنا! ثم طلب المدعوون أغنية ألمانية ثانية فأنشدوا.

ولـم نلبـث أن تنكّر لنـا النّغم وهبـط صوت الطّبـل وانحل رقه لشـدة رطوبة جدة، فأسـرع عبيد «عبد الله» وأحضروا للموسـيقيين قشاً وخشـباً وأضرموا فيها ناراً فقلبوا الطّبـل علـى وجهيه فتقلصت جلـوده وحباله وعاد إليه بعض رنينـه فأوغل الفنّيون في العزف على أنشودة «الكراهية» ولكن بإيقاع غريب استفزّ أحدنا فالتفت إلى «عبد الله» وقال: «إنما هذه نغمة جنازة» فانتفض «الشّريف» وتدارك «ستورز» الأمر فحوّل النّزقة إلى نكتة وحوّلنا المكافأة مع فضلات الوليمة إلى الموسـيقيين المضطربين البؤسـاء، فلم يُبدوا امتنانهم، لكنهم طلبوا منا أمراً واحداً وهو إعادتهم إلى أوطانهم.

* * *

---

(1) أنشودة ألمانيّة شهيرة *Deutschland, Deutschland, über Alles* تعني: «ألمانيا فوق الجميع»، غدت لاحقاً في أيام الحزب النّازي شعاراً أثيراً يتغنى به الجميع.



توماس إدوارد لورَنس

الفصل الثّاني

المسير إلى معسكر فيصل

تركت جدّة في الغد وركبت البحر إلى رابغ حيث معسكر «الشريف علي» أخي «عبد الله» البكر. ولما سلمته أمر والده الذي يقضي بمساعدتي على الوصول إلى «فيصل» بأسرع ما يمكن، أخذته الدّهشة ولكنه أذعن للأمر وأعدَّ لي ناقته الخاصة بسرجها وسيورها الفاخرة المصنوعة من جلود نجد المُعَلمة بمختلف الألوان الزّاهية المزركشة بالخيوط الفضية والشّراشر المجدولة وسلّم إلى رجلين أمينين هما «طفس وابنه» من قبيلة الحواسم ليوصلاني إلى معسكر «فيصل»، ولم يدعني «عَليٌّ» أسافر إلا عند هبوط الليل خوفاً من أن يراني أحد حلفائه، وقد أبقى سفري سراً مكتوماً حتى عن أخصائه المحيطين به، وأعطاني برنساً وشملة أخفى بهما بزتي الرّسمية فأتزيا بزي العربي حيث يرى سدفه في العتمة كأنه وطني يسافر على ظهر جمله. ولم آخذ معي زاداً قط، إلا أنَّ «عليّاً» أمر «طفساً» بأن يتزوّد شيئاً من المآكل عند مروره ببئر الشّيخ وهي أول منطقة مأهولة نصل إليها على بعد ستين ميلاً من رابغ. وكان عليَّ فوق ذلك أن أمتنع عن كل استطلاع علني مدة سفري وأن أتجنب جميع المواقع العسكرية.. فمررنا بغابة النّخيل التي تحيط ببيوت رابغ وتحزمها بحزام من الخضرة.

وحاذينا تهامة على ضوء النّجوم... تهامة تلك الرّملة المقفرة التي لا ينبت عليها ما يستظله الطّير، تلك التيماء الواقعة بين الشّواطئ الغربية لجزيرة العرب وبين الجبال الدّاخلية المقبلة للبلاد السّاحلية على مسافة أميال تعجز الفكر البشري عن وصف مللها ووحشتها تلهبها حرارة الشّمس فتصيرها أتوناً يشوي جلد الضّب، ويقف المسافر

حيران متردداً واجماً من عبورها لعدم وجود المياه عليها، لكنه لم يكن في الإمكان اجتنابها لوعورة مسالك الجبال الصّوّانية التي لا تقوى المطايا المثقلة بالأحمال على السّير عليها ولم يكن من سبيل إلى الالتفاف حولها لا من الشّمال ولا من الجنوب.

ولقد أنعشني برد الليل بعد الأيام القاسية التي أضعتها في رابغ بالمخابرات والمناقشات، وكان «طفس» أشدّ صمتاً من تهامة. وهو يسير على رأس القافلة تتبعه الجمال الخرس بخطاها الهادئة على رمل الصّحراء النّاعم، وغصتُ في لجة من الأحلام في ذلك السّكون الرّهيب وقلت لنفسي: هأنذا الآن أمشي على خطى أجيال من المؤمنين الذين جاؤوا من الشّمال ليقدموا الشّعائر للمدينة المكرّمة والنّذور للكعبة المشرّفة ولقد اعتقدت بأن هذا الانتقاض في جزيرة العرب سيكون درساً جديداً للحج من بعض النّواحي وسيحمل إلى الشّمال وإلى سوريا مثلاً أعلى آخر يبدِّل العقيدة القديمة الموروثة بعقيدة الحرية والاستقلال. وتابعنا سيرنا بضع ساعات في طريق موحش لا حاجز له، تصطك أحياناً ركب مطايانا فجأة، وتقعقع السّروج من تحتنا لانهيار بعض الكثبان المتنقلة والبطون الفاغرة فتصبح الأرض غير مستوية وصعبة العبور، وقد ظهر أن الجمال في الليل كانت مضطربة السّير، وضوء القمر يحيل الظّلال إلى لون واحد غريب تضيع معه النّقر والكثبان فيصعب تميزها. وأوقفنا القافلة عند انتصاف الليل، وتزملت ببرنسي، وتمدّدت في بطن من الرّمل ونمت هادئاً إلى الفجر. وما كاد «طفس» يشعر بقشعريرة البرد حتى آذن بمتابعة السّير. وبأسرع من ارتداد الطّرف كنا على ظهور المطايا. ولم تمضِّ ساعة حتى انقشعت غبشة الليل، ورأينا أنفسنا نتسلق معبراً من الحمم غارقاً في الرّمال التي تسفيها الرّيح، وقد انحدرت هذه الحجارة البركانية في العصور الغابرة زاحفة من فيافي الحجاز التي تمتد سلسلتها الغربية إلى يميننا متغلغلة في الصّحراء، وكان هذا المجاز قصير المدى تنتصب حوله أجرام بركانية عظيمة مستديرة ترى من فوقها ـ على اعتقاد «طفس» ـ المراكب تمخر في البحر! ويرتفع حول الطّريق بعض حجارة شيدتها أيد تقية. منها ما لا يتجاوز الثّلاثة الأحجار بعضها فوق بعض على رجاء مرور أشخاص آخرين كل منهم يضع حجراً

على البنيان إلى أن يكتمل لا لغرض معين إلّا تمثلاً بمن عبر. فهل كانت هذه الأحجار نقاط علاّم على جانبي الطّريق أم تذكرة على أمل العودة، ويهبط هذا الطّريق المعبد إلى منفرج يدعى (المستورة) يمرّ فيه وادي (فُورا)، ويتفق أن يكون المطر غزيراً في (طريف) فتتجمع المياه فجأة وتنساب داخل السّهول وتركد بحيرات واسعة لا عداد لها. لكنها أضحال تحجزها حجارة تائهة كأنها دلتا طولها ستة أميال ثم يجف بعد ذلك سنين عديدة، إلا أن الأرض تعبُّ كثيراً من هذه المياه وتحتفظ بها تحت الطّبقة الرّملية وتقيها التبخر فترتوي منها الأعشاب والأشواك المبعثرة في السّهول.

ومن هذه النّباتات ما لا تعلو ساقه عن الأرض أكثر من قدم واحدة وترتفع أغصانه على علو عشرين قدماً. أما الأغصان المدلاة إلى الأرض فإن النّوق تقضمها صعداً رويداً وبدون انقطاع مما يذكرنا بتشذيب الشّربين في بساتيننا، ويعيد إلينا شعور المدينة في أرض تهامة الجرداء.

وسرنا خبباً عند بزوغ الشّمس مسرعين لنصل إلى آبار «المستورة» وهي أول مرحلة من رابغ على الطّريق الذي يسير عليه الحجاج، وكان ع لينا أن نروي غليلنا ونستريح قليلاً، وكانت ناقتي كل ابتهاجي لأني لم أكن قد ركبت قط مثلها مطية إذ لا توجد في مصر جمال مسرجة للرّكوب.

أما جمال سيناء فهي من غير شك جلود صلبة لكنها غير مدربة كقلائص أمراء العرب ـ على السّير بهذه الخطى السّريعة اللينة تحت راكبها ومثل هذه الصّفات لا تتاح إلا لنوق الفوارس أصحاب الذكاء الذين يغنمون الفرص من هذه الخلال، فيدربونها حتى تسلس لهم.

إلا أنَّه مع الأسف فقد فقدت جزيرة العرب مثل أولئك الأذكياء. أما أنا فقد كنت أرضى بأن أكون مرفوع القدمين محمولاً. لا أعني بطريقة قيادة ناقتي، وإذا كان ركوبها سهلاً نوعاً ما فإن البقاء على متنها مدة طويلة واغتنام فرصة جودتها لقطع المسافات البعيدة، وإراحة الفارس والحيوان معاً لهو من الصّعوبة بمكان، وقد اقتحم «طفس» مقامي وانتقد ركوبي على متن النّياق من طرف خفي.

وكان موضوع الرّكوب من المواضيع النّادرة التي كان يسمح لنفسه أن يناقشني فيها لأن الأوامر المشددة التي تلقاها بألّا أكون على اتصال بأي مخلوق قد أخرسته، فكان أشدَّ بكماً من الصّحراء مما آلمني وأسفت له.

لأن لهجته العربية كانت تغريني.. وقد اهتدينا إلى بئر على مقربة من جلاميد «المستورة» وإلى جانبها حجارة جدران متهدمة مبعثرة على الأرض وقد كانت أكواخاً فيما مضى. وعلى مسافة منا كان بعض البدو جلوساً تحت ظلال النّخيل فلم نسلم عليهم. غير أن طفساً قد اقترب من تلك الخرائب وترجل وسقى الإبل هو وابنه عبد الله وسقانا، والبئر قديمة واسعة تبلغ من العمق عشرين قدماً وتنتهي بتصوين متين البنيان يعلو عن الأرض نحو قدمين. ولتسهيل تموين المسافرين الذين لا يملكون حبالاً، فتح في جدار هذه البئر شبه مدخنة مربعة لها ثلاثة جوانب يدخل منها الرّجل وينزل إلى البئر مستعيناً بيديه ورجليه ويملأ قربته، وكان بعض العابرين ممن لا يعقلون يرمون فيها الحجارة فقل ماؤها، وكان عبد الله يشنق ردنيه الضّافيين ويرفع غندورته «درّاعته» إلى حزامه المملوء بالخرطوش وينزل ويصعد مراراً بخفة غريبة يحمل كل مرة أربعة أو خمسة غالونات من الماء يصبها في الجرن قرب الرّجام لترتوي مطايانا، وكانت كل مطية تبتلع الخمسة غالونات رغماً من أنها شربت في رابغ الليلة الفائتة. وتركناها تسرح حول البئر، وتفيأنا ظل حائط ننشق النّسيم الذي يهب علينا من البحر خفياً، وأشعل «عبد الله» لفافة تبغ مكافأة له على اهتمامه بإروائنا... و إنّا لكذلك إذا بعصابة من العرب تقود قطيعاً كبيراً من النّوق إلى المسقاة فنزل أحدهم البئر من المنزل الخارجي يملأ قرباً عظيمة ويناولها رفاقه المنحدرين معه الواحد فوق الآخر وهم ينشدون طرباً.

وبينما نحن ننظر إليهم إذ بفارسين يركبان ناقتين جميلتين تقدما إلينا بسرعة يلبس أحدهما كشميراً فاخراً ويعتم بعمامة مطرزة بالحرير. ويرتدي الآخر ثياباً قطنية أقل قيمة وعلى رأسه قلنسوة حمراء من القطن.

ولما قربا من البئر ترجل الفارس الجميل دون أن ينيخ مطيته ورمى بالرّسن إلى

رفيقه، وقال له بصوت الآمر: اسقِ المطايا بينما أكون قد استرحت قليلاً، ثم تقدم ونظر إلينا من غير اكتراث، وأسند ظهره إلى الحائط تجاهلنا وقدم لي لفافة من التبغ بعد أن لفها ولصقها بريقه وقال:

ـ أنتم دون شك قادمون من سوريا...

فأجبت باحتشام وإبهام، وسألته هل هو قادم من مكة؟...

فأجاب أيضاً بحذر، ولم يفدني عن وجهته.

وتحادثنا قليلاً عن الحرب وعن هزال نياقنا.

وأما الفارس الثّاني فقد لزم الصّمت وهو واقفاً بقربنا قابضاً على زمامَي المطيتين وهو ينتظر انتهاء الذين تقدموهما من إرواء مطاياهم.

أما الشّاب الثّري فقد أمره بأن يسقي المطيتين حالاً، فتقدم إليه وأجاب بحدّة: بأنهم لا يريدون أن أقترب. فزمجر سيده، وقال: يا رحمن يا رحيم. ثم أسرع إليه وساطه على رأسه وكتفيه بفظاظة وأمره بأن يسقي الإبل في الحال. فتجلّد «مصطفى» على الرّغم من غيظه ورأى أن لا سبيل إلى رد الإهانة وأسرع إلى البئر، فرقّ العرب له وتركوه يروي مطيتيه مع مطاياهم وغضبوا لهذه المعاملة الوحشية، وسألوه بصوت خافت عن سيده هذا فقال: ابن عم سيد مكة!..

فهرول أولئك المسافرون إلى ظهور الجمال وأخذوا يقتطعون الأغصان الرّخصة من الأشجار العالية ويقدمونها إلى النّاقتين باحترام وعناية. فسر الشّريف لهذه المجاملة.

ولما انتهت المطيتان من هذه العلفة، ونهض السّيد وتناول عرف ناقته وقفز على سرجها دون عناء ظاهر وحيّانا ودعا للعرب أن يعوّض الله عليهم. فتمنوا له سفراً سعيداً.. واتجه نحو الجنوب وأخذنا نحن طريق الشّمال.

ثم سمعت ضحكة خافتة وإذا بطفس يقول:

ـ أعلمت أيها السّيد بأن هذا الشّريف هو «عليّ بن الحسين» وابن عمه الشّريف «محسن سيّد بني الحارث» أعداء الدّم لبني مَسروح Masruh. لقد خشيا من أن يتأخرا أو يعرفا فمثَّلا دور السّيد وعبده قادمين من مكة. ألم تر كيف أن محسناً قد أظهر الغضب عندما ضربه عليَّ. إن علياً لشيطان وقد عصى والده منذ أن كان عمره إحدى عشرة سنة. واحتمى بعمه إلى أن قبض عليه أبوه بعد مرور شهور عديدة. وما أن شبت موقعة المدينة حتى انضم إلى لواء سيدنا فيصل وقاد العتايبة في سهول العار وبئر درويش وكانت الحرب مقتصرة على الفرسان، فلم يرض عليَّ بأن يقود من رجاله إلا كل من يهجم هجومه ويبلو بلاءه، فكان يتنقل من جناح إلى جناح و من صف إلى صف يقفز على ظهر ناقته بيد ويحمل بندقيته بيد أخرى، إن أبناء الحارث هم أبناء الحرب!..

وهذه هي المرة الأولى التي يفيض فيها الكلام على شفتي رفيقي الشّيخ. وتابعنا السّير بسرعة في قلب السّهل المتلألئ، ولم يكن نبت قط على تلك الأرض اللينة كالقطن تحت أخفاف الإبل بعد أن كانت خصبة. وتكاثف الرّمل على أرض ثابتة تركض الجمال عليها كأنها على طنافس، والشّمس تنعكس على جمان الرّمل فيتراءى كأنه ماس يأخذ بالبصر. فأسدلت شيئاً من شملتي على عينيَّ كالمظلة وحللتها عن عنقي لأستر بها وجهي اتقاء الله بالمتصاعد من الأرض.

وكانت قمم «رضاوة» أمامنا وراء ينبُع تصدّ وتجلو في الأفق على مسافة ثمانين ميلاً تحسبها مندفعة بين الأبخرة إلى السّماء فتظل قواعدها مغمورة في الضّباب ورؤوسها مكشوفة فوق السّحاب. وتتصدى لنا حيناً بعد حين تلال ترتج في وهج الشّمس وتقف أمامنا كأنها تريد أن تأخذ علينا الطّريق، وعلى يميننا أعراف جبل بني أيوب الوعرة المسننة كالمنشار تتصل من الشّمال بسلسلة جبال زرق منخفضة ـ ويمتد البصر إلى أبعد مسافة فيصطدم بجبال أرفع قمماً يتدرج بعضها وراء بعض بمدارج مشرشرة ويكسوها انحراف أشعة الشّمس الهابطة لوناً نحاسياً جميلاً، كأن تلك الجبال تهم فتتسلق الطّود الرّائع الذي نحتت الطّبيعة في صوانه منذ الأزل أشكالاً غريبة لا مثيل لها، ذلك هو جبل «صُبح».

ولم نلبث أن ملنا عن طريق الحجاج إلى اليمين وسرنا في منعطف فوق رمال ترتفع شيئاً فشيئاً وتغمر تلاً من حجر البازلت فلا يظهر منه غير روقه المسنن. وما مالت الشّمس إلى المغيب حتى لمحنا أكواخ بئر الشّيخ فاجتزنا الممرّ العام في الدّغشة، ودخل طفس أحد الأكواخ العشرة المزرية يهمس في آذان بعض الذين يلتقي بهم ثم يصمت، ثم يهمس، ثم ابتاع طحيناً وعجنه بيده ورقه مُلَّى بثخانة قيراطين وعرض ثمانية وأدخل الملة عند امرأة صُبحية (نسبة إلى جبل صبح) يظهر أنَّه يعرفها. وبعد أن اعتقدنا نضجها أخرجناها من الملّة ونفضنا عنها الرّماد الحار وتقاسمناها.

ثم تركنا «عبد الله» يشتري شيئاً من الطّباق وعرفني الدّليل بوجود بئرين على سفح المنحنى الجنوبي، إلا أني لم أشعر بوجوب زيارتي لهما وقد أنهك الرّكوب أوصالي وأضناني حر الرّمال. ولم أكن قد تعودتهما. وانتشرت البثور على جلدي وآلمتني عيناي للنّور المضطرم في الصّخر اللامع والرّمل المتقد، وكنت قد قضيت سنتين في القاهرة أشغل عقلي وراء مكتبي في غرفة مزدحمة ذات جلبة من الصّباح إلى المساء إلا ما كان من جيئة وروحة من المكتب إلى الفندق، فلم يكن لي متسع من الوقت كي أبلد نفسي على هذه الشّمس العربية الغادرة والرّحلات الطّويلة المضنية على ظهر ناقة. وعلينا الآن أن نجدَّ السّرى أناء الليل ونواصل السّير أطراف النّهار الآتي لنبلغ معسكر فيصل عند المساء.

لقد باركت هذه السّاعة التي قضيناها في الشّراء والطّهي والرّاحة والتحدث مجتمعين إلى بعضنا متفقين ما بيننا إلا أنها للأسف قد مرت سراعاً ولو أنها بإرادتي إذ أمرت أن نعتلي سروجنا سراعاً ونجد في قلب الظّلام صوباً وصعوداً في المنحنيات والأودية وننخرط في مضايق حامية الهواء تضيق لها الأنفاس ونجالد كي نخرج منها إلى الأنجاد القليلة الهواء...

وكانت أذناي تحاربان الصّمت العميق في هذه البيداء التي لا يكاد يسمع فيها وقع أخفاف مطايانا، وقد تعودت ضجيج المدن والصّياح المتواصل، وكانت الأرض بعد ذلك مستوية، فكنت أغفو على السّرج مسافة طويلة ثم أصحو مذعوراً لكبوة خفيفة

وأحاول اكتساب الموازنة ثانية باستنادي على حنوه الذي كان نقطة ارتكازي. ولم تكن العيون التّعبة والأجفان الثّقيلة تتبين أشكال البلاد.

وانتصف الليل ودنت ساعة التوقف والرّاحة، فالتحفت برنسي وارتميت في بطن من الرّمل وهدأت قبل أن يعقل طفس المطايا. ومرت ثلاث ساعات كانت طويلة على قصدنا قصيرة جداً لراحتنا. فتابعنا السّير على ضوء القمر الشّاحب وهو يدنو من الهبوط في جوب الصّحراء إلى أن حاذينا وادي «مارد» وكان الظّلام يسدل ستائره رويداً رويداً ويهزم القمر الخائف ويدفع إلينا حراً شديداً ويلقي علينا سكوناً مملاً، وتظهر من جانبي ذلك الوادي قمم كسنان الرّماح تلمع وتخبو في الظّلام لآخر وميض في القمر الرّاحل.

وبزغ الفجر وظهرت لنا أشجار مكسرة ممدّدة على الرّمال فقلنا: لقد هبّت زوبعة في هذا المكان.

وتركنا طريق الوادي وتنسّمنا الهواء على سهل فسيح قد أذرته ريح عاتية، ثم أبصرنا عن يميننا «بئر ابن حسن» وهي أكواخ حقيرة من اللِّبن غريبة الشّكل تسند بعضها بعضاً خوفاً من السّقوط! ليت شعري أهي بيوت من لعب الأولاد تراكمت في ظل الجلاميد الصّخرية التي تحيط بمهاوي سبع وقد خيم عليها سكون الصّحراء!؟...

وبينما كنا نشاهد العمار ونرجو أن نلاقي حياة تدبّ، كانت الشّمس تسرع في الصّعود فوق أعراف الجلاميد المرتفعة آلافاً من الأقدام وتعكس أنواراً بيض على سماء لا تزال مزبدة في الفجر الهارب. وتابعنا السّير في الوادي الكبير فأبصرنا شيخاً ثرثاراً على بعير خارجاً من القرية وهو يسير الهوينى نحونا، وكان يدعى «خلّاف» فألقى بعض أحاديث مبتذلة ثم صمت. ثم حيّانا فأجبناه واستعد لمتابعة الحديث فحذرناه لهذه المجاملة البالغة الحد.

وكان «طفس» قليل الصّبر عليه يجيبه باقتضاب، إلا أن العم «خلّافاً» كان يلح ويلح. ثم أراد أن يكسب عطفنا فأدخل يده في خرجه وأخرج علبة فيها ملى فطير من

طحين القمح كالتي أكلناها أمس الفائت. إلا أنها كانت معجونة بالسّـمن فأخذها بيده ولتها بالسّـكر المسـحوق فتخاطفناها فأصـاب كل منا نصيبه وقـد أ حجمت في بادئ الأمر عن أكلها إلا أن «طفسـاً» و «عبد الله» قد فتكا بنصيبهما ولـم يبقيا «لخلّاف» غير الكفاف، فراح ضحيّة كرمه.

ولـم يكن الجشـع مسـتغرباً عنـد العربي في الصّحـراء لأنه يرى من العـار أن يتزود لسفر مئة ميل مثلاً!.

ولقـد أصبحنـا بعد هذه الأكلـة رفاقاً، فتمادينا فـي الحديث، وحكى لنـا رفيقنا عن الموقعـة الأخيـرة والصّدمـة التي أصيـب بها «فيصل» أمـس الدّابر. إذا صدقنا الشّـيخ الحديث فيكون فيصل قد أرغم على الانسـحاب عن ينابيع وادي «صفرا» القريبة منا، وسنتبين الأمر عند مرورنا بأول قرية.

ثم عطف وقال:

ـ لـم تكـن الموقعـة حامية الوطيـس إلا أن الجرحى كانـوا من أعـوان قبائل طفس وخلّاف. وقد نطق بهذين الاسمين وذكر الإصابات كي لا يبقي شكاً في كلامه.

وبعد أن اجتزنا سـبعة أميال أخرى بلغنا قمّة مرتفعة يشـقها سـور مسـتطيل من الصّوّان المثبت بعضه فوق بعض، وكان هذا الحاجز يمرّ بالتلال المنبسـطة ويتخطى القمم العالية، وينحدر من مهوى إلى مهوى. فسـألت «خلّافاً» عن أصل هذه الأعمال الضّخمة، فأجابني بالتواء، وأنه زار دمشـق واسـتانبول ومصر، وأنـه يعرف مصريين بارزين وسـألني إذا كنت أعرف أيّ إنكليزيّ هناك. كان صاحبنا يريد أن يلقي حبائله ليقتنصني ويعرف اسـمي فكان لجوجاً ملحّاً، إلا أنه لما كلمني باللهجة المصرية أجبته باللهجة الحلبية. فلم يتردّد عن ذكر أشخاص سوريين معروفين، فأجبته عنهم، لأني كنت أعرف شيئاً عن أعمالهم.

ثم انخرط خلّاف في قلب السّياسـة المحلية سائلاً بحرص، ملمّحاً من طرف خفي عن الشّريف وأولاده، وعن رأيي فيما سيفعله فيصل.

وكنـت حقـاً أجهل منه إلى ذلـك الوقت هذا الموضـوع. ثم تدخّـل «طفس» وغيَّر

مجرى الحديث ولم نفقه إلا بعد زمن أن خلّافاً كان عاملاً عند التُّرك يتسقط لهم الأخبار عن متطوعي العرب عند بئر ابن حسن.

وبعد أن هبطنا المنحنى عدنا وتصعدنا إلى عرف من الأعراف الصّخرية المنتصبة على حرف الوادي واجتزناه حتى بلغنا «وادي صفرا» التي كنا نجدّ السّير إليها.

وكانت «الواسطة» ـ أكبر قرية في تلك النّاحية ـ قد أصبحت أمامنا. وهي بيوت عديدة، منها ما هو معلَّق على حرفي الوادي ومنها ما هو متربع على الشّاطئين، ومنها ما هو منثور على الجزر الصّخرية تعتصم بها من الفيضان. فدرنا حول بعض هذه الجزيرات لنصل إلى الشّاطئ الثّاني وعبرنا مجرى المياه الرّئيسي المردوم بالحصى الملس والرّمل النّاعم اللين. ثم بلغنا حوضاً عظيماً يبلغ طوله مئتي متر وعرضه خمسة عشر محاطاً بالنّخيل، والمياه فيه صافية كاللجين، بل كأنه يجري من ينبوع، والحشيش الأخضر المزهر يحزمه حزماً على عرض عشرة أمتار، فتوقفنا لنسقي مطايانا ونرعاها على تلك الأبسطة الخضر بعد أن قطعنا معظم يومنا تحت أشعة الشّمس المحرقة المنعكسة على جوانب الحصى الملس كالمرايا التي لا عدَّ لها.

ولكم كنت أشتهي أن تمر سحابة على وجه الشّمس فتصدعنا وهجها. وتابعنا مسيرنا في شُعب ذلك العقيق إلى أن بلغنا حديقة تجري فيها عين صافية على حصباء كاللؤلؤ، فدرنا حول سور من لبن مظلل بالنّخيل يضم إليه بعض الأكواخ.

وقادنا طفس إلى الشّارع الضّيق الذي كنا نرى سطوح بيوته الواطئة عن ظهور مطايانا وتقدم إلى باب أحد البيوت وقرعه، ففتح له عبد، فدخل وأدخلنا الجمال فألقى إليها الحشيش الأخضر، وقادنا إلى غرفة مظلمة إلا أنها نظيفة جداً، جدرانها من الطّين وسقفها من جذوع النّخيل والتراب الملبد فجلسنا على حصير من سعف النّخيل يغطي أرض الغرفة ثم تمدّدنا جنباً إلى جنب، وكان الحرُّ شديداً في هذا الوادي المحصور. ورنين النّحل حول الغرفة وطنين الذباب الذي يدور حول رؤوسنا المغطاة بالقماش النّاعم الشّفّاف، كل ذلك كان يدعونا إلى النّوم بينما القوم يهيئون لنا الطّعام من الخبز والتّمر. وكان التّمر طازجاً عذباً يذوب في الفم ذوباناً فلم أذق قط ألذ منه في حياتي.

ثم ركبنا وتخطينا الوادي الذي يخترق بساتين من هنا وهناك مسورة بأسوار اللبن والحجر في أماكن عديدة فيخزن الماء لري أنواع كثيرة من المزروعات ويقوم بحراسة النّبع العمومي حارس يفرق الماء على الدّقائق وفي كل أسبوع مناوبة حسب اتفاق أهل القرية. وكان الماء أجاجاً إلا أنّه صالح للنّخيل الذي يعطي ثماراً شهية جداً. أما الآبار الخصوصية فهي عذبة وكثيرة في البساتين لأن الطّبقة المائية سطحية لا يزيد عمقها على الأربع إنشات.

واجتزنا السّوق العمومية فألفينا مخازنها خاوية دب فيها الهرم والتهدم ويعتقدون بأنه منذ جيل كانت «واسطة» بلدة كبيرة يبلغ عدد بيوتها الألف فاجتاحتها مياه «وادي صفرا» وقلعت نخيلها وطغت على أسس بناياتها الهاوية المبنية «باللِّبن النّيّء» وباغتت بعض العبيد البؤساء فتركتهم تحت الرّدم. ولقد كان من السّهل تجديد الرّجال وغرس النّخيل، إلّا أنّه لم يكن من الممكن تجديد الأرض الزّراعية التي جرفتها المياه وتركت الأرض جرداء ظهر عليها الصّخر أملس عارٍ، والوادي فوق «واسطة» يتسع لمقدار أربعمئة متر يتوسطه قاع جميل مفروش بالرّمل النّاعم والحصباء الملساء تجرفها مياه الشّتاء من المرتفعات.

وفوق هذا الوادي أعراف من الصّخور كالفولاذ المشحوذ تنعكس عنها أشعة الشّمس إلا أن الحشيش والأشجار النّضرة تخفف من حرارتها فترسل علينا نسيماً عليلًا، ومنذ ذلك الوقت كنا نلتقي بجنود فيصل ونياق سارحة هادئة. وقبل أن نصل إلى «حمراء» كان معسكر في كل منحن وتحت كل شجرة وفي ظل كل صخر والنّاس يحيّون «طفساً» تحية البهجة والتهليل وهو يردُّ التحية بأحسن منها، مسرعاً لا يلوي على أحد حتى ينهي مهمته بأمانة ودقة.

وأخذت «حمراء» تتسع إلى شمالنا وكأنّها ـ وهي مغمورة بالبساتين التي تفصل بيوتها بعضها عن بعض ـ تلال يبلغ ارتفاعها العشرين قدماً وخضنا ضحلًا لنبلغ الطّريق العام، ودرنا حول إحدى تلك التلال والجنات اليانعات، وأنخنا جمالنا أمام بيت مستطيل واطئ تتصدره دار فسيحة.

فتقدم «طفس» إلى عبد يحرس المدخل شاهراً سيفاً قبضته من فضة، وكلمه كلاماً

موجزاً غير مسموع فأدخلني العبد إلى الدّار، وإذا بي أمام جسم أبيض ساكن لا يتحرّك محاط بإطار الباب الأسود فاعتقدت بأن هذا المجهول كان ينتظرني وأيقنت لأول لحظة بأنه هو الذي أتيت من أجله إلى جزيرة العرب وأنه هو الذي يقوم بعصيان تكون نتيجته الانتصار.

هذا هو فيصل... لقد بدا لي بأنه كبير جداً كالجذع الأملد في ثيابه الحريرية البيض الفضفاضة وعقاله الأسمر المعقود بالخيوط الحمر الذّهبية، وكان يغضي بجفنيه كأنه ينظر إلى لحيته السّوداء، له وجه باهت كالقناع يقابله جسم في منتهى الغرابة من اليقظة والانتباه، ويداه المكتوفتان تداعبان قبضة خنجر في زناره.

فحييته، فأدخلني غرفة خاصة بالضيوف وجلس على وسادة إلى جانب الباب، وأخذت عيناي تألفان الظّلمة فتميزت وجوهاً كثيرة صامتة في تلك الغرفة وعيوناً ترقص أحداقها عليَّ وعلى فيصل، ثم أخذ يتأمل مُقلباً أجفانه في السّلاح وهو قابض عليه. ولم يلبث أن سألني بلطف وبشاشة عن سفري المتعب، فحدثته عن الحر وعن مواعيد قيامنا من رابغ فقال:

ـ هذا سير حسن في مثل هذا الفصل من الحرّ.

وسألني:

ـ كيف رأيت مقامنا هنا في «وادي صفرا؟!».

فأجبته بأن المقام طيب هنا بالطّبع لكنه بعيد جداً عن دمشق.

فنزل جوابي هذا كالصّاعقة بين الحاضرين وشعرت بأن الجميع قد انتفضوا واستولت عليهم سكتة قطعت أنفاسهم مدة دقيقة... ولعل بعضهم قد تفاءل بنصر قريب. ولعل الآخرين قد ظنوا بأني أوبخهم على انكسارهم الأخير.. ثم رفع «فيصل» عينه إليَّ وقال: الحمد لله لحسن حظنا، إنه يوجد أتراك أقرب إلينا من دمشق، وتبسم وتبسّمنا كلنا واعتذرت إليه، وانسحبت.

* * *

الفصل الثّالث

فيصل وجيوشه

وتحت قبّة النّخيل العظيمة على بساط الحقول الخضر الهادئة كان يعسكر الجيش المصري المنظّم تحت قيادة الميجور «نافع بك». وقد أرسله حديثاً السّير «ريغينالد وينغايت» من السّودان لكي يلقي خطبة أخرى في موقد الثّورة العربية، وكان مؤلفاً من بطارية مدافع الجبال وبعض الرّشّاشات. وقد أظهر «نافع بك» نحوي عطفاً وعناية أذكرهما له.

ووصل فيصل إلى المعسكر يرافقه «مولود» المخلص العربي التكريتي المتعصب الذي جرد مرتين من رتبه العسكرية في الجيش التُّركي ونفي سنتين إلى نجد ليكون أمين سرَّ ابن الرّشيد لنعرته العربية ومجاهرته بها.. وقد استولينا عليه في الشّعيبة عندما كان يقود الفرسان التُّرك، ولما علم بانتقاض الشّريف قدم إليه نفسه وانتظم تحت لوائه، فكان أول ضابط نظامي تركي انضم إلى العدو، وكان إلى ذلك الوقت القائد الأعلى لجنود فيصل.

ولقد شكا «مولود» كثيراً الافتقار إلى الرّجال والسّلاح والمؤن والذّخيرة وغيرها.. أجل قد كان الشّريف يرسل في كل شهر ثلاثين ألف ليرة تركية ولكن الطّحين والأرز والشّعير كانت تنقصنا. والبنادق والرّصاص قليلة بين أيدينا ولا رشّاشات ولا مدافع جبال ولا رئيس فني ولا معلومات من أي نوع ما ولا من أية جهة كانت... فأوقفت مولوداً عند هذا الحد وأفهمته بأن مجيئي إلى هنا لكي أقدم تقريراً بالحالة وأرسل ما يجب إرساله بأسرع وقت مستطاع. وأفهمتهم بأني لا أتمكن من مساعدتهم إلا

إذا أطلعوني على الحالة الحاضرة بكل جلاء وإخلاص. فوافق فيصل على أقوالي وأعطاني دون تأخير لمحة عامة عن الثّورة منذ نشوبها.

ثم عطف، وقال:

ـ لقد كانت هجمة مرعبة تلك التي حاولناها على المدينة. فقد تصدى العرب الرّديئو السّلاح والمؤن للترك المسلحين بأجود أنواعه والمدربين أدق تدريب، وفي وسط المعمعة تقطعت أوصال متطوعة «بني علي» وقذف بالعرب خارج السّور. وعندما تفتحت فوهات مدافع التُّرك الحامية ـ ولم يكن العرب يألفون هذا النّوع من القتال ـ طار لبهم واستولى عليهم ذعر غريب ـ وامتنع بنو عقيل والعتايبة عن مواصلة القتال واحتموا قدر استطاعتهم من وابل المدافع. وأرسل كثير من جبناء «بني علي»، إلى التُّرك يطلبون الأمان والتسليم بشرط أن تسلم قراهم من التّدمير. فلعب «فخري» بهم واغتنم فرصة استكانتهم وتسليمهم فحاصر ضاحية العوالي وأمر جنوده بالاستيلاء عليها عنوة وبذبح كل حي يصادفونه، فذبح وقتل في ذلك اليوم مئات من السّكان، وأحرقت البيوت فاحترق فيه كل ميت وحي.

ولا غرو فقد قدم «فخري» ورجاله من الشّمال وكانوا قد أتقنوا في الشّعوب الأرمنية فن التقتيل السّريع والبطيء معاً؛ فأحدث هذا المثال المريع ضجة عنيفة في العربية كلها. لأن العرب يحاربون على طريقتهم المتبعة وهي بأن يصان النّساء والأطفال والمتاع الغير قابل للنّقل وكل حي لا يقوى على حمل السّلاح.. وفهم رجال «فيصل» بأنه لا يمكن قبول مثل هذه العادات الحربية الحديثة، فتراجعوا كي يكونوا في مأمن من العدو.

وكي يكسبوا وقتاً لتجديد قواهم، وأن لا سبيل بعد الآن إلى الخضوع لأن تدمير العوالي كان سبباً آخر لإذكاء نار العداوة الجنسية وأن تقتيلهم على غير شرع الحرب كان جذوة في قلب كل عربي لا سبيل إلى إطفائها بل أوقدت في قلوبهم حماساً لمحاربتهم ولو فنوا على بكرة أبيهم، ولقد فهموا بأن الحرب سيطول أمرها، وأنهم سينتهون بفشل إذا لم تبدل بنادقهم التي تحشى من فوهاتها! فاعتصموا بالجبال تاركين السّهول المحيطة بالمدينة.

وأرسل «علي» و«فيصل» الرّسل تلو الرّسل إلى رابغ قاعدتهما البحرية ليعلما إلى أي حد ينتظران مؤناً جديدة وذهباً وسلاحاً، وقد جاهر بالعصيان من غير خطط معينة بل تركا الأمر للظّروف والأمكنة، ولإشارة والدهما القاطعة. لأن الشّيخ كان متمسكاً بنفوذه ومستقلاً عن كل رأي بحيث لم يثق كل الثّقة بأولاده، ولم يهيئ معهم موقعة واحدة مكنتهم من الوقوف في وجه العدو.

وبعد مرور زمن غير يسير وصلت إليهم كمية البنادق اليابانية قديمة غير صالحة تقريباً وحديدها من النّوع الرّديء فكانت تنفجر لأول طلقة في يد المقاتل العربي! إلا أنه لم يصل إليهم الذّهب الذي كان أهم ما يعتمد عليه في الصّحراء بين القبائل.

وكان «فيصل» لكي يملك زمام الحالة يملأ صندوقه الحديدي حجارة ويقفله قفلاً محكماً ويسلم أمر حراسته إلى عبيده الأخصاء وفي المساء كانوا ينزلونه بحرص واهتمام في خيمته، وبهذه الخديعة تمكن الأخوان من الاحتفاظ بمتطوعيهما الذين كان يقل عددهم يوماً فيوماً.

وسافر «علي» في آخر الأمر إلى رابغ كي يحاول أن يستجلي الموقف. فعرف بأن «حسين مبيريك» قائد الموقع كان مكابراً ومعتقداً بأن الفوز، سيكون للتُّرك، أو لم يبارزهم مرات عديدة وكان نصيبه منهم الفشل!!...

وكان استنتاجه: أن قضيتهم هي الحقة وكان البريطانيون ينزلون المؤن إلى البر باسم الشّريف فيستولي عليها «مبيريك» ويخزنها سراً في بيوته.

ولما صمّم «عليّ» على منازلة العدو بعث رسولاً إلى أخيه «زيد» يدعوه لموافاته مع قوة من جدة والانضمام إليه في الحال. فأخذ الذُّعر من «مبيريك» كل مأخذ وتوارى في الجبال كالمحرم المنبوذ، فاستولى الشّريفان على قراه وعلى أكوام من المؤن والذّخائر والسّلاح ما يكفي جنودهما شهراً كاملاً، إلا أن شيطان البطالة قد زين لهما الرّاحة في هذه الظّروف الحرجة فنزلا في رابغ.

وهكذا بقي فيصل منفرداً داخل البلاد وفي موقف شديد الخطورة، يقتات مع

متطوعيه من موارد البلاد الضّئيلة، مقاوماً الضّيق والحرمان إلى أن كان شهر أغسطس فاغتنم فرصة وصول الكولونيل «ويلسون» إلى ينبُع ـ البلدة التي استولى عليها حديثاً ـ فقدم إليها وبيّن له بصوت صارخ ما يحتاج إليه في الحال. فتأثر «ويلسون» أيما تأثير لهذا الضّنك الذي حاق بشخص «فيصل» ورجاله وأمر فوراً بأن تسلم إليه بطارية مدافع جبلية وبعض مدافع مكسيم وضباط ورجال فنيون من المستودعات المصرية في السّودان، وهذا هو سبب وجود «نافع بك» ورجال مدفعيته عند الشّريف «فيصل».

فتهلّل العرب لوصول هذه النّجدة واعتقدوا منذ تلك السّاعة بأنهم قد أصبحوا يعادلون قوات التُّرك ويتمكنون من مقاومتهم. إلا أن المدافع التي هي من نوع كروب كانت تحمل تاريخ عشرين سنة مضت على أنبوباتها ولا يبلغ مدى قنابلها أكثر من ثلاثة آلاف متر فضلاً عن أنه لم تكن لرجالهم الخبرة الكافية في مثل هذه المواقع الصّحراوية رغماً من أنهم رافقوا العرب في جولاتهم بشجاعة وإخلاص ودحروا مقدمة التُّرك اندحاراً متواصلاً. إلّا أنَّ «فخري» قد رأى الخطر يتفاقم فزار جبهة القتال وأرسل ثلاثة آلاف رجلاً لينجد القوات المتقلقلة عند بئر عباس، وكانت لديه مدافع ميدان «هاويتزر» بحالة جيدة... ومدافع منيعة تضمن له التفوق والتحكم في العدو. وابتدأت طلقات الأتراك الغير مباشرة تزعج العرب وسقطت قنبلة قرب خيمة «فيصل» ذاتها بينما كان جميع الرّؤساء يتداولون. فطلبوا من المدفعية المصرية أن تخرس مدافع العدو، إلا أن المصريين قد أقروا بعجز مدافعهم وقصر مداها وهم على بعد تسعة آلاف متراً من مدافع العدو، فهزأ الجيش بهم وتراجع العرب إلى الجبال.

فوهنت عزيمة «فيصل» لانفضاض الكثيرين من حوله وموت القسم الآخر من شدة التّعب، ولم تحسن حاله هذه إلّا ببعض غزوات لمؤخرة الجيش التُّركي، غير أنها قد كلفته ثمناً غالياً، وقد نفق قسم من الجمال قتلاً ونصباً، عندئذ رفض أن يتحمل وحده مشاق الحرب، وتبعاتها بينما «عبد الله» يتلكأ في مكة، وعلي وزيد في رابغ، وسحب قوته الرّئيسية إلى الوراء وترك متطوعيه رجال القبائل الذين هم في الصّف الثّاني ينهكون قوى العدو بغزوات متوالية. وكان من المستحيل عليه أن يحارب على هذا

النّمط من المناوشات. ومع أن «فيصلاً» لم يكن يخشى أقل مفاجأة من جهة التُّرك. بل كان يزدري بهم، ولم يكن تراجعه في «حمراء» انهزاماً قط، بل نوعاً من الملل لدى ضعفه الحقيقي تجاههم. وأراد فوق ذلك أن يظهر سلطته ويحترم مقامه. فاستراح من الحرب قليلاً مكتفياً بالمراقبة والانتظار!...

وسألت «فيصلاً» خطته فأجابني بأنه عند سقوط المدينة يجد نفسه ملزماً إلى البقاء في الحجاز موجهاً جميع حركاته ضد قوات «فخري».

لأن التُّرك على رأيه يحاولون استعادة مكة. وقوتهم الرّئيسية كانت مؤلفة. من جيش متحرّك يمكنهم أن يقذفوا به إلى رابغ. إلّا أنه كان لهم اختيار بضعة خطوط للوصول إلى غايتهم. فأصبح العرب واقفين موقف الحيرة لا يدرون أي الطّرق يسلكون، وأن هؤلاء المحاربين العرب لا يعرفون أن يدافعوا. وقد أظهر ضعفهم من هذه النّاحية حادث تلال صبح، فلا يمكن والحالة هذه الاعتماد عليهم في خطة الدّفاع، وعليه يجب الانتباه لأقل حركة من جهة العدو لدفع هؤلاء المحاربين إلى الهجوم فوراً.

وضاق مولود ذرعاً من محادثاتنا وفرغ صبره فجابهني صارخاً: ليس هذا الوقت وقت دوين تاريخنا ودرس نفسياتنا بل وقت الحرب والكفاح. وقت قتل العدو. أعطوني مدافع شنايدر الجبلية ورشّاشات فأريحكم من التُّرك. أنها وأيم الحق أقوال من غير أفعال. فأجبته بمثل حدته واغتبطت لهذا الجندي الباسل الذي لا يعد النّصر نصراً إلا إذا كتبه بدم جروحه. ثم عاد إلى مناقشتي ومنازلتي والشّريف ينظر إلينا مبتسماً.

وكان هذا الموقف لدى «فيصل» موقف عيد. لأن وجودي عنده وإن يكن أمراً لا أهمية له، قد أعاد إليه الشّجاعة والرّجاء. وهو من أولئك الرّجال السّريعي الإنقلاب من الشّجاعة والأمل إلى اليأس ووهن العزيمة، وكان الهم قد غيَّر من منظره ـ والهم نصف الهرم ـ فالنّاظر إليه يحسب سنه فوق الخمسين وهو لما يبلغ الواحد والثّلاثين ربيعاً، له عينان سوداوان فيهما شيء من القَبَل وقد التهبتا وتجعد وجهه لمام ذلك الموقف المضطرب. ومن طبعه أن لا يمعن في التفكير حتى لا يفقد سرعة العمل.

وكل إجهاد عقلي عنده كان نصباً فتتقلص ملامحه ويستولي عليه عذاب شديد، لقد كان عظيماً، شديد المراس، بهي الطّلعة تشع منه عظمة ملكية حقاً، وكان يشعر من نفسه بتلك العظمة فيخاطب النّاس ويخطب فيهم من غير ما إيماء ولا حركات. وكان يلتهب كالبارود ويخرج عن رزانته إذا غضب، إلا أن هذه الحدة كانت تضرب على سندان جسمه الضّعيف.

وكانت عذوبته وهزؤه بالمخاطر واستصغاره هذا الجسم الضّئيل الأنوف قد صيرته معبود خلصائه. لم يكن أحد يعتقد فيه الدّقة والعناية بأعماله.

ولكنه على مر الزّمن قد أظهر بأنه قدير على مقابلة الثّقة بالثّقة والشّك بالشّك. لقد كان ذكياً أكثر منه متفنناً. ومن خدمته في الجيش التُّركي اكتسب خبرة فنية عرف كيف يجني ثمارها.و إقامته مدة من الزّمن بجوار السّلطان عبد الحميد في استامبول عاصمة الشّرق في ذلك الوقت أكسبته كذلك خبرة دبلوماسية دقيقة ومعرفة بمشاكل الدّول الأوربية معرفة الرّجل الذكي الفؤاد، وكلما آنس من نفسه مقدرة لا يحجم عن تحقيق أحلامه التي ينشدها ويطلب الحياة لأجلها، ويخشى من أن تفنى هذه القوة الكامنة التي تصبو إلى ما يقرب من المستحيل وتموت عناءً ونصباً.

وقد حدثنا بعض أخصائه بأنه بينما كان يدافع عن شخصه في موقعة طويلة الأمد ويقوم على رأس رجاله يشجعهم بأقواله وأفعاله ويمرّ بهم واحداً واحداً هازئاً بالخطر، خانته قواه وأغمي عليه وكلل الزّبد شدقيه فحمل من وسط المعمعة. ومع ذلك يظهر لنا ـ وكما يمكننا أن نفهم ـ إن هناك نبياً إلى جانبنا ـ نبياً كان يجب أن نستره بحجاب حتى لا يبدو للعيان أكثر مما يجب. فتتجسم إذن فكرة الثّورة العربية وتأخذ شكل جهاد نبوي، لا نجسر أن نطمع بأكثر منه، وعلى كل حال، لا تستحقه حركاتنا المترددة. وكنت أكون بلغت الغاية التي من أجلها سافرت إلى الصّحراء.

وقد وجب عليَّ الآن أن أعود إلى القاهرة بأقرب الطّرق وأقدم «تقريري». والذي علمته هذا المساء تحت أدواح النّخيل العظيمة قد تغلغل في داخلي وشعرت بأني أسمع أصواتاً وألمح رؤى والشّفق يلقي ظلالاً، والظّلال تتحول إلى ليل هادئ والعبيد

يمرّون في ممرّات الحدائق الملتوية يحملون الفوانيس. فرافقت «فيصلاً» وتبعنا «مولود» إلى البيت الصّغير الذي يسكنه. وكان فناء الدّار مكتظاً بالنّاس ينتظرون قدوم الشّريف. فاخترقنا الازدحام ودخلنا غرفة صغيرة حارة حيث كان الأخصاء بانتظاره واجتمعنا حول أطباق الأرز واللحم السّاخنة وقد صففها الخدم على «السجادة» وتناولنا العشاء.

وبكرت في الغداة وحدي ومشيت نحو الجنود المعسكرة في جهة الخيف لأعرف شعورهم وأفهم آراءهم وقد جمعت عنهم في عشرة أيام من المعلومات ما يتعذر عليَّ جمعه في أسابيع بالملاحظة.

لقد كنت مطمئناً من حركات العرب، واقتنعت حتى قبل تعرفي بفيصل بأن فكرة الثّورة العربية وغايتها الحقيقية هي تقطيع أوصال الدّولة العثمانية. إلا أنهم في مصر كان ينقصهم الإيمان وثبات العقيدة لأن السّلف لم يصدقوهم القول عن العرب في القتال. فإذا تمكنت من وصف بعض خواص أولئك الأبطال الرُّحّل أبناء الجبال وما يختلج في أفئدتهم نحو المدن المقدسة أقنعت القاهرة بأن تقدم لهم المساعدة الفعلية النّافعة.

كان النّاس يستقبلونني بفرح وابتهاج، فوراء كل صخر، وتحت كل عليقة كانوا يتمدّدون كالسّلاحف الكسولة ويتفيأون تحت الأظلال الضّئيلة ويتمرغون على الحشيش لينتعشوا بما علق عليه من ندى الفجر. ولقد حسبوني في ثوبي الكاكي ضابطاً تركياً هجر الجيش وانضم إليهم. وكانوا يتقدون حماساً ويعتقدون بأن الحرب ستدوم عشر سنوات. وكانوا تحت لواء «فيصل» في بحبوحة لم يروها قط في حياتهم. إذ يطعمهم ويطعم عائلاتهم ويدفع لكل نفر دينارين استرليني وأربعة لكل جمل. ولم يكن قطّ غير الذّهب ليأتي بالمعجزات في الصّحراء ويحفظ ذلك الجيش المشكل من القبائل الرُّحّل مدة خمس سنوات متواصلة تحت السّلاح. وكان المتطوعون الحاليون يتبادلون إلى ما لا نهاية له، حسب شريعة الدّم. فالعائلة التي تملك بندقية يتناوبها الأولاد للخدمة. والمتزوجون يتناوبون بين المعسكر ونسائهم، وأحياناً ينفصل

طابور بأجمعه إلى الرّاحة بعد أن يكون قد أضناه الملل والسّأم. والثّمانية آلاف جندي عنـد الشّـريف فيصل تقدر بكل فارس على تسـعة مشـاة جمعت من قبائـل الجبال، لا يحاربـون إلا تحت إمرة شـيخ قبيلتهم... وإذا كانوا قريبين مـن مضاربهم أو أكواخهم فإنهم يقومون بذاتهم بإعالة نفوسهم والاهتمام بوسائل انتقالهم.

وقد خبت نار المنازعات بين العائلات ولو بالظّاهر، لكنها للحقيقة هدنة على دخن، فبلـيّ، وجهينـة وعتيبة، والعقيليون كانوا يحاربون جنباً إلـى جنب تحت لواء «فيصل» وعيـن الحذر ترقص بينهم أينما حلوا وارتحلوا حتى بين الأسـر في قلب القبيلة. ومن الصّعـب جداً إحلال الثّقـة بين تلك القبائل المختلفـة.. وكان كل محارب يكره التُّرك وينازلهم، إلا أن هذا الكره لا ينسيه حتى في وسط المعمعة العداوة المتأصلة بينه وبين أحد أفراد العائلة نفسها.

وعادة العربي الموروثة منذ الأزل للغزو قد صيرته جافاً عند تقسـيم السّـلب. وهو لا يتـردد في اقتلاع خطوط السّـكك الحديدية وسـلب القوافل مسـتقلاً بنفسـه لأنه لا يرضـخ للأمر ويأبـى الانقياد ويأنف الحرب منضماً إلى فرقتـه. والرّجل الذي تنحصر قوتـه بنفسـه مسـتقلة عـن كل عـون، لهي قـوة مغلوبـة لا محالـة، وأن هـؤلاء الجنود الذيـن يحاربون منفردين همه الفئة الرّديئة التي لا تؤلف هيئة بشـرية مسـتعدة للتمرين والنّظام العسـكري. إلا أنه ربما إذا سلّحناهم ببنادق متعدّدة الطّلقات من نوع «لويس» واسـتعملوها بأنفسـهم، يمكنهم أن يصمدوا للعدو على المرتفعـات. وقد وقع النّزال فـي الحجـاز على أرض صخريـة جبلية جرداء قام بـه رجال قبائل جبليـون جهّل ضد عدو جيد السّـلاح، حسـن التنظيم، كثير المؤن بفضل ألمانيا. إلّا أنَّ هذا العدو كان قد أضاع مزايا حرب المناوشـات مع الزّمن وتعود النّظام. وكان لدى رجال الصّحراء من المرتفعـات التي تحيق بالعدو مجال واسـع عجيب فيباغتونه في ظـلام الليل ويرمونه بالرّصـاص منفرديـن متفرقيـن. ولـم يكن لـدى العدو غيـر الأودية وأغوارهـا التي لا تحصى، ومضايقها التي تسـتدق إلى اتساع مئتي متر، والصّخور الشّاهقة تضغط عليها من الجانبين. ولا يبعد أن تضيق هذه الفرجة إلى عشرين متراً مع ما فيها من المنحنيات

والمعابر الخفية. ترتفع فوقها أعراف من الصّوات والمرمر والبورفير مسننة كالحراب على ارتفاع أربعة آلاف قدم. أسـوار طبيعية لا رحمة لها، يرتد عنها الطّرف ويعز عليها الملجـأ. وإذا ظهـر في تلك الأعراف بعض المنفرجات النّـادرة فما هي إلا منحدرات لصخور هائلة تنجرف إلى القاع صلبة كالفولاذ مسنونة كلها ذم الرّماح.

وبمـا أننـي لم أكن متعوداً تقدير مثل هذه الأماكن المهلكة أيقنت أنه من المحال أن يتمكن الأتراك من شق طريق في هذا الوعر إلا بخيانة إحدى القبائل الجبلية. إنما الذي كان يقلق بالي هو عدم وقوف العرب تجاه المدفعية التُّركية لأنهم كانوا يتشتتون لأول قنبلـة تنفجـر ويتوارون عـن الأبصار ويعتقدون بأن الجيش الأشـد تدميـراً هو الجيش الأكثر قعقعة وضجيجاً، ولم يكن الموت ليخيفهم إنما فكرة انفجار القنابل «المنشاريّة» Shrapnel كانـت تضعضـع أفكارهـم. وكان رأيـي أن نداوي الـدّاء بالدّاء فنسـلحهم بالمدفع.. إذ كان الكبير فيهم والصّغير من «فيصل» إلى الجندي البسـيط يرددون دون انقطاع (مدفعية.. مدفعية) ومنذ وصولي إلى هنا شـعرت بارتياح شـديد لاتساع نطاق العصبيان. فإن هذه المقاطعة الصّغيرة القليلة السّـكان قد تحولت إلى انتقاض حقيقي ضد تركية بعد أن كانت نوعاً من السّطو على القوافل.

ولم يكن العرب بالطّبع يحاربون على نهجنا، إنما كانوا يتفانون في محاربة أعدائهم الشّركاء في الدّين، والذين أوشكوا أن يثيروا العالم الإسلامي في جميع أنحاء الأرض ضدنا باسم الجهاد للحرب المقدسة.

وكانت القبائل الدّاخلة في منطقة الحرب تبدي حماساً محموماً لا مثيل له.

حماسـاً ـ في رأيي ـ معقولاً عند ثوران الشّـعوب. إلا أنـه مغلق غريب على الرّجل الحديث العهد بجزيرة العرب والذي ينتمي إلى بلاد عريقة في الانعتاق والتحرير، يرى أن حرية الشّـعب أمر عادي لا غرابة فيه. ولمـا التقيت بفيصل ثانية بعد برهة من الزّمن وعدته أن أنظر في أمره بكل اهتمام، فرؤسـائي يؤسسـون قاعدة في ينبُع فتحجز المؤن والذّخائـر لغرضه الخاص. ويقدم له خبراء فنيون ممن أسـرناهم في ما بين النّهرين أو على قناة السّـويس، وتجهز مدافع ورشّاشات تحت إمرة ضباط خبراء وجنود عاطلين

لا عمل لهم في المعسكرات، نسلحهم بمدافع جبلية ورشّاشات خفيفة من الطّراز الموجود بيد جنودنا في مصر. وأخيراً، أشير بأن يتصل بأركان حربه بعض ضباط بريطانيين فنيين نظاميين ليكونوا مستشارين وضباط ارتباط في مجلسه الاستشاري.

وقد تحادثنا هذه المرة بغاية من الظّرف والإيناس، وشكرني «فيصل» بحماس وطلب مني أن أعود إليه بأسرع ما يمكن فأفهمته بأن عملي في القاهرة ينفي كل عمل آخر. ولكني أرجو أن يسمح لي رؤسائي بأن أزوره مرة أخرى بعد أن يكونوا قد لبوا طلبه وقدموا له احتياجه وتكون الحوادث قد تحولت تحولاً حسناً، وطلبت إليه أن يسهل لي العودة إلى السّاحل لأتمكن من السّفر إلى مصر.

فسلم إليَّ حرساً شريفياً من أبناء المقاطعة التي سأمر بها إلى ينبُع... فمررت ببلاد مأهولة تخترقها أودية خضر مروية تختلف كل الاختلاف عن المرتفعات الجرد من حولها. أما ينبُع فهي مجموعة بنايات من نوع جدة، وجدت فيها ضيافة حقة... فقدم إليَّ الحاكم - وهو جاوي من مكة - غذاءً ومحل إقامة لعدة أيام إلى أن مرت الباخرة «سوڤا» بقيادة الكابتن «بويل» فتكرم هذا الكابتن وسمح لي بمكان على ظهر الباخرة.

قلت تكرم وسمح لي لأني كنت رث الثّياب غير مقبول لطول تطوافي في الصّحراء.. وكنت لا أزال لابساً الكوفية والعقال على رأسي. وكانت ملابس الوطنيين العرب في نظر البحرية الملكية غير مقبولة. وكان من الواجب أن يكون «بويل» مثلاً أعلى لرجاله وهو أقدم ضابط بحري في البحر الأحمر، لكنه كان ملازماً أبداً ظهر السّفينة جالساً في الظّل غارقاً في قراءة أمريكان كونستيتوشيون «الدّستور الأمريكي» «لبرايس» فلم يكن له متسع من الوقت ليتحدث معي أكثر من أربعة عشر كلمة في اليوم.

ولما وصلت إلى جدة كانت الباخرة «أوريالوس» *Euryalus* بقيادة الأميرال «ويميس» Sir Rosslyn *Wemyss* على أهبة السّفر إلى بورسودان ومنها يسافر الأميرال إلى الخرطوم ليزور السّير «ريغينالد وينغايت». وبما أن السّير «ريغينالد» بصفته سردار الجيش المصري قد عين حديثاً قائداً للقوات البريطانية التي تسند العصيان العربي، رأيت أن أبدي له تقديري لهذا العصيان، وعليه طلبت من الأميرال مكاناً في مركبه

وفي قطاره الذي يوصله إلى الخرطوم فقبل طلبي بعد أن أمطرني وابلاً من الأسئلة.

ولاحظت أنه لشدة ذكائه، ولاتساع مداركه، وعقله دائم التفكير قد ا هتم من أوله لحظة بالثّورة العربية، وكم من مرة كان يتوقف بمركبه على الشّواطئ العربية ليقدم للعرب مساعدة ما في بعض مواقفهم الحرجة. وطالما كان يقوى العصاة ويدفع عنهم غائلة كان من واجب الجيش أن يدفعها عنهم بنفسه. وقد قدم للعرب مدافع ورشّاشات ومساعدين فنيين ووسائل نقل. وقد قدم للعرب مدافع ورشّاشات ومساعدين فنيين ووسائل نقل. وبالاختصار كان يعضدهم معاضدة لا حدَّ لها، بل كانت أمنيته الحقيقية بأن يصغي إلى مطالبهم من أفواههم وأن يقدمها لهم بسخاء.

ولما بلغت الخرطوم وجدت أنها بلد طيبة الهواء بجانب حرّ جزيرة العرب اللافح. وشعرت بالانتعاش والقدرة على تقديم تقريري إلى السّردار السّير «ريغينالد وينغايت» مبيناً له أن الحالة في صحراء العرب تبعث على الأمل الكبير وأنه يجب إرسال نجدة من الفنيين للثّوار في الحال، وأن الغزوة تتسع وتنتشر بنجاح، وإذا ألحقوا بالرّؤساء الوطنيين بعضاً من ضباط الجيش البريطاني بصفة مدربين ومستشارين، ويكون أولئك الضّباط من المدربين جيداً والذين يتكلمون اللغة العربية، وأن بقى على اتصال دائم بهم.

فسر وينغايت لسماع هذا التقرير المملوء تفاؤلاً. لأنَّ الثّورة العربية كانت جل أحلامه منذ سنين، وبعد أن قضيت ثلاثة أيام في الخرطوم قفلت راجعاً إلى القاهرة مطمئناً لاقتناع الرّئيس المسؤول. وقد أصبح سفري في النّيل من أعزَّ أمانيَّ.

* * *



السّير هنري مَكماهون

المندوب السّامي في مصر

الفصل الرّابع
مصاعب حول ينبُع

وبعد وصولي إلى القاهرة ببضعة أيام دعاني رئيسي الجنرال «كلايتون» إليه وكلّفني بالعودة إلى جزيرة العرب لأكون إلى جانب «فيصل». ولكنني كنت أشعر بنفور من هذا الانتقال. وعارضت بكل قواي هذا الانتداب وأظهرت جسامة المسؤولية التي لا يمكن أن أتحملها. ولا بدّ لمستشار إذا انتدب لمهمّة وأراد أن يقوم بعبئها بإخلاص وأمانة أن يحمل شيئاً من مسؤوليتها، وأضفت بأن الحقائق الملموسة كانت دائماً تجلب لي السّرور أكثر من الأشخاص. والأفكار الجلية ترضيني أكثر من المادة، وعليه فالمقدرة على النّجاح مع الرّجال لهو أمر شاق جداً، ولو أنه في الإمكان التسلط عليهم ودفعهم إلى المشاريع العظيمة...

وأني أبعد ما يكون عن الرّوح الحربي وأكره المهنة العسكرية ومع ذلك... ألم يبرق السّردار إلى «لندن» يطلب الموافقة على إرسال بعض ضباط من الجيش المنظم ليقودوا الحركات الحربية في جزيرة العرب؟ فأجابني كلايتون بأن هذه النّجدة لا تصل قبل شهور، ومن الضّروري أن نكون على اتصال دائم بفيصل، ويجب أن تكون القيادة العليا في القاهرة على علم تام دقيق بما يحتاج إليه.. وانتهت المقابلة بأن أذعنت للأمر وتركت لغيري العناية بمتابعة تدوين النّشرة العربية التي أسستها، وإخراج الخرائط التي كنت أرغب في نشرها، وإيضاح الخطط التي تختص بحركات الجيش التُّركي وسلمت جميع الأعمال التي كانت تتعلق بي. وهكذا تركت العمل الموافق لرغبتي واستعدادي لألعب دوراً لم يكن لي أقل ميل إليه.

لقد كللت جهود العصيان بالنّجاح وامتداح الرّجال المتتبعون الحوادث عن بعد، حسن الإرادة والتدبير، لكنَّ عيوباً كثيرة كانت محجوبة وراء السّتار نتيجة تدخل شخص غريب عن السّلك العسكري، ونتيجة قرارات موحى بها من الأمس كان ينقصها حسن الاتساق فلا تلبث أن تقع أحياناً كثيرة في وحلة الخلط الغريب.

لقد وجب عليَّ أن أصل إلى ينبُع قبل أي مكان آخر، وقد أصبحت قاعدة جيش «فيصل». وعندما تركت هذا المرفأ لمقابلة الشّريف علمت أن الأتراك قد دحروا لأن كشافة من الفرسان وفرقة من الهجّانة كانتا قد توغلتا في المناطق الجبلية وباغتتا العدو وشتتتاه شر تشتيت. فكان سفري إذن من سوانح الفرص ومحاسن القدر يرافقني الشّريف «عبد الكريم» المكلف بحراستي، ويصحبنا خمسة رجال على أتم حال. وأسرعنا جداً بفضل «عبد الكريم» الفارس المغوار الذي لا مثيل له، والذي كان يخطف المراحل دون توقف، وكان الهواء عليلاً والسّحاب يحجب السّماء والمطايا لم تكن ملكاً لي! فلم أعارض في هذا الجري الغريب الذي كان ثلاث مرات أسرع من السّير المعتاد! فقد ابتدأنا بالرّكض خبباً مدة ثلاث ساعات من غير انقطاع، فمخضت أمعاؤنا مخضاً وطالبتنا بالغذاء، فتوقفت القافلة إلى غروب الشّمس، وأكلنا خبزاً وشربنا قهوة بينما «عبد الكريم» يمازح أحد رجاله ويصارعه حتى اكتفى من المجالدة فجلس. وأخذ كل منا يقص قصته. ولما استراح رفاقنا من عناء السّير السّريع نهضوا وأخذوا يرقصون فلم يكن هناك ظل من الكلفة. بل كان الابتهاج شاملاً. وتابعنا السّفر مسرعين إسراعاً جنونياً أفضى بنا بعد ساعة وعند هبوط الليل إلى سفح سلسلة صغيرة من الجبال. ولكي نجتازها تصعدنا في واد ضيق ملتو عقيقه رملي ملبد لرية مطر حديثة العهد فكانت تسير عليه مطايانا بغير عناء.

إلا أن الصّعود كان صعباً، فسرنا الهوينى كأننا في نزهة مما سرني وأراحني وأثار غضب «عبد الكريم»، حتى إذا ما بلغنا القمّة وباشرنا في الانحدار أرخى رفيقي العنان لمطيته إلى أقصى حد من السّرعة رغماً من حلك الليل، ولحسن حظنا كنا نسير على أرض لينة رملة قليلة الحصى، إلى أن انبسطت الأرض أمامنا بعد سير نصف ساعة

وبلغنا حدائق «نحل مبارك» أعظم نخيل في قبيلة جهينة الجنوبية. وما كدنا نقترب منه حتى لمحنا اللهب يترجرج بين أشجار النّخيل الباسقة وسدوف الرّجال تطوف حول النّار.

وسمعنا من فوق المرتفعات القريبة صدى هدير ألوف من الجمال الهائجة وقصف طلقات نارية وأصوات الذين أضاعوا رفاقهم في هذا الخلاط الغريب. ولقد كانوا أنذرونا في ينبُع بأن «نخل» قد أخليت، فما معنى هذه الجلبة إذن؟ إنه لأمر غريب في ذاته.. فسرنا حذرين، وعبرنا أول حديقة بهدوء وصمت وتسللنا طريقاً ضيقاً مطبقاً بعلو قامة الرّجل وعلى جانبيه جدران من اللَّبن، حتى وصلنا إلى مجموع من البيوت كان يظهر عليها أنها مهجورة. فدفع «عبد الكريم» باب أول بيت عن شمالنا فأدخلنا جمالنا وحجزناها بعوارض وأنخناها حتى لا ترى من الخارج، وحشى بندقيته برصاصة وتوارى عنا ليرى جلية الأمر فانتظرناه بصمت وبغير حراك فجف العرق تحت ثيابنا وشعرنا بقشعريرة الليل البارد ومرت نصف ساعة كأنها الدّهر. وأقبل «عبد الكريم» وأخبرنا بوصول «فيصل» وفرقة الهجّانة ومن الواجب اللحاق به، فأخرجنا الجمال وتبعنا طريقاً محاذياً عن يمين البيوت ومكشوفاً من الشّمال على منحدر غابة من النّخيل. ولما بلغنا آخر البستان وقفنا على جماعة كبيرة من العرب والجمال يهدرون ويتقلبون بعضهم على بعض ويختلطون حيوانات وآدميين كيفما جاءت المصادفات فعانينا كثيراً حتى خلصت لنا الطّريق. وإذا بنا في منكشف فسيح من الأرض لم يكن سوى قاع وادي ينبُع. وقدرنا هذا الاتساع بما رأيناه من نار المعسكرات على طول كتفي الوادي، وكانت الأرض وحلة رطبة من جرَّاء فيضان حديث العهد، فكانت الجمال تخطو بحرص وتنزلق أخفافها على ذلك التراب اللزج فلم نُعر لذلك أهمية. وقد حوَّلنا اهتمامنا إلى جيوش فيصل المنتشرة في الوادي وإلى مئات المواقعد التي يذكيها وقيد العلّيق والهشيم فتضيء العرب وهم من حولها يشربون القهوة أو يأكلون أو يلتفون ببرانسهم ويستريحون من العناء وهم بين المطايا لا حراك لهم.

ولا يلبث هذا الخليط من النّاس والبهائم المعقولة الرّسغ على السّاق حتى يموج

ويتحـرّك لكل قافلة جديدة تنخرط فيه كأنه نهـر مُزبد تصبّ فيه الجداول دون انقطاع. فتنهـض الإبـل المعقولة علـى قوائمها الثّلاثـة وتسـتقبل القادمين وتناشـدهم العلف العلف!! فضلاً عن العســس السّـيار والأحمال الملقاة على الأرض دون نظام ـ وثالثة الأثافـي ـ البغـال المصريـة التي تمعـن في التّمـرّغ فتزيد هـذا الجمع الخليـط تموجاً وضجيجاً.

فتقدمنـا بمشـقة وسـط هذا الزّحـام الميّاد وبلغنا جزيـرة ناتئة في نفس القاع حيث التقينا بالشّـريف فيصل جالسـاً على سـجادة مفروشـة على الحصى وهو بين ابن عمه الشّرتف «شـرف» قائمقام «الإمارة والطّائف» وبين الشّيخ «مولود» الوطني الموصلي الذي يشـغل وظيفة ياور. وأمام الشّـريف سـكرتير يكتب أمراً وهو راكع، وعلى بضع خطـوات رجـل آخر يقرأ تقارير علـى نور مصباح فضّي يحمله عبـد. وكان الليل هادئاً والجو باهظاً لا تهب عليه نسمة ولا يتحرّك لهب المسرجة الطّويل المستقيم.

وجدت «فيصلاً» هادئاً كما أعهده فتلقاني بابتسامة وهو ينهي تعليماته. ثم اعتذر لي عن هذا الخلاط الغريب وأخرج عبيده السّـود مع عصابة الفضوليين المتسـكعين قريباً منه. ونشـط جمل من عقاله وجن جنونه في الفضاء الفسـيح أمامنا ثم دار دورته حولنا هائجـاً يصم هديره آذاننا فأسـرع «مولود» وتعلق بعنقـه ليذلـله ويقوده، إلا أن الحيوان أذلَّ الرّجلَ ورفعه في الفضاء وتقطَّعت حبال حمله وتناثر الحشيش عن ظهره كالزّوبعة فطمرنـا جميعاً: «أنا وشـرف» الصّمـوت والفانوس ونوره فقال فيصـل برزانة: الحمد لله! ليتها كانت زوبعة سمن أو زوبعة ذهب، ثم أخذ يشرح لي الحوادث الفجائية التي ظهرت على جبهة جيشه مدة الأربع والعشرين ساعة الأخيرة.

وسلك الأتراك طريقاً معوجاً وانزلقوا بين التلال في «وادي صفرا» ما وراء صفوف مقدمة العرب وسدوا عليهم منافذ الارتداد. فاستولى الذعر على رجال القبائل وتواروا كارتداد الطّرف في الأعقّة العميقة، وتراجعوا إلى الوراء جماعات ثلاثة ثلاثة، فاندفعوا فرسـان الأتراك دفعة واحدة إلـى الوادي الذي تركه العرب وهبطـوا من معبر «دفران» علـى «بئر سـعبد» حيث يعسـكر «زيد» أخـو «فيصل» الأصغـر فبوغت هذا الشّـريف

الصّغير فارتد بمفرزته. وارتدى الهاربون ظلمة الليل وانفصلوا عصابات مدبرين إلى جهة ينبُع. وهكذا أصبح طريق هذه المدينة مفتوحاً للترك. وقد وصل فيصل منذ ساعة فقط مع خمسة آلاف رجل ليصمد للعدو أمام قاعدته الحربية حتى يتمكن من تنظيم خط دفاع آخر. وكان الموقف حرجاً دقيقاً، إلا أن وجود «فيصل» في «نخل» جذب العدو إلى هذه الجهة وربما قد أغراه جيش الشّريف لمنازلته مكشوفاً فيتناوشان عدة أيام نكون في غضونها قد حصّنا ينبُع.

ولم تفسد هذه الحوادث على «فيصل» سكونه وحسن طبعه. فجلست إلى جانبه مجتهداً في أن أطلع على سير الحوادث وأسمع مطالب النّاس وشكاياتهم التي كان يعالجها قدر المستطاع، وانتهت المداولة السّاعة الرّابعة والنّصف صباحاً! وسقط الصّقيع ونشّت الرّطوبة داخل السّجادة وغزت ثيابنا. ومدّ السّكون رواقه على المعسكر واستولى الرّقاد على الرّجال والبهائم المنهوكة القوى فاكتنفهم ضباب كثيف كالحليب. وخمدت النّار وانطفأ بصيصها وتصاعدت أعمدة الدّخان الدّقيقة واضمحلّت في السّحاب.

*ولما أنهى «فيصل» أعماله المستعجلة قاسمني عشاءه البسيط، وهو ست تمرات!.. وأنه لغذاء ناقص جداً في مثل هذا البرد الذي يكاد يهرأنا!! وتزملنا كل بعباءته وتمدّدنا على السّجادة النّدية. وبينما كنت ساجياً مسجوراً في كفني البليل رأيت الحراس «بني بياشة» ينسلون حتى بلغوا «فيصل». ولما تحققوا من رقاده ألقوا عليه مشالحهم بهدوء، ولم تمر ساعة على رقادنا حتى قرصنا البرد وقلص أعضاءنا فنهضنا. وقد ظهر ما يشبه الفجر. وأوقد العبيد حطب النّخيل لتدفئتنا وأخذت بمساعدة «شرف» أفتش عن شيء أقتات به. ونحن كذلك وإذا بسعاة قد قدموا من جهات مختلفة وأشاعوا بيننا قرب هجوم العدو. فاستولى الذعر على المعسكر وأمر «فيصل» بالرّحيل في الحال. وكان لهذا القرار الفجائي سببان معقولان: لأنَّ جيوشه، إذا سقط المطر غزيراً على الجبال، لا تتمكن من الثّبات في أماكنها. ثم أنَّ الانتقال والسّير في الطّريق يخفف من قلقهم ويلهيهم عن هذه الإشاعات! وما كاد يدوي

صوت الطّبل حتى كانت الأحمال على الجمال. ولدويّ ثان قفز كل على سرج مطيته وامتدوا صفين متقابلين بينما فرجة واسعة. وتقدمهما «فيصل» يتبختر على ظهر فرسه، يتبعه «شرف» ثم حامل العلم ـ عليّ ـ المثال الجميل لأجناس نجد المرتفعة قليلاً عن الأهماج، له وجه كالصّقر منخرط بين ذوائب تتساقط عن صدغيه سود كحلك الليل. وثياب حمر قانية تتموج وهو على سرج قلوصه العالية الجميلة. ومن ورائه جموع من الأشراف والمشايخ والعبيد، وأنا الغريب الضّائع في هذا الخلاط الغريب. وكان عددنا في ذلك الصّباح ثمانمئة رجل منهم الأتباع وحرس القائد الخاص. وقضيت اليومين التاليين برفقة «فيصل» تمكنت فيهما من درس طريقة قيادته بتعمق وإمعان في هذا الوقت المغزى ولدى رجال متشائمين وهنت عزيمتهم أمام الأقاويل التي تلقوها هذا الصّباح ولدى انفضاض قبائل الشّمال، إلا أن فيصلاً كان يهتم بتشجيعهم فينجح في مهمته إذ يدعوهم إلى الاقتراب منه.

وكان المتوسلون الملحفون يرودون حول باب خيمة الشّريف لعله يتنبه لهم. فكانوا دائماً يبلغون أمنيتهم بمقابلته، فيصغي بصبر إلى أحاديثهم وينظر في شكاياتهم، حتى أنه كان يسمع لفرق بكاملها يشكون إليه ظلامتهم بقصائد منظومة كنا في الليل نسمعهم يترنمون بها. ويصبر عليهم صبر الجمال. إلا أنّه لم يكن ينهي كل هذه المشاكل بنفسه بل كان «شرف وفايز» يقومان بهذه الأعباء، وكان لي هذا الجلد العجيب درساً ثميناً علّمني معنى السّلطة الوطنية العليا في جزيرة العرب.

كان الشّريف مالكاً نفسه، ولما قدم مرزوق التهامي من قبل زيد، وكان مرزوق هذا من رفاق الشّريف الصّغير الأخصاء ـ كي يقص على «فيصل» قصّة انكسارهم الشّنيع، سخر منه علانية وأخرجه خارجاً لكي يستقبل مشايخ حرب وعقيل الذين كانوا سبب النّكبة من جراء إهمالهم. وأخذ يسخر منهم بتؤدة وينقد بهزء كثيراً من خططهم ويجسم لهم دون إظهار مرارة وحقد ما للنّكبة من النّتائج السّيئة لتهاونهم وعدم تبصرهم بالأمور. ثم دعا مرزوقاً وسدل السّتار على باب خيمته كأنه سيعالج أمراً عسيراً... فوجمت وتذكرت معنى كلمة «فيصل» في اللغة العربية وهو السّيف

القاطع الذي يفري الهام ويورد الموت الزّؤام. إلّا أنّه لم يكن شيء مما توهمته بل دعا «مرزوقاً» ليجلسه إلى جانبه على السّجادة ثم قال له: قل لي يا مرزوق بإسهاب عن لياليكم وعن معجزاتكم في القتال. روّح عنا قليلاً!!..

وكان كلام «فيصل» موسيقياً رناناً يلعب بقلوب الرّجال فيكلم كل قبيلة بلهجتها، إلّا أنّه كان في بعض الأحايين يتردد ويتوقف عن الكلام باحثاً عن ألفاظ قد سها عنها، ولم يعد فكره يسبق كلامه فكانت أحاديثه متقطعة ساذجة إلا أنها مخلصة بريئة تشف عن فكر نيّر وشخصية شريفة.

وكان أيامنا تنقضي على وتيرة واحدة، فمنذ بزوغ الفجر يرسل إمام الجيش نداءه العجيب.. حيَّ على الصّلاة. فنفيق على صوته الأَشَّج القوي. ويستقبله النّاس منهم بالدّعاء والصّلاة ومنهم بالحنق. وعندما ينتهي الأذان يدنو مؤذّن الشّريف الخاص من الخيمة ويعيد الأذان بصوت شجي هادئ.. ثم يأتي العبد الخاص بالقهوة الحلوة. إذ القهوة بالسّكر عند الفجر نافعة للصّحة!! ويرفع بعد ساعة ستر باب الخيمة فيدخل الأربعة أو الخمسة الأخصاء دون استئذان ويطلعونه على أخبار الصّباح، ثم يقدم الفطور المعتاد وهو بعض تمرات على طبق، وبعض الأحيان يقدم لنا «هجرس» رئيس العبيد أنواعاً من الكعك والملّة صنع يديه. ويمرُّ الوقت بين شرب القهوة (السادة المرَّة) والشّاي بالسّكر، وفيصل يملي مراسلاته على كاتميْ الأسرار بينهما فايز ذو الميل إلى المجازفة، والإمام ذو الوجه المقطب الذي يتبينه الجيش من مظلته الشّاسعة المعلقة دائماً أبداً بحنوِ سرج هجينه. ومن الممكن أن يقابل الشّريف بعض الأشخاص في مثل هذه السّاعة.

أما في الليل فإن هذه الخيمة تتحول إلى غرفة نوم لا يدخلها أحد. وهي من الخيام البسيطة ذات الشّكل القمعي المقلوب يجد فيها المرء لفافات تبغ وسريراً ناقلاً وغطاءً كردياً جميلاً وسجادة شيرازية بسيطة، وسجادة أخرى للصّلاة قديمة نفيسة جداً صنع «بلوشستان» يؤدّي الشّريف العبادة عليها.

وعند السّاعة الثّامنة يتقلد «فيصل» خنجر التشريفات في زناره ويدخل خيمة

المقابلات، فيأخذ محله في صدر المجلس إزاء باب الدّخول ونقف نحن على شكل دائرة محازاة قماش الخيمة. ويقف العبيد قرب الباب ليمنعوا الفضوليين والمتوسلين الجالسين القرفصاء خارج الخيمة على الرّمل بانتظار دور مقابلتهم، وكان الشّريف يجتهد بأن يفض الاجتماع عند الظّهيرة ويستريح. ويجتمع بعدئذٍ أخصاؤه، ومنهم أنا، وبعض القادمين عرضاً في خيمة «الصالون» ويأتي «هجرس» و«سالم» بأطباق الأكل من «حواضر اليوم» فيأكل «فيصل» قليلاً لولعه الشّديد بالتدخين إلّا أنَّه يتظاهر بالأكل من جميع الألوان كالفول، والعدس، والأسفيناخ، والأرز، والفطير، بأصابعه أو بالملعقة إلى أن يقدّر بأن المدعوين قد شبعوا، فيختفي الطّبق في الحال لأول إشارة من يده فننهض أمام الباب ويصب العبيد الماء على أيدينا...

ومن العرب الجشعين ـ محمّد بن شفيع ـ الذي كان يبدي شكواه من الشّريف بظرف ولطف لسرعته في الأكل والنّهوض بينما هو لا يزال لعابه يسيل. ويقول مازحاً: هأنذا سأعود إلى خيمتي وأعيد الكرة على وجبة أخرى، ونتحادث بعد الغذاء ونشرب فنجانين من القهوة ثم كوبين من الشّاي الأخضر المركز كالشّراب إلى أن تقفل الخيمة السّاعة الثّانية بعد الظّهر. ثم يعود الشّريف إلى خيمة الاستقبال: فيستقبل زائريه إلى أن يخرجوا من عنده راضين مقتنعين. ولم أر قط من خرج من بين يديه كسير الخاطر، كاسف البال. وهذا ثناء حق أسطره على ذكر الشّريف. ولا أذكر مرة قط في أي ظرف ما أتى رأيته نسي حادثاً أو تردد في ضبط نسب من الأنساب. وإذا سنحت له فرصة بعد المقابلة يتنزه مع أخصائه. وبين السّاعة الثّالثة والسّابعة يقدم العبيد العشاء لجميع الموجودين لدى الشّريف.

وهكذا كان ينقضي النّهار على بعض أكواب من الشّاي يقدمها لنا العبد الحافي خلسة من وقت إلى آخر، ولم يكن يرقد فيصل إلا في ساعة متأخرة من الليل، ولا يظهر قط أقل رغبة في انصرافنا، بل كان يجب أن يرتاح راحة تامة من عناء النّهار، ويجتهد أن يتجنب أيّ عمل ما. ويلعب الشّطرنج قليلاً رغماً من أنه لاعبٌ من الطّراز الأول. وكان يقصّ علينا ـ وأعتقد أنه يفعل ذلك لأجلي أنا ـ مشاهداته في سوريا، ولم

يكن يجانب معلوماته عن تاريخ تركية السّري وعن المسائل العائلية، وبهذه الواسطة فهمت أشياء كثيرة من أمور النّاس وأحوال الأحزاب في الحجاز.

فاجأني «فيصل» مرة وسألني، إذا كنت أرغب في لباس الحجازيين مثله مدة إقامتي في المعسكر. وأردف قائلاً: إني أرى في ذلك فوائد جمة نظراً لأحوال البلاد وطرق الحياة ولأنه من المقدور علينا أن نعيش فيها مدة غير معينة. وفوق ذلك يفهم رجال القبائل عندئذٍ كيف يتعاملون معي.

وللحقيقة كان أول من لبس الكاكي - على زعمهم - هم الضّباط التُّرك فكانوا يجانبونهم بميلهم الغريزي. فلألبسنَّ القفطان الوطني ولأقودّنهم كأني رئيس من رؤساء البلاد فأتمكن من الدّخول والخروج على خيمة «فيصل» دون أنْ ألقي الرّيبة في الزّائرين الغرباء، وأكفى الشّريف تسكين الهواجس ونفي الشّبهات، فقبلت العرض دون أقل تردد، وسر «هجرس» كذلك لهذه الموافقة، وأعمل فكرته في تجهيز ثوب أبيض من ثياب الأعراس الحريرية المطرزة بالذّهب التي أرسلتها مؤخراً عمة فيصل الكبرى في مكة.

أكانت هذه التجربة نوعاً من التورية المغلقة!؟ خرجت إلى غابة النّخيل أتمشى قليلاً لأتعود هذا الثّوب الفضفاض. ونظراً لوقوف الجيشين الآن ألواحد إزاء الآخر، فقد أصبح التوقف في «نخل مبروك» عقيماً، واعتقدت بأنه من الأوفق أن أعود إلى ينبُع في الحال لأتمكّن من درس الحالة عن كثب وأنظر في وسائل الدّفاع عن هذا المرفأ براً وبحراً. وقد وعدتنا القوات البحرية بأن تقدم لنا كل مساعدة.

وقرّرت أن أستشير زيداً ونتعاون على قدر المستطاع للمنفعة العامة فأهداني «فيصل» قلوصاً شهباء حالكة القوائم لا نظير لها. وسرنا في طريق وادي «مساريح» بين تلال «هجيدة» مجانبين الطّريق المستقيم متجنبين الكشافة التُّركية. ورافقني «بدر بن شفيع» فبلغنا ينبُع بمرحلة واحدة قبل طلوع الشّمس بعد مسير ست ساعات.

وأنهكني التّعب إذ قضيت هذه الأيام الثّلاثة بالتفكير والحركة والنّوم القليل، فسرت

تـواً إلـى بيت «غارلاند» المهجـورة وقد تركه صاحبه واسـتقل ظهر سـفينة في الميناء ونمت على أريكة، ولـم ألبث أن دعوني لمقابلة «زيد» الشّـريف الصّغير، فهرولت إلى السّور لأرى مرور الجيوش التي اندحرت حديثاً. وقدرت هذا الجيش العامل بثمانمئة رجـل. وكان سـائراً صامتاً غيـر مبال بعار الهزيمة، حتى أن زيداً نفسـه لم يتأثر من هذه الصّدمة.

ولمـا دخل المدينة التفـت إلى عبد القادر حاكم الموقـع الرّاكب على حصانه ورآه وصـرخ قائـلاً: «إنّ مدينتكم خربة، وسـأكلم أبي بالتليفون ليرسـل إليكـم أربعين بناءً ليجددوا المباني العامة». وسبق فعله قوله!...

أمـا أنـا فقد أبرقـت إلى الكابتن «يونـغ» بأن «ينبُع» مهـددة حقاً. فأجابنـي حالاً بأن أسطوله يصل في ميعاده. رؤيا لذيذة وأمل يسكن الرّوع.

وتوالـت الأخبـار الرّديئة في الصّبـاح عن حالة البـلاد الدّاخلية وقد اشـتبك التُّرك بالعصابـات التي نظمهـا «فيصل» عندما هاجمـوا بقوة متفوقة «نخـل مبارك» من جهة «بئر سعيد» وكانت لـم تزل تلك العصابات مترددة متقلقلة فلم تقو على الثّبات. فتراجع فيصـل وصوب انسـحابه إلى جهتنا. فخيل إليَّ بأن السّـتار سيرفع عـن آخر فصل من مأساة العرب. فصعدت إلى أحد المرامي فوق باب المدينة وبيدي آلة تصوير «كوداك» (ويظهـر أنّ لسـور ينبُع أبواباً بأسـماء مختلفـة) والتقطتُ صورة جميلـة للأخوين عند دخولهما المدينة. وكان «عبد الله» يقود ما يقرب من ألفي رجل وما من أحد قط يرافقه مـن قبيلـة جهينـة. وهذا يدل ظاهريـاً على أن في الأمـر خيانة وخللاً بينـاً وبين القبائل الرُّحّـل، أو تخمينات لا يمكن أن تكون غير معقولة! فأسـرعت إلى فيصل فقص عليَّ الخبـر كما جرى.. وهـو أن التُّرك قد زحفوا بثلاث قوات، يمتطي عدد كبير منهم بغالاً وهجناً فاجتازوا وادي ينبُع لأول هجمة واسـتولوا على الغابة الصّغيرة التي إلى الوراء فأصبحت مهدّدة بقطع مواصلاتها عن ينبُع.

وكانـت مدافعهم السّـبعة القوية تلقي من حيـن إلى آخر قنابلها بغـزارة (على نخل مبارك) فلم تأخذ فيصل الرّهبة، بل حافظ على رباطة جأشه.

وأرسل جهينة ـ ميسرة جيشه ـ لتصد الهجمة في الوادي الكبير. محتفظاً ـ بنخل ـ مركز القلب والميمنة والمدفعية المصرية، يقطع على التُّرك طريق ينبُع. ثم أمر بعد ذلك بإطلاق النّار من مدفعية عيار 15!!..

وقد استعمل «راسم» السّوري في المدفعية التُّركية سابقاً هذا السّلاح الضّئيل بكل مهارة وطنطنة. ورد على مدفعية الأتراك بحماس وبراعة رغماً من أن المدفعين كانا من السّلاح الذي لا قيمة له إلا عند العرب البسطاء كما كانوا يقولون على ضفاف النّيل ـ ولم تكن لديه آلات الضّبط ولا مقاييس الإبعاد والمرمى. وكانت تنقصه القنابل المتفجرة، والبعد بينه وبين العدو ستة آلاف متر، بينما كانت قذائف المنثار «شرابنل» هذه تفعل فعلها الحسن في حرب البوير. وكانت أملاح البارود تنش على ظهر الأنبوبة وتتحول لطخاً خضر. وكانت القبائل تنفجر في الجو وأحياناً عند خروجها من فوهة المدفع. ويظهر أن راسماً قد اعتقد بعدم إمكان نقل هذه الذّخائر ساعة التراجع فأبادها ناراً حامية جهنمية كان يقذفها في وجه العدو البعيد ولا يتمالك عن الضّحك الجنوني لهذه الحرب المبتكرة.

ولم يذهب ضحكة عبثاً، بل كان شعلة حماس دبَّت في قلوب العرب الذين حوله وهو يقول لهم: تالله! إنها لمدافع عظيمة... إنها تقصف كالرّعد وأنها تحصد الأتراك الآن حصداً. فأخذتهم العزّة وعادت إليهم الشّجاعة فضاعفوا إطلاق النّار على العدو!! وسارت المعركة سيراً حسناً حتى أعتقد «فيصل» بالنّصر الحاسم. وإذا بالجناح الأيسر يتردد في الوادي ثم وقف فجأة وأدار ظهره للعدو ركضاً إلى المعسكر، وكان فيصل صامداً في القلب فأركض فرسه نحو «راسم» وصرخ به: أن أنقذ المدفعية! فقد تراجع بنو جهينة.!.

جرّ «راسم» المدفعين الصّامتين بهدوء وتبعه المتطوعون حديثاً جماعات جماعات. وأسرع معسكر الشّريف إلى لمّ شعثه. وتبعه المتطوعون حديثاً جماعات جماعات. وأسرع معسكر الشّريف إلى لمَّ شعثه. وسارت الجموع على طريق ينبُع تاركين جهينة ورئيسهم «عبد الكريم» دليلي القديم أمام التُّرك في ساحة الوغى.

وبينما كنت أصغي كاسف البال حزيناً لهذه النّهاية المفجعة لاعناً مع الشّريف إخوان الصّحراء أولئك البدو الذين خانوا قضيتهم المقدسة، سمعنا جلبة لدى الباب، وإذا بعبد الكريم يقذف بالعبيد الذين يحاولون منعه من الدّخول. ومثل أمامنا وتقدم وسلم على الشّريف لاثماً طرف ذيله وجلس إلى جانبه فأخذته الدّهشة وقال له: ويحك!.. ماذا جرى..

فقصّ علينا «عبد الكريم» القصّة: وهو أن رجاله قد تولاهم الجزع واليأس عندما رأوا الشّريف فيصل وأخاه ينهزمان فشدد القتال هو وأخوه على رأس رجاله الشّجعان وقاوموا القوات التُّركية طوال الليل وحدهم وبدون مدفعية. ولما أيقنوا أن لا سبيل إلى الاحتفاظ بغاب النّخيل أرغموا إلى الانسحاب، ودخل أخوه المدينة مع قسم من رجال قبيلته وتشتت القسم الآخر على مرتفعات وادي ينبُع يبحثون عن الماء ليطفئوا ظمأهم. فسأله فيصل: ولماذا تراجعتم وراءنا حتى بلغتم المعسكر! فأجابه: إنا تراجعوا لنشرب فنجاناً من القهوة ليس إلّا؟... وقد كنا نحارب منذ الصّباح وكادت تغيب الشّمس، وكنا عطشى تعبين.

فاستلقينا على ظهورنا من الضّحك، ثم خرجنا لنرى وسيلة تمكننا من إنقاذ المدينة.

إن ينبُع بلدة قائمة على هضبة من الأرض المرجانية على علو عشرين قدماً فقط عن سطح البحر وهي محزومة من -جهتين بالماء ومن جهتي البر بمنطقة من الرّمال على بعد أميال وأميال لا أثر للماء فيها، فمن الممكن أن تكون منيعة لا تؤخذ عنوة بفضل المدافع والرّشّاشات.

وقد ابتدأت ترد إلينا المدفعية، وأنجز «بويل» ما وعد أكثر من كل مرة، فأرسل إلينا في أقل من أربع وعشرين ساعة خمسة مراكب.

وكان الكشّاف «م ـ 31» على أتم استعداد ليأخذ موقعاً في نهاية المدخل الجنوبي الشّرقي للمرفأ بحيث تكون مدافعه التي هي من عيار 6 إنشات قادرة على كسح العدو في اتجاهه إلى ينبُع، وكان الكابتن «كروكر» يلتهب حماساً كي يقذف قنابله. وتباعدت

المراكب الكبيرة في عرض البحر لتتمكن من ضرب المدينة عند الضّرورة بمدافعها البعيدة المدى، مع مراعاة إمكان تسليطها على العدو الزّاحف من جهة الصّحراء.

وكانت الأنوار الكشافة تفضح ما في السّهول. فتشدد العرب لهذه القوات البحرية أمام ينبُع وأظهروا استعدادهم لمشاركتنا في احتفال المساء. وأكدوا بأنه لم يبق للخوف أثر في قلوبهم. ولكي نزيد في تهدئتهم ونتمكن من شجاعتهم رتبنا لهم مواقع وراء بعض الأسوار ليدافعوا عنها على طريقة الأجيال الوسطى. إلّا أن بعض الجدران كانت قد تآكلت وتفتت فدعمناها بجدران أخرى منفصلة عنها. وملئ الفراغ بالتراب ليقاوم قنابل التُّرك. ونصبنا عليها شبكة من الأسلاك الشّائكة، وحرصنا على صيانة الآبار المائية الكائنة خارج السّور وحفرنا خنادق لإخفاء رجال الرّشّاشات وثبتنا مدفعية الشّريف «فيصل».

ولم يكن المصريون أقلَّ حظاً من إخوانهم العرب فقد عيَّنا لهم مواقع حسنة فكانوا مسرورين شاكرين، وكان السّردار قد أعارنا «غارلاند» من أركان الجيش ليقوم بمهمّة المهندس والمستشار الفني.

وأمست المدينة على اختلاج متواصل، بعد أن قضت النّهار في اللهو والسّرور وإطلاق العيارات النّارية تهليلاً وجذلاً. وانسدل الليل وتحول الضّجيج إلى سكون. وكثيرون هم الذين أحيوا الليل إلى الصّباح إلّا أنه في السّاعة الحادية عشرة مساء نادى الحرّاس: المدد. وقد شاهدوا العدو على بعد ثلاثة أميال من ينبُع، فطاف «غارلاند» الشّوارع مع مُنادٍ يدعو الجميع إلى تقلّد السّلاح فأسرع كل إلى موقفه المعين وتم الاستعداد على ظهر البواخر دون أقل حركة ولا إطلاق نار ولا ارتفاع صوت.

وبعض البحارة على المآذن يرسلون التعليمات إلى المراكب التي كانت كشّافاتها الكهربائية تملأ المهل بأنوارها وتحزم أشعتها وتزمها على منطقة هجوم العدو المحتمل. وانتهى الأمر بعدم وجوب إطلاق النّار وفهمنا بعد ذلك بأن الأتراك قد تراجعوا أمام مشهد البواخر الفخم والأنوار المشعة والمدفعية الرّابضة الصّامتة كالصّياد في مكمنه وأيقنوا أن لا سبيل إلى اجتياز هذا المنحدر من السّهل العاري تحت أنوار هذه الكشافات السّاطعة فتراجعوا.

فاعتقدت بعدئذٍ بأن الأتراك قد خسروا الحرب منذ تلك الليلة! ثم طلبت بعد ذلك ضيافة المركب «سوڤا» *Suva* لأتخلص من النّاس وأتمكن من التمتع براحة نافعة لصحتي شاكراً للعدو تعقله، ولقد كنا انتصرنا نصراً مبيناً لو أظهر عناداً وحرداً، ولكني ربما كنت أضحى أكثر من هذا الفخر لأجل نومي الثّماني ساعات المتواصلة.

* * *

الفصل الخامس

فيصل يتقدم نحو الشّمال

وجاء ويلسون نفسه إلى ينبُع ليقنعنا بضرورة التأهب السّريع لاحتلال «الوجه» أول ميناء بحري على الشّواطئ العربية شمال ينبُع حيث كان الأتراك يهددون مؤخرة «فيصل» ويكفي بأن نظهر فجأة أمام هذا الموقع لنضمن النّجاح لحركاتنا.

وكان الشّريف جلداً لا يوهن عزمه التّعب، ذا نفس وثابة، يقدم كل قوته لكل عمل يقتنع بفائدته، فقرّر السّفر في الحال وقضينا نحن الاثنين يوم رأس السّنة ندرس في نتائج هذا الهجوم قبلنا وقبل الأتراك.

وأقر «فيصل» الرّأي بأن نصحب معنا متطوعي جهينة ونتتقي عدداً من رجال قبائل: بليّ، وعتيبة، وعقيل، لنظهر للنّاس بأن هذا الهجوم كان بموافقة أكثر القبائل، وصممنا على أن يتجاوب صدى هذا الزّحف إلى الشّمال في جميع أنحاء جزيرة العرب الغربية، وأن تكون خاتمة الحرب في الحجاز الشّمالي. وقد شعر «فيصل» بشيء من القلق لتركه ينبُع ثاني مرافئ الحجاز والتي كان يعتبرها حتى هذا اليوم كقاعدة لا غنى عنها...

وحاول أن يجد حيلة يتمكن بها من دفع التُّرك عن المدينة إذا أعادوا الكرة عليها، فتذكرنا بأن سيدي «عبد الله» قد جمع خمسة آلاف رجل غير نظاميين مسلحين ببعض المدافع والرّشّاشات.

وقرّر فيصل بأن يسير على وادي العيس المشهور بينابيعه وهو على بعد مئة كيلو

متر شمال المدينة المنورة حيث تكون عصاباته خطراً مباشراً على مواصلات التُّرك الحديدية مع دمشق.

وكانت الفكرة جيدة فحملها «رجى الخلوي» حالاً إلى «عبد الله» وجدَّ بالمسير ليصل إليه بأقرب ما يمكن من الوقت، وقد كنا على يقين من موافقته عليها بحيث أننا ألحفنا على «فيصل» بأن يخرج من وادي ينبُع ويقطع المرحلة الأولى دفعة واحدة فيبلغ الطّريق المؤدية إلى الوجه دون أن ينتظر رداً من أخيه.

وكان «عبد الله» عند ظنّنا فأقرَّ المشروع في 3 يناير سنة 1917 وتوغلنا في وادي مساريح، ثم خرجنا إلى الفضاء لنسير على طريق المرتفعات إلى عويس مجموع آبار تبعدخمسة عشر ميلاً عن شمال ينبُع، وكانت الجبال في ذلك اليوم أبهج ما تكون من الرّوعة والجمال، وقد انتعش النّبت واخضوضر الزّرع وانقلب الشّتاء ربيعاً بعد هطل الأمطار في شهر ديسمبر، وبزوغ الشّمس الحامية على الطّبيعة، واكتست الأودية وشعب الجبال وشقوق الصّخور ثوباً سندسياً زبرجدياً من العشب الأخضر ذي الورق الأسيل ترتع فيه إبلنا وترعى أطرافه المنتصبة النّدية.

وقد اتفقنا على أن تسير وراءنا قبيلة عقيل فقط، وتصطف باقي الوحدات خطاً واحداً على الطّريق، ويقف كل رجل جنب مطيته الباركة وعند مرور «فيصل» يحيّونه فيجيبهم (السّلام عليكم) لمشايخ الواحد تلو الآخر البركة نفسها. ولما انتهينا من هذا العرض تحرّك الجيش للمسير كل فرقة مع رئيسها، وأخذ بشعب الجبال كالثّعابين تتلوى على الصّفاة الملساء إلى أن بلغنا القمم. وكنا إذا تلفتنا يقصر البصر عن بلوغ نهاية خط جيوشنا الميادة كحقول السّنبل لاعبها النّسيم. وعقب السّلام العسكري صمت عام إلى أن بلغنا أول قمّة، فرأينا من ورائها انفراج الوادي وانبساطه على سهل منثور بالحصى والصّخور التائهة المرشوشة بالرّمال وظهر في تلك السّاعة ابن دخيل مع رجاله ـ ابن دخيل شيخ «الرَّس» ذلك الزّعيم الذي حرَّك بني عقيل لمصلحة التُّرك، ثم أعادهم تحت لواء «فيصل» عندما أعلن العصيان ـ ظهر ابن دخيل وتراجع بضع خطوات وبعد أن صف رجاله الحسنى التنظيم خطاً مستقيماً أمر بقرع الطّبول.

فتصاعدت الأصوات إلى عنان الجو تنشد نشيد الأمير «فيصل» وآل بيته.

وسار الجميع إلى الأمام بمشهد يخلب الألباب، يتقدمهم «فيصل» مجلّلاً بالبياض وشرف عن يمينه، وكانت غندورته (درّاعته) وعباءته مصبوغتين بالحناء، وحول كوفيته عقال من الصّوف الأحمر. أما أنا فكنت متأخراً قليلاً عن شمال الشّريف مرتدياً ثياباً بيضاء وحمراً قرمزية معجباً بثيابي وبهذا الجيش الفخم. من ورائي حملة الأعلام الحريرية القرمزية وقد انطفأت ألوانها تحت أشعة الشّمس المحرقة وبفعل الزّمن، وعلى رؤوس عصيها تتلألأ الحراب الذّهبية، والطّبول من ورائها تقرع وتوقع على نشيد الحرب، ثم ازدحم حرس الشّريف أي رجال معسكره وهم على قلائصهم الجميلة وعدده ألف ومئتي رجل، واختلط الحابل بالنّابل وتمازجت ألوان الحرس السّاطعة من ثياب مزركشة معصفرة، وسروج مفضضة مذهبة، فزحمنا الوادي بهذا الجيش الغريب فغصَّ بنا.

كان يُخشى أن تسقط ينبُع في يد الأتراك ونحن نجدّ السّرى إلى الوجه ولهذا السّبب كان من حسن التدبير أن نخليها من جميع المؤن والذّخائر.

وقد قدم لي «بويل» وسائل التّفريغ بأن وضع مركبه «هاردينج» *Hardinge* تحت تصرّفي لهذا الغرض، وكان سطح المركب السّفلي يفتح بأبواب واسعة مربعة فوق خط العوم، ففتحها الكاپتن «لينبرى» Linberry كلها فكوّمنا ثمانية آلاف بندقية وثلاثة ملايين رصاصة، وألوفاً من القنابل، وكمية كبيرة من الأرز والطّحين وكميّة كبيرة من الثّياب العسكرية، وبراميل من المفرقعات الشّديدة الانفجار، وكل ذخيرتنا من الزّيوت.

وهكذا في وقت قصير حمّلنا «هاردينج» ألوفاً من أطنان الذّخائر. ووعدني «بويل» بأن هذه الشّاحنة ستكون بصفة مستودع ذخائر تتحرّك وتقف لدى إشارتكم وتموينكم أينما كنتم وعلى قدر احتياجكم. فحلّت المعضلة التي كانت تعرقل غزوتنا.

وشرعت البحرية توحد نقط ارتكازها فتحوّل نصف أسطول البحر الأحمر إلى مياه

ينبُع. وكانوا وهم بانتظار قدوم الأميرال يروضون البحارة على طريقة التفريغ السّريع، ويطلقون العيارات النّارية ويشحذون الحراب.

وكنت أنعم بآمالي وأعتقد بأن هذه الاستعدادات القاسية لا غرض لها في المستقبل ولن تقع موقعة ما. وقد جهّز فيصل عشرة آلاف رجل وقسّمها إلى عصابات تغزو بلاد بليّ وتسلب كل ما يستطاع حمله ويقل عطبه، ولم يبق شك لدينا بالاستيلاء على الوجه وكل ما كنا نتمناه أن لا يفقد فيصل كثيراً من رجاله عطشاً أو جوعاً. وكانت لحسن الحظ بلاد أملج غير معادية لنا، وهي واقعة في منتصف الطّريق بين ينبُع، وغرضنا ألا يعترض مرحلتنا الأولى حادث مكدّر. ولهذا السّبب قرّر فيصل السّير في اليوم الذي وافق فيه عبد الله على مشروع غزوتنا.

وقد علمت في اليوم نفسه بأني عما قريب سأكون حراً طليقاً، فقد نزل «نيوكومب» على أرض مصر مرسلاً إلى الحجاز رئيساً للبعثة العسكرية فيه. وهو كولونيل في الجيش النّظامي، وقد تقدمه مساعداه الضّابطان «كوكس» و«ڤيكِري» وهما يطوفان البحر الأحمر ليلحقا بنا.

وأوصلني بويل إلى أملج على ظهر «سوڤا» *Suva* ولما بلغا المرفأ نزلنا إلى البر نستطلع الأخبار، فأخبرنا الشّيخ بأن فيصل وصل هذا النّهار إلى بئر الوهيدة ـ مساقي المياه ـ على أربعة أميال من أملج داخل الصّحراء. فبعثنا إليه رسولاً، ثم سافرنا لنشاهد قلعة صغيرة كان قد ضربها بويل بقنابله منذ عدة أشهر. ولما وقفنا إليها ألفينا ثكنة مزرية فقال لي بويل: «إني لأحمرّ خجلاً لضياع ذخيرتي في هذا الوكر الحقير».

بويل هذا كان ضابطاً في البحرية خبيراً في مهنته مطلعاً على دقائقها حتى أصبح أسيراً لها، ولهذا السّبب كان صعباً قاسياً مع الأشخاص الذين هم أقل منه دقة وأكثر توسعاً في قانون المهنة. وعلى كل حال فالرّجال الشّقر لا ينجحون متى وجب الصّبر. وكان «جنجر بويل» كما كانوا يسمونه رجلاً مسيّراً لا مخيّراً.

وبينما نحن نشاهد خرائب القلعة تقدم إلينا أربعة رجال من القرية عليهم أسمال

رثّـة وطلبوا مقابلتنا وقالوا لنا إن مركباً حربياً بمدخنتين دنا من الشّـاطئ وخرّب القلعة بمدافعـه منذ شـهرين ويطلبون منا الآن أن نعيد بناءها لتكـون مركزاً للحكومة العربية، فهـل لنـا أن نطلب من كـرم ربان هذه السّـفينة ذات المدخنة الواحدة! بعض أخشـاب ومعدات نتمكن بها من إعادة بناء هذه الخربة.

فلـم يصبر بويل على هذا الحديث الغريب وسـألني: ماذا يريـدون منا؟ فقلت له لا شـيء سـوى أنهم يصفون فعل مدافـع المركب «فوكس» فألقى بويـل نظرة إليهم ودار على ذاته وضحك ضحكة رديئة وقال: «إنها لخربة كدرة حقاً».

ووصـل «ڤيكِري» في اليوم التالي وكان يفهـم اللغة العربية الفصحى واللغة العامية فهماً جيداً، وقد تعلمهما وهو في السّـودان مدة عشـر سنوات في فرقة المدفعية فأغنانا عـن ترجمـان، فاتفقنـا علـى أن نزور معسـكر فيصل حتى نضـع خطة حركاتنـا، وبعد الإفطار قمنا إلى العمل عرباً وإنكليزاً ندرس الخطة الوحيدة التي تبلغنا الوجه.

لقد قرّرنا أن نقسم الجيش إلى مفارز مختلفة تكون نقطة ارتكازها كلها القلب الذي نشـغله نحن وهو «أبو زريبات» في «وادي الحَمض» وبعد ذلك لا ماء في طريقنا حتى الوجـه. أما بويل فقـد رضي بأن ترسـو «هاردينج» *Hardinge* ليلة واحدة أمام «شـرم حبَّـان»، لعله إذا أمكنه الدّنوّ من الشّـاطئ أن يفرغ لنا عشـرين طناً مـن الماء! وعرضنا على بويل أن نضع تحت تصرفه بضع مئات من رجال قبيلَتي حرب وجهينة الاحتياطي ينزلـون عند الهجوم على الوجه مفرزة من البحارة في الجهة الشّـمالية العاطلة من كل موقع للدّفاع ويمكنهم من الدّوران حولها حتى المرفأ.

وجهّز بويل ستة مراكب وخمسين مدفعاً وطيارة مائية لتنظيم إطلاق النّار كي يشغل التُّرك عن تقدمنا، ونكون نحن في 20 من هذا الشّهر في «أبو زريبات» وفي 22 منه في «حبّان» حتى نحصل على كمية من الماء عن ظهر «هاردينج» وننزل المفرزة من البحر فـي 23 منه عند الفجر بينما يكون رجالنا قد قبضوا على نواصي الطّرق التي سـيحاول منها العدو الارتداد.

وكانت أخبار رابغ طيبة، ولم يجسر الأتراك على مهاجمة ينبُع العاطلة من كل دفاع، وهذه هي مخاطراتنا! إلّا أن الأخبار كانت ترد إلينا من كل جهة تثبت شجاعة الجيش وثقتنا به، وكان «عبد الله» قد بلغ وادي «عيص» وفيصل في منتصف الطّريق إلى الوجه، وعليه فيكون قد تحوَّل أمر الحركات الحربية إلى يد العرب، وفي ساعة اغتباط وسرور فقدت فيها رزانتي صرخت صرخة الفوز من الآن إلى سنة نكون على أبواب الشّام، فألقت كلمتي هذه في خيمة العرب شيئاً من الشّك فتبدد حلمي سريعاً، إلا أنَّها لم تكن أحلاماً فقد بلغنا دمشق بعد خمسة أشهر من هذا التاريخ وفي نهاية السّنة كنت فيها حاكماً حقاً.

وكان عدد الجيش في بئر الوهيدة 5100 فارس، و 5300 راجل مسلحين بأربعة مدافع كروب جبلية، وعشرة رشّاشات تموّنهم حمولة 380 جملاً، وتقرّر السّفر يوم 18 يناير بعد الظّهر تماماً لأن فيصلاً أنهى عمله ساعة الإفطار؛ وأمر بالسّير حالاً فتقدمنا إلى مطايانا التي أُنيخت على شكل دائرة، وهي مسرجة محملة والعبيد يدوسون على سيقانها المطوية ليمنعوها من الحراك إلا في الميعاد ودفعة واحدة، ثم قرع الطّبل خمس مرات على رأس الجيش بجانب ابن دخيل، ودخل الجيش في الصّمت العميق.

فلم تفارق أنظارنا فيصلاً. فقد نهض عن سجادته، وقال آخر كلمة إلى عبد الكريم، وأمسك بِحِنْو السّرج بكفيه وألقى ركبته على عنق قلوصه وصرخ: «فلنتوكّل على اللـه»، ثم رفع رجله الثّانية وأدخلها في الرّكاب بخفة ومهارة، وأدخل فضل ثوبه تحته واستوى على السّرج، فتحرّكنا وتحرّكت الجموع واستووا على ظهور مطاياهم بقفزة واحدة إلا بعض الجمال الحرجة التي خالفت شيم النّوق العريقة المدربة، وسارت بنا سراعاً ونحن نتثبت على مؤخر أعناقها، نقودها، ونقومها بإرسانها لتسدد خطاها إلى الأمام، وضغطنا على بطونها بأقدامنا العارية وربتنا على صفحات أعناقها لتميلها إلى جهة الشّريف فيصل.

وكان ابن دخيل قد درس طبيعة البلاد فتقدم الرّكب، وأمر بأن يجانب بنو عجيل جناحينا ويحموهما، ثم قرع الطّبل ثانية، إيذاناً بمتابعة السّير، وتغنى شاعر الجناح

الأيسر بأشعار يمدح فيها الشّريف ويتهلل بما سيمنحه فيصل للجيش من السّلب والمسرات في الوجه، والجناح الأيمن يصغي إليه باحترام، ثم أعادها مراراً إلى الجموع التي حوله بنغمة الافتخار والثّقة بالنّفس وبنوع آخر من السّخرية، ثم تغنى الشّاعر بقصيدة ثانية على الوزن والقافية والرّويّ لكنها فاقت الأولى بالشّعور والنّغم، وصفّق الجناح الأيسر صارخاً صرخة الظّفر، وقرعت الطّبول ونشرت الرّايات العظيمة ذات اللون الأحمر القرمزي، وغنى الحرس بأجمعه عن اليمين وعن الشّمال أناشيد الجيش المثيرة للعواطف والشّجاعة.

فتذكرت أنشودة قديمة عن أحد الأبطال إذ يقول: لقد خسرت بريطانيا، وخسرت الغول، وخسرت روما، والأدهى من ذا وذا أنّي خسرتُ زوجتي لالاج!

أما العرب فـ «نَجْد» هي التي خسروها وكذلك خسروا نساء «معابده»، والآن وقد خانهم الحظ وتحول مستقبلهم عن جدة، ففي السّويس يجب أن يفتشوا عليه، ومع ذلك لم تخل أغانيهم من نبرات وأنغام يحلو للنّياق أن تسير عليها بنشاط وارتياح، فتشرأب بأعناقها وتسحب رؤوسها وتباعد خطاها كأنها في رؤى من الأحلام العذبة على أهازيج راكبيها.

كان ذلك اليوم جميلاً والطّريق سهلاً والحملة تسير على منعرجات من الرّمال الثّابتة تموج بين الكثبان اللينة الطّويلة جرداء لا أثر للنّبت عليها، غير القليل من العوسج في بعض المنحدرات وأشجار نخل نادرة عقيمة في بعض الأماكن الواطئة الرّطبة، ثم لا تلبث الأرض أن تنبسط، وظهر أمامنا فارسان يركضان هجينيهما للسّلام على فيصل وقد عرفت الأول منهما، ذلك الشّيخ الخبيث محمّد علي البديوي ذي العينين الغائرتين أمير جهينة، أما الثّاني فقد كانت ملامحه غريبة عني ولما تبينه وجدته بالثّوب الكاكي ملتفاً بعباءة عربية وعلى كوفيته الرّديئة الوضع عقال من الحرير. ولما رفع بصره رأيت أمامي وجه «نيو كومب» القاني وقد سلخ جلده هواء الصّحراء ولما علم بسفرنا وهو في أملج هذا الصّباح أسرع إلى فرس الشّيخ يوسف وأطلق لها العنان للحاق بنا.

فقدّمت له مطية ثانية ليصل إلى فيصل ويسلم عليه سلام رفيق مدرسة قديم فباشر

عند وصوله حالاً في الحالة واستعرض معه بعض الخطط وقلباها من جميع الوجوه ولكن بسرعة جنونية.

ومتى ابتدأ «نيو كومب» فلا ينتهي ومتى مشى نسي التوقف، وأثار فينا الهواء النّاعم واستعداد الجيش وتأهبه، والحماس والأمل، فلم نكن نخشى ريب المستقبل.

وكنا نسير على توقيت بسيط جداً، وهذا التوقيت مرسوم في مخيلة بعض بني جهينة، فكان نصف النّهار عندهم هو وحدة الوقت الصّغرى، أما وحدة الأبعاد فهي المرحلة وهذه المرحلة هي مسافة سير ست ساعات أو ستة عشرة ساعة حسب رغبة المسافر وحالة الجمل. وكان اتصال الوحدات بعضها ببعض من الصّعوبة بمكان. لقلة الرّجال الذين يقرأون ويكتبون وأثرت في معنوية هذه الغزوة عوامل كثيرة كالتأخير عن الميعاد وفقد النّظام ونقص المؤن والماء. وكان من الممكن اجتناب هذه النّقائص والاحتياط لها، لو كان لنا متسع من الوقت للتعرف على الطّريق، فقد حرمت المطايا الطّعام مدة ثلاثة أيام واكتفى الرّجال بغالون من الماء لكل رأس وبدون أي غذاء!! لكي يقطعوا الخمسين ميلاً الأخيرة!.

إلّا أنَّ هذا الحرمان لم يغيّر من وقفة الجيش فقد دخل الوجه خبباً مبتهجاً ناشداً الأناشيد بصوت أبح!! لاعباً مازحاً على ظهر هجنة ولم يخف عني فيصل ما اعتوره من الوساوس فقد قال لي:

ـ إن يوماً آخر مثل هذا الحرّ والعطش كان يمكنه أن يهد قوى الرّجال ويثبّط عزيمتهم ويشكل حركة السّير.

ولما انتهينا من العمل أسرعت مع «نيو كومب» إلى خيمة أنعم بها علينا الشّريف وهي علامة تكريم خصوصي واسترحنا.

والحق يقال إن مسألة التموين كانت أعقد من ذَنَب الضّب، ولقد تنازلنا نحن الأغنياء عن لذيذ مآكلنا وعزّة مقامنا وعشنا كأولئك الرّجال الذين لم يتمكنوا من حمل كل ما هو غير ضروري.

وإلى ذلك اليوم لم تكن لي خيمة خاصة! فضربنا طنابها على شفا منحدر من الأرض تحت الآكام في منبسط مستدير على قدر مساحة الخيمة تماماً بحيث أن الانحدار يبتدئ عند الأوتاد، وعند وصولنا وجدنا «عبد الكريم» الشّريف البديوي الشّاب في انتظارنا ملتفاً ببرنسه وقماش عمامته الشّفّ ينسدل على عينيه، وكانت السّماء تكاد تمطر. وطلب منا بغلة مسرجة لأن منظر مشاتنا بثيابهم الخفيفة وسيقانهم المتزملة وحيواناتنا العبْلة الجميلة النّظيفة أسالت لعابه وألهبت شهوته فشئت أن أتنعم بهذه الشّهوة وأن أداعب صاحبها، فباعدته عن طلبه إلى أجل آخر بشرط أن نكون قد انتهينا من الوجه على سلام. وتنفسنا بعد خروجه ورقدنا إلا أنه نظر إلى الوادي من ذلك المرتفع فرأى ألوف المواقد تضطرم فيها نار الجيش المتفرقة في كل ناحية فدعاني لأرى هذا المشهد، ثم نظر حول الأفق وقال بحزن: «لم نعد قط عرباً بل أصبحنا شعباً». ولم ينقطع رذاذ المطر الليل بطوله وشطراً من النّهار فملأت هذه النّعمة الغير منتظرة قلوبنا فرحاً فضلاً عن أننا كنا في قرية «سمنة» وتحت خيامنا على أتم هناء بحيث إن أخّرنا سيرنا إلى منتصف النّهار وقد ظهرت الشّمس تلمع من وراء السّحاب.

وسلكنا جهة الغرب تحت سماء صافية جميلة، ومشى وراءنا بنو عقيل يتبعهم «عبد الكريم» وهو يقود رجاله Gufa، ووراء الجميع حوالي السّبعمئة فارس وأكثر من هذا العدد مشاة، والجميع بيض الثّياب يغطون رؤوسهم بشيلان القطن العظيمة المعلمة بالأحمر والأسود، ولافتقارهم إلى الأعلام كانوا يلوّحون بسعف النّخيل الطّويلة.

وإلى جانبهم الشّريف «محمّد علي أبو شرّين» على سرجه وهو شيخ جليل ذو لحية كثة بيضاء تفترض صدره، منتصب القامة، ثابت على متن مطيته كأنه جذع نخلة، وفرسانه الثّلاثمئة جميعهم من الأشراف من بيت العيّاشي المشهور في جهينة، وإن يكن نسبهم غير معترف به رسمياً بين الأنساب الشّريفة، لظهورهم فجأة في هذا اللقب، وكانوا يلبسون الغندورة «الدّرّاعة» تحت برانسهم السّود ويتقلدون السّيوف. وكل فارس يردف عبده على مؤخر مطيته ليعاونه وقت القتال بالبندقية والخنجر. وليهتم بالمطايا وتجهيز الطّعام في المضارب. ونظراً لفقر السّواد الأكبر من أسيادهم

فهـم يرتدون ثياباً شـبارق من تحتها سـيقان سـود كالعصي، تضغط كأنهـا ملازم على بطـون الجمـال النّاعمـة المخمليّة، لتتمسـك دائماً أبـداً بتوازنها خوفاً مـن ضياعه في الزّحام والسّير السّريع، ويشدون أوساطهم بالحبال المجدولة على قمصانهم المهلهلة ليكسبوا قوة ورشاقة.

ولميـاه «سـمنة» خاصة طبية عظيمـة لأن المغنيزيا أثرت تأثيراً شـديداً على الهضم عنـد الجمـال. وكان يتمايل فـي الهواء خلف الأشـراف علم رجال قبيلـة «رفاع» آخر أنصارنـا فـي القبائـل يقودهـم «عـودة بن زويـد» القرصـان القديـم الذي سـلب بعثة «شـتوتزينغن» Stotzingen الألمانيّـة وألقى في ميـاه ينبُع آلاتها اللاسـلكية وخدّامها الهنود. من المعروف أن أسماك القرش لا تبقي على الإنسان لكنها على الأقل لا تبتلع الآلات، ومع ذلك جُسنا البحر طولاً وعرضاً وساعات عديدة فلم نوفق إلى صيد هذه الآلة، وكان «عودة» يرتدي عباءة فضفاضة ثمينة مبطنة بفراء كان قد سـرقها من ضابط ألمانـي. عبـاءة ما خيطت قط لتلبس في مثل هذه البلاد العربيـة الحامية، إلا أنها كانت من معروضات السّـلب وغنيمة من أجمل الغنائم، وكانت هذه المفرزة مؤلفة من ألف رجل، ثلاثة أرباعهم مشـاة، بجانبهم «راسـم» رئيس المدفعية مـع أربعة مدافع كروب Krupp، محمولة على البغال جاءتنا من الجيش المصري.

واتفق أن أحد الرّجال قد اصطاد أرنباً بطلق ناري وهو على السّرج فمنع فيصل هذا النّوع من الصّيد منعاً باتاً، كي لا تبدّد الذّخيرة على غير طائل. ويمكن اصطياد الأرانب التـي تعتـرض أخفاف الجمـال بالهـراوة فكانت فرصـة ضحك وتسـلية، وقد اصطاد الجيـش كثيراً من هذا الحيوان فاغتبط الشّـريف لازدياد المؤونة باللحوم، إلّا أنَّه أظهر اشمئزازاً من رجال جهينة الذين كانوا يتراكضون بنهم معيب وراء الضّببة والعظايا.

وتوغلنا في سـهل رملي نبت عليه كثير من شجيرات شائكة عطرية إلى أن دنونا من الشّاطئ، فانحنينا نحو الشّمال لنأخذ طريقاً واسعاً ملبّداً كان يسلكه حجاج مصر، ويتسع لأربعين أو خمسـين فارسـاً مجانبة، وكانت سلسـلة من سـيول الحمم البركانية تنتهي إلى السّـهل على مسـافة أربعة أو خمسـة أميال، وتتجمع كومة من الصّخور البركانية.

وكان الطّريـق يخترق هذا المجرى البركانـي محاذياً منخفضات تحولت وعثاً واضحاً لا تنعكس عليها أشعة الشّمس المائلة إلى المغيب. وبلغ الجيش المكان المعد لنزوله فترجلنـا وتمطينا، وقد خدرت أعضاءنا لطول ركوبنا، ثم تسـابقنا إلى البحر نرتمي فيه جماعات جماعات بشـغف لا مزيد عليه، فكانت تريك تلك الأجسـام اللاعبة العائمة الصّاخبة العارية كالأسماك، مثالاً لجميع الألوان التي يصطبغ بها جلد البشر.

وكنا في انتظار العشاء بفارغ الصّبر، وقد اصطاد أحد العربان غزالاً «لفيصل» فكان لحم هذا الحيوان الصّحراوي مشحماً شهياً رغماً من ضآلة المرعى وقلة الماء.

وكان سـيرنا في اليوم الثّاني سـهلاً لجـودة الهواء يتقدم الجيش حثيثـاً متجمعاً إلى بعضـه. وكنـا نحن الإنكليـز ننصب خيمتنا منفرديـن في نهاية كل مرحلة. ومن أقسـى مـا يلاقيه الإنسـان فـي الصّحراء هو أن يرغـم على أن يعيش برفقة غيره فيسـمع كل ما يقـال ويـرى كل ما يحـدث. وكان انقطاعي مـع نيو كومب ألف مرة مريحـاً عن الحياة المشتركة دون انقطاع.

وكان العمل لا يتحمل انفصال الرّئيس من المرؤوس، لأن عادات العرب التقليدية فضلاً عن الطّبيعية أن لا يوجد فارق بينهما إلا بالسّـلطة التي أعطيت للشّـيخ على قدر اسـتحقاقه، وقـد صرّح لـي العرب بأنـه لا يمكن لرئيـس أن يحكمهم إذا لـم يؤاكلهم ويلبس لباسـهم ويعيش عيشـة رجالهم، ومع ذلك يشعرهم بأنهم هم دونه وهو فوقهم منزلة.

جاهدنـا منـذ الصّباح كي نتقدم إلى (أبو زريبات) علـى طريق محصوبة، وتوقف فيصل لينبه الجيش إلى إنحدار شـديد سـيصلون إليه. وكان أن أبصرنا بعد الظّهر طريقاً عميقاً بعد أن جزنـا منطقـة من الحجر المرمر وكان ذلك الطّريق يهبط من الجبال إلى وادي الحَمْض، وقـد ملَّت أبصارنـا من وحدة المناظر السّـاذجة فوقفنا مبهوتين وشـعرنا بأنا قـد دخلنا في مناطق الأحلام وصعدنا إلى منازل الرّؤَى أمام عظمة فن الطّبيعة في قاع ذلك النّهر العميق الجاف، الذي كان يجري قديماً أطول من دجلة في وادي العربية العظيم و«داوتي» هو أول من تكلم عن هذا الوادي لكنه إلى الآن لا يزال مجهولاً غير مطروق.

وألهبتنا الرّغبة لمعرفة ما ينتظرنا فتزحلقنا على المنحدر المحصوب الذي تتخلله بقع من العشب. وفي السّاعة الثّالثة دخلنا قاع الوادي الذي ينفرج عن ألف متر عرضاً، تتخلله غياض ملتفة الشّوك ومن ورائها الكثبان الصّغيرة المستطيلة التي تتخلل رمالها أرض منبسطة أفقية من الصّلصال الجاف المفلّق وهي في حالة الطّمي شاهد آخر على علو فيضان الماء فكانت مطايانا تتقدم بحذر وصعوبة تسحق الطّين فيتكسّر تحت أخفافها تكسر الخبز الجاف بين أيدينا، وتغوص إلى أرساغها فيتصاعد غبار كثيف وينعقد في الجو، ومن وراء هذا وذاك تصد الشّمس وتجلو عن إشعاع يبهر النّظر، فشق السّير على الرّجال من الوهج، وتقاربت الكثبان وتكاثرت وانقطع طريق الوادي إلى تيه من القيعان القانونية القليلة العمق المنحوتة على مر السّنين بالفيضانات الضّئيلة، وخرجنا منه إلى غياض تكوّمت أشواكها على بعضها، وغطّت وجه الرّمال وتشابكت الأغصان اليابسة المكسرة، نمرُّ عليها فتظللنا بغبارها وتسمعنا أصوات تكسير عظام.

وزممنا مقاود مطايانا المزخرفة كي نتقي تشابكها بالعليق وتزملنا بعباءاتنا المنفوخة وحسرنا رؤوسنا كي نصون عيوننا، وانخرطنا كالزّوبعة في أجمة من مشذب القصب، فقطع الغبار أنفاسنا وهدرت جمالنا لتكسر الأغصان تحت أقدامها والرّجال منهم من يضحك ومنهم من يصرخ إلى أن اجتزنا المنطقة سالمين جذلين.

وقبل أن نصل إلى الشّاطئ الأيمن البعيد من النّهر، التقينا بالأغوار الفخارية حيث تركد المياه السّوداء في مستنقع يبلغ الباع عمقاً والثّمانين طولاً والخمسة عشر عرضاً. وهي نقطة مياه (أبو زريبات) نهاية مرحلة اليوم. وخرجنا من غياض القصب والأشواك إلى الرّملة المكشوفة حيث عسكر فيصل، فترجلنا وحلّ العبيد السّروج ونصبوا الخيام.

وتزاحمت البغال العطاش حول تلك البحيرة واختلطت بالمشاة، فخاضوا ذلك الماء الآسن وخضخضوه بأقدامهم، وكان الوقود كثيراً وهو اللذة العظمى في هذه البلاد، فأوقدوا النّار جماعات على طول ذلك المعسكر وأضرموها سعيراً لكثرة الحطب لديهم، وللضباب الكثيف الرّطب المتصاعد من الأرض على علو خمس أقدام حتى جلدت عباءاتنا تحت هذا البخار الصّاقع. وكان الليل مظلماً غاب عنه

القمر، والنّجوم في سماواتها تتلألأ نوراً فوق مناكب الضّباب، ومن فوق أكمة ترى بحراً من الغيوم ملبداً يتموج في الفضاء ويكلل زبد أمواجه السّاجية رؤوس خيامنا. ودخان المواقد يتصاعد ويدور على ذاته، ثم يتضاءل ثم يلمع بنوره في الفضاء كلما أضرمها الجنود، وتمايل إذ ذاك الشّيخ العجوز وديع بن زويد عجباً لهذا المنظر الذي أثر في نفسي حقاً وقال:

«ما هذا جيشاً إن هو إلا دنيا زاحفة على الوجه»، فسررت لهذا القول المقنع. أو ليس لنقرّب العرب بعضهم إلى بعض، ونخلق فيهم شعور الألفة والتعاون قد زحمنا أنفسنا وزحمنا الجيش ـ في هذا السّفر الشّاق المضنى بجمهور ممن لا نفع لهم!.

وفي تلك اللحظة ظهر الشّريف ناصر فجأة قادماً من نواحي المدينة ودخل على فيصل من غير كلفة ولا استعداد، فنهض فيصل بلهفة وعانقه وقدمه لنا فأحسسنا عند رؤيته لأول مرة بشعور طيب، لأننا كنا سمعنا عن أخباره وعلقنا عليه آمالاً كبيرة، لقد كان الشّريف ناصر في مقدمة جيش فيصل وكان ممهداً السّبل للجنود، وكان الرّجل الذي أطلق أول رصاصة في المسلمية وراء حلب في اليوم الذي ألقى التُّرك سلاحهم وطلبوا الهدنة، ومنذ إعلان الحرب على إعلان السّلام هو ناصر نقي الصّفحة ناصع الجبين.

ورغم ولعه بالعيشة الهادئة الرّضية وولعه بحدائقه فقد أرغم على خوض غمرات الحرب منذ حداثته. كان في ذلك الوقت يبلغ السّابعة والعشرين من سني حياته، له جبهة عريضة تحتها عينان جذابتان كبيرتان ولحية سوداء حسنة التشذيب وذقن مستدقة.

وتناولنا عند الصّباح غذاءً دسماً طيباً فسرت فينا الهمة والنّشاط وتهيأْنا للمداولة الطّويلة، وكان النّصيب الأكبر من هذا الحمل مثقلاً منكبي فيصل، وكان يعاونه بمشوراته ابن عمه ناصر القائد الثّاني للجيش. والأخوان بيداوى إلى جانبه يشاركانه في مهمته. وكان اليوم جميلاً دافئاً فتنزهت مع نيو كومب على حافة البحيرة حيث لا ينقطع رواح ومجيء الرّجال والبهائم.

قد تأخرنا يومين عن موعدنا مع رجال البحرية، فقرّر نيو كومب السّفر إلى الأمام في هذا الليل ليصل إلى (حبّان) فيلتقي «بويل» ويفهمه بأننا سنتأخر عن ملتقى (هاردينج) *Hardinge* وأننا سنكون سعداء إذا عاد إلينا هذا المركب في ليل 24 يناير، فنكون عندئذٍ في أشد الاحتياج إلى الماء الذي يخزنه في جوفه. وليرى «بويل» كذلك إذا كان من الممكن تأجيل الهجوم البحري إلى 25 منه، ليتفق مع هجومنا البري في هذا التاريخ.

وابتدأنا السّير عند بزوغ الفجر في (وادي الحَمْض) ثم تركنا الوادي المنعرج إلى الشّمال ودخلنا أرضاً قفراء، وكان الجو بارداً ورياح شمالية قارصة تسحب أذيالها على تلك الأرض المنبسطة ثم تصفعنا بسمومها.

وما لبثنا أن سمعنا دمدمة متقطعة جهة الوجه، فخشينا أن يكون قد نفد صبر رجال البحرية وابتدأو بالضرب قبل وصولنا، ومع ذلك فلم يكن ممكناً تعويض الأيام فقدناها، وتابع الجيش سيره الممل من مصبّ إلى مصبّ في (وادي الحَمْض) يدخل من قاع إلى قاع كأنها خطوط الكف، بين الصّخور والمعابر الجافة، ثم خرجنا من هذا الوادي ثم عدنا إليه عند «قرنة»، وقرّرنا المبيت على ذلك الصّلصال الموحل في قاع الوادي.

وحدثت مشاجرة عكّرت صفو المعسكر، وهو أن بعض الجمال كانت ترعى فهاجمها بعض رجالنا من مشاغبي جهينة واستولوا عليها وجاؤوا بها إلى المعسكر، فاستشاط «فيصل» غضباً وأمر بإطلاق سراحها. إلّا أنَّ الرّجال كانوا بحالة ثوران فلم يصغوا إلى أوامره. فتناول بندقيته أسرع من البرق الخاطف وأطلقها على أقربهم إليه فسقط عن سرجه مذعوراً وصعق الآخرون، ثم دعاهم إليه وساط المحركين لهذا الأمر المنكر بلا شفقة، وحجز الجمال المنهوبة ثم أخذ عدداً من جمال اللصوص بدلاً من الحيوانات المفقودة حتى اكتمل عدد الجمال المسروقة، وأعادها جميعها إلى أصحابها من قبيلة بيلي.

ولو لم يحكم بهذا الحكم العادل لقامت عليه قيامة القبائل المجاورة حلفائنا

بالأمس، ولكانت هذه القومة نقطة من الزّيت تبلغ لطاختها إلى ما وراء الوجه، وإن النّجاح في تلك الصّحراء يتوقف أحياناً على اجتناب مثل هذه السّفاسف. وفي اليوم الثّاني حاذينا السّاحل وماشيناه حتى بلغنا «حبَّان» السّاعة الرّابعة زوالية. فكان مركب هاردينج *Hardinge* لحسن حظنا واقفاً مصارعاً الأمواج وهو ينزل الماء المخزون على الشّاطئ بكل مشقة لرقة مياه البحر وهيجان الأمواج، فارتوى الجيش وحجزنا حصة البغال، وفرقنا على المشاة ما يحتاجون إليه، وما أكثر ما يحتاجون إلى الماء!! إلا أنَّ قسماً من الرّجال لم يزل ظمآن، يتزاحم حول الأحواض الفارغة معتقداً بأن البحارة سيجازفون مرة ثا نية وينزلون الماء.

وهبطت إلى السّفينة فعلمت بأن الأسطول قد ضرب الوجه كما لو كان الجيش البري موجوداً، وخشي «بويل» من أن يكون الأتراك قد اغتنموا فرصة تأخرنا فارتدّوا خفية. كان خوف «بويل» في محلّه، لأن أحمد توفيق بك حاكم الموقع في «أبو زريبات» ألقى منشوراً إلى جنوده يأمرهم بالدّفاع حتى آخر نقطة من دمائهم، ولما جنَّ الليل أسرع إلى ناقته فركبها مع بعض رفاق تمكنوا من اللحاق به، ولم يتنفسوا حتى بلوغوا الخطَّ الحديدي!!...

أما المئتا نفر الذين لزموا مكانهم فقد صمّموا على المقاومة إلى النّهاية، لكنهم رأوا قائدهم قد فر من الميدان وأنهم أمام قوة تفوق قوتهم أضعافاً وأن ضرب المدافع من البحر لا يبقى لهم حيلة فوقع الواقع، وما بلغت ظهر هاردينج *Hardinge* حتى كانت الموقعة قد انتهت واحتلّ العرب والبحّارة المدينة.

فشد هذا النّصر قوى الجيش فسرنا به عند منتصف الليل إلى الشّمال، وعند الفجر لمحنا الفرق المختلفة، وتقدمنا بنظام فلم نصادف سوى شراذم مشتتة من التُّرك، لم يقاوم منها غير واحدة مقاومة لا تذكر. وترجّل بنو عجيل، ونزعوا عنهم برانسهم ودرّاعاتهم (غندوراتهم) وعمائهم، وحاربوا نصف عراة، معتقدين بأن الجروح على هذه الحالة لا تتعفَّن، وأن ثيابهم الغالية لا تتمزق!! إنه لمنظر شائق حقاً، وقد تقدم أولئك الرّجال بأجسامهم النّحاسية النّاعمة خلال الوادي الرّملي الملتهب

بحرارة الشّـمس، وأعلام الحرس الأمامي تنعكس بألوانها القرمزية على صفحة الماء الفيروزية، وسار هذا الجيش بخطى منتظمة واسعة ستة أميال في السّاعة.

فبلغـوا القمم وتخطوها، ولـم يطلقوا عياراً نارياً واحداً، فأيقنا عندئذٍ بأن الأسـطول ورجاله الذين نزلوا إلى البر، قد قاموا بالعمل المطلوب وكفونا مؤونة القتال.



السّير رونالد ستورز

حاكم القُدس، حاكم قبرُص

الفصل السّادس

تكتيك وسياسة

وقد وعدتْ القاهرة ـ تحت تأثير هذه الأخبار الطّيبة ـ بالذّهب والبنادق، والبغال، والوّشاشات، والمدافع. إلّا أنَّه لم يصل إلينا مدفع واحد قط! وكان هذا الحرمان عذابنا الأبدي. وقد قصرنا عن تحقيق كثير من رغائبنا وعن مطاولة مدافع أعدائنا، التي يفوق مداها مدى مدافعنا الضّئيلة ثلاثة أو أربعة أميال! إلّا أنَّ وصول «جعفر باشا» البغدادي الأصل كان سلوى لنا وتنشيطاً لقوانا، وكان قد اصطفاه «أنور» لتدريب جيوش الشّيخ السّنوسي، بعد أن عرف فضله في خدمة الألمان والعثمانيين، وكان قد تمكن من الالتحاق بهم في غواصة ألمانية. فأخرج من أولئك الرّجال محاربين يرجى منهم في الملمات. ولقد عرف هذا القائد أن يكون لبقاً فنياً في مناوشاته مرتين مع الجنود البريطانيين.

ولما أسر «جعفر» وحجر عليه في قلعة القاهرة مع بعض الضّباط التُّرك، حاول الفرار في إحدى الليالي متدلياً بحبل مجدول من قماش ملاءة، إلا أنَّ الحبل لم يقوَ على حمل القائد فهوى به، فانصدع رسغ قدميه فثوى في مكانه وأعيد إلى الأسر.

وأعطيت له الحرية في المستشفى بعد أن أقسم بشرفه وبعد أن دفع ثمن الملاءة التي مزقها وكسرت رجله! وقرأ ذات يوم أن الشّريف قد انتقض على التُّرك، وأن هؤلاء الأتراك قد أعدموا عدداً كبيراً من كبار العرب ـ منهم الأصدقاء ـ لنعرتهم العربية، ففهم عندئذٍ أنه يحارب مع الفئة الرّديئة، وكان «فيصل» قد سمع كثيراً عن جعفر ووَدّ لو يسلم إليه قيادة جيشه النظامي، الذي كنا نجاهد في ترقيته بأقصى سرعة، وكان لا يزال

في القاهرة من أصدقائي «هوغارث»، و«جورج لويد»، و«ستورز»، و«ديدز» Deedes وغيرهم، وكانت دائرة الإنكليز لمعاضدة العرب تتسع بسرعة.

وقد لاحظ «السّير أرتشيبولد مَري» متأثراً بأن الأتراك يدفعون العرب بقوات ومعدات تفوق قواتهم ومعداتهم، وأنه كان دائماً يميل إلى قضية العرب، وأظهر الأميرال «ويميس» من جهته حسن نية لمعاضدتهم وقد برهن عن عطفه عليهم أيام رابغ القاسية.

أما السّير ريغنالد وينغايت المندوب السّامي البريطاني في مصر، فقد رأى بالبرهان أنَّ الذي كان يحلم به منذ سنين قد ابتدأ أن يتحقق. ولقد حسدته على هذا النّجاح. لأن «مَكماهون» قبله كان قد أقرَّ المشروع وختهم «برسم التحصيل» إلّا أنهم سلخوه من وظيفته وقد نضج الطّبخ أو كاد. وعدت إلى «الوجه» حيث أصبحت الحياة هنيئة مفيدة. وقد نظمنا معسكرنا على بعد ميل من البحر، وأمر «فيصل» بنصب الخيام الفخمة. منها للنّوم، ومنها للاستقبال، ومنها للأركان حرب، وللضيوف، وللخدم، وجميعها متصلة بحافة الهضبة المرجانية الممتدّة من السّاحل إلى الرّفوف، المنتصب أمام الأودية الواسعة المتشعبة حول المرفأ الغائر في الأرض من الشّرق والغرب. وكانت خيام الجنود ورجال القبائل متجمعة بنظام في المنخفضات الرّملية، بينما كنا نحتلّ المرتفعات المعرّضة للبرد، لأننا نحن رجال الشّمال ينعشنا نسيم المساء، ويحمل إلينا صدى هدير الأمواج البعيد. كأنّه صدى ضجيج المركبات في أعماق شوارع لندن.

وكان بنو عجيل دوننا مباشرة، وقد تجمعوا بخيامهم على غير نظام. ومدفعية «راسم» إلى الجنوب محاذية رشّاشات، «عبد الله» المرتبة في خط مستقيم والبهائم في مرابطها في صف واحد.. منظر يتهلل له الجندي النّظامي. وعلى بعد قليل أقيمت السّوق في منبسط من الأرض، والمشترون يدورون على أنفسهم وحول السّلع كالنّمل حول وكره، والنّحل على باب قفيره. وكان متطوعو القبائل يختارون المنعطفات والأماكن الكثيرة الانخفاض ليحتموا بها من الرّيح. وينصبوا خيامهم الخفيفة المهلهلة.

ومن وراء كل ذلك يبتدئ السّهل. فتسرح بعض الإبل ترعى الحشائش بين النّخل السّامق، حول بئر ماء أجاج قريبة من المعسكر. وعلى البعد تنتصب سلسلة الجبال السّاحلية بقننها الصّخرية إلى السّماء تخالها خرائب قصور غابرة. وقد اتبعنا طريقة التباعد في معسكر الوجه لاتساع السّهل وانفراج المكان. وكنت أقضي وقتي بالتنقل من خيام «فيصل» إلى خيام الإنكليز، إلى الجيش المصري، إلى المدينة، والميناء والتلغراف اللاسلكي.

وكنت أتسلق دون انقطاع هذه المدارج المرجانية محتذياً نعلين بسير أو عاري القدمين، وهكذا قد تعودت على أن أطأ أرضاً جافة حامية، وأن أحسن من قوام جسمي الذي أنهكته التجارب القاسية.

وكان كثير من العرب السّذج يتساءلون: لماذا يروح ويجيء ماشياً فلا يركب بغلة ولا حصاناً، فلم أكن أكلف نفسي وأبين لهم الأسباب الصّحية التي لاشك في أنهم لا يفهمون منها شيئاً. وما الفائدة من إفهامهم بأني أقوي جسمي وأروضه، أو أني أفضل المشي على أن أرهق هذه الحيوانات من غير داع، مع أن السّببين صحيحان.

وكان «فيصل» غارقاً في خيمته يشتغل ليل نهار في سياسته. وقليلون بيننا الذين يمكنهم أن يساعدوه في مهمته. وكان النّاس في المعسكر يجتهدون بأن يروّحوا عنا، ويسلونا بالمشاهد المختلفة وضرب النّار وأغاني الانتصار. ومن وقت إلى آخر كانوا يحدثون مشاغبات ينتج عنها حالات مميتة لغير ما سبب سوى الجهل، منها أنَّ بعض أولئك الجهلة كانوا يقلبون قنبلة وراء خيمتنا، وكانت من بقايا القنابل التي ضربها «بويل» على المدينة، فطارت شظاياها وقطعت الرّجال «إرباً إرباً وتلطخت خيمتنا بالدّم، فأمر «فيصل» بإبدالها بخيمة أخرى فاكتفى العبيد الحريصون بغسلها»...

وحدث مرَّة أن خيمة التهمتها النّيران فوقف النّاس حولها يضحكون ولا يبدون أقل اهتمام بإنقاذ المصابين، حتى خجلنا في آخر الأمر وأخذنا في معالجة الجرحى، وفي يوم آخر طاشت رصاصة فقتلت فرساً.

وثار بنو عجيل في إحدى الليالي على رئيسهم ابن دخيل بحجة أنه يرهقهم بالضرب ويزهق أرواحهم بالجلد، فدخلوا خيمته وألقوا ما فيها من الأمتعة إلى الخارج وأوسعوا العبيد ضرباً، إلّا أنَّ هذا القدر لم يشف غلتهم فتذكروا ينبُع فأخذوا طريقهم قاصدين قتل «بني عتيبة» فلمح «فيصل» هذا الاضطراب من المرتفع المضروبة عليه خيامنا، ورأى نار المشاعل فهبط عليهم كالصّاعقة حافي القدمين، ودخل بين المتمردين يضربهم من كل صوب بعرض سيفه، فأوقفتهم ثورته وتبعه العبيد وحرس الأمير أسرع من البرق الخاطف، يلكمون في ذلك الجمع المضطرب بإغماد السّيوف صائحين كالجن الصّريع. ثم قدموا لفيصل فرساً فركبها، فحمل على المشاغبين كالدّاهية، ونحن بدورنا قد شتتنا بعض الاجتماعات بإطلاق الأسهم النّارية على ملابسهم، فقتل اثنان وجرح عدد من الثّائرين، وفي اليوم الثّاني قدم ابن دخيل استقالته.

وحاكى فخري باشا خططنا وخداعنا، وإنما الحرب خدعة. فاحتلّ خطاً دفاعياً قوياً حول المدينة، وأقام عليه المتاريس ليدافع عنها ويحول بينها وبين ضرب العدو لها. مع أن العرب لم تخطر لهم هذه الفكرة قط!..

وكان ما بقي من جنوده منثورين على طول الخط الحديدي. ومخافر قوية كانت تحرس موارد الماء بين المدينة و«تبوك» وبين هذه المخافر مفارز سيارة تملأ الفراغ ويمكنها أن تحرس الخط بطوله. وقصارى القول كان فخري باشا مستنداً إلى دفاع سخيف.

وكان قد تقدم «غارلاند» إلى الجنوب الشّرقي و«نيوكومب» إلى الشّمال الشّرقي من الوجه كي يخرّبوا قواعد الخط بمتفجرات شديدة، ويقطعوا الأسلاك والجسور ويضعوا ألغاماً آليّة تنفجر عند مرور القطار.

فتحول العرب من التردد إلى التفاؤل المكين، ووعدوا بأن يخدموا بإخلاص لا شائبة فيه، وطوى «فيصل» بني بليّ إليه فأصبح سيد جزيرة العرب بين البحر والسّكة الحديدية، ثم أرسل بني جهينة ليلتقوا بعبد الله في وادي قيس.

والآن يمكنه أن يستعد لمهاجمة خط سكة حديد الحجاز، إلّا أني نصحته أن يتوقف أولاً في الوجه ويخابر قبائل الشّمال الأقصى ويكتسب مودتهم، حتى يمتد عصياننا في المستقبل إلى تلك الجهة فنهدد الخط الحديدي من تبوك ـ حد منطقة نفوذنا الحالي ـ إلى معان، ففلسطين، فدمشق، وقد ابتدأ فيصل بالعمل مع جيرانه أهل الشّمال بني حويطة. ولزيادة الحرص على نجاحنا، أوفدنا رسلاً إلى الشّمال الشّرقي لتخاطب بني عطية القبيلة الشّديدة المراس، فقدم إلينا عميدها عاصي بن عطية وحلف يمين الإخلاص أمام فيصل، ومنحنا حرية تامة لحركاتنا على جميع أرض القبيلة، ومن وراء بني عطية قبائل تأتمر بأمر نوري الشّعلان أمير الرّوَلة القوي، بل أقوى الشّخصيات بين أمراء الصّحراء بعد الشّريف وابن السّعود وابن الرّشيد.

وكان نوري شيخاً بعد أن حكم ثلاثين سنة على عرب عنزة، وكان بيته في الصّف الأول عند أهل الرّولة، من غير أن يكون له حق التصدر على غيره عن طريق النّسب فلم يكن محبوباً من أتباعه ولم تكن له صفات العميد الحربي العظيم، إلّا أنَّه لشدة مراسه وحدة طباعه ملك زمام السّلطة، ولم يتردد عن الفتك بأخويه فتكاً ذريعاً كي يحافظ على هذه السّلطة. ثم إنَّه استمال إليه أتباعاً من بني شرارة وبعض قبائل أخرى، فكان كلامه في تلك القبائل نافذاً لا مرد له، ولم تكن لنوري سياسة دهاء كباقي الشّيوخ، فإن كلمة منه كافية لهدم كل معارضة. وأحياناً لهدم حياة المعارضين، فهابته العرب دون استثناء وخضع له الجميع، ولذلك كان من أقصى الضّرورات أن نستأذنه، لكي نتمكن من الانتفاع بطرق بلاده ومعابرها.

وكان من السّهل الحصول على هذا الإذن، لأن فيصل حظوة في عيني نوري، وكان الشّريف يرسل إليه الهدايا من المدينة ومن ينبُع، فأوفدنا إلى معسكره من الوجه فايز الغصين. فالتقى في طريقه بابن دغمي أحد رجال عرب الرّوَلة المشهورين الذي أرسل إلينا ـ هدية ثمينة جداً في ذلك الوقت ـ بضع مئات من جمال الحرب الشّديدة.

ولا يفوتَنَّ أنَّ نوري الشّعلان كان لا يزال على اتصال وثيق مع الأتراك، وكانت سوق تموينه دمشق وبغداد، فلو أنَّ أعداءنا لحظوا أقلَّ ريبة في أمانته، لكان بإمكانهم

في ثلاثة أشهر أن يهلكوا نصف القبيلة جوعاً، لكننا نعلم جيداً أنه يأتي إلينا في الوقت المناسب، وأننا نحتاج إلى رجاله، أما الآن فيمكننا أن نأخذ منه كل شيء ما عدا انفصاله عن التُّرك.

وفتحت لنا نوايا هذا الزّعيم الحسنة نحو «فيصل» معابر وادي السّرحان، تلك الأرض الغنية بمواقعها العسكرية، تخترقها مسالك مطروقة تمتد لجهة الشّمال على طول تلك السّلسلة من الوهاد الكثيرة المياه، وباتصالها بالجوف عاصمة نوري الواقعة في الجنوب الشّرقي من الأزرق، غير بعيدة عن جبل الدّروز في سوريا.

وكان من المحتم علينا أن نكون أحراراً في حركاتنا في السّرحان حتى نتمكن من الاتصال بمضارب الحويطات في الشّرق وهم «بنو تايه» وعلى رأسهم «عودة» العميد الحربي الأشهر شمال جزيرة العرب، وبالاستناد إلى مثل هذه الشّخصية يمكننا أن نتابع خطواتنا بثبات، حتى نبلغ القبائل الضّاربة بين العَقَبة ومعان، ونستعين بها على طرد الأتراك من مواقعهم حول العَقَبة والاستيلاء عليها، وبمساعدته الفعلية فقط نتمكن من الخروج من الوجه، ونباشر الرّحلة الطّويلة إلى معان. ولقد تنفسنا منذ أيام ينبُع!.. ولمع بصيص الأمل في أفئدتنا منذ المقابلة الأولى «لعودة» لعلّنا نكتسب صداقته.

وفي «الوجه» خطونا خطوة واسعة. إذ وصل إلينا ابن زَعَل ابن عم «عودة» يوم 17 فبراير. ذلك التاريخ السّعيد! وهو من أكبر لجال حرب «أبو تايه». ففي صبيحة ذلك اليوم ظهر خمسة رجال من شرارة أصحاب جاه، قادمين من الصّحراء شرق تبوك حاملين هدية بيض نعام يكثر في تلك الجهات الوعرة غير المطروقة. ثم أدخل العبيد «ضيف الله أبو طيور» ابن عم حمد بن جازى شيخ فصيلة من قبيلة الحويطات مقرها المنطقة الوسطى من سهول معان.

وهؤلاء الحويطيون هم رجال حرب أشداء كثيرو العدد إلّا أنَّهم أعداء دم لأبناء عمّهم «أبو تايه» لشجار قديم لا يزال عالقاً في أذهان «عودة» و«حمد»، ورغماً من اعتزازنا بقدومهم إلينا، كان ابتهاجنا ناقصاً لأنهم كانوا في أعيننا أقل أهمية ومنفعة لنا لمهاجمة العَقَبة من «عودة».

وعقب وصولهم قدم إلينا «نوّاف» بن نوري الشّعلان البكر وقدم فرساً لفيصل. وكان شعلان وجازى عدوين لدودين، فلما التقيا تراشقا بشواظ اللِّحاظ، فبادرنا إلى تدارك الأمر، ونصبنا خياماً جديدة للضّيوف وفصلنا المتنافرين عن بعضهما.. ثم قدم بعدهما «أبو طقايقه» شيخ الحويطات المقيمين على طول المنطقة السّاحلية، يحمل الثّناء والاحترام من قبيلته والغنيمة التي استولت عليها من التُّرك في «ضبا» و«مويلح» آخر نقط احتكاكهم بالبحر الأحمر، وبعد أن أجلسه فيصل على سجادته وأثنى عليه وعلى رجاله الذين حاربوا العدو ببسالة وإخلاص، ولجنا باب الحديث عن العَقَبة.. ولم يكن من الصّواب أن نتطلع إلى هذا الباب. إلّا أنَّنا قد لمسناه عرضاً لامتصاص بعض ما يهمنا، كالإسفنجة تمتص الماء بسكون وتؤدة دون أن نشعر محدثنا باهتمامنا لهذا الحديث.

ثم قدم إلينا «ابن زعل» عند الأصيل على رأس اثني عشر رجلاً من أتباع (عودة) فتقدم هذا الشّيخ وقبّل يد فيصل مرتين مرة عن نفسه ومرة عن عودة!!...

ثم جلس إلى جانبه وقال: إنه قادم يحمل السّلام من عودة ويأخذ له بعض معلومات، فكتم «فيصل» ابتهاجه بقدوم هذا العميد، ولا غرو فهو السّياسي المحنك الحريص. واكتفى بأن قدمه برزانة إلى أعدائه بالدّم. «جازى الحويطات».

وفي خلوتنا معه تحادثنا ملياً وأعددناه محملاً هدايا ثمينة ووعوداً طيبة ورسولاً خاصاً من قبل فيصل ليقول لعودة: إن الشّريف لا يهدأ له بال إلا إذا قدم إلى الوجه لحماً ودماً، لأن عودة كان محاطاً بهالة من الشّهرة والنّفوذ، إلّا أننا لا نعرف شيئاً عن قيمته الحربية. ولا يمكننا أن نجازف وندع المصادفات تلهو بمقاديرنا عند مسألة في غاية الخطورة، مسألة الاستيلاء على العَقَبة. أو نسمح لأنفسنا بارتكاب أقل هفوة في هذا الأمر، إذن يجب أن يأتي إلينا بنفسه لنسبر غوره بمسبار الكفاءات، ونرسم كلانا بأكفنا خطوط السّير المقبل. ونتعاون قلباً وقالباً.

ولما انطفأت شعلة الشّمس الأرجوانية في مياه البحر، وهبَّ النّسيم العليل وتغلغل بين مضاربنا، اندفع سيل من الفرسان من المرتفعات التي تحجب (أبو زريبات)

وانتشروا حلقة واسعة من حولنا. ثم انفصل عنهم أربعة فرسان وأخذوا يمرحون ويترامحون ويتشابكون ويلعبون ألعاباً فروسية، وظل باقي الفرسان يهزجون وينشدون نشيد عتيبه الرّزين. وقد نظم هذه الألعاب الشّريف شاكر الذي سلب لبي ونهاي في جده. وكان قادماً من معسكر عبد الله في وادي (عيص) قرب المدينة ليسلِّم على فيصل.

وكان شاكر عين العتايبة أميراً، وإنه لعملاق حقاً على ظهر جواده لا يفاضله عربي قط بفروسيته وبإطلاق النّار والفتوة والازدراء بالأخطار والثّروة الطّائلة، وكان بدوياً صرفاً ببساطة ملبسه وطريقة معيشته وقناعته وخشونة أخلاقه، وكان رجلاً رحولاً من أخمص قدميه المتحجرتين إلى شعر رأسه المجدول جدائل تتساقط على صدغيه ومنكبيه.

ولم يختلف هذا اليوم عن سواه فيما يختص بأعمال فيصل اليومية غير تلك المقابلات التي حملت إلينا أغصان الزّيتون في مناقد الحمائم، وأصبحت مسالك الوجه تعج بالرّسل والوفود والأتباع وكبار المشايخ راكبين على خيولهم، قادمين إلى فيصل ليقسموا يمين الولاء والأمانة لقضيته، وكان رجال بليّ ينظرون إلينا بفتور فأصبحوا بعد أن رأوا هذا الموكب يقابلوننا بوجوه باشة.

وكان فيصل يقدم القرآن للأتباع الجدد بيده فيحلفون بأنهم يتقدمون إذ تقدم ويقفون إذا توقف، ولا يخضعون منذ هذه السّاعة للترك، ويعاملون كل عربي معاملة الصّديق المحب من حلب كان أو من بغداد، من دم سوري أو حجازي، ويضعون القضية العربية فوق الحياة، وفوق الأهل، وفوق كل نفع مادي.

وكان فيصل يعجل بمجابهة الأعداء والمتخاصمين بعضهم ببعض أمامه ويضع حداً لنفورهم واختصامهم، ويقسم الخسارة والرّبح بينهم، ويأخذ من هذا ويعطي ذاك ويرضي المعنتين أحياناً من ماله الخاص حتى يعتدل الميزان، وهكذا كان ينجح دائماً فيقيم عليهم المواثيق والعهود. ولازم هذا العمل الشّاق سنتين كاملتين دون ملل، يجمع ويضبط أموراً اجتماعية لاعدَّ لها في مكانها الطّبيعي، ونصْب عينيه فكرة لا ثاني

لها وهي وحدة العرب وتوحيد كلمتهم لمحاربة التُّرك إلى النّهاية. فأينما سار كان كأنه ماء يخمد نار الضّغائن، وكأنه محكمة استئناف عليا لكل جزيرة العرب الغربية حكمها مبرم لا نقض له.

وقد برهن على أنه في مستوى هذه المهمّة الشّاقة، فلم يتحيّز قط في قرارة نفسه، حتى إنَّه كان يضحي بعدله لحكمته في مسائل معقدة يخشى منها أن تسبب عراقيل فلم تشب أحكامه شائبة ولم يطعن قط في نزاهته وخبرته بعادات القبائل وأحوالها فهو يسبر غور الأمور، ويزن الجيد والرّديء بقسطاس الحكمة، ويحفظ في ذاكرته العجيبة كل ما دق وبعد في مطاوي الماضي حتى اكتسب سلطة ـ لا يختلف فيها اثنان ـ على جميع القبائل من المدينة إلى دمشق، وإلى أبعد من ذلك، فكانوا يعتبرونه قوة سامية فوق القبيلة. يعيد إلى العشائر رؤسائها الحقيقيين المتحدرين من نسلهم ودمهم ويسود من على جميع المحاسد، وبأهليته وحده تحولت الحركة العربية إلى حركة شعبية حقيقية لها غرض واحد مشترك، واجتث جذور الضّغائن والخصومات من نفوس القبائل، وقد وجب القول بأن مقدرة هذا الرّجل على تصريف الأمور أسابيع الظّفر القليلة هي هي التي تمكنت من احتمال شهور الأحلام الطّويلة الخائبة بعد إعلان استقلال دمشق.

البدو قوم غريبو الأطوار، ومقام الإنكليز بينهم مدة طويلة أمر لا يحتمل، إلّا إذا تقلَّب على الصّبر من جميع نواحيه وتعوّد غضاه وقتاده.

وكنا نلحظ بأنَّ أقلَّ شبهة ضغط على حريتهم الشّخصية تصيّرهم حردين لا يرتدّون عن فكرة خاطئة، أو ينصرفون غير راجعين، ومتى عرفنا هذه العقليات وتسلّحنا بالصّبر، وعرضنا عليهم قضيتنا على أوجه مخالفة أوجهنا المعقولة أغريناهم وتمكنا منهم، فلا يرتدون عن مرضاتنا ولو بأشد المشاق وأغلى الأثمان. ليت شعري هل النّجاح يوازي هذه الجهود لا يمكن لأحد أن يثبت ذلك، والإنكليز الذين يحصلون على نتائج باهرة بطرق أخرى هينة لا يرغبون ـ وبالحقيقة لأنهم لا يتمكنون ـ في ضياع الوقت الذي يبذله الشّيخ أو الأمير كل يوم ليبلغ النّتيجة الضّئيلة.

وطرق العرب لا سرَّ فيها ولا أحاجي وأدمغتهم كأدمغتنا، ولا يمكن لأحد أن يشكو من عدم فهمهم... الأوليات هي التي تختلف، وليس من سبب ليسمح لنا بأن نقول: هؤلاء لا يعرف لهم كُنه!!.. هؤلاء شرقيون! اللّهم إلّا كسلنا وجهلنا بالعالم العربي.

وقد أصبحنا منذ الآن من الوجهة الحربية راسخي القدم في «الوجه»، وقد أرسل إلينا «آلِنْبي» بعض سيارات مصفحة ورولز رويس ومتقاعدين محترمين من جيش الجنرال «سميث» كانوا في شرق أفريقيا الألمانية يقودهم ضباط ورجال إنكليز، وهم مستعدون لأي عمل يمكنهم القيام به فابتدأوا بتذليل صعوبة السّير على الرّمل وتخطى الكثبان، وقد أُفرغت «ينبُع» عند رحيلهم عنها من آخر جندي ومن جميع ذخائرها الحربية.

وهجروا رابغ أيضاً فتركتها الطّائرات وجاءت إلينا، وأرسل إلينا «جويس» و«غوسْلِت» الحامية المصرية، وابتدأت أعمال الأركان حرب في الوجه. يطوف «نيوكومب وهورنبي» البلاد دون ملل يوحدان القوى ضد الخط الحديدي لا همَّ لهما غير تعطيله ويعملان أحياناً بأيديهما.

وكل شيء كان سائراً سيراً حسناً، وفي أصيل أحد الأيام هرول سليمان المنوط به أمر الضّيوف. ودخل خيمة «فيصل» وأسرّ في أذنه بكلمات فأبرقت أسارير الشّريف ومال إليَّ مجتهداً بأن يحافظ على رزانته المعتادة: عودة بالباب!! فما تمالكت أن صرخت عودة أبو تايه!! وفي لحظة رفع حجاب الباب، وسمع صوت أجشّ يحيّي «سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين». رجل ضخم ذو منكبين عريضين، وملامح خشنة. متحمس خطر. دخل الخيمة، هو عودة يتبعه ابنه محمّد وعمره إحدى عشرة سنة تكاد تحسبه غلاماً يلعب.

فانتفض فيصل واقفاً فانحنى عودة وقبّل يده وتنحينا بضع خطوات، ورمق الواحد الآخر قليلاً: زوجان فخمان وشخصيتان متناقضتان لكنهما يحقّقان كل أمرّ نافعٍ لجزيرة العرب: آلِنْبي ـ فيصل! ورجل الحرب ـ.

عودة! كلٌّ يقوم بمهمته بإتقان، فتحابا لأول مقابلة وجلسا! وقدّمه لنا فيصل فسلّم علينا بعبارات موجزة كل على قدره كأنه كتب مميزاتنا على لوح صدره!...

لقد كنا نسمع كثيراً عن عودة ونعلل الآمال بدخول العَقَبة على يده، فلم تمر دقائق حتى عرفت كيف ألحظ قوة هذا الرّجل وأخلاقه القويمة!

لقد جاء إلينا كالشّريف التائه يرقب السّاعة ليضرب الضّربة القاضية، وقد هاج تلكؤنا في الوجه، وفوق ذلك قد لعلعت في قلبه نار الشّهوة لاكتساب فضل أولية تحرير العرب المستعبدين ولحصد الشّهرة في حقول قبائله!...

فلندعه يصل إلى تحقيق نصف أحلامه، لنكون نحن سعداء ناعمي البال! وكانت أفكارنا قد انطلقت من قيودها لسقوط الحمل الثّقيل عن عاتقيهما وحُل الملزم القاسي عن صدريهما فدعينا إلى الغذاء.

ونعمت صحبتنا على أتم السّرور، فكان نسيب وفايز ومحمّد الضّغلان ابن عم عودة ومستشاره السّياسي، وزعل ابن أخته والشّريف ناصر الذي يأخذ راحة في الوجه في فترة غزوتين قصيرة إلى بضعة أيام. وأخذت أقص على فيصل حكايات منوعة عن معسكر عبد الله، وعن السّرور الذي حاق بالنّاس عند تخريب السّكة الحديدية، وبينما كنا نتحادث صرخ عودة ونهض بقفزة واحدة وقال: «اللهم احفظنا» وخرج من باب الخيمة، وسمعنا مبهوتين مثل ضرب المطرقة على الحجر فخرجت لأرى ما الخبر. فإذا بعودة يكسر طقم أسنانه على الصّخر ويقول: لقد نسيت! لقد نسيت هذه هدية جمال باشا. وها أنا آكل خبز سيدي بأسنان تركية! وللأسف لم يكن عودة يملك إلا اليسير من أسنانه الطّبيعية، فأصبح بعد هذا العمل الطّائش الجميل لا يحسن مضغ اللحم المحبوب لديه، وكان عليه أن ينتظر ويصبّر معدته إلى أن نستولي على العَقَبة. وقد أوفد إليها السّير ريغينالد وينغايت طبيب أسنان مصرياً ليصنع له أسناناً اتحادية!...

كان عودة يلبس ثياباً بسيطة للغاية وعلى عادة أهل الشّمال، وهو نسيج أبيض وعمامة حمراء، يزيد عمره على الخمسين. وشعر رأسه أسود تتخلله بعض خيوط

بيض، إلّا أنه كان قوياً منتصب القامة، لين القوام كالغصن الأملد، خفيف الحركة كابن الثّلاثين، له وجه جميل متناسب القسمات، لولا ندوب من الأحزان لا تمحى مدى الدّهر على ولده الأحب إليه «عناد» الذي قتل في معركة، فبدّدت المصيبة ألذ أحلام حياته، وستكون الأجيال المقبلة عاطلة من ممثل يحمل اسم «أبو تايه» وعظمته. له عينان واسعتان سوداوان كالمخمل، ناطقتان بما يكن جنانه، وجبهة عريضة غمَّاء وأنف طويل مسحوب أعقف كمنقار الباشق، وفم واسع وشفتان تختلجان، وكان ملتحياً وله شاربان خيطيان مشذبان على طريقة بني الحويطات، محلوق جانبي المبسم.

وأصل قبائل الحويطات الحجاز هاجروا منذ قرون، ولا تزال تلك القبائل إلى الآن تفخر وتزهو بأصلها البدوي، وكان عودة في أعينهم الرّئيس العريق والمثال التام، مضيافاً مسرفاً مستهلكاً، إلّا في نظر الذين يدخلون الطّعام على الطّعام من غير ما جوع وما أكثرهم هناك!! فكان دائماً خالي الوفاض رغماً من مئة غزوة وغزوة ناجحة! وقد تزوج ثمانية وعشرين مرة، وجرح ثلاث عشرة مرة فقط عند اشتباكه بالعدو مراراً كثيرة. ورأت عيناه جميع رجاله جرحى والقسم الأوفر من أهله قتلى! وقد صرع وحده خمسة وسبعين عربياً، لكن في حومة القتال دائماً أبداً.. أما ضحاياه من التُّرك فلا يمكن حصرهم، لأنه أهمل معهم كل حساب إلّا عملية الضّرب! فأصبح رجال الحويطات بفضل نفوذه وشجاعته أشدَّ جنود الصّحراء مراساً، وأبعدهم صيتاً تضرب بهم الأمثال، وكان أولئك البدو يشعرون من نفوسهم بالتفوق على غيرهم، شعوراً لا يفارقهم حتى آخر نسمة من الحياة، وحتى آخر مهمّة يحق عليهم البلوغ إلى غايتها.

إنما هذا الإسراف في النّفوس والاقتتال مع القبائل مدة ثلاثين سنة متوالية، أودى برجاله الأشداء فتضاءلوا إلى الخمسمئة بعد أن كانوا ألفاً وخمسمئة عداً! وكان عودة يقوم بغزواته كلما سنحت له الفرص.

فقادته هذه الرّحلات رويداً رويداً إلى حلب والبصرة، وإلى وادي الدّواسر، يذكي نار الضّغينة بين رجاله وبين قبائل الصّحراء الأخرى لتتسع شقة الخلاف، ويتسع له مجال العمل المثمر، وكغاز كان خبيراً ومباشراً لا يجازف حتى في ثورة جنونه، بل

يدرس الخططّ قبل التنفيذ بكل دقة وتأن. ويحسب حساب المحتملات والمفاجآت، ويصبر عند العمل صبر الجمال، ويتحمل النّقد والإهانة باحتقار عميق وابتسام عذب، أما إذا غضب تقلصت ملامحه وتعذر عليه وقف تشنجاته، وأصبح في الحال صريع ثورة غضب ونوبة ترجاف لا تسكنان إلا بالدّم، وفي هذه الأحوال يكون عودة وحشاً مفترساً تهرب من حوله الرّجال! فلا قوة على الأرض تحوله عن عقيدته، و لايهتم لشعور غيره إذا صمَّم على أمرٍ ما.

ينظر إلى الحياة كأنها أسطورة، خرافية، وأن الحوادث لا بدَّ من حدوثها، وإن كل من يحتكّ به يكون بطلاً!.. وقد ارتسمت في ذاكرته قصائد طويلة من أشعار الفروسية وأخبارها تمجد الغزوات والمعارك يلقيها بفصاحة على سامعيه والمحيطين به. وإذا فاته السّامعون فإنه يترنم بها في وحدته فيسمع له هدير عميق يردد البعد صداه، ولم يكن بمقدوره أن يلجم لسانه عن الكلام فكان يسيء إلى نفسه بهذه الثّرثرة ويجرح شعور أخصائه وأتباعه، ويتكلم عن نفسه بصفة الجمع للمتكلم مقتنعاً بشهرته. ولشدة اعتداده بقوته لا يحجم عن إظهار بعض مساوئه بصوت جهوري. وكان يبدو في بعض الأحيان كأن به مساً من الجن أو داخله عفريت الشّر. فيحكي حكايات أمام النّاس مقسماً بصحتها، ويسرد تفاصيل فظيعة مريعة عن حياة ضيوفه ومدعويه العائلية.

ومع ذلك كان محتشماً ساذجاً كالطّفل، قوياً، أريباً، حتى من الذين كان يجلب لهم المشاكل.

وقد تغيرت وجهة نظري بعد سقوط الوجه، وبعد السّكون العميق الذي استولى علينا فسمحت لي الوحدة بالتفكير والحكم، وبقدر ما كان يبعد تاريخ هذه الحملات كانت تتجلى لعيني طريقة تسييرنا لدفة القتال.

ما زالوا يتبارزون على الخط الحديدي وقد دنا «نيو كومب وغارلاند» من «المعظّم» مع الشّريف (شرف) و(مولود) ومعهم جمهور كبير من بليّ مع مشاة ورشّاشات تحملها البغال، وهم يرجون الاستيلاء على «الاستحكام» والمحطة التي بجانبه.

وكان نيو كومب يفكر بأن يسيّر رجال «فيصل» إلى نواحي «مدائن صالح» فيملكون بذلك خطاً طويلاً من السّكة الحديدية لا بأس به، ويعزلون المدينة عن الشّمال ويرغمونها على التسليم بأسرع ما يمكن. وكان على ويلسن أن يصل ويمد إليهم يده و«داڤنپورت» يستقدم رجالاً من الجيش المصري لأن لديه وسائل النّقل فيضيفون قوة على قوة الهجوم العربي.

وكان هذا البرنامج الذي نظمته بنفسي مطابقاً كل المطابقة للخطة التي اقتنعت بفائدتها بعد الاستيلاء على الوجه لنتقدم إلى الأمام. أما الآن وأنا في زمن البطالة ظهر لي أن هذه الخطط كأنها رديئة، ليس فقط رديئة بتفاصيلها بل بجوهرها أيضاً، وصار من واجبي إذن أن أفسر هذا التغيير الطّارئ، وأن أقنع رؤسائي إذا أمكنني ذلك فيسيروا وراء آرائي الجديدة.

وقد تقدمت بثلاثة احتمالات: أولاً ـ امتناع الجنود غير النّظاميين عن الهجوم على النّقط المحصنة! إذن فهم غير أهل لتقرير حالة.

ثانياً ـ ليسوا أهلاً للدّفاع عن موقع محصّن ولا للهجوم عليه.

ثالثاً ـ إن قيمتهم الحربية هي في الغزو والمفاجآت لا في الخطوط النّظامية.

فحرب العرب حرب جغرافية: والجيش التُّركي عارض غير جوهري، ويجب علينا أن نفتش عن الحلقات الضّعيفة من السّلسلة التي تربط المدينة بدمشق ونسلط عليها معظم جهودنا إلى أن يفعل الزّمن فعله المبين على طول خط الاتصال هذا، ووسيلتنا الكبرى هم البدو الذين كان يجب أن يكونوا هم روح الحرب لو أنهم يحسنون الأعمال المنظمة. إنما من مزاياهم الحربية سرعة الانتقال، وشدة المراس، والثّقة الفردية، ومعرفة البلاد، وشجاعة مفكرة.

فالقوة مع هؤلاء الرّجال هي التفرق. فتكون النّتيجة أنه يجب أن نوسّع ونمد جبهتنا إلى الحد الأقصى من مقدورنا، فنفرض على الأتراك دفاعاً سلبياً يتمسكون به إلى ما شاء القدر. فإن هذه الطّريقة من الحرب من الوجهة المادية هي الأغلى ثمناً

ماينهـم، ومـن جهتنا يحتم علينا أن نصل إلى الغاية المنشـودة بأقصى حد من الاقتصاد بالأرواح. لأن حياة جنودنا هي أثمن من الذّهب والوقت للقضية العربية. وبشـيء من الصّبر ولباقـة الحركات أن نجالد العـدو على طريقة «سـاكس» Saxe ونقتنص الظّفر دون معارك بالتّوغّل في مقاييسنا ومسايرة طباع جنودنا! وكنا أسعد حالاً من العدو من جهة المواصلات والنّقل والرّشّاشات والسّيارات المدرّعة والمتفجرات القوية، وكان يمكننـا أن نهجم بجنود متنقلة فقط، مجهزة بأحسـن تجهيـز ونظهر بمظهر الهجوم في نقاط مختلفـة عديدة على طول الخط التُّركي، فنفرض على العدو أن يقيم مخافر كثيرة في كل مخفر عشرين رجلاً على أقل تقدير، ونكون بهذا قد وصلنا إلى الفوز من أقرب الطرق.

من العبث أن نستولي على المدينة والتُّرك هناك لا ضرر علينا منهم، ففي مصر كان خالفنا الأسير مبالغ باهظة لإطعامه والاحتفاظ به، إذن يجب أن يبقى في المدينة أو في أي نقطة بعيدة عن حركاتنا، ومن رأيي أن تستمر مواصلات السّكة الحديدية، ولكن بحالة تشبه حالة العليل المزمن الذي يحتاج إلى طبيب ومعالجة بين حين وآخر. ولا يكون هناك سـبيل إلى شـفائه، فنكلف العدو مشـاقاً وذهباً ووقتاً لا نهاية له لإصلاحها كلما أراد السّير عليها! وإذا كان تموينهم مضموناً على هذا الخط فما يضيرنا لو احتفظنا بجميـع الخطوط الحديدية في الحجاز وما وراء الأردن وفلسـطين وسـوريا وأبقوا لنا تسعمئة وتسعة وتسعين جزءاً من العالم العربي.

فـإذا حاولـوا أن يوحّـدوا قواتهم في ناحية معينة ـ ولا شـك أنها سـتكون مقتصرة ـ ويتمكنوا من التظاهر ببعض النّجاح، فعلينا أن نثبّت عليهم ثقتهم بقوتهم ونتراجع عنهم إلى أجل، لأنَّ بلاهتهم تكون حليفتنا، فإن التُّرك يحبون أن يحتفظوا أو يعتقدون بأنهم يحتفظـون على قدر اسـتطاعتهم بولاياتهـم القديمة، لأن كبرياء الاسـتعمار الموروثة أبقتهم في موقعهم الحالي الغريب، أجنحة في كل جهة دون جهات!...

فنقـدت المشـروع بكل دقائقـه فجمع بيـن كل المذاهـب. أما السّـيطرة على نقطة معينـة مـن الخط الحديدي فهو مـا يكلفنا كثيراً وفوق ذلك تكون قوتنـا الثّابتة في تلك

النّقطة المركزية مهددة من الشّمال ومن الجنوب... أما اختلاط الجنود المصريين برجال القبائل فله أثر سيئ ونتائج مهلكة لكل حركاتنا. لأنَّ البدو ينحنون أمام الجنود النّظامية ويتفرجون على الغريب الذي يكفيهم مؤونة الإجهاد والتّعب... فينتج عن ذلك تحاسد ونقص عام في العمل. فضلاً عن أن مناطق بلاد بليّ قليلة موارد المياه. وثبات قوة كبيرة قرب السّكة الحديدية هو من الأمور التي تسبب متاعب مادية خطيرة من الوجهة الفنية.

وعلى ذلك لم يكن لاعتراضاتي على كليات الموضوع تأثير كبير ولا على دقائقه، فقد أوقفوا هذه الخطط لأن الاستعدادات كانت قد بلغت شوطاً بعيداً، وكلٌّ كان غارقاً في عمله الخاص، فلم يفكر أحد بأن يمنحني سلطة كافية كي أتمكن من الشّروع في عملي. وكل ما نلته هو جلسة استشارية أقروا فيها، بأن خطتي التي عرضتها يمكنها في وقت ما أن تفيدنا في تحويل العدو إلى اتجاه مغلوط.

ودرست مع عودة أبو تايه مشروع رحلة إلى الحويطات بين مراعيهم في الرّبيع في صحراء سوريا، ويمكننا أن نجهز فرقة من الهجّانة ونأخذ العَقَبة عنوة دون مدافع ولا رشّاشات، وكانت جوانب العدو غير منيعة ويمكننا أن نمرّ بالمواقع الأقل منعة، ويكون زحفنا مثالاً للالتفاف البديع، لأنه سيحتم علينا أن ندور دورة مسافتها ستمئة ميل في الصّحراء لنستولي على خنادق تكون تحت رحمة نيران مدافعنا. وكان عودة يعتقد بأن الذّهب والدّيناميت يمهدان كل عقبة، وأن القبائل العربية الصّغيرة قرب العَقَبة تنضم إلينا، فأقرَّ «فيصل» مشروعنا لتعرفه إلى تلك القبائل ووعدنا بأن يقدم لنا مساعدته إذا صادفنا شيئاً من النّجاح من جهة معان... ومن هناك نزحف بقوة كافية إلى ميناء العَقَبة.

إلّا أن القوات البحرية قد نفذت هذا المشروع، وكنا نحن لا نزال نفكر في كيفية تحقيقه، وأدلى إلينا الأسرى التُّرك بمعلومات ثمينة صيرتني نافد الصّبر للسّفر في الحال.

* * *

الفصل السّابع
الانطلاق إلى سوريا

لقد تم استعدادنا للسّفر يوم 9 مايو سنة 1917. فاستأذنا فيصل وودعناه أصيل يوم بهيج مشرق، فردد دعاءه الطّيب ورآنا ونحن ننحدر عن التل، والشّريف ناصر يقودنا، وهل يطمع النّاس ويتمنون أن يقودهم أشجع وأقوى من الشّريف، وهم قادمون على غزوة من أشد الغزوات ريبة بالنّجاح.

كانت المرحلة الأولى قصيرة جداً فوصلنا إلى قلعة السّبيل، وهي على باب البلد ومن هناك كان يمرّ الحجاج المصريون ويتزودون بالماء، فعسكرنا حول الحوض المبني بالآجر في ظل تلك القلعة الصّغيرة حارسة الآبار، ومن حولها بعض نخلات منتصبة في الفضاء، وهجم الليل ونحن نكمل بعض النّقص في القافلة، وقد ظهر لنا أثناء السّير، وكان «عودة» وأقاربه يسيرون إلى جانبنا «ونسيب البكري» الدّمشقي عامل «فيصل» السّياسي المكلف بتمثيل الشّريف لدى سكان قرى سوريا، ونسيب هذا يحمل في جمجمته دماغاً قوياً، ونظراً لمركزه الحسن فقد نجح في مهمّة بعض مخابرات في الصّحراء، والذي رغب في أن يصحبنا في هذه الرّحلة العظيمة هو مجابهته أشدَّ الصّعوبات بسرور ـ وهي صفة نادرة في السّوريين !!...ـ وتفوقه في السّياسة ولباقته وخصب طرق إقناعه وظرفه، وفوق كل ذلك وطنيته التي كانت تخفف فيه غريزة الطّرق المعوجة الموروثة منذ القدم، وكان نسيب يرافق «زكي» الضّابط السّوري ويتعاونان.

وكانت قافلتنا مؤلفة من 35 عقيلياً يقودها ابن زعيتر، وهو ذو عقل مطبق طائش نافر

يكفي نفسه شرَّ غيره! وسلم إلينا فيصل عشرين ألف دينار ذهباً، وهو كل ما يمكنه أن يقدمه لنا، وكانت هذه القيمة فوق ما طلبنا إليه لندفع أجور الرّجال الذين نجدهم في طريقنا، ولنزكي نار الشّهوة للذهب في قلوب الحويطات فيعاونونا بحماسة.

وضممنا إلى العقيلين ـ مخيمراً ومرجان وعلي ـ شاباً قروياً من إحدى قرى حوران يدعى محمّد لونه أكمد نحاسي مطيع وديع الأخلاق «وقاسم من معان» لونه أصفر ليموني، فكاه نائثان، وكان هذا الأخير قد التجأ إلى الحويطات لقتله موظفاً تركياً في مناقشة حادة على ضريبة مواشي، وكنا نرثي لحال مرتكبي الجرائم ضد الجباة فاستفاد قاسم من هذا العطف، رغماً من أنَّ أخلاقه لا تستحق هذا المبدأ الرّئيف؛ وربطنا الأحمال على الحيوان عند هبوط الليل، وأخذنا الطّريق، وكان دليلنا ناصر قد خبر تلك الأرض فكان كأنها أرض بلاده، فسرنا على ضوء القمر الصّافي وتحت القبة ساطعة النّجوم، وسار أمامنا ناصر وهو مأخوذ اللب يحن إلى داره وأهله، وكان يكلمني عن بيته المبلط بالحجر، والمسقوفة حجره بالحجارة المعقودة اتقاء حر الصّيف، وعن حدائقه المملوءة بالغراس المثمر وطرقها المظللة بالأغصان الخضر الملتفة، يمرّ تحتها الإنسان فلا تنفذ إليه الشّمس، ووصف لي البئر وطريقة أخذ الماء منها بدلاء من الجلد تربط في حبل جرار على بكرة متينة براكوبة مرتفعة فوق فتحة البئر. ثم ترفع تلك الدّلاء مناوبة وتفرغ في حوض مثقوب يمرّ منه الماء إلى المسكن ثم إلى القنوات لريّ الحديقة، وحوض السّباحة الكبيرة المصقول «بالإسمنت» المظلل بالدّوالي المتسلقة والمتسللة على أعراض من خشب. فهناك كان ناصر وبيت أخيه ينعمون بحمام الظّهيرة.

كان ناصر حزيناً منقبض القلب تظهر على وجهه بشاشة إلّا أنّها كانت كاذبة، وسألني تلك الليلة باستفهام إنكاري: لماذا! أنا أمير المدينة الفتى المقتدر النّاعم بالحياة الهادئة في قصري وحدائقي. لماذا تركت كل ذلك لأكون قائداً خاملاً وأجاذف في الصّحراء بهذه الرّحلات الخطيرة. ولي سنتان وأنا كالمنفي أحارب دون انقطاع في طليعة جيش فيصل. وأكلف القيام بالصّدمات المهلكة وتمهيد طرق الانتصار. إن البئر العظيمة

نفسها التي تئنّ منذ ستمئة سنة وتدور بمروحتها الرّحوية قد صمتت وصامت!!

وشر البكرات الصّائمة! وبارت الحديقة وتشققت أرضها لشدة الحر والعطش، وأصبحت جرداء قاحلة كتلك التلال التي نتغلغل بينها.

وبعد أن سرنا أربع ساعات توقفنا قليلاً ونمنا ساعتين، ثم تابعنا السّير. وخارت قوى النّوق الحمولة من شدة الجرَب الملعون الذي أصابها في الوجه، فكانت تتباطأ وترعى الحشيش الضّئيل على حافتي الطّريق. وكان بإمكاننا نحن الرّاكبون على مطايا خفيفة الحمل أن نسبق القافلة، لكن عودة لم يرض بذلك ومن الواجب علينا أن نرفق بمطايانا للسّاعات الحرجة. فسرنا ست ساعات تحت الشّمس المحرقة وانعكاس أشعتها على الرّمال البيض والصّخور الملس العارية منذ خروجنا من الوجه، وكان يبهرنا ويقذفنا بأمواج من اللهب الخانق. فاستولى علينا دوار شديد. وأراد عودة أن يتابع المسير فاعترضنا بشدة وترجلنا وتمدّدنا تحت ظل الأشجار من السّاعة الحادية عشرة إلى السّاعة الثّانية والنّصف، فكنا نقطع الأغصان الخضر ونلقيها على رؤوسنا كي نكثر من كثافة الظّل.

ومشينا ثلاث ساعات على أرض مستوية حتى دنونا من انحدار وادٍ صخري، وتراءت لنا جنات الكور الغناء وخيام هرمية بيض تتخلّل النّخيل، وما كادت أقدامنا تطأ الأرض حتى وفد للترحيب بنا راسم وعبد الله ومحمود والطّبيب ومولود الشّيخ ذلك الفارس المقدام الباسل، وأفهمونا بأن الذي نطلب مقابلته في «أبو رجا» ـ مرحلتنا القادمة ـ ذهب في غزوة لبضعة أيام، فلم يبق فائدة من إسراعنا، فاسترحنا يومين كاملين في الكور..

لم يبق في هذه القرية من البدو غير «ضيف الله» الأشيب الذي يشتغل ليل نهار مع عائلته في قطعة أرض ورثها عن أجداده واقعة في أسفل الوادي، محاطة بسور من الحجر اليبس لمنع الفيضان، وفي وسط الأرض بئر ماء صاف عذب يرفع بالشّادوف. وهو عبارة عن ذرنوفتين من الصّلصال يعترض رأسيهما أفقياً خشبة متينة تحمل في وسطها جذعاً طويلاً، وفي أحد طرفيه دلو وفي الطّرف الآخر مثقلة من طين مجفف أو حجر،

فيشـد الدّلـو فيهبط في الماء فارغـاً ويصعد بخفة ملآن ويفرغ في قناة قرب الشّـادوف لتـروي الحديقة على هـذا النّمط. وكانت سـعف النّخيل الأثّة تلقي ظلهـا الدّائم على الخضرة والمزروعات فتقيها حر الشّمس المهلك، فكان «ضيف» يزرع الطّباق وإيراده لا بأس به، ومربعات من الفول والبطيخ والخيار والباذنجان حسب فصول السّنة.

ويعيش هذا الشّـيخ مع زوجاته في كوخ من أغصان الشّجر بجانب البئر. وقد أظهر نفوره من سياسـتنا، وسـألنا كيف يتاح للعربي أن يكون أكثر راحة وبحبوحة لدى هذه الجهود القاسـية والتضحيات البليغة. وكنا نمزح معه ونشـرح لـه بعض النّظريات عن الحرّيـة. واسـتقلال العرب ونزجيه بالنّكايـة حتى ننعم بمحادثاته وحماسـه، وقلنا له: «ألم يكن من الواجب أن يكون هذا البستان ملكاً لك ويبقى دائماً لك من غير منازع». فلم يشأ أن يفهم، لكنه انتفض واقفاً وقرع صدره وقال: «أنا! أنا كرّ».

فشـكرناه لأنـه قانع بقسـمته وقـد ألقـى علينا درسـاً في الحكمـة نحن عبيـد النّهم والشّـهوة، وشـكرناه كذلك لأنه باعنا من بقوله وفاكهة حديقته، فتحسنت حالة غذائنا الذي كان من المحفوظات التي جلبها لنا راسم وعبد الله ومحمّد.

وكان غنـاء وعـزف حـول النّـار كل ليلـة. فلـم تكن تلـك الأصـوات الحلقية ذات الصّخـب العزيـزة لدى رجال القبائل، ولا تلك الأنغام الشّـجية المملة عند بني عقيل، بل مقاطع من الأصوات العالية الرّأسية، تقف فترات على الرّبع، ونبرات تتصاعد بنغم سليم كعادة قرى دمشق.

وكان «مولـود» يعـرف مـن بيـن رجاله موسـيقيين حيين فـكان يحضرهـم كل ليلة فيعزفون على المزمار ويغنون أغاني مقاهي دمشـق وأناشـيد قراهم الغرامية!... وكان المعسـكر كلـه يصغي بصمـت عميق ويتنهدون مـن كل جهة لنهايـة كل مقطع. إلّا إذا اسـتثنينا ضيفـاً الذي تابع خضخضة المـاء متأكداً من عودتنا إلى الشّـراء من بقوله بعد الانتهـاء مـن هذه الأصوات الخارجة من الحلق. ولم يكن هذا البسـتان في نظرنا نحن سكان الحواضر سوى تذكارات البلاد التي كنا نعيش فيها، بيد أنه لم يقضِّ علينا جنون الحرب ولا نزال على قيد الحياة! ولم نكن بعد قد انخرطنا في مجاهل الصّحراء.

أمّا عودة فكان يعتبر عرض مثل هذا الخصب الزّراعي مفسدة وأي مفسدة!...
وكان يطمح بنفسه إلى أفق الصّحراء الأكثر خشونة، ولذلك قد قصرنا ليلتنا التالية، ليلة النّعيم الفردوسي، ورحلنا عن ذلك المكان في السّاعة الثّانية صباحاً متابعين خط الوادي. وكان الليل حالكاً وضوء النّجوم أضأل من أن ينير المعابر الضّيقة التي كان علينا أن نخترقها، وعلى رأسنا عودة يوقر آذاننا ويسحق رؤوسنا بصياحه وينهنهها بهذه الأنشودة الحويطية الحماسية هو! هو! هو! الموقعة على ثلاثة أنغام عالية صاعدة ولم نكن نفهم منها شيئاً، ومع ذلك قد شكرناه بعد مدة على هذه الألحان عندما اخترقنا طريقاً في غاية الالتواء لم ننجُ من التيهان فيه إلا بفضل صدى صوته! وتوقفنا عند طلوع الشّمس للاستراحة، لأن تلك المرحلة في الظّلام كانت شاقة للغاية. ولم يكن معنا ما نأكله غير طحين الحملة فخففنا شيئاً عن ظهور جمالنا المسكينة. أما «شرف» فلم يكن قد عاد إلى «أبو رجا» فليس من الضّروري إذن أن نحث ركابنا. بل علينا أن نسير الهوينى قدر ما يسمح لنا تموينا بالماء. وكنا كالأمس نتفيأ تحت عباءاتنا المنشورة على الشّوك وننتقل مع الفيء اتقاء الشّمس المحرقة، ولكنه لم تكن لدينا وسيلة لاتقاء غيوم الذباب الذي كان يضرب سرادقات على أجسامنا.

وبكرنا السّاعة الخامسة صباحاً وتابعنا السّير والوادي يضيق بنا، فدرنا حول أكام ذات انحدار خفيف فتسلقناها، فبلغنا طريقاً ضيقاً بل مدق حوافر الماعز يتلوى كالثّعبان على جوانب تلك التلال، فترجلنا وقدنا المطايا نسير أمامها حبواً، ولم نلبث أن تعاونا على المشي خوف السّقوط إلى أسفل، ومن ورائنا عبيد يحثون النّوق ومن أمامنا عبيد يربتون على صفحات أعناقها ويزجونها بأصواتهم لتتابع السّير وتتجلد عند الممرّات الوعرة. مع مراقبتهم لتوازن الأحمال على ظهورها، وهي في كل لحظة مهددة بالسّقوط.

ولقد بلغنا معابر بين الصّخور كانت خطرة حقاً، وكانت المطايا تتطرف إلى الحد الأقصى من تلك الطّرق، فتكاد تصطدم أحمالها بالجلاميد فتهوي إلى غور الوادي، فالتزمنا أن نعيد شدَّ أكياس الطّحين والمتفجرات على ظهورها. ومع كل حرصنا قد

فقدنـا في طريقنا هذا جملين أنهكهما التّعب. وجهز عليهما بنو الحويطات في المكان الـذي توقفنا فيه عن السّـير فقطعـوا أوردتها بسـكاكين ماضية وتقاسـموا لحمهما في الحال.

ولما عبرنا المضيق تراءى لنا واد طغى عليه الرّمل وغطته بعض الشّجيرات، واتخذ انحداراً قليلاً، وكلما قطعنا مسـافة من ذلك الـوادي ومررنا بمهاوٍ عميقة تتجلى أكوام الرّمـال فـي الأفق تحـت ألوان الفجر البنفسـجية. وبعد سـير سـاعة في ذلـك الوادي المنحـدر، دخلنا في مضيق رسـم عليه طريـق قادنا إلى وادي «جـزل» بعيد الغور يبلغ اتساعه المئتي متر.

فنصبنا خيامنا فوق أحد الكثبان المرتفعة ذات الحشيش الرّديء، ومن حولها أرض رسـبت عليها طبقة من طمي الشّـتاء تتخللها أضحال من الماء. وقد أرسلنا رجلاً يخبر «شـرفاً» بوصولنا، وقد أبصرنا على البعد خيامه مضروبة فوق الوادي بين مشـذب من شـجر الغار الـوردي. وكان بانتظارنا منذ أمس. فقضينا ليلتين فـي هذا القاع الموحش بيـن الجدران الصّخرية التـي تردد صدى حركات المعسـكر. وكان ماؤه الأجاج نعيم إبلنـا ونعيـم جلودنا عندمـا ارتمينا فيه عند الظّهيـرة، ثم تغذينا وملنا إلـى قيلولة طويلة ثـم نهضنـا نتنزه في منحنـى الـوادي ونتأمل، ونعجب مـن هذه الصّخـور المكونة من الرّواسـب المطبقة طبقـات أفقية مختلفة الألوان من وردي وكسـتنائي وأصفر وأحمر تتمازج وتنحل إلى لون تغلب عليه الحمرة، وتصبغ هذه الجلاميد المنتصبة بلون مميز غريب، وكنا نلهو بتكسـير هذه الطّبقات الملونة كأنها من مسـتدق الخذف، فتتسـاقط بألوانهـا المتعـدّدة إلى أسـفل الصّخـر، وقضيت ما بعد الظّهر أستنشـق الهـواء النّاعم الدّافـئ منفـرداً متكوماً وراء صخـرة مصففة كالحظيـرة صنع أحد الرّعـاة ليزرب فيها قطيعه. وأسمع بلذة اصطدام الهواء من فوق رأسي بالصّخر الذي يقيني من هبوبه ليمرّ بالوادي فينشر عليه عبير السّلام.

وكنت أحلم وعيناي مطبقتان فسمعت صوتاً قريباً، وإذا بمجهول من بني عقيل وهو بحالة اضطراب يدنو مني ويرجو أن أشفع لصديقه عند سعد شيخ بني عقيل كي لا يقيم

عليـه حدّ الجلد. لأنَّ صديقه فرّاجاً حرق خيمتهما مزاحاً. ثم وصل سـعد فاسـتطلعته الخبر فأخذ يقصُّ عليَّ القصّة والرّجل مبغوث فاغر الفم مقلص الشّـفتين، تتدلى على عينيه أهداب طويلة من أجفان مختلجة.

ولـم يُرض خطاب سـعد هذا الأحمق المدعو داود. لأن الصّاحبين كانا يفعلان مسـاوئ عديـدة بيـن آونة وأخرى، حتى أنَّ «شـرفاً» في المـرة الأخيرة أمر بمعاقبتهما بشـدة ليكونا أمثولـة وعبـرة لغيرهمـا، وجـل مـا يمكنهـم أن يراعـوا خاطـري به هـو أن يقاسـموا داوداً القصـاص! فانتفض داود سـروراً لهـذا النّصيب وقفز إلى يدي وقبلها وقبل يد سـعد وأخذ يتوقل على صخور الوادي بينما كان «سعد» يروي حكايات هذين الأحمقين!..

إن فرّاجـاً وداوداً يمثـلان تلـك العاطفـة التـي لا بدَّ مـن أن تنمو وتزكو بين شـابين محروميـن من كل امرأة!... والصّداقة من هذا النّـوع تؤدي حتماً بين رجلين إلى حب وشغف عميقين.

وفي اليوم الثّاني لم يحضر شـرف فقضيت سحابة الوقت قبل الظّهر بالمداولة مع عودة عن مرحلتنا الآتية، بينما كان ناصر يلهو بإشـعال عيدان الثّقاب أمام خيمته ويرسـل شرارها إلينا. ونحن جذلان ناعمان بحديثنا الهادئ، مرَّ بنا سراعاً شكلان مقوساً الظّهر بعيون رسم عليهما الألم وشـفاه قلصتها ابتسـامات مصطنعة وسـلّما علينا. وإذا هما داود حادّ المزاج وفرّاج صديقه. وكانت عينا فرّاج دامعة لرقة مزاجه ونحوله وتخنثه وملامحه العذبة البريئة، ثـم وقفا تجاهـي وتقدما لخدمتي، فلم أكن بحاجة إليهمـا وأفهمتهما بأنهما لا يقويان على ركـوب الخيل بعد ضربهما بالسّـياط فأجابا بأنهما ركبا إلـيَّ على ناقة عارية. فقلت لهما أنا رجل رقيق الحال لا أقوى على خدم يحيطون بي، فأدار داود ظهره مدمدماً غاضباً، أما فرّاج فأغرق في الإلحاح وقال نحن نخدمك بكل عواطفنا حتى نبدي لك شكرنا وإنك لا محالة محتاج إلى الخدم. ثم تقدم إليَّ ناصر وركع أمامه كي يشفع لهما عندي وعرض كل ما لديه من العواطف الجذّابة لكي يقنعنا بصدق رغبته. فأذعنت نهائياً لمشورة ناصر واستخدمتهما عندي، يشفع لهما شبابهما ومظاهر نظافتهما.

ولـم يصل «شـرف» إلا صبيحة اليوم الثّالث فقد أخذ أسـرى على الخطوط الأمامية

وضرب خطوطاً حديدية وهدم جسراً، وأخبرنا بوجود مياه في وادي درعا على الطّريق التي سنسلكها، قد تجمعت في المنخفضات بعد المطر الأخير. فبعثت فينا هذه الأخبار بارقة أمل إذ إننا لا نكون محرومين من الماء مسافة الخمسين ميلاً حتى نبلغ «فجر» فتركنا «أبو رجا» صبيحة اليوم التالي، وقادنا عودة في وادي ثانوي اتسع أمامنا في سهل «شقّ» الرّملي. وعلى هذه الرّمال شتات من الجلاميد كأنها قطع من الجليد والطّريق تدور حول هذه الجنادل الهاوية المتآكلة قواعدها بفعل الحرارة والمطر والهواء والتي تحسبها تسد عليك المنافذ فإذا لها معابر خفية لا تراها إلّا إذا بلغت إليها. أما عودة فكان يسير على هدى، حاثاً هجينه بفخذيه رافعاً يديه محاذاة كتفيه.

ولم يكن من أثر لأقدام على الرّمال لأنَّ الصّبا يسفي الرّمال سراعاً فتعفو الرّسوم ويجمعها كثباناً ثابتة متجمعة كأمواج البحر داعبها الرّيح، غير أن بعر الجمال الخفيف وروث البغال الهش يتدحرج مع الهواء الخفيف ويتكون في الحفر هنا وهناك. وربما كان هذا الأثر الأسود على الرّمل الأبيض النّاصع الدّليل الوحيد لسير عودة. فضلاً عن أن عودة كان جريئاً لا يجارى في هذا المضمار لغريزته ودقة شعوره.

ولما توسطنا مرحلتنا لمحنا خمسة أو عشرة من الفرسان يبدو أنهم قادمون من جهة الخط الحديدي. فتقدمت أنا وعودة وشعرنا بالهزة العذبة التي تعتري المسافر في قلب الصّحراء عندما يلتقي بمجهول ويقول له: «عدو أم صديق» حتى أننا لم نحذرهم فحثثنا مطيتينا وتقدمنا شاهري السّلاح لإطلاق النّار عند أول حركة تريبنا. ولم نلبث أن تبيناهم غرباء عن رفاقنا البدو. وعن الدّيار. الأول يركب هجيناً غليظاً بدون اهتمام على الطّريقة الأوربية وعلى سرج من خشب كالسّروج التي تصنع في مانشستر لفرقة الهجّانة البريطانية، وكان إنكليزياً ذا شعر أشقر ولحية كثة وبزة مهلهلة شبارق، فقدرت بأني سألتقي بـ «هورنبي» تلميذ «نيو كومب» المهندس الشّجاع المغوار الذي كان يزاحم أستاذه في فن تعطيل الخطوط، وبعد أن تبادلنا التحية ـ وكانت أول مرة تعرفت إليه بها ـ أخبرني «هورنبي» بأنّ «نيوكومب» سافر إلى الوجه مؤخراً ليتحدث إلى فيصل عن الصّعوبات التي لقيها والتي يجب تذليلها.

وقبل غروب الشّمس بلغنا الحدود الشّمالية لتلك البقعة ذات الصّخور المكونة من تلاحم الحصى والرّمل. وتابعنا السّير إلى أن بلغنا نجداً مبعثرة عليه مثل تلك الصّخور. إلّا أنَّ هـذه القطع السّـود المرمرية الكثيرة العدد الصّغيرة الحجـم كانت تغطي الرّمال كالحصى الملس على شواطئ البحار.

وكانت عتمة لا يضيء فيها غير شعاع النّجوم الذي تمتصه كمدة الأرض.

وتوقفنا السّاعة السّابعة فلم يتمكن من اللحاق بنا سوى أربعة أنفار وانتثر الآخرون وراءنا كالعقد المنفرط، وإذا بنا في واد لين يشقه مجرى سيل لا يزال ندياً موحلاً، ومن جانبيه نبات غزير شائك، ولكنه للأسف لا يصلح مرعى لمطايانا فأخذنا منه شيئاً كثيراً وكومناه فأضرم عودة فيه النّار، وإذا بأسود طويل خرج من بين الأغصان وانسل بيننا فكنا عند قول المثل: كحاطب ليل. فأجهزنا عليه وألقيناه في النّار، ثم اشتد اللهب وتصاعد في الجو مشعالاً غريباً فأضاء فضاءً واسعاً، فأبصرنا جمالنا تصل تباعاً مثقلة بالأحمال. وكان الرّجال يغنون ملء حناجرهم لتتشجع الجمال وتقوى على السّير، وعلى تحمل الجوع الفاضح في تلك الصّحراء القاحلة، وليفهمونا بأن القادمين أصحاب لا أعداء.

وضلَّ قسمٌ من الجمال في البرية طلباً للمرعى، فطاف النّاس عليه حتى تمكنوا من إعادتها، وكان عندنا متسع من الوقت لنعجن ونخبز الملّة بالملال ونفطر عند الفجر، وتابعنا السّير فجزنا حقلاً من الحمم البركانية لكننا شعرنا بالنّشاط والرّاحة، وظهرت لنا الصّخور زاهية والرّمال جافة ثابتة كأرض ملعب «التّنس!»، ومشينا شوطاً واحداً إلى السّاعة الثّالثة بعد الظّهر مرغمين لا مختارين، لأننا خشينا أن تدمى أخفاف إبلنا على تلك الأرض المملوءة حجارةً مكلّسة حادة الأطراف بفعل الشّمس والعوامل الطّبيعية الأخرى. وقد تعودت الإبل أن تطأ الأرض اللينة على سواحل البحر فتتوقف عن التقدم! ثم استرحنا. وما كدنا نثبت على سروجنا حتى قابلتنا صخور عظيمة مشتتة، فدرنا حولها لنتخلص من الحجارة ذات الزّوايا الحادة، ومن مستنقعات ذات ماء أخضر آسن.

وكانت تلك المكسرات من الصّخور مشحوذة الجوانب كشفرات الخناجر تنتثر عن تلك الصّفائح التي هي أشبه شيء بمغاور وبنايات للإنسان الأول، تنذر بالسّقوط

اليوم وغداً، ومالبثت تلك الجنادل أن تكاثفت وتجمعت أمامنا كما في اليوم السّابق، فحاولنا الانخراط بين عاتمها ومضيئها.

وعدنا إلى تعجبنا من مهارة عودة الذي يقودنا في هذا التيه من الصّخور. وما أن خرجنا منه حتى وقعنا على أرض بركانية جديدة لها فوهات متجمعة اثنتين اثنتين وثلاثة ثلاثة. وسيول من الحمم تنفرش على سطح التلال. وفي بعض الأماكن حجارة ملس صغيرة مربعة تتكوّم بمرور الزّمن على أرض حمراء.

وكانت خطى المطايا منذ أقدم العصور تتجدد على هذا الطّريق وتترك أثراً ظاهراً ضارباً إلى الزّرقة.

أخيراً، أرانا عودة عرفاً يبلغ علوه الخمسين قدماً، يظهر أنه كومة من نتيجة ثورة بركان كان يقذف المرمر فتتساقط على بعضها ملتوية متقلصة لولبية قمعية الخ... وتتجمد بأشكالها فجأة، ثم انتهينا من الأرض البركانية وأبصرنا سهلاً مفتوحاً أمامنا متجمعاً، هو وادي عيسى، رمله ناعم ذهبي تنبت عليه أعشاب قصيرة وأشواك خضر كثة. وقد نقص ماء الحفر في تلك الرّملة لأن بعض النّاس قد أفرغوها بعد المطر الذي سقط غزيراً ثلاثة أسابيع قبل ذلك، فعسكرنا قريباً من تلك الرّملة، وهذه هي المرة الأولى بعد «أبو رجا» تمكنا من أن نقدم لركائبنا علفاً كافياً، فتركناها ترعى إلى غروب الشّمس.

وبينما كانت مشتتة في تلك النّواحي، ظهر في الأفق لجهة الشّرق رجال على الهجن، يركضون مطاياهم جهة مورد الماء الذي نحن عليه، وما لبثوا أن أطلقوا النّار على ماشيتنا، فأسرع رجالنا يتسلقون الصّخور والتلال ويصرخون بأعلى صوتهم، ويطلقون بنادقهم على القادمين، فتشتت اللصوص لهذا الصّراخ، ولهذا الوابل من الرّصاص، ورأيناهم في الأفق عند غروب الشّمس، يتجهون نحو خطوط العدو. وكانوا يبلغون العشرة أو كادوا. فانشرحت صدورنا لهذه الهزيمة، ويعتقد عودة أنها كشّافة لقبيلة شمَّر.

* * *



الأدميرال وليَم بويل

ضابط البحريّة البريطانيّة في البحر الأحمر

الفصل الثّامن

الصحراء الحقيقية

استوينا على سروجنا منذ الفجر ووجهتنا «طرّة» وهي مرحلة قصيرة نلاقي في نهايتها مستنقعات كان قد حدثنا عنها شرف إلى أن بلغناها بعد الظّهر، وكنا على مقربة من السّكة الحديدية، فعلينا إذن أن نتزوّد بالماء الكثير فنملأ القرب قبل أن نباشر السّفر الطّويل إلى «فجر».

ولما توقفنا، تقدم عودة من فرّاج وداود ليراقب تدليكهما هجيني بالسّمن، وهي الوسيلة الوحيدة لدينا لتخفيف حكة الجرَب التي لا تطاق وقد انتشرت على جلده حتى بلغت فكيه، وقد فتكت المراعي اليابسة بحيواناتنا في بلاد بليّ والأعشاب الرّديئة حول «الوجه» فتكاً ذريعاً فلم يسلم هجين واحد من هجن فيصل من هذه العلّة. وكانت جمالنا الرّكوبة كالحمولة تضعف وتسقم يوماً عن يوم، فخشي ناصر من أن تنفق هذه الحيوانات البائسة في سفرنا المقبل الشّاق، فيضطر كثير من فرساننا الترجل في قلب الصّحراء.

ولم يكن لدينا دواءٌ شافٍ من الجَرَب، وكل عناية بهذه الجمال كانت ضائعة لا تخفف شيئاً من آلامها، إلّا أنَّ هجيني كان يشعر بشيء من الارتياح، كلما تمكن فرَّاج وداود من دلكه إذا أصابا قليلاً من السّمن من الذّخيرة، وكان خادماي الحديثا العهد يرضيانني بشجاعتهما وبشاشتهما وبحسن ركوبهما واستعدادهما للعمل لأول إشارة.

وحوالي السّاعة الرّابعة عدنا إلى سروجنا، ونزلنا في وادي «طرّة» ومررنا على كثبان مرتفعة متنقلة منحدرة انحداراً سريعاً تتخللها أعراف صخور حمر، فصعد بعض

منا إلى مرتفع وهم يُحبون عليه حبواً ليشرفوا على خط السّكة الحديدية، ولم تكن في تلك السّاعة نسمة هواء، وكنا في غنى عن هذه الرّياضة إلّا أنَّها أتت بالفائدة المطلوبة، وكان الخط الحديدي هادئاً موحشاً وسنجتازه بدون خطر.

وتابعت هجننا المثقلة المسير في الوادي حتى اجتازت الخط، ولم تتوقف إلا في الطّرف الأقصى من السّهل، حيث تمكنا من إخفائها عن الأبصار خلف التلال الصّخرية، واشتغل العقيليون في هذه الآونة بوضع المتفجرات على طول الخط، وأضرموا فيها فتائل النّار وأسرعوا فانضموا إلينا بنظام، وأعاد إلينا الوادي صدى الانفجار المتواصل.

وكان عودة إلى ذلك الحين يجهل الدّيناميت وعظم مفعوله، فكان فرحه فرح الطّفل بلعبته لما استعمله لأول مرة، وأخذته نوبة شعرية فتغنى بقوة هذه الآلة الغريبة! فاستغربت الحيوانات هذه المقاومة وحاولت التخلص من الأسلاك فلم تفلح فأذعنت للأمر، وانحدرت إلى أسفل التل من جهة الشّرق تجر وراءها الأسلاك والأعمدة متشابكة بعضها ببعض، إلى أن ثقلت الأخشاب التي تجرها وراءها فثقلت عليها فامتنعن عن السّير، فأخلينا سبيلها وتابعنا السّير إلى أن هبط الليل فاسترحنا جذلين لنجاح مشروعنا.

وعند السّاعة الرّابعة صباحاً أمر عودة بالرّحيل فصعدنا كثيراً من المرتفعات إلى أن بلغنا أعلاها، فانبسطت أمام أعيننا سهول لا حدَّ لها تضيع في الأفق البعيد لجهة الشّرق بين الضّباب الكثيف الأزرق الدّاكن. ولما طلعت الشّمس غمرت ذلك الفضاء الشّاسع بنور متماثل يلقي إلى الأمام أظلال القمم والأعراف الضّائعة في تلك الأجواء... إلّا أنَّها كانت رؤية سريعة الزّوال، وابتدأت الأفياء تتضاءل وتستدق كلما انبلج النّهار وسطع النّور، إلى أن اضمحلّت كأن إشارة خفية أمرتها بالاختفاء!..

واستولى علينا الضّجر عندما اشتدَّ الحرُّ وماج على تلك الصّحراء.

وكان بدو «فجر» يسمون هذه المنطقة «الهول» لوحشتها وقد سرنا النّهار بطوله

ولم نر حياة ما على تلك الرّمال. ولا أثراً لأقدام غزال أو ضباً أو عصفوراً، وكنا نشعر بأننا صغار جداً في الفسيح الذي لا نهاية له. إن الصّمت العميق يسحقنا سحقاً وكل مجهود يضيع عبثاً ما عدا صدى صوت اصطدام بعض الحصى الملساء، بأخفاف إبلنا أو باحتكاك الرّمل الحامي المنحدر إلى الغرب، وقد فتتته الأعاصير على كر العصور.

وكان هواء من غير هبوب! له وهج الأتون كأيام الخماسين في مصر، وكلما دنت الشّمس من الزّوال ازداد الهواء كثافة مشبعة بغبار صحراء «النّفود» الكبرى في جزيرة العرب الشّمالية، التي كنا على مقربة منها يخفيها عن أبصارنا الضّباب الكثيف. وهبّت الرّيح كالزّوبعة الصّغيرة عند الظّهر، تشققت لها شفاهنا، وتقلصت وجوهنا وجحظت عيوننا من الغبار الدّقيق، فأصبحنا في أشد حالات الألم والعذاب إلى أن انقضى النّهار.

ولم يكن من الممكن، بل كان من المستحيل علينا أن نتوقف. وكنا نتقي الحر بعباءاتنا ليتاح لنا الوصول إلى «فجر» في هذا اليوم سالمين نحن وجمالنا. ولم يكن يخطر لنا أمر سوى اقتراب الليل وسكونه، ورطوبة هوائه وسمائه المتلألئة بالنّجوم، فقطعنا خمسين ميلاً واسترحنا. وفي اليوم الثّاني بلغنا البئر المنشودة عند الظّهيرة وكان عمقها ثلاثين قدماً، وجدارها الدّاخلي من الحجر العاري وهو دليل على قدمها، ماؤها أجاج إلا أنه مقبول إذا شرب بارداً ويعكر في القرَب سريعاً. ويظهر أنَّ أثر الفيضان لم يزل باقياً من السّنة الماضية، لأنَّ الجفاف أخذ يطغى على المراعي. فسرحنا المواشي ترعى وأرويناها ثانية، ثم حصرناها في منخفض على بعد نصف ميل من الماء فباتت إلى الصّباح.

وهكذا أخلينا سبيل البئر لبعض قاطعي الطّرق الذين يغتنمون فرصة الظّلام ويتزودون بالماء، إلا أن حرّاسنا لم يسمعوا صوتاً ما.

وحسب عادتنا ركبنا المطايا قبل طلوع الشّمس وبلغنا «خَبرة عجاج» Khabr Ajaj عند غروب الشّمس بعد أن مللنا الرّكوب والصّمت في تلك البادية الخرساء، وكان المستنقع يحفظ مياه أمطار العام الماضي فكانت تصلح للجمال إلّا أنَّها غير صالحة البتة للإنسان. وحسبنا أننا سنلتقي بالحويطات غير أن العشب كان محشوشاً إلى ما

ساوى الأرض وعكرت مواشيهم المياه وقد اختفوا عن الأبصار، فسار عودة على أثرهم فلم يعثر عليهم لأن الرّيح أضاعت معالمهم. وكان لنا الأمل بلقائهم إذا تقدمنا نحو الشّمال.

وفي اليوم التالي وهو اليوم الرّابع عشر منذ خروجنا من «الوجه»! كنا في طريقنا قبل طلوع الشّمس على مرتفع من الأراضي الكلسية المغطاة بالرّمال في إحدى زوايا صحراء (النّفود) الكبرى حيث الكثبان المرتفعة تفصل جبل شمّر عن صحراء سوريا.

ولقد عبر كلّ من «پالغريف» Palgrave والزّوجان «بلَنت» Blunt و«هوبر» Huber و«غرترود بِل» Gertrude Bell وغيرهم هذه المنطقة في الزّمان الغابر، وقد طلبت من عودة أن يدور بنا دورة قصيرة حتى نحظى نحن أيضاً باختراقها. فقال لي وهو واثق ومتذمّر: إنّ المرء لا يُقدم على اجتيازها إلا مُرغماً وفي بعض الغزوات مثلاً. حتى إن من كان ابن أبيه «أي الشّجاع» لا يجسر على ركوب هذا المركب الخشن على ناقة منهوكة القوى يأكلها الجرب، وغايتنا الوحيدة أن نصل أحياء إلى «عرفجة».

وهكذا تابعنا سيرنا بحكمة على الرّمل الملتهب المملّ. وعلى أرض أشد اتقاداً ومللاً، هي أرض «جيعان» Giaan الشّاسعة التي لا نهاية لها، تلك الأرض التي جفّ وحلها فأصبحت ملساء لامعة شهباء منبسطة كورق الشّجر، تصفعنا أشعة الشّمس الغادرة وتلهب جفوننا المسكينة التي هي أضعف من أن تقي عيوننا وهج الجحيم. وقد كانت تمر علينا من حين إلى آخر موجات من الألم والدّوار فنكاد نسقط عن ظهور مطايانا فاقدي الرّشد. ثم يزول هذا الدّوار أمام شبه دريئة تتراءى سوداء أمام شبكية العين. وفي تلك الفترة القصيرة نقتنص نَفَساً عميقاً نخزنه في صدورنا بانتظار عذاب آخر.

ولم نعد نقوى على النّطق والكلام، إلى أن دقت ساعة الخلاص، السّاعة السّادسة فترجلنا وتعشينا خبز الملّة الذي خبزناه في الحال ونمنا بسكون وراحة بعد عذاب النّهار اللاذع. إلّا أنَّ الليل لم يخل من العواصف ونسف الرّمال. أما عودة فقد تشاءم من اليوم القادم. وخشي إذا دهمتنا زوابع الرّمال أن نتأخر أربعة وعشرين ساعة، وفي

اليوم الثّالث نكون محرومين من الماء بتاتاً، ولهذا السّبب أمر بالرّحيل قبل الفجر حتى بلغنا سهل «البسَيْطة» ذلك السّهل الذي صغَّره القوم تهكماً لامتداده الشّاسع المنبسط إلى ما لا نهاية له، إلّا أنَّ أرضه المحصوبة بالحصى السّود أراحت جفوننا ولو أنها كانت رديئة تحت أخفاف الإبل التي أصاب أكثرها الوجى من طول الوجيف.

والجمل لا يتحمل الاغتراب إلّا مرغماً، وأخفافه اللينة التي تعودت السّير على الأرض الرّملية النّاعمة في سواحل جزيرة العرب، لا تقوى على السّير في الشّمال على الحصى والحجارة وتحت وهج الشّمس الأبدي، فإن جلده يتفلّع وتنتابه الفقاقيع، ولا تلبث أن تنفجر فينسلخ الجلد عن اللحم فتعتري هذا الحيوان المسكين آلام مبرحة. ورغماً من هذه الحالة المؤلمة يمكنه أن يسافر إلى ما شاء الله على الرّمل. أما إذا اتفق واصطدم بحصاة فيعثر ويعرج ويتأخر كأنه يمشي على جمر أو يخطو على قتاد، إلّا إذا كان بالغاً حدَّ الصّبر والجلد والانقياد فيتابع سيره إلى أن تخونه قواه فيتوقف فجأة، وعند ذلك لا سبيل إلى دفعه إلى الأمام ولا إلى الوراء خطوة واحدة.

وكان علينا إذن أمام هذه الحالة أن نسير برفق. وكنت مع عودة أمام القافلة فأراه يتناود يمنة ويسرة ليختار الأرض الخالية من الحصى فيمرّ عليها الرّكب، وبينما نحن في ذلك أبصرنا نفحة من الغبار تدور أمامنا مع الرّيح، فقال عودة: «هذا نعام». وركض أحد الرّجال إلينا حاملاً بيضتي نعامة كبيرتين بلون العاج. فتوقفنا في الحال لنفطر على هذه الأكلة التي جادت بها «بسَيْطة». إلّا أنَّ الوقود كان أندر من الكبريت الأحمر، فمضيت ربع ساعة لم نحصل فيها بعد التفتيش إلّا على حزمة من القش الهش وبينما الرّكب يمرّ أمامي وقعت عيناي على حزم الغراء المفرقع وهي (مادة الجيلاتين تمتزج مع المفرقعات) ففتحنا ربطة وأخذنا نلقم النّار بسرائد الهلام (الجيلاتين أيضاً) شيئاً فشيئاً حتى قدرنا أن ننضج البيضتين المعلقتين بين اثفيّتين وترجَّل ناصر ونسيب وأخذا يهزأان من طبختنا ومطبخنا، ثم أخذ عودة خنجره ذا النّصاب الفضي وأعمله في قشرة إحدى البيضتين فانشقت عن رائحة نتنة لا تطاق. فهربنا منها مسرعين ودحرجنا - ككرة القدم - البيضة الثّانية الحامية إلى أن بعدنا بها عن الجيفة! وكانت هذه طازجة إلّا

أنها من الدّاخل صلبة كالحجر، فوضعناها على شظية من الصّوّان، صحافنا الفريدة في الصّحراء وتساردناها. حتى أنَّ ناصراً نفسه الذي لم يتدنَّ إلى أن يمدّ يده إلى مثل هذه البيضة قد اقتنع أخيراً وشاركنا في وليمتنا، ولم نجهل أن طعامنا كان جامداً يبساً، إلّا أنَّه في «البسَيْطة» كان لذيذاً!..

وقد اكتشف «جهل» أثر غزال فوقف في قترة إلى أن توفق إلى صيده فقطعه قطعاً وعلّقه على الجمال الحمولة إلى أن نبلغ آخر المرحلة. وعدنا إلى السّير وقد أبصر بنو الحويطات غزلاناً أخرى ولحمها شهي لدى أولئك القوم. وكانت هذه الحيوانات البُله تهرب قليلاً ثم تقف وتنظر إلينا بعيونها النّجل الكحيلة، بينما الصّيادون يسيرون إليها خفية ويقتنصونها. وكانت بطونها البيض تخونها وتدل عليها على حد المثل: «دلَّت على أهلها براقش» لأن السّراب يزيد في حجمها فتظهر البقع البيض كبيرة فاضحة لحركاتها.

وكنت أشعر من نفسي بالضجر والسّأم بحيث لم أشأ أن أتنحى عن الطّريق القويم لكي أصطاد أندر حيوانات في العالم. فتابعت طريقي ووسعت قلوصي الخطى فبلغت رأس القافلة. وكان رجالي في المؤخرة يمشون على أقدامهم لأنهم خشوا أن تنفق مطاياهم إذا هبّت عاصفة بشدة، فكانوا يقودونها برفق على أمل الوصول إلى آخر المرحلة بسلام.

وكنت أقارن وأعجب من الفرق بين محمّد البدوي الشّديد الضّخم وبين فرّاج وداود مثالي عقيل في الخفة، يقفزان على أقدامهما العارية ولهما عضل دقيق متين كأنهما فرسان مؤصلتان. وبادينا أفراد القافلة فكان قاسم غائباً فاعتقد رفاقه بأنَّه مع بني الحويطات نظراً لطبعه المقبض الموحش على غير ما هو عليه الجنود من المرح. وكان يحن إلى البدوي الذي يشبهه في كثير من طباعه، ولم يكن أحد متلكئاً من الرّجال، فتراجعت إلى المؤخرة لأرى حالة مطية قاسم فوجدتها من غير راكب، يقودها أحد بني الحويطات، والخرجان والبندقية والزّاد كلها معلقة بالسّرج. فقدرنا بأن قاسماً البائس قد ضلَّ في البرية، لقد كان الموقف حرجاً. إذ إنه من المستحيل أن ترى قافلة

بكاملها على بعد ميلين بين الضّباب والسّراب. وإنَّ هذه الصّحراء لا تترك عليها أثراً. فمن المستحيل أيضاً أن يلحق بنا قاسم على قدميه!..

وتابع الرّجال سيرهم معتقدين بأنَّ قاسماً تائه بين القافلة. وقد كان الظّهر فإذا حسبنا الوقت الذي مضى يكون قاسم على بضعة أميال إلى الوراء، وحمولة جمله تدل على أننا لم نتركه نائماً منذ أن مشينا عند الفجر.

واعتقد العقيليون بأن السّموم قد صفعته فسقط عن ظهر مطيته ميتاً. ومن المحتمل أن يكون قد ذهب ضحية انتقام. وبالاختصار لم يكن أحد يعرف من الأمر شيئاً. ولم يهتم له أحد لأنه كان كالغريب بينهم لأخلاقه الشّاذة!..

لم يبق شك في أن قاسماً أصبح في عداد الأموات. وللأسف لم يكن هناك شك أيضاً في أنَّ محمّداً ـ مواطنه ورفيقه في العزلة ـ يعرف طرق الصّحراء، ومن تحته هجين أنهكه الإعياء فلا سبيل إلى التفكير بأن نرسله للتفتيش عليه.

ونظرت إلى رجالي المشاة نظرة حائرة وتساءلت، إذا كان من الممكن أن أسير على الأقدام مع القافلة وأتنازل عن قلوصي لأحدهم فيعود إلى الوراء. وكان من البديهي أن يعتقدوا بأني أنا الغريب البسيط أتقاعس بحق بل أرفض القيام بهذا الواجب. إلّا أنَّ هذه الحجة تقام عليَّ لا لصالحي، فكيف يمكنني أن أجابه بها وقد تعهدت منذ أن وطأت الصّحراء بأن أعاون العرب بجميع الوسائل في حال عصيانهم. ومع ذلك فإنه لمن الصّعب على الأجنبي أن يضغط على وطنية شعب آخر. لأنه لمن الشّاق جداً على مسيحي حضري دائم القعود أن يقود قبائل رحلاً من المسلمين، وكنت أكون وقفت موقفاً غريباً، لو أني طالبت بامتيازات هاتين الحالتين الواحدة أوربية والأخرى عربية. وعليه رأيت أن لا أطالب القوم بالتفتيش على العبد الضّال، وأستحث وطنيتهم، وأن لا أتقاعس عن القيام بهذه المهمّة الخطرة بنفسي!...

وأدرت رأس هجيني دون أن أنطق بكلمة فعاند وحرد، فأرغمته على أن يترك رفاقه ويمرّ بالقافلة مودعاً ويضرب في صحراء لا نهاية لها عائداً أدراجه إلى الوراء. ولم

أشعر قط بروح البطولة في نفسي لأني كنت حانقاً على خدمي الآخرين، وحانقاً على ذاتي لأني أمثل دور البدوي، وحانقاً على قاسم ذلك النّكرة المقبض الذي كان يهم بالانسحاب لأقل سخرة، على ذلك الشّخص ذي الطّباع السّيئة المخاتل الشّرس الذي ندمت لاستخدامه، ولقد صمَّمت على الاستغناء عنه عند أول بلد أمين،أليس من سوء التصرف أن أغرر بنفوذي في قضية العرب من أجل رجل واحد لا قيمة له البتة.

ولقد شاركني قلوصي رأيي دون شك لأنَّه مازال يحرد ويهدر ويتلكأ، وهذه هي عادة كل ناقة تهان وتشاكس! إلّا أنَّها عادت إلى الصّواب بعد أن قطعت ميلين، وأخذت تسير من غير انحراف إلّا أنها تبطئ لتبدي عدم الرّضا.

لقد كنت في الأيام الأخيرة أخط مقاييس الطّريق ببركاري الزّيتي، ولهذا قد اعتقدت أن أبلغ أول المرحلة سبعة عشر ميلاً إلى الوراء.. وقد مرَّ عليَّ نصف ساعة وأنا أسير سيراً حسناً، لأني تمكنت عند هبوب الصّبا أن أرفع الحجاب عن عيني، وأنظر إلى الأفق بدون عذاب شديد إلى أن أبصرت فجأة جسماً غريب الشّكل، ربما أن تكون عليقة ضخمة وعلى كل حال إنه شيء أسود متكوم. غير أن السّراب الخادع كان يخفي العلو والمسافة، وابتدأت ألحظ بأن هذا الجسم يتحرّك قليلاً على يمين الطّريق، فأملت عنان مطيتي للقدر ولم ألبث أن تبينت قاسماً الملعون. فناديته فتوقف مخزياً. فدنوت منه فوجدته مبهوتاً مبهوراً وذراعاه ممتدّتان إليَّ، وفمه فاغر جاف. وكان بنو عقيل قد أفرغوا ما بقي من الماء في قربتي فقدمته له فأخذه مسرعاً وأهرق القسم الأكبر منه على وجهه وصدره ثم أخذ يئن من شقائه. فأردفته وأسرعت إلى الأمام. فاستأنس هجيني باعتدال الطّريق وتنسّم ريح القافلة فسار يوسع خطاه رغماً من ازدواج حمله. وأحياناً يمدُّ بعنقه ويحني رأسه ليتميز أثر الرّكب على أرض ناعمة.. تلك صفة في هذه الحيوانات تكتسبها بالسّليقة والمران.

فعجبت لغريزة هذا الحيوان اليقظ كما أنني سررت لرجوعي سريعاً، حاملاً لقيتي ورائي وما فتئ قاسم يئن من شدة عطشه أنيناً مشجياً، فحاولت عبثاً أن أسكته. فكان كالأصم لدى أوامري. بل ازداد نواحه وتقلقله على كفل مطيتي يتناود يمنة ويسرة

كالسّكران مما كدّر عليَّ صفائي وأثار غضبي. وخشيت أن ينهك المطية بهذا التقلقل والاضطراب على كفلها.

فدعوته لآخر مرة كي يمتنع عن هذا الصّخب فزاد عناداً وصراخاً! عندئذٍ صفعته وحلفت بأن أرميه إلى الأرض لأول أنَّة يئنها. فأيقن بشدة غضبي وأني جادّ في تهديدي فاعتدل وارعوى، عابساً حارداً، إلّا أنَّه لم ينبس بكلمة.

فسرت أربعة أميال إلى أن أبصرت فقاعة من الهواء سوداء تركض وتترجرج أمامنا في السّراب. وما لبثت أن انقسمت إلى ثلاث كل واحدة منها تنبسط وتتعاظم كالرّؤيا في الأحلام، فتساءلت ربما كانوا أعداء، لكن جزعي لم يطل فقد اضمحلّ ذلك البخار بسرعة شأن هذه الظّواهر الغريبة في الصّحراء، وتبينت عودة ورجلين من رجال ناصر قادمين للتفتيش عليَّ! فأفرغت جعبتي قادحاً مازحاً مستهزئاً مؤنباً بسخرية وهذر لتركهم رفيقاً في الصّحراء هدفاً للموت المحتّم! فقبض عودة على لحيته وزمجر، ثم قال: والله لو كنت حاضراً لما تركتك تخطو خطوة واحدة وراء هذا الكلب. وأمطروا قاسماً وابلاً من الشّتم والتعنيف ورموه على ظهر حيوان وسرنا جميعاً هملجة.

ولم تمضِّ ساعة حتى اجتمعنا بناصر ونسيب على مرأى من القافلة. وكان نسيب حانقاً عليَّ لأني جازفت بحياة عودة وحياتي لهوس جنوني، وكان نسيب يعتقد بأني حاسب أن لا بدّ «لعودة» من اللحاق بي والتفتيش عليَّ!.. إلّا أنَّ ناصراً هاج لهذه الملاحظة الخالية من الشّهامة. أما عودة فلم يخف ارتياحه لتنديدي بحضري مثل نسيب ولإلقائي درساً في الفروق بين القبيلة والمدينة، مقابلاً بين مسؤولية المجموع وتآخي عصابات الصّحراء من جهة، ومن جهة أخرى بين الاستئثار بالنّفس والتزاحم القاسي الذين ينهشان الأوساط المزدحمة بالسّكان.

وقد كلفنا هذا العارض ساعات طويلة ومع ذلك كنا نشعر بأن النّهار يطول ولا ينتهي، وقد ازداد الحر احتداماً فأصبحنا أقلَّ احتمالاً له من أي وقت آخر. وكان نواسف الرّمل ولوافح الشّمس تتركب غيوماً من الغبار، وترتج أمواجاً من اللهب أمام المطايا فتوقف سيرها وتشوي وجوهها وتغطيها بغبار من الكلس. وسرنا على أرض منبسطة

إلى السّـاعة الخامسـة إلى أن اعترضت طريقنا مرتفعات، فجزناهـا إلى تيه من الكثبان يتخللها الحمر فعاودتنا الرّاحة والهدوء. وإذا بنا داخل حدود «وادي السّرحان».

وقد حبسـت التلال والأشـجار أنفاس الهواء. ومالت الشّـمس إلى المغيب تضيئنا بنورها القرمزي... فدوّنت إذن في صحيفتي بأن السّرحان جميل!..

ولـم يكن لدينا جرعة من الماء وبالطبع لم نأكل شـيئاً. فـكان ليل الحرمان!! إلّا أنَّ الأمل بوجود الماء في الصّباح هوَّن علينا الرّقاد.

ولـم ننـسَ أن ننام علـى بطوننا لتخفيف ألـم الجوع ولمنع الحويـة وهي خاوية من الانتفـاخ. ومن عادات العـرب أن يرتووا قدر طاقتهم ويخزّنوا الماء في معدهم إلى أن يشـربوا من البئر القادمة، وإذا تزوّدوا ماءً فإنهم يهرقونه هدراً عند أول توقف للشّـرب وعجن الملّة.

وبكّرنا في الصّباح نتسـلق تلاًّ بعد تلٍّ من تلك التلال المنفصلة عن بعضها بسـهولة تبلغ الثّلاثة أميال اتسـاعاً. وعند السّـاعة الثّامنة ترجلنا عند آبار «عرفجة» وسـمى هذا النّبت الشّائك العطر كذلك لانتشار رائحته الزّكية.

وكانت الآبار غير مكلّسة يبلغ عمقها الثّمانية عشر قدماً، وماؤها لزج عكر ذو رائحة قوية وطعم أجاج، إلّا أننا شـربناه بشره ولذة. وكانت حول البئر مراع نضرة لحيواناتنا، فقرّرنا الإقامة يوماً كاملاً لنستريح.



الفصل التاسع

ولائم لدى القبائل

وفي اليوم الثّاني كانت مرحلة هينة إذ شبعت الجمال ورتعت على منابت الحشيش ومناهل المياه يوماً كاملاً، وبلغنا بعد خمس ساعات إلى منخفض واحة من النّخيل القصير سيئ النّموّ المختلط بشجر الحمر. وكان الماء غزيراً وأقل ملحاً من ماء عرفجة، غير أنَّ مياه السّرحان تعرف عند الاستعمال! وإذا كانت مقبولة الطّعم عند الظّمأ الشّديد فإنها لا ترغي الصّابون، وإذا حُفظت في وعاء مقفل يوماً أو يومين اكتسبت رائحة كريهة تشغل البال، وطعماً يفقد كل لذَّة القهوة والشّاي وخبز الملّة.

لقد نفد صبرنا حقاً واكتسبنا شقاءً في وادي السّرحان رغماً من تهليل نسيب وزكي لهذه الزّاوية من الصّحراء، إذ كانا يحلمان منذ ذلك الوقت بغرس الأشجار والمزروعات في ذلك الوادي على حساب خزينة الحكومة المقبلة. فكانت هذه الأحلام تبيّن عقلية السّوري الحقيقية! فإن رجال دمشق يهوّنون كل شيء، إلّا أنَّهم يسرعون إلى إلقاء المسؤولية على ظهور جيرانهم.

ولقد قلت مرة لزكي: إنَّ هجينك مغطّى بالجرب! فأجابني بحزن: للأسف! ويالَلأسف! ولكننا سندهنه بالمرهم عند غروب الشّمس.

وعند المرحلة الثّانية أعدت الحديث عن مرض جمالنا. فقال له زكي:

ـ «لقد خطرت لي فكرة طيبة، إننا عندما يتم إنشاء حكومتنا الجديدة ونكون أسياد دمشق الحقيقيين سننشئ مكتباً للطّب البيطري، وللجراحة، وللطب الآدمي،

ومستشفى لتعليم الطّلبة، وللجمال وللخيل وللحمير والبقر، ولم لا يكون للغنم والماعز أيضاً، وسننشئ معامل للتحليل الميكروسكوبي، والدّروس العلمية لجميع أمراض الحيوان ومعالجته. ثم... ما رأيك في إنشاء مكتبة فنية تحتوي على الكتب الأجنبية؟! ومستشفيان داخلية تخفّف عن مستشفيات المدينة. ويكون لكل ذلك مفتشون يطوفون بجميع هذه الإنشاءات».

وهكذا بفضل زكي ومعاضدة نسيب قطّعت أوصال سوريا وقسّمت إلى أربعة تفاتيش عامة وإلى عدد من التفاتيش الثّانوية!.

وفي اليوم الثّاني عدنا إلى الحديث عن الجرب. وقد نضجت فكرة الإنشاء في ذلك الليل واهتموا في الصّباح لتحقيقها. «لمن المشروع ناقصاً يا عزيزي، لأن من طبعنا أن نحب الإتقان في كل عمل. وأنه ليسوؤنا أن نراك ترضى بالقليل وتقنع بما هو حاضر. وعلى كل حال فهذا نقص في عقلية الإنكليزي».

فأسرعت إلى مجاراتهم وقلت: «يا زكي، ويا نسيب ألا يقودنا الإتقان ولو في الأعمال الدّنيئة إلى نهاية العالم. وهل أصبحنا أهلاً لأن نصل إلى الكمال؟ لكل شيء إذا ما تم نقصان، فإني عندما أغضب أطلب من الله أن يقذف أرضنا في جوف الشّمس المتقد كي نقي الذين لم يولدوا بعد من الشّقاء. ولكن لما يفيض عليَّ السّرور أطلب إليه تعالى أن أكون متفيئاً دائماً أبداً في الظّل، إلى أن أتحوّل إلى ظل».

فتململا من تهكمي وانتقلا إلى الحديث عن تربية الخيل. وبعد ستة أيام نفق الجمل الأجرب المسكين. وقد لاحظ زكي نفسه بأنه نفق لعدم الاعتناء به. أما عودة وناصر وجميعنا فقد حافظنا على حيواناتنا ولازمنا تدليكها ودهنها فبقيت في حالة حسنة. وربما يمكننا أن نجانب الخطر إلى أن تبلغ إحدى المعسكرات المستعدة لمعالجة الحيوان بالأدوية الفعَّالة.

وتقدم فارس نحونا فتأملناه. فلم يلبث بنو الحويطات أن عرفوه ونادوه باسمه. فكان أحد رعيانهم، فتحادثوا بصوت خافت وسلموا سلاماً هادئاً على طريقة سكان

الصّحـراء، لأن الضّوضاء عندهم أمر شـائن، فهو من عادات سـكان المـدن. وقال لنا الرّاعي إن معسكر الحويطات يمتد من عيسوية حتى النّبك. وأنهم على أحرَّ من الجمر لتسـقّط الأخبار. وكل شـيء عندهم حسـن، فزال اضطراب عودة وعاد إليه حماسـه، ومشـينا ساعة بلغنا «عيسوية» حيث خيام «علي أبو فتنة» وهو أحد رؤساء قبائل عودة، وكان علي عميق المحجرين غائر العينين، له لحية شقراء لم يمسّها مشط فهي كالعليقة المتشابكة تحت أنف طويل مصاب برشح مزمن.

فاسـتقبلنا بحـرارة وحمـاس ورجانـا أن نقبـل ضيافته تحـت خيمته، فرددنـا طلبه لأننا كثيرون ونزلنا بقرب خيامه تحت شـجيرات شـائكة، وعاونا رؤسـاء الخيام على تعـداد رجالنـا وتعهدوا ـ كل عدد مـن خيامهم ـ بأن يقوم بإعالة عـدد من فرقتنا. وكان مـن المحتم أن يسـتغرق تجهيز الطّعـام وقتاً طويلاً فلم نُدعَ إلـى الأكل إلا بعد غروب الشّـمس. وقد أخذتني سـنة من النّوم فاسـتيقظت فجأة وعثرت عنـد ذهابي إلى خيمة عليّ بإحدى الأطناب، وبعد أن أكلت شيئاً من الطّعام عدت إلى جمالنا ونمت ثانية.

وكان القسم الأول من سيرنا موفقاً، وكنا قد التقينا بالحويطات ورجالنا على أحسن حـال. ونقودنا ومتفجراتنا سـليمة لم تمس. إذاً لقد تأهبنا لسـاعة المداولة ونحن على أتم اسـتعداد، وكان على الجمعية أن تتشـاور علناً في كيفية قيادة الحملة، ولقد وافقت على إعطاء ستة آلاف دينار ذهباً لنوري الشّعلان لأنه سمح لنا باجتياز وادي السّرحان. وكان علينا أن نحصل منه على سماح بأن نبقى في أرضه مدة لنجمع الرّجال ونعطيهم بعـض دروس فـي فن الحـرب، وأن يحافظ علـى عائلاتهم وخيامهم ومواشـيهم بعد رحيلنا.

إنهـا لمسـائل ضخمة حقاً. فتقرّر انتداب عودة نفسـه رسـولاً شـخصياً لدى نوري يتفـاوض معه حباً وصداقة. وفي غضون ذلك نظل مقيمين إلـى جنب عليَّ مع التقدم برفق وأناة إلى الشّـمال بفضل رجاله «الدوّار» فنقترب من النّبك حيث يكون عودة قد عيّـن نقطة اجتماع كل رجال «أبو تايه» وأنه سـيجتمع بنا بعد عودته قبل اجتماع رجاله إلى بعضهم... انتهت المداولة على هذا القرار.

فألقينا ستة أكياس ذهباً في خِرَجَة عودة فسافر حالاً. وتقدم رجال «فتنة» وأكدوا لنا بأن لَهم الشّرف في أن يسلموا علينا مرتين في اليوم عند طلوع الشّمس وعند غروبها، إلى أن نسافر، وقد كان قولهم صدقاً حقاً، لأنَّ ضيافة الحويطات لا حدَّ لها. لقد امتنعوا أن يتمسكوا بعادات العرب القديمة الشّحيحة في الصّحراء! وهي ضيافة الضّيف ثلاثة أيام!! إلّا أنَّ هذا الظّرف، وهذه المجاملة تتخطيان الحدود في بعض الأحايين إلى المضايقة، ولا تترك لك مخرجاً للتخلص من هذا النّوع من الإرهاق، الذي يعده البدوي ارتياحاً ونعيماً.

وكانوا يقودون إلى خيمتي كل صباح عدداً من الخيل المؤصلة بسروجها وسروعها. فكنت أركب ويركب معي زكي ونسيب ويتبعنا جمع مشاة، فنسير في الوادي على الطّريق الرّملي وعلى جانبيه العليق. ويقود كل حصان أحد خدمنا. وكان الخبب والجري السّريع مخالفين «للپروتوكول» فنصل هكذا كل يوم إلى خيمة الوليمة. لأنَّ كل عائلة تحرص على دعوتها لنا لتضيفنا كل واحدة بدورها، ولكانت تشعر تلك العائلات بالإهانة العميقة لو أنَّ «زَعل» ابن أخت «أبو تايه» الموكّل بالحفلات قد زاغ عن الجادّة وفضّل عائلة على غيرها غير مراع حقوق التصدر.

وكانت الكلاب تنقض علينا وَتَهِرّ عند لقيانا فيطردها بعض الفضوليين القادمين لرؤية المشهد. وعند وصولنا إلى باب الخيمة المعهودة، نترجل وندخل القسم المخصص للمدعوين، وقد وسعوه على قدر المستطاع متخذين قسماً من خيمة الحرم. سادلين أغطية خشنة لتصدعنا الشّمس المحرقة.

وكان المضيف يظهر من آن إلى آن ويتمتم بعض عبارات الترحيب ويختفي. ثم أن السّجاد الأحمر البيروتي كان مجللاً أطراف الخيمة المرفوعة قليلاً عن الأرض، والتي كانت تفتح مجالاً للهواء. وكان من الممكن أن تضيف هذه الخيمة أكثر من خمسين شخصاً يأكلون.

ثم يظهر المضيف على باب الخيمة ويسند ظهره إلى العمود، وكان يجلس بيننا باقي المدعوين مثل «دغلان» و«زعل». وباقي الشّيوخ يقاسموننا المساند التي نتكئ

عليها، وهي مجموعة حشايا من السّجاد واللبّاد تلف فتتحول إلى متكآت، وقد وسعوا علينا أمام المضرب، وأبعدوا الفضوليين الذين لا شغل لهم.

أما الأطفال الممسكون بأيديهم بعضهم بعضاً، فقد كلفوهم أن يطردوا الكلاب التي تدور حول المكان.

وأما صغار الأطفال فكانوا يرتدون ملابس خفيفة تبرز منهم بطونهم. ويتبعون المدعوين بعيونهم المدعوين بعيونهم السّود الشّائحة كالذباب، ويوازنون وقوفهم بأبعاد سيقانهم عن بعضها... وهم عراة يمصّون أباهمهم ويقدمون لنا بطونهم المستديرة، على أمل أن يصيبوا بعض فضلات الوليمة.

وكان أصحابنا في بعض الأحيان كي ينقذوا موقفهم الممل، يفتشون على تبديد الصّمت فيلفتوا نظرنا مثلاً إلى صقر مربوط على موقعة أو إلى ديك صيّاح يقسم هجعات الليل، وقد قدموا لنا مرة تيساً أليفاً. وفي يوم آخر غزالاً. وإذا انتهوا من هذا العرض يحاولون أن يحوّلوا انتباهنا بتوافه الأحاديث عن ضجيج العائلة التي يفصلها عنا حاجز من القماش، وعن أحاديثها با لطعام وكيفية تقديمه وما إلى ذلك. إلّا أنَّ كل هذا لا يمكنه أن يحوّل معاطسنا عن شم رائحة الشّحم المسلى على النّار، ولا عن استقبال الدّخان المتصاعد من الحنيذ الذي ننتظره.

ثم يعقب ذلك سكوت عميق فيسرع المضيف أو سواه إلى واحد منا ويقول له همساً: «أسود أم أبيض» أي تريد قهوة أم شاياً، وكان ناصر يجيب دائماً «أسود» وعندئذٍ يتقدم العبد وبيده إبريق القهوة له عنق طويل أعقف كعنق الأوزّة وفي اليد اليسرى هَرَم من الفناجين الصّيني الأبيض، فيصيب في الأول شيئاً من الشّراب الأسود، ويقدم لناصر ثم يصيب في الثّاني ويقدمه إليَّ ثم في الثّالث لنسيب. ويتراجع قليلاً ويستمر في مكانه ونحن نشرب صفوة القهوة ونستطيب مصاصها، كأنا أعرف النّاس بها، إلى أن نأتي على الثّقل وهو أطيبها، حتى إذا ما انتهينا من شربها جمع العبد الفناجين الواحد داخل الآخر وأعاد صبَّ القهوة فيها وقدّمها في غير حفاوة مناوبة لكل المدعوين. ثم يعود إلى ناصر ويصب له فنجاناً آخر. وتكون هذه الدّفعة أعذب وأنفح من سابقتها، لأن

القهـوة تكـون أثخن وأفعل في الدّمـاغ كلما نقصت في الإبريق فضلاً عما يرسـب في الفناجيـن من فضلات الشّـاربين!!... وهـذه الثّمالة النّاعمة الرّاسـبة هي خاصة بقهوة العرب في الصّحراء.

وما أعذبه شراباًو أنفحه طيباً في الدّورة الثّالثة أو الرّابعة، إذا اتفق ولم ينضج اللحم فيصبروننا بشربها.

وأخيـراً. جاء رجلان يتسـللان بين الجمـوع المرتجة يحمـلان الأرز واللحم على جفنة شاسـعة مـن النّحاس المبيـض عرقها خمس أقـدام، تلقى على قاعـدة منخفضة كبيـرة. ولـم يكن فـي القبيلة أعظم من هـذه الجفنة وقد كتب على حافتهـا «الحمد لله وشكراً لرحمته! هذه الجفنة ملك عبد ربّه عودة أبو تايه» فكانت تنقل إلى جميع الخيام التـي تضيفنا فنتقابل كلانـا بابتهاج عند كل وليمة، وكنت فـي كثير من الأحيان أصاب بـالأرق لدوار في رأسـي ولنزوعي إلى العمـل، فأبصر هذه الجفنة السّـحرية تدور في المعسكر، ولمّا تبزغ الشّمس وحيثما تقف كنت أحزر خيمة الضّيافة في ذلك اليوم!.

وكانـت هـذه الجفنـة الفائقة حد الاتسـاع توضـع أمامنا مملـوءة إلى الجمـام أرزاً كالنّطاق النّاصع البياض حول تل من أفخاذ البَهم وأضلاعها، ولا بدّ أن تكون الضّحايا عديدة لتشييد مثل هذا الهرم الفخم من الزّاد والحجم المقرّر في «بروتوكول» البدو!.. وكانت الرّؤوس على عروشـها في الوسـط مسـلوقة ومقلية وقائمة على عصّ رقابها. وآذانها الشّـقر تنتشر كالأوراق الجافة على وجه الأرز، وفكوكها العارية كأنها تضحك سـاخرة مـن السّـماء أو تنبح القمر عند مطلعه، وتفسـح لألسـنتها الورديـة فترى كأنها رصِّعـت بين الأسـنان السّـفلى، وتتلألأ ثناياها فـوق جلود مناخرها إكليـلاً ناصعاً بين ابتسـامة الشّـفاه السّـود الجهنمية، يهبط هذا الطّبق الفسـيح أمامنا وسحاب من البخار المشحم يتصاعد ويحوم فوق رؤوسنا.

وخـدم مـن الصّف الأدنى يتقدّمون حاملين الأواني النّحاسـية التي كان يُطبخ فيها. ومغارف بيض حديدية من جميع الأشكال ملبّسة بالقصدير، مثناة متلوّية مهانة يغرفون بها المرق من هذه الحلل إلى الجفنة الكبرى. وتُرى سـابحات من قطع المعاء الصّفر،

وجلد الدّهن البيض. وفتات من العضلات السّمر وسرائد من اللحم. وشرائح من الجلد لا يزال عليها وبرها، عائمة في السّمن السّائل والدّهن المسلي الذي قليت به الغنم!!..

وكانت عيون النّهمين من المدعوين تتبع هذه المغارف والدّسوت بجد واهتمام وترقص أحداقها طرباً لكل قطعة لحم مختارة تسقط على السّجادة. ولقد كان الشّحم يغلي في الحلل، وقد يحدث أن يكتوي أحد الخدم بحرف الوعاء الحار فيلقيه عنه ويضع أصابعه المكتوية في فمه ليخفّف الألم. وبعضهم لا يصبر على رنين الملاعق تقعقع في أسفل الدّست ليلتقط الأكباد التائهة في المرق المخثّر فيغوص بيده ويصطادها ثم يعلقها ـ كأنها أسلاب الحرب ـ على الفكوك الفاغرة. ثم يأخذ الدّست خادمان ويفرغانه على تلك الأنقاض المكوّمة. فتمتلئ الفوهة المسوّرة بسور الأرز وتغصّ على اتساعها، وهما يمعنان في التفريغ رغماً من صياحنا واستغرابنا، إلى أن يفيض الدّهن ويسيل ويتجمد على غبار السّجادة، حتى يتم تركيب هذه المحرقة. وعندئذٍ فقد يدعونا المضيف إلى الأكل.

فتظاهرنا بعدم الانتباه إلى دعوته ـ كما يقضي واجب اللياقة في الصّحراء ـ إلى أن ردَّد الدّعوة فنهضنا، وتناظرنا مبغوتين كل يدعو جاره إلى التقدم أمامه. إلى أن قام ناصر متعثراً بأذيال الخجل، وبأذيال عباءته وقام الجمع وراءه، الواحد تلو الآخر وتقدموا من الجفنة الكبرى، وزمّوا أردانهم إلى أكواعهم، وتراصُّوا عقداً من واحد وعشرين رجلاً حول هرم اللحم الهاوي، فرفعنا أكمامنا متمثلين بناصر وتمتمنا جميعاً:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم» وباندفاع بديع واتحاد عام غاصت الأيدي في الكومة!..

إلّا أنّي، أنا وحدي، قد مددتُ يدي بحرص إلى هذا الحمام الدّهني الذي لا يزال حاراً، فلا تقوى أصابعي التي لم تتعود بعد مثل هذه الغمسة الكاوية. وعملت على انتزاع قطعة مستعرضة برفق وتؤدة وتركتها يهدأ حمْيها إلى أن ينتهي رفاقي من نبش الأرز وفصل حصتي عن حصتهم.

وكلٌّ يُجهد نفسه كي لا يلطخ كف يده، بل يعجن بأصابعه كرات الأرز الصّغيرة الممزوجة بسرائد الأكباد واللحم. وبعد أن يضغط عليها ضغطاً كافياً ينفقها بإبهامه وسبابته وهو منحن فتندفع كالبرق في فمه!..

فإذا كان الضّيف أنيقاً لبقاً على مثل هذا الخوان، أمكنه أن يحفظ شكل هذه اللقمة الكروية بعد ازدرادها، ويخرج من اللعب نظيف الكف. إلّا أنّه إذا كان السّمن كثيراً وبعض سرائد اللحم بارداً وقد لصق بالأصابع، فمن المحتّم إذاً لعقها باعتناء حتى تنزلق اللقمة القادمة عن الأصابع إلى الفم بسهولة.

وكان مضيفنا يدور حولنا ويثير فينا شهوة الأكل بعبارات طيبة. وكنا كالمدفوعين بسرعة جنونية. نرفع، ونقطع، ونمزّق القطعة تلو القطعة، ونحشرها في فكوكنا حشراً دون أن ننبس ببنت شفة. لأنَّ أقلَّ محادثة أثناء الأكل تكون عيباً ونقداً للطّعام... إلّا أنَّه من المسموح به أن تبتسم إذا كان أحد أخصاء صاحب الدّعوة يقدم لك قطعة مختارة، أو أن محموداً الضّغلان يناولك عظماً مجرداً ويتمتم «بسم الله الرّحمن الرّحيم» وعندئذٍ يمكنك أن تبادله المجاملة بمثلها وتقدم له شيئاً من الكرش. غير المرغوب فيه. فيتملك الحويطيين الضّحك، أما ناصر فيظهر أنه لم يكن يرضى بهذا المزاح فيحافظ على رزانته الأرستقراطية.

ويحدث أن أحد أولئك الأكولين الشّجعان يشعر بأنه لم يعد يقوى على الأكل، فيبتدئ باللعب بالطّعام وقرض الأسنان وهو شائح البصر برفاقه الذين هم أيضاً قد همدت حرارتهم وخفت حركة أيديهم على جفنة الأكل. وكلما انتهى واحد منهم يسند كوعه على ركبته ويرفع يده فوق الجفنة، فيسيل من أصابعه السّمن على بقايا اللحم والأرز فتصبح مادة جامدة، لزجة كالغراء..

إلى أن يشبع الجميع، فينهض ناصر وينهض المدعوون بعده صائحين:

«خَلَف الله على المعازيب»..

ونخرج مع الجميع، فينهض ناصر وينهض المدعوون بعده صائحين: «خَلَف الله على المعازيب».

ونخرج مع الجمع ونتسلّل بين المضارب، بينما العشرون الآخرون يرثون فضلان وليمتنا. والأكثر أناقة منا يدور حول الخيمة ويحاول رفع شرائح الدّهن المتجمدة عن يديه، ويمسحها بما تدلّى من قماش الخيمة الخشن، المنسوج من شعر الماعز وقد أصبح على طول الاستعمال لامعاً ليّناً مزيتاً. ثم نعود ونحن نتنفس الصّعداء ونجلس في أماكننا على طول جدار الخيمة، فيتقدم منا بعض الخدم وقد تركوا مؤقتاً نصيبهم من الوليمة ـ رؤوس الغنم ـ ويقدمون لنا طاساً من الماء ووعاءً فارغاً وصابون القبيلة! فنغسل أيدينا على قدر ما تسمح به الحالة فوق فنجان القهوة! ثم يقدمون لنا شيئاً من القهوة أو الشّاي المحلّى بالسّكر كالشّراب، بينما الجماعات تتناوب المقاعد حول تلك الجفنة التي لا ينضب معينها. ثم يأتون بخيولنا فنسرع إلى ركوبها، دون أن نسى تقديم ما يجب من الشّكر والدّعاء لمضيفنا الكريم.

ولا نكاد ننصرف خارج الخيمة حتى يهجم الصّغار على الوليمة ويفتكوا بما بقي من الفضلات العزيزة كل على قدر مخالبه. ويذهبوا وراء الأشواك خارج الخيمة يلتهمون ما أصابوا. وتعتقد كلاب القبيلة بأن لها نصيباً فتتردد حول الخيمة لتصيب نذراً من العظام، إلّا أنَّ المضيف يحفظ أطيب الفضلات لكلبه السّلوقي.

وكنا في «عيسوية» نضيف القبيلة على هذا النّمط، ففي اليوم الأول نأكل مرة واحدة، وفي اليوم الثّاني والثّالث مرتين في اليوم.

وفي 30 مايو رفعنا الأحمال على الجمال، وتحرّكت الفرقة في أمن وابتهاج وسرنا بين حقول من الحمم تغطيها الرّمال النّاعمة كالقطن، إلى أن اعترضنا واد فيه آبار يبلغ عمقها سبع أقدام وماؤها أجاج.

وكان رجال «أبو تايه» قد قلعوا الأطناب وسافروا معنا ليرافقونا في رحلتنا ثم ضربوها حولنا عند وقوفنا، وقد شاهدت لأول مرة قبيلة تقوّض خيامها للرّحيل وكنت أنا نفسي مع الرّاحلين. وقد اختلفت عليَّ هذه الضّجة وتبدّلت سآمة المراحل ومللها بهذه الحركة الدّائمة الكثيرة الأشكال. فإن مسافات بعيدة من الحجارة والأشواك كانت تموج وتضطرب، كالآل لحركات الرّجال المشاة والرّاكبين والحيوانات

المحمّلة أثقالاً من فراد أقمشة الخيام المنسوجة من شعر الماعز. والجمال على ظهورها الهوادج العَالية. تلك الهوادج العربية المقفلة بالأقمشة ذات الوبر لنقل النّساء والأطفال. وأخيراً تلك النّوق ذات الأشداق المموّثية، منها ما هو مختلط بالرَّحْل، وأكثرها في المقدمة تتمايل على ظهورها أعمدة الحور الفضية لرفع المضارب. خلاط لا ظلَّ فيه لنظام السّير أو التوقف. ومجامع من الأسر تقوم وتقعد وتشد وتنقض حسب الظّروف والمفاجآت في الصّحراء بالغريزة والوراثة البدوية الغارقة في القدم. ولقد اهتزت الصّحراء فجأة ودبَّت فيها الحياة بمرور هذا الحشد الهائل من قواتنا، بعد أن كانت على كر العصور لا قيمة لها إلّا بأفرادها المشتتين على رمالها هنا وهناك.

ونحن الذين كنا نحرص على حياتنا وحياة رجالنا أسابيع طويلة، قد تحوّل اهتمامنا إلى ارتخاء واستسلام لا يدركان بين هذه الجموع التي شاركناها الاستخفاف بالمخاطر، وكان أكثر فرساننا يقظة قد شاركوا القوم بالاستسلام وفقدوا رزانتهم المعتادة.

أما المهوّسون منهم كعفريتيّ «فرّاج وداود» فكانا طبعاً في مقدمة المرحَى. وأن حرماننا الشّديد المستمر في مراحلنا السّابقة لم يغيّر قط من بشاشتهما ونشاطهما.

وكان مكانهما من الفرقة بؤرة تنفلت منها جميع الاضطرابات والمفاجآت البريئة منها والخطرة.

فلا ينضب معين ابتكارهما لتمثيل الأدوار السّيئة.

وكان ذلك بدء نفاد صبري وقد أصبحت أعصابي منتشرة على سطح جلدي، جزعاً لتلك الدّاهية التي حلّت بنا في «وادي السّرحان» داهية الأفاعي التي أقضّت مضاجعنا من يوم نزولنا به. وعلى اعتقاد البدو أن عد أفاعي هذا الوادي أكثر من كل واد من أودية الصّحراء.

ويعرفون أيضاً أن السّرحان في هذه السّنة يغص بالأفاعي والأساود ذوات الأجراس والقرون! وكان الطّواف في الليل خطراً. وعلى كل واحد يخرج من الخيمة أن يحمل

عصا يضرب بها الأشواك في طريقه كي لا تلدغ عقبه العارية.

وأني لأذكر عادة غريبة لهذه الحيات، فإنها تأتي في الليل وتلتف على نفسها حولنا أو على أغطية أسرتنا أو تحتها مجذوبة بحرارة أجسامنا. فما عتمنا أن أخذت منا اليقظة كل مأخذ، فلا نتحرّك أو ننزل عن السّرير إلا بهدوء واحتراس شديدين.

والخبيرون منا كانوا لا ينامون حتى يضربوا الفرش والأغطية بالعصي، كي يتثبتوا من خلوها من كل ضيف ثقيل، وكان رجالنا الخمسون يقتلون عشرين ثعباناً كل يوم تقريباً. فتحوّلت أعصابنا إلى أسلاك متقدة يقظة وهمّا، وأشجعنا لم يكن يجسر أن يضع رجله على الأرض في الظّلام.

أما من كان مثلي دائم الهم والنّكد فقد كان ينظر بفارغ الصّبر إلى خروجه من هذا الوادي «وادي السّرحان».

أما «فرّاج وداود» فلم يشاركا القوم بنظرياتهم، بل وكانت في أعينهم مواضيع لألاعيب جديدة. وكانوا ينعمون بإزعاجنا ويصرخون لرؤية أي غصن متدلٍّ أو ممدود على الأرض ويوسعونه ضرباً بعصيهم. وقد منعتهم منعاً باتاً عن محاكاة صفير هذه الزّواحف. وكنت مرة جالساً على الرّمل بقرب أحمالنا، والتكاسل على الأرض يوحي السّكون وعدم الحركة. غير أن أشياء كثيرة كانت تشغل الفكر عما حولي، وقد جلست أكثر من ساعة، فلم أتنبه أنَّ خادميّ الملعونين كانا جالسين بجواري يبتسمان ابتسامة جهنمية ويتدافعان بكوعيهما. وقد تتبعت أبصارهما المحدقة على عليقة قريبة منا. فأبصرت حية رقطاء ترمي عليَّ شواظاً من عينيها فقفزت بعيداً، ودعوت «علياً» فهرول إلـيَّ وضرب الحية بهراوته وانتهى الأمر. وبأمري ضرب كل من الخادمين الخؤونين اثنتي عشرة خيزرانة لأفهمهما بأن الأوامر لا يعمل بها على علاتها، ولاسيما على حسابي. وكان «ناصر» نائماً فاستيقظ وصاح فرحاً: أن اضربوهما ست خيزرانات أخرى على حسابي. ونسيت أمر أمره. «وزكي» و«الضّغلان» تمثلا بنا وأمرا بضربهما. وضج الكثيرون من رجالنا طالبين الانتقام، فوهنت عزيمتهما أمام هذه السّياط المتساقطة كالبرد فأوقفت هذا النّوع من الإصلاح القاسي، واكتفيت بأن أعلنت ذنبهما فكان قصاصاً أدبياً لهما، وقرّرنا إلحاقهما تحت إمرة النّساء كي يحطبوا

ويملأوا القرب ماء لتموين الفرقة. لقد بلغ الصّبر جمام الكأس في وادي السّرحان، فكانت الصّحراء تفيض بالشّجون التي لا مثيل لها في رحلاتنا السّابقة. رمال وصوان من الصّخور وصحراء وإن تكن توحي بالعظمة المشجية كجمال الحزن العميق والبيداء القاحلة إلّا أنَّ روحاً مشؤوماً، وسراً مخفياً يعمل في وادي السّرحان، ذلك الوادي محبوب الأفاعي، الفيّاض بالماء الأجاج والأشواك الرّديئة، التي لا تصلح لمرعى الإبل، كما أنه لا يصلح لسكنى البشر.

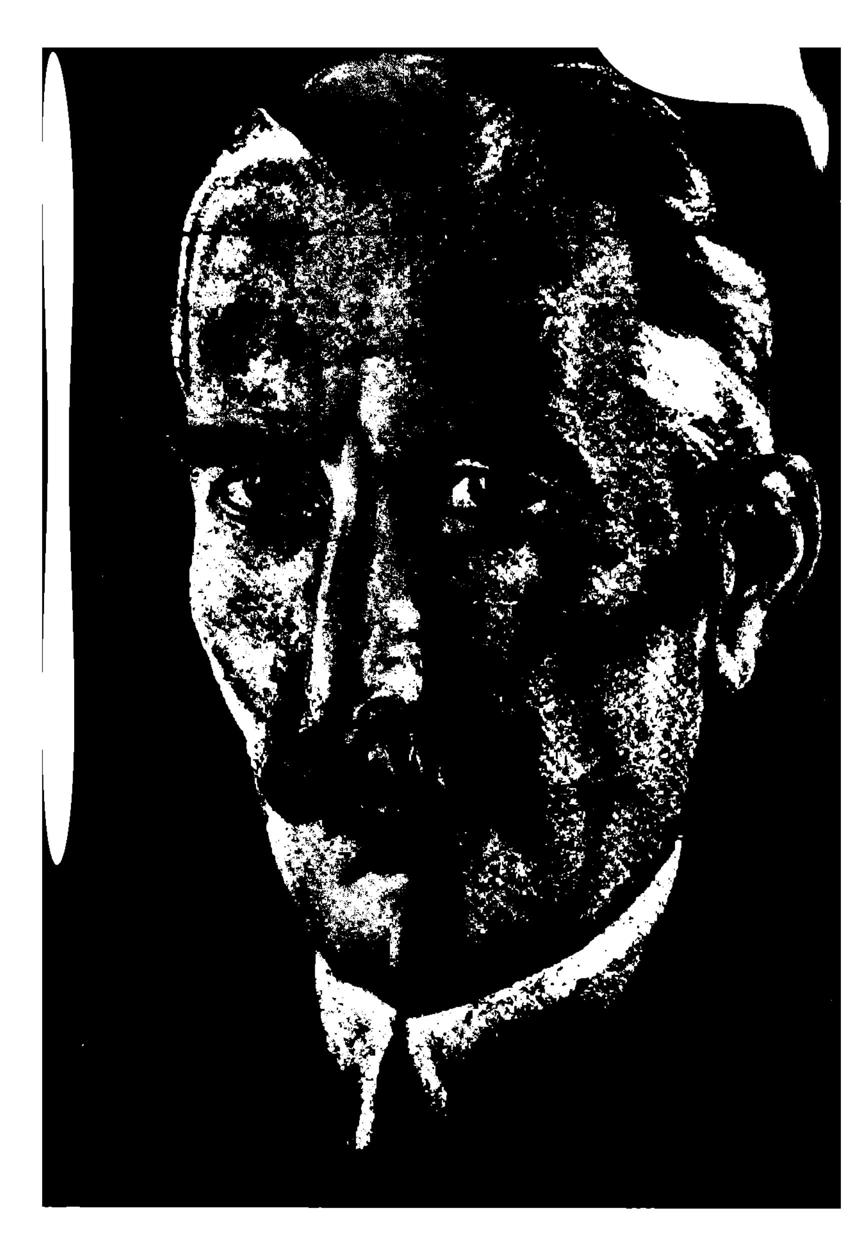
وعليه، فقد سرنا يومين كاملين وراء «غوطة» ذات الآبار الفيَّاضة بالماء العذب.

ولما دنونا من «عقيلة» أبصرنا مضارب عديدة وحملة من الفرسان تخب لمقابلتنا. فكان «عودة أبو تايه» المنتدب لدى «نوري الشّعلان» والذي قضى مهمته على أحسن ما يرام يتبعه «نوري» و«درزي بن دُغمي» الرّجل العملاق ضيفنا القديم في «الوجه» والذي كان وجوده دليلاً على رضاء الشّعلان، فوق ما كان يتبعهم من فرسان «الرولة» الذين ملأوا الفضاء صياحاً ودعاء بوصولنا وتأهيلاً بنا، ومادوا في تلك السّهول وترامحوا على ظهور خيولهم، وصمّت آذاننا من إطلاق البنادق والمسدسات في الفضاء وغشيت أبصارنا من النّقع تثيره سنابك الخيل.

وكانت أعمالنا تسير سيراً حسناً، وكان ثلاثة رجال يصنعون القهوة لزوّار «ناصر» الذين يتوافدون جماعات وفرادى من الرّؤساء. ويحلفون يمين الإخلاص والطّاعة «لفيصل» في القضية العربية كصيغة القسم في «الوجه» وتعهدوا باللحاق بناصر مع رجالهم أينما اتجه.

وكان ذراع عودة متصلباً لجرح قديم في مفصل الكوع فلم يكن بإمكانه أن يطوي هذا الذراع المتوتر ويحك جلده الملتهب. إلّا أنَّ الحاجة تفتق الحيلة، فكان يدخل عصا عقفاء في قميصه ويحك ظهره وصدره من كل جهة. ويظهر أنَّ هذه الطّريقة كانت تريحه، فيستفيد من العصا أكثر مما نستفيد من أظافرنا.

* * *



الكولونيل ويلسون
الممثّل الدپلوماسي البريطاني في جدّة

الفصل العاشر

البدو وحياة البادية

مـرَّت خمسـة أسـابيع منـذ خروجنـا مـن «الوجه» وقـد نفـدت نقودنـا وأكلنا غنم الحويطـات وأخذنـا راحة كافيـة. واسـتعضنا عن الجمـال التي نفقت بجمـال أخرى واستعدنا قوانا ونشاطنا. فلم يبق إذن ما يخيفنا عن التقدم نحو غرضنا. وكانت لا تزال بهْـم عنـد عودة فأقام لنا وليمة الـوداع ليلة الرّحيل. أعظم وليمة إلـى الآن! وفي خيمة شاسـعة الجوانـب، كان المدعـوون بالمئـات فمـلأوا الجفنة المعهـودة خمس مرات متتالية، وهرم اللحم ينهار ويضمحل وهو لمّا يبلغ الخيمة.

وغابـت الشّـمس حمراء كالأرجـوان، فتقدم المدعـوون إلى مواقد النّار وجلسـوا القرفصـاء بجانب أباريق القهوة. فكنا نتكاسـل ونتململ تحـت النّجوم، وعودة يقص أخبـاره... وقد توقف مـرَّة عن الحديث، فقلت من غير اهتمـام بأني مررت بعد الظّهر بخيمـة محمّـد الضّغـلان كي أ شـكره على النّاقـة الحلوب التـي أهدانيها فلـم أره في الخيمة. فتهلّل عودة في الحال وأخذته نوبة من الضّحك. ثم أرانا محموداً جالساً قرب جـرن اللبن وقال مازحاً: «أتعلمون لماذا لم ينم محمّد تحت خيمته منذ خمسـة عشـر يوماً!» فسـر الجميع لهذه المصادفة وحبسـوا ضحكتهم في أكمامهم ولم ينطقوا ببنت شفة. وتمدّدوا على الأرض قابضين على لحاهم بأيديهم ليسمعوا القصّة التي سمعوها قبلاً أكثر من خمس عشـرة مرة. أما النّسـاء ـ نسـوة عودة وزوجة «زعل» وبعض نسـوة لمحمـود ـ فقد تركن أشـغالهن قليلاً وتقدمن من الحشـد وبطونهـن تتقدمهن، وترتج أوراكهن لأنهن تعوّدن حمل الأثقال على رؤوسـهن. ولما وصلن إلى السّـتار الحاجز

وقفن، أخذن يصغين كباقي الجمهور لحديث عودة وهو يقول بصوت جهوري: «كان محمّد قد اشترى يوم السّوق في الوجه عقداً جميلاً من اللؤلؤ. إلّا أنّه صمّم أن لا يهديه إلى أحد من زوجاته، ومن ذلك الحين قامت قيامتهن بعضهن على بعض، وعلى محمّد الزّوج الشّائع وطردنه من الخيمة»... كل ذلك كان اختلاقاً طبعاً من مخيلة عودة، إلّا أنَّ مزاجه الخبيث قد تنبه وأزكته نار العصيان والانتقاض فأعطى مجالاً واسعاً لخياله! وكان محمّد المسكين في الخمسة عشر يوماً هذه يطوف معنا في المضارب ويلازمنا عند أهل الضّيافة ويستعيذ بالله من عودة، ويدعوني شاهداً على كذبه الفاضح، وكنت أستعد للتدخل بينهما، إلّا أنَّ عودة أسكت الجميع وطلب مني أن أزكي كلامه.

فقلت مبتدئاً: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» وهي العبارة التقليدية: «كنا ستة في الوجه: أنا، وعودة، ومحمّد، وزعل، وقاسم، ومفدى»، وفي إحدى الليالي عند الفجر تماماً قال عودة: «فلنمشِ إلى السّوق قليلاً»، فقلنا: «توكلنا على الله» ومشينا. وكان عودة لابساً «غندورته» دراعة بيضاء وعمامة حمراء، وقاسم محتذياً «بابوجاً»، وكان محمّد حافياً وفي ثوب من الحرير ذي ألوان «الملوك السّبعة»، أما زعل فلقد نسيت كيف كان شكله!...

وأما قاسم فقد كان يرتدي قفطاناً من القطن، ومفدى ثوباً من الحرير مُعْلَماً بخطوط زرق، وعلى رأسه عمامة مطرّزة. أما أنا فسكنت كما أنا وكما ترونني الآن، وتوقفت، وتوقفت أنفاس السّامعين في حلوقهم. فاستسلمت عندئذٍ لسخرية خفية مقلداً حديث عودة الفخم، واهتزاز يده فاستسلمت عندئذٍ لسخرية خفية مقلداً حديث عودة الفخم، واهتزاز يده الأبدي وهو يرتفع ويهدد ويخفت كي يجدد النّكتة الدّقيقة من حكاياته الخالية من النّكت!.. ولم ينطق الحويطيون بكلمة إلّا أنّهم كانوا يتلوّون ضحكاً في قمصانهم الصّلبة من أملاح العرق ويرمقون عودة، لأنهم يعرفون جميعهم طريقة سياق حديثي! وكانت سخريتي هذه شيئاً جديداً عندهم كما هي عند عودة نفسه، حتى أن عامل القهوة «مفدّى» وهو رجل لاجئ من «شمّر» وقد هرب منها لحادث قتل في عائلة تحكمت بأفرادها الضّغينة ـ وهو ما يقال له فيعرف القبايل (خصام الدّم) ـ حتى مفدَّى هذا، ترك القهوة ونسي أن يلقم النّار حَطَباً ليسمع حكايتي.

وحكيت أنا كيف تركنا الخيام، وعددت الأفراد، وكيف نزلنا إلى القرية. وكنت أصف كل جمل وكل فرس وكل عابر طريق يمرّ بنا. وأصف أعراف الجبال التي كانت كلها جرداء! لأنّها والحق يقال بلاد جرداء!.. وتابعنا السّير مسافة تدخين لفافة (سيجارة) فسمعنا شيئاً فتوقف عودة وقال: إني أسمع شيئاً أيها الشّباب. فصرخ محمّد وقال: أيها الشّبان إني أسمع شيئاً. وقال زعل: والله إنكما على صواب، وتوقفنا لنرهف آذاننا للسّمع فلم نسمع شيئاً. و أنا كذلك لم أسمع شيئاً. وقال زعل: وأنا والله لم أسمع. وقا لمحمّد: والله لا أسمع شيئاً. وقال عودة: والله الحق معكم!..

ومشينا ولا نزال نمشي والأرض خرساء لا تسمع فيها حركة ما. إلى أن مرَّ إلى يميننا عبد زنجي راكباً حماراً. والحمار أبرش وله أذنان سوداوان وقدم سوداء وكان مرسوماً على كتفيه هكذا. «هي علامات خطوط متلوّية» وكان ذنبه يتحرّك وفخذاه يضطربان، ورآه عودة وقال: والله هذا حمار. وقال محمّد: والله العظيم، حمار وعبد. ومشينا وكان أمامنا تلّ كبير، كبير مثل هذا الذي هناك، ماذا يدعى هذا الذي هناك؟. ومشينا إلى أن بلغنا قمّة التل فكان أقرع عارياً وهذه البلاد جرداء جرداء جرداء... ومشينا وماذا يدعى هذا الذي ما وراء.. هناك هناك.. وكان كذلك ما هو أبعد من هناك! ومن هنالك!.. وبعدها تل، والتل أجرد. وكل هذه الأرض كانت جرداء، وبما إنا وصلنا إلى هذه القمّة، وكنا على حرف هذه القمّة. وإنَّا قد بلغنا الطّرف الأقصى، وإلى الطّرف الأقصى. وحرف هذه القمّة، وأقسم بالله، والله قد طلعت علينا الشّمس». وانتهت القصّة عند هذا الحد.

وكان السّامعون قد سمعوا من عودة عشرين مرة عند شروق الشّمس خلطاً لا مزيد عليه وعبارات متشابكة الواحدة تلو الأخرى مكررة مراراً عديدة بحماس متصاعد إلى أعلى درجة من درجات الهوس، وذلك ليحبس أنفاس السّامعين ويزيد في رغبتهم إلى بلوغ نتيجة غزوته التي لم تكن إلّا في مخيلته وعلى لسانه أمام هذه الأفواه الفاغرة، والآذان المرهفة... وكنت في سرد حكايتي قد تفننت ولوّنت ووصفت حتى أحاكي حكايات عودة السّحرية، وعلى كل حال كانت حكايتي لا تخلو من حوادث حقيقية

اتخـذت موضوعها من مرورنا بسـوق الوجـه، وكان يرافقنا إذ ذاك كثير من السّـامعين الذين تولتهم نوبة ضحك متواصلة لم يقووا على إيقافها، وهم يتمرغون ويتقلبون على الأرض. أمـا عودة فقـد كان أكثرهم ضحكاً وتقلباً، لأنه كان يهـوى الحكايات الغريبة والمضحكة. وقلت في نفسي: ألم يشعر بأني كنت أحاكيه بحكايتي البليدة وأريه مقدرته على وصف غرائب الحوادث التي لم تعرض له قط. ثم نهض وعانق محمّداً وأقرَّ بأنَّ حكاية العقد كانت مختلقة. فسـرَّ محمّد لهذا الإقرار الجهوري. وعربوناً على سـروره وشـكره دعانا إلى خيمتـه لتناول فطور الصّباح قبل أن نأخـذ الطّريق للانقضاض على العَقَبة. وقال لنا بأنهم طبخوا لنا فصيلاً مسـلوقاً باللبن الرّائب. وأن نسـاءه مشـهورات بطبخ هذه الطّبخة الوطنية التقليدية.

وسافرنا يوم 19 يونيو سنة 1917 السّاعة الحادية عشر صباحاً. وكان يقودنا «ناصر» وهـو ممتطٍ ظهر «غزالة» ناقته ذات السّـنام، وكان ظهرها كقنطـرة الرّومي، وأضلاعها البالغة حد الاتسـاع تنافس بطن سـفينة، ووساقاها سـاقا نعامة. وكانت هذه النّاقة قوية متناسبة الأعضاء ترتفع عن رفيقاتها قدر قدم على أقل تقدير. توحي إلى الشّعراء أساطير الحـروب وأخبار الفروسـية في الجاهلية. وهي من أشـرف وأعرق نـوق الحويطات، تتحدر من تسعة أنساب متوالية كلها مشهورة بذراريها الكثيرة المؤصلة.

وكان «عـودة» راكبـاً محاذياً جانب «ناصر»، وأما أنا فكنـت راكباً «نعامة» وهي ناقة لـم يفطر نابها مؤصلة سـريعة الجري قد امتلكتها بالشّـراء. وتبعنـي العقيلي مع محمّد الأكتع وأحمد المماثل لرفيقه محمّد هذا.

وكانت مفرزتنا مؤلفة في ذلك اليوم من خمسمئة رجل. فكيف كان يمكننا أن نخشى خضلانـا فـي مهمتنا هذه وأمامنـا هذا الجمع المرح من شـباب الشّـمال المتين البنية، الممتلئ قوة وثقة بنفسه. يتباعد عن الحملة ويجري جرياً جنونياً ليصطاد الغزلان. وقد حضر رؤسـاء «أبو تايه» تلك الليلة وتناولوا العشاء معنا، وجلسنا شبه حلقة حول النّار التـي أوقدوها لعمل القهـوة، ولتدفئتنا في الليل البارد على مرتفعات الشّـمال العالية. وقضينا السّهرة في الحديث عن أشياء مختلفة وتذاكرنا في حوادث قديمة العهد.

وكان «ناصر» مستلقياً على ظهره يرقب النّجوم بنظارتيه. ويعيّن مواقع بعضها، ويرى نجوماً غريبة أو يكتشف لمعاناً لم يكن ظاهراً لعينيه من غير نظارة فيصرخ متعجباً.

وسألني «عودة» عن التلسكوب وماهيته وعن المراصد الكبيرة. وكان يريد أن يعرف كيف تمكنوا من التقدم في الاكتشاف منذ ثلاثة عصور فقط، ومن بناء مرصد عظيم بحجم هذه الخيمة، يمكنهم به أن يعدّوا ملايين الملايين من النّجوم!! والنّجوم، ما هي هذه القناديل؟...

وتطرقنا إلى ذكر قرص الشّمس الذي يدور حول الشّموس العديدة وعن أحجام هذه الشّموس التي تفوق حد تصورنا، وسأل محمّد: «وماذا يكون من أمر هذه الكواكب، وهل يرتقي العلم إلى أكثر من ذلك. وهل يتوصلون إلى صنع عدسات أعظم من التي في عصرنا هذا تكون نسبتها لها كنسبة هذه العدسات إلى مرآة غاليليو! وهل يكتشف الفلكيون ألوفاً أخرى من النّجوم التي تفلت الآن من آلاتنا، ويغيّرون إذ ذاك خريطة السّماء ويعطون أسماء لهذه العوالم الجديدة. وإذا توصلنا إلى رؤيتها كلها أيزول الليل من السّماء»؟..

وقال عودة بلهجة التحدّي: لماذا يريد الغربيون أن يعرفوا كل شيء ويضموا إليهم كل شيء، فإنَّا نرى ربنا ما وراء نجومنا هذه القليلة العدد. وهو لا يوجد وراء ملايين نجومكم! عزَّ وجلَّ.

فأجبتُه: «إننا نريد أن نبلغ نهاية العالم يا عودة»، فتأثر زعل لهذا الجواب المريب، وقال: «إنَّ هذا من اختصاص الله» وأما «محمّد» فلم يشأ أن يقلب الحديث. وسأل: «وهل يسكن بشر في هذه العوالم التي هي أكبر من عالمنا؟..»، فأجبته: «الله أعلم». وهل يوجد في هذه العوالم نبي وسماء وجحيم، فقاطعه عودة وقال: «أيها الشّبان: إننا نعرف صحراءنا وجمالنا ونساءنا. أما المجد والبقاء فلّله القوي السّرمدي، وإذا كانت نهاية الحكمة أن يضاف نجم إلى نجم. فجهلنا السّاذج إذن يكون عذباً جميلاً!»..

ثــم تكلم عن الذّهب وعن قصص أعادت السّــرور إلى السّــامعين، ثم همس بأذني بأن أطلب له من «فيصل» هدية جميلة عندما نحتلّ العَقَبة.

وذرّ قرن الشّمس فاستوينا على سروج مطايانا، وأفهمني عودة بأنه يتقدم إلى «باير» وطلب مني أن أرافقه. فمشــينا ســراعاً إلى أن بلغنا المكان المطلوب في ساعتين. وهو علــى منحدر تــل. فركع عودة على قبر ابنه «عناد» الذي قتله أولاد عمه الخمســة غيلة. فقــد وقع فــي كمين نصبه لــه المطالقة بنو عمه الخمســة. وقتلوه أخذاً بثــأر مصارعهم «عبطــان» الــذي صرعه عودة في مبــارزة. وأخبرني عودة بأنَّ «عنــاداً» مات كما يموت الأبطال بعد أن أبلى بلاءً حسناً أمام خمسة من أعدائه. ولم يبق له إلّا الولد الأصغر... «الصغير محمّد». وقد دعاني إلى هذا المكان كي أشاهد بكاءه على موتاه وأشهد على آلامه.

وكنــا عنــد ذهابنا إلى القبر قــد فوجئنا بدخان يــدور ويتلبد فوق البئــر، فغيَّرنا اتجاه ســيرنا فــي الحال وتقدمنا في حذر نحو الخرائب، وكانــت الأرض مقفرة، إلّا أنَّ كومة مــن الرّوث كانــت لا تزال تعمل فيها النّــار، والبئر متهدمة، والأرض منبوشــة ومفعمة بالسّــواد في مثل انفجار، وفحصنا البئر من الدّاخل فإذا جدرانها المكلســة قد تشــققت بفعل مقذوف ناري، وصخور تساقطت فسدت مأخذ الماء، فاستنشقت الهواء فإذا هو ريح الدّيناميت.

فهــرول عودة إلى البئر «عودة» إلى البئر الثّانية علــى طريق الودي تحت المقابر، فإذا بها قد تأثرت من نســف الدّيناميــت، وقد تهدَّم أعلاها وغص قاعها بالحجــارة. فقال «عودة»: «هذا فعل جازي»، ثم مشينا على أقدامنا إلى البئر الثّالثة «بئر بني صخر» فإذا هو ثقب هتك في تلك الأرض الشّهباء، ووصل «زعل» في تلك اللحظة وأظهر تأثراً عميقاً لهذه الكارثة.

فأمعنــا الفحــص في الخان فإذا آثار خيــل. ومن المقرّر بأن قدر مئــة فارس قد باتوا الليــل الماضــي هنا، وتحولنا إلى بئر رابعة إلى جهة الشّــمال من غيــر ما أمل، وقلنا في أنفســنا: «ليت شــعري! ماذا يحل بنا لو أن «باير» كانت كلها خراباً»، ولحســن حظنا قد تبددت مخاوفنا عند وصولنا إلى تلك البئر الرّابعة.

وتحققت نبوءة «عـودة» إذ كانت هذه البئر ملكاً «لجازي» فلم ينسـفها! واضطربنا بعض الاضطراب خوفاً من حيطة الأتراك الشّديدة، وخشينا أن يكونوا قد تحولوا أيضاً لجهـة «الجفر» شـرقي معان فينسـفون الآبار التي قرّرنا أن نوحّـد قواتنا من حولها قبل مهاجمة «العَقَبة». فإذا حوصرت هذه الآبار قبل أن نصل إليها نكون قد وقعنا في حيرة قاسية. أما الآن ففي وسعنا بفضل البئر الرّابعة أن نتزود ماءً كافياً، وإن يكن الأمر مكدّراً مؤلماً، إلّا أنَّها لا تكفي لأكثر من خمسمئة جمل دفعة واحدة، فعلينا أن نصلح مايمكن إصلاحه، فتحولنا إلى البئر الأولى التي كانت النّار إلى جانبها لنفحصها فحصاً دقيقاً إذ كانت أقل تخريباً من سواها، فعاد ناصر وعودة وعدت أنا معهما إلى البئر.

وقـد قـدّم لنا آل عقيل صندوقـاً فارغاً من مفرقعات «نوبل» اسـتعمله الأتراك بدون شـك لنسف الآبار. ودلت الآثار على أنهم نسفوا الآبار. ودلت الآثار على أنهم نسفوا خارجهـا ثـم أعـادوا الكرة ونسـفوا داخلها، لأننا بعـد أن ألفت أعيننـا الظّلمة أبصرت ثقوبـاً كثيرة إلى عمق عشـرين قدمـاً حديثة العهد في جدار البئر من الدّاخل، ولحسـن الحـظ لـم تنفجر هذه المفرقعـات، لأن الفتائل كانـت لا تزال متدليـة، ولأنَّ عقداً من هذه المتفجرات لا يزال سـليماً، إما لسـوء وضعه، وإمَّا أن هذه الفتائل وضعت لوقت معيـن وأخلفت، فربطنا حبال الدّلاء بعضها إلى بعض، وثبّتنا في أسـفلها خشـبة كافية الاتسـاع وجلسـنا عليها وهبطنا إلى البئر من منتصف البـاب، محاذرين مس الجدران التـي تصدعت من فعل الدّيناميت، وصار يخشـى عليها من السّـقوط لاحتكاك الحبل بها، فتحققت عندئذٍ بأنَّ كل حشـوة لا تزيد عن «ثلاث ليبرات» من المفرقعات، وإنها كانـت مركبة كالعقد على سـلك تليفون المعسـكرات. ومن هذا يكـون إما أن الأتراك قـد ربطـوا العقد ربطاً سـيئاً، وإما أن يكون الكشّـاف قد أطلعهم علـى وصولنا قبل أن يشـعلوا النّـار فـي الفتائل، فامتلكنـا بئرين على حالـة لا بأس بها مع ربـح ثلاثين ليبرة مـن الدّيناميت تكرّم علينا بها العدو، وكان قد تقرّر أن نتوقف أسـبوعاً كاملاً في «باير» السّـعيدة، إلّا أنَّ النّقطـة التي يجب أن نفهمها جيداً هـي حالة آبار «الجفر» وقد أضيف هـذا الاضطراب إلى الاهتمـام بالحصول على المؤن والمعلومـات الكافية، عن حالة

القبائـل النّفسـية الضّاربة بين معان والعَقَبة، فأرسـلنا رجلاً إلى «الجفـر» وجهّزنا قافلة صغيـرة من الجمال الرّكوبة، وأرسـلناها إلى ما وراء الخـط الحديدي حتى «الطَّفيلة»، وكان رجـال القافلة الأربعة من قبيلة لا يشـتبه الأتراك في انتدابنـا لهم وتواطئهم معنا، وكان عليهم أن يشتروا ما يصيبون من الطّحين ويعودوا إلينا بعد خمسة أو ستة أيام.

أمـا القبائـل القريبة من العَقَبـة فكان علينا أن نكتسـبها لتعاوننا معاونـة إيجابية ضد الأتـراك في بداية هجومنا حسـب الخطـة التي قرّرناها في «الوجـه». وكانت خطتنا أن نثـب وثبة تقربنـا من «الجفـر» عابرين الخط الحديـدي، ونحتلّ دون أقـل تأخير معبر «شتار» حيث يمرّ الطّريق الذي ينحدر عن مرتفعات في أرض «الجزيرة الحمراء».

ولكي نتحكم في هذا المعبر، يجب علينا أولاً أن نحتلّ «أبا اللِّسن» وينابيعه العظيمة التي على بعد سـتة عشـر ميلاً من معان. لكن حاميتنا كانت قليلة العدد فأمّلنا أن نفاجئه مفاجأة، أما عن طريق الجنوب فإنه سـيكون مقطوعاً فلا يتلقى جنوب الحراسة ذخائر فتستسـلم قبل انتهاء الأسـبوع، وفـوق ذلك فإنَّ صدى نجاحنا ينـزل قبائل الجبال إلينا سراعاً، ويعاونوننا على إبادة العدو عن آخره.

وكانـت مهاجمـة «أبا اللِّسـن» هي النّقطـة الدّقيقة في خطتنا! وعلينا أن نخشـى من وجود وقت كاف لخروج حامية معان، وطردنا من هذا الموقع واحتلال معبر «شـتار» ثانيـة، فـإذا تضاءلـت قوة العدو إلى طابـور واحد كما هو الآن فإنه يخشـى أن يتحرّك، ومتـى تركونا نحتـلّ المضيق وإلى أن تأتيهم النّجدة تكـون العَقَبة قد وقعت في أيدينا. وبهـذا الانتصـار نكون قد أنشـأنا قاعدة بحريـة جديدة وتكون مضايـق «إضم» حاجزاً منيعاً بيننا وبين العدو. فيجب علينا إذن أن نلقى سـباتاً عميقاً على جنود معان إذا شئنا، ونغتنم فرصة ضعفهم، وندعهم لا يدركون البتة أننا بجانبهم.

إلّا أنَّه للأسف لم يكن في الإمكان مطلقاً أن نخفي حركاتنا مادمنا نجاهر بالعصيان، لأنَّ بعـض العرب المكابريـن، والنّافرين من لجاجتنا وإلحاحنا، كانـوا ينّبهون العدو، وكان العـدو علـى علم بسـيرنا فـي وادي السّـرحان حتـى أن العقل السّـقيم يفهم من حركاتنـا أننا نقصـد العَقَبة وهي هدفنا الأوحد، وقد بلغتنا الأخبار بأن العدو قد نسـف

سبع آبار «الجفر» وهذا دليل على أن العدو كان في هذه النّواحي، وعلى حذر تام، وربما كان علينا أن نتحاشى المرور «بالجفر». إلّا أنَّ التخريب النّاقص في آبار «باير»، قد عمر أفئدتنا بالأمل. وقلنا لعل هؤلاء الأتراك المكروهين قد أبقوا لنا شيئاً يصلح في آبار «الجفر». وكان ضيف الله ـ أحد رؤساء «جازي الحويطات» والذي جاء إلى الوجه وحلف يمين الإخلاص للشّريف ـ حاضراً في الجفر. لما نسفوا بئر الملك بالدّيناميت، فإنهم أحاطوها بالرّجام ونسفوها. وقال لنا إنه يعتقد بأن البئر سليمة، غير أن فوهتها قد تخرّبت ويمكن إصلاحها ورفع الحجارة المتساقطة بسهولة في الحال. وهذا ما كنا نؤمله، فتركنا «باير» في 28 يونيو وسافرنا للاستكشاف. فجزنا سهل «الجفر» المشؤوم سراعاً. وبلغنا البئر ظهر اليوم الثّاني. ولأول وهلة استولى علينا اليأس وضغط الكرب على أفئدتنا، إذ رأينا أن الآبار قد انقلبت ظهراً لبطن ونسفت من أساسها، ليت شعري... أهنا سنلاقي الصّدمة الأولى بعد أن كنا حسبنا لغزوتنا مايمكن وما لا يمكن أن يكون، وقسنا الصّعوبات والطّوارئ بمقاييس العقل الدّقيقة. وهل يكون لهذا العائق العارض مدى طويل! ولم نغفل أن نتقدم إلى البئر ـ ملك عائلة عودة ـ التي حدثنا عنها ضيف الله. فجسسنا الأرض من حولها، فتبين لنا أن لها رنيناً تحت ضربات المدق، فناشدنا البنائين والحفارين فتقدم بعض العقيليين الذين يقودهم «مرزوق» وجمال ناصر الشّاب اللبق النّشيط وأخذوا يعملون حالاً ببعض أدوات كانت معنا، وكنا حولهم ننشطهم بأغانينا وبرنين الذّهب اللَّماح حالما يظهر الماء. ويالها من مهمّة شاقة تحت شمس الصّيف المحرقة! لأن هضبات «الجفر» منبسطة انبساط الكف، أرضها وحل متجمد لشدة الحرارة، أشهب يعمى البصر، يتلألأ منه الملح البارز من الأرض على مسافة نحو عشرين ميلاً، وكان ضيق الوقت يزحمنا فإذا لم نعثر على الماء وجب علينا أن نسير خمسين ميلاً لنبلغ أقرب مورد له. فأسرعنا في العمل وقسَّمناه بين فريقين مناوبة في ساعات الحر الشّديد، وكان من حسن حظنا أن الانفجار قلب الأرض، فكان جرف التراب سهلاً.

وكلما تقدم العمال في النّبش ظهرت أمامنا الحجارة التي لم تزل معلقة متشابكة

إلى بعضها، آيلة إلى السّقوط في البئر. وكان رفع هذه الحجارة عملاً شاقاً ودقيقاً إلى أن قاربت الشّمس إلى المغيب، فصرخ العمال النّشيطون وبشرونا بوصولهم إلى الأرض البكر. وأنَّ البنيان أصبح سليماً، ما عدا بعض قطع من التراب كانت تتساقط وتخضخض الماء، على بعد بضع أقدام من فوهة البئر الهتكة.

ومرت نصف ساعة، وإذا قسم من البنيان قد فقد توازنه، وسمع جرجمة شديدة وصراخ في البئر فأسرعنا وأضاء مرزوق مشعلاً فوجدنا البئر فاغرة عميقة على شكل قمع عشرين قدماً، والماء أسود، وفي وسطه دائرة بيضاء يعلو عليها الزّبد ويدي العقيلي المسكين مرتفعتين، تتخبطان خوفاً من العرق، فأخذ العرب ينظرون إليه من الفوهة هازئين، إلّا أنَّ عبد الله دلَّى حبلاً في الحال ورفع العقيلي مستحماً سليماً لكنه ناقم صاخب، وذبحنا لأولئك الفعلة الشّجعان فوق أجرهم جملاً منهوكاً، كان يجب أن نذبحه في المرحلة الأخيرة، فأخذوا الماء طول الليل، بينما جماعة أخرى من العقيليين قد أصلحوا رجام البئر وما حولها وهم ينشدون الأناشيد، حتى أخذت البئر مظهراً لا بأس به. ولبثنا أربعة وعشرين ساعة ننزح الطّبقة العليا من ماء البئر لأن الماء كان خبيثاً فلم يطب إلا قليلاً، وكانت الإبل لا تزال تظهر نفوراً منه.

وللحقيقة لم يجد جدّنا إلّا لما تركنا «الجفر» فتقدم بعض الفرسان إلى الأمام نحو خيام «الدّمانية» لينظموا خطط الهجوم الذي وعدوا به ضد فويلة ـ الاستحكام الموضوع على مدخل مضيق «أبا اللِّسن» ـ فقرّرنا شق هذا الحاجز قبل مرور الذّخيرة بيومين، لأن قافلة الذّخائر تأتي مرة واحدة كل أسبوع لتموّن المراكز الممتدّة على طول الطّريق. والجوع يخضع هذه المواقع بسهولة لأنها بعيدة عن معان، ويفهم رجالها بأنهم أصبحوا مفصولين نهائياً عن إخوانهم.

وكنا في «الجفر» على نار في انتظار نتيجة هذه الحركة، وكان تقدمنا متوقفاً عليها ومع ذلك كان مقامنا طيباً ومضحكاً، لأننا كنَّا تجاه معان والسّراب يسترنا، إلّا أنّه لو فطن الأتراك لأحسنوا استعمال عيونهم ونظاراتهم ليرقبوا السّهول من حولهم، وكنا نحن نرود مع القدر مسرورين ببئرنا التي أخذت جدتها، ولم نكن نخشى العدو لأنه

كان يحسب أننا لا نحصل على الماء بعد هذا التخريب هنا وفي «باير». وتهزهزوا في أحلامهم العذبة اعتقاداً منهم بأننا قد أخذنا في الفخ مع فرقة الخيالة في السّرحان، وأنه لم يبق لنا أمل في النّجاح.

وكنت أتفيأ إتقاء أشعّة الشّمس ساعات طويلة تحت شجيرة عوسج دقيقة الظّل، مستلقياً ظاناً بأني سأنام وأغفو، ولم يكن لي من وساد غير كمي الحريري أتوسد على جزء منه والجزء الآخر أحمي به وجهي من جيوش الذباب. وكان عودة جالساً بجانبي يرهقني بأخباره وتواريخ غزواته بلهجة قوية بهلوانية.. فلم ألبث أن تصدع رأسي من هذه الثّرثرة، فأخبرته وأنا أبتسم بأنه يتكلم كثيراً ويفعل قليلاً. فأجابني بأنه لا يمكنه أن يملك نفسه من الفرح بمجرد افتكاره بالعمل الذي سيقوم به قريباً.

وفي اليوم الثّاني عند الفجر قدم علينا فارس كانت تظهر عليه علامات التّعب والهزال. وأخبرنا بأن رجالنا حين وصولهم بالأمس هاجم «الدّمانيون» موقع «فويلة»، إلّا أنَّه قد فاتهم أثر المفاجأة. وكان للترك متسع من الوقت فجمعوا رجالهم خلف معاقل الحجر الجلمد فأرغم العرب على الارتداد والاحتماء من رصاص العدو الذي اعتقد أن هذه المفاجأة لم تكن إلا لعبة ساذجة لبعض البدو، وأرسل قسماً من الفرسان فهاجمت أقرب معسكر عربي، إلّا أنهم لم يعثروا في الخيام إلّا على رجل عجوز وست نساء وسبعة أولاد فذبحوهم ذبحاً، فثارت ثائرتهم فنهبوا المضارب وكانت قد فاتت الدّمانيين الفرصة لينزلوا عن التلال للدّفاع عندما علموا بالنّكبة. إلّا أنَّ الغضب أخذ منهم كل مأخذ فاندفعوا كالصّاعقة على الطّريق التي سلكها القتلة حتى بلغوا الموقع ثم ارتدوا عليهم في منتصف الطّريق، وأفنوهم عن آخرهم، وأمعنوا في الانتقام فانقضوا على المعقل وأخذوه عنوة ولم يرضهم أن يأخذوا رجاله أسرى!...

وكانت مطايانا قد أسرجت، وفي عشر دقائق كانت الأحمال على ظهور الجمال فسرنا سراعاً إلى «غدير الحج» أول محطة للسّكك الحديدية جنوب معان على طريقنا المستقيم إلى «أبا اللِّسن» وفي الوقت نفسه أرسلنا مفرزة تعبر طريق السّكة الحديدية شمال معان لنشاغل بها العدو ونهدد قطعان الجمال المرسلة من فلسطين، وقد حجزها

التُّرك في مراعي «الشَّوبَك» إلى أن تستريح وتشتد وتقوى على الخدمة في الجيش. وحسب تقديرنا لا يصل خبر نكبة «فويلة» إلى معان قبل الصّبح، فلا يتمكن إذن التُّرك أن يلموا قطعان الجمال ويضعوها تحت حماية نار الموقع ـ على فرض أن غزوتنا لم تكلل بالنّجاح ولم نتمكن من اللحاق بها ـ ولا أن يرسلوا نجدات إلى الشّمال قبل شروق الشّمس. فلو كنا في هذا الوقت على استعداد لمهاجمة الخط الحديدي في «غدير الحج» لكان الأتراك أخذوا في التفتيش علينا، ومفاجأتنا في تلك النّواحي. وبهذه الوسيلة نكون قد أصبحنا أحراراً مطلقين دون أقل عائق إلى العَقَبة.

وعلى هذا الأمل امتطينا نياقنا وسرنا دون توقف كالذي يتبع السّراب، والسّراب يهرب منه دون انقطاع، إلى أن كان الأصيل فدنونا من الخط الحديدي وأخليناه من الحراس والكشافات، وقصدنا الجسور الكثيرة الخالية من الخفراء ونسفناها، وخرجت حامية غدير الحج مصادفة لتصد جنودنا رغماً من الضّباب الشّديد الذي كان يعمي أبصارهم، فأرغمهم العرب على التقهقر بعد أن قتلوا بعض الرّجال.

إلّا أنَّهم في معان كانوا يعلمون بما يجري من الحوادث تليفونياً، وكان قد بلغهم بلا شك تخريبنا للجسور وسمعوا دوي متفجراتنا. وكنا نأمل أن يأتينا العدو إلى هنا فلا يلاقي أحداً بلا يلاقي آثارنا في الجسور العديدة المتهدمة... لأننا كنا نشتغل قليلاً ونهدم كثيراً. وكانت مخازن بارودنا تحت القناطر تحتوي على أكثر من ثلاث أو خمس ليبرات من الدّيناميت، ولا تلبث النّار أن تشتعل بالفتائل، وفي مدة ست دقائق تهوي القنطرة وتتصدع الدّعائم وتتشقق الأكتاف. وهكذا عطَّلنا ثانية جسوراً ومسافات كبيرة من الخط. ولم نتوقف حتى نفدت منا ذخيرة الدّيناميت تماماً.

ولما انهزم النّهار وحلك الليل وتمكنا من إخفاء حركاتنا عن العدو، مشينا مسافة خمسة أميال حتى وجدنا ملجأ لجأنا إليه. وما كاد ينضج خبز الملّة ويبرد في أيدينا حتى طلع علينا ثلاثة فرسان وهم يجدون خبباً دراكاً وأخبرونا بأن مفرزة معادية من مشاة ومدفعية سافرت من معان وظهرت في «أبا اللِّسن» وكان «الدّمانيون» قد تفرّقوا بعدانتصارهم السّابق وأرغموا على الارتداد عن مواقعهم دون أقل دفاع. وانتظروا في

البَتـراء. وهكذا فقدنا «أبا اللِّســن» والمعقل، والمعبر، وأفلـت منا طريق العَقَبة دون أن نطلق رصاصة واحدة.

وقـد فهمنا بعـد ذلك أن هذا الحماس غير المعهود عند التُّـرك كان مصادفة، ولكنه كان شـؤماً علينا، فاتفق أن طابور «بدل» قد بلغ معان في ذلك اليوم وفي ســاعة وصول خبـر مظاهرة العرب أمام «فويلة» وكان لا يزال في رصيف المحطة فأمر في الحال بأن يتجـه نحو الجنوب. بعد أن ألحقوا به ذخائره التي لا تزال على ظهور الجمال وزوّدوه بقســم مـن المدفعيـة تجرها الحيوانـات. ليعاقب العـرب الذين ـ على اعتقـاد العدو ـ يحاصرون المعقل.

وقد تركوا معان صباحاً وساروا على طريق المركبات بتمهّل، لأن الرّجال المعتادين علـى طثلـوج بلادهم في القوقاز، كادوا يختنقون من شـدة الحر وكانوا يقفون عند كل بئرٍ ليروو ظمأهم.

ثم تسـلقوا الجبل بعد (أبا اللِّسـن) واتجهوا نحو المعقل القديم! إلّا أنَّه كان خاوياً تحوم عليه العقبان، فخشـي قائدهم أن يثبّط هـذا المنظر المحزن عزيمتهم، ويفقد من معنويـة هـؤلاء الجنـود الفتيان، فعسـكر إلى الوراء علـى جانب الطّريق قـرب نبع «أبا اللِّسن» فقضوا الليل هادئين وفي متناول الماء، في قاع المعابر الضّيقة الملتوية.



الفصل الحادي عشر
نضال لبلوغ البحر

ومثـل هذه الأخبار تزجينا إلى الاندفاع، فشـددنا متاعنا على الجمال وانخرطنا بين الكثبان المتنقلة على هضبات سوريا، وكان خبز الملّة في أيدينا لا يزال ساخناً، وطعمه يمتـزج بطعم غبار الجيـش المتحرّك في قـاع الأودية، ورائحة الرّيحـان الغريبة القوية النّابت على المنحدر، تنتشر وتعطّر تلك الأرجاء. وكان الليل في تلك المعابر الضّيّقة، والجو الخالي من كل نسـمة، ومشـقة الأسـفار في أيام الصّيف الطّويلة، كل ذلك كان يضـرب علـى أوتار أعصابنـا، وما أغربها من أسـفار لمثلي وراء قوافـل من الجمال لا نهايـة لها، تسـير مثقّلة تحت أعبائهـا بخطى بطيئة، ومن تحت أخفافها تتكسـر أغصان الرّيحان العابق، فيرتفع عن الأرض عطر يؤرج الهواء.

أما في القيعان فكان النّبات غزيراً يغطي الثّرى، كأنّا ونحن نجدّ السّـرى بين خمائل منوّرة النّبت يسـتر الظّلام جمالها الرّائع. وفي السّـهل يرنّ الصّوت لأقل حركة. وكان «عـودة» يغني بعيداً ويردد الرّجال غناءه من الأمـام ومن الوراء بنظام وعظمة، فتجيش النّفس وتشعر بأن الجيش مقبل إلى المعركة.

فقطعنـا الليـل سـائرين وترجلنا عند بـزوغ الفجر على أعـراف التلال بيـن «بَطرة» Batra و«أبا اللِّسن» تمتد أمامنا مروج «قويرة» الخضر الزّمرّدية إلى أن تصطدم بحبال حمر كالعقيق، تلك الجبال التي تستر عنا البحر والعَقَبة.

وكان «قاسم أبو دميك» شيخ قبيلة الدّمانيّة ينتظرنا بفارغ الصّبر، محاطاً برجال قبيلته المحاربين الشّـجعان، وعلى وجوههم الدّامية شارات معركة الأمس، فاستقبلوا عودة

وناصـراً بأبهة ووقار، فأوقفنا حركاتنا في الحال، وذهب كل إلى عمله المسـؤول عنه، وقـد تحققنا بأنه لا يمكننا التقدم نحو العَقَبـة، والجيش التُّركي يأخذ علينا المعبر، فإذا لم نتمكن من زحزحته وإخراجه في الحال ضاعت جهودنا ومجازفتنا طوال الشّـهرين الماضيين، ولـم نحصل على أقل نتيجة.

ولحسـن الحـظ كانت غباوة العـدو أكثر مما نرجو، فبلغنا أملاً كان منذ هنيهة يأسـاً وقنوطـاً. فالعـدو لا يـزال يغـطُّ غطيطاً فـي ذلك العقيـق، ونحن نحتـلّ رؤوس التلال ونحـدق بـه من كل جانـب، ثم أصليناه نـاراً حامية لا انقطـاع لها، فانسـحب من كل النّواحـي علـى المنحدرات، وبين الصّخـور وعلى موارد الميـاه، بينما «زعل» وبعض الفرسـان يقطعون أسلاك التّلغراف والتليفون الممتدّة في السّهل المتصل بمعان، وكنا نعتقد بأنهم سيهاجموننا مجابهة ويحاولون إخراجنا من مواقعنا فلم يفعلوا.

ومضى النّهار في مناوشـة والشّـمس تؤج أجيجاً، فلم أشـعر قط بحرّ أشـد منه في صحـراء العرب. وكان القلق والانتقـال المتواصل يعرقلان خططنا، وبعض من رجال العرب الأشـداء لم يقووا على مجالدة هذه الشّـمس المحرقـة، فتمدّدوا على الأرض منهوكيـن، وكان علينـا أن نلقيهـم فـي ظـل بعـض الصّخور كي يسـتعيدوا نشـاطهم، ونركـض ركضـاً إلـى فوق وإلى تحـت وإلى كل صـوب، نحاول أن نخفف من شـقاء رجالنا بالتنقل، ونهتدي إلى بعض المواقع السّهلة العبور، على تلك التلال المتسلسلة كي نحبط حركات العدو، إلّا أنَّ المنحدرات كانت وعرة تأخذ بالأنفاس، والحشائش المتمـدّدة تلتـف علـى سـيقاننا، كأنها أيد خفية تشـدنا إلـى الوراء، وشـطف الصّخور الكلسية النّاتئة على المرتفعات تدمي أقدامنا. فكنا قبل هجوم الليل نرى آثار دماء أشد رجالنا على الثّرى.

وحميت بنادقنا لشدة حرارة الشّمس وشدة إطلاقها وحرقت أيدينا، مع أننا لم نفرّط فـي ذخيرتنـا، ولم نطلق بنادقنا إلّا على هدف معين، حتـى أن الصّخور التي كنا نرتمي عليها لنسـدد الرّماية، كانت حامية تلفح أذرعنـا وصدورنا، فيرتفع الجلد ويتناثر نثيراً، وتلتهـب أفواهنا من شـدة الألم والظّمـأ، لأن الماء كان عزيزاً وكان من المسـتحيل أن

نطلبه من «بَطرة» نظراً لقلة عدد رجالنا، وإذا كان لا بد من العطش فلنبق كلنا عطشى، لا أن يشرب فريق ويظل فريق يتقلّى.

وكنا نتعزَّى ونقول: «إنَّ الوادي الذي نحشر فيه العدو لهو أشـدُّ حرارة من مواقفنا على رؤوس الجبال المكشوفة للهواء. وأن التُّرك ذوي الجلود البيض أقل تحملاً لهذا الضّرام». ولقد كنا نتسلق المرتفعات ونتعقبهم ونسد عليهم المنافذ والتجمع، حتى يظلوا مشتتين لا سبيل لهم إلى اللحاق بنا واكتشاف مواقعنا. وعلى كل حال، كانوا لا يقوون على أي عمل موفق ضد المهاجمين. لأن رجالنا كانوا يدورون حولهم بسرعة وخفة لا مزيد عليهما، فلم يبقوا لهم هدفاً ثابتاً يرمون عليه، وكنا نهزأ من مدافعهم الجبلية الصّغيرة، التي كانت مقذوفاتها تتعدانا وتنفجر وراءنا، رغماً من أن هم يروننا جيداً من أعماق الوادي. وكان يمكنهم أن يسددوا الرّماية إلى قمم الجبال التي يتحصن بها عدوهم.

ولقد شعرت فجأة في رائعة النّهار بأن الشّمس قد رعنتني، لقد انحلَّت قواي، ولم أعد أفكر فيما يؤول إليه هجومنا، وحملت نفسي إلى حفرة حيث يسيل عِرْق ماء عكر من ثغرة في الجبل، فألقيتُ كمي على هذا هذا الوحل أمتصّ النّشع من فوقه، فتبعني ناصر مقطّع الأنفاس وشفتاه مغلّعتان داميتان وهو يتقلص ويتلوى ضيقاً ويأساً. ثم ظهر «عودة» بدوره يتقدم بخطوات واسعة وعيناه جاحظتان محتقنتان كالدّم، ووجهه متوتر من شدة الوهج والهياج.

فسخر منا الخبيث لما رآنا نتمرغ على الأرض ونتلمس قليلاً من البرودة في هذا المنحدر. وهاجمنا بهذا السّؤال: «إيه، ما رأيك في أبناء الحويطات» ـ فقد والله أجبته بمرارة: ـ لأني كنت حانقاً على العالم وعلى نفسي ـ «ألا يزال الكلام كثيراً بدون طائل، إنهم يطلقون كثيراً والإصابة نادرة...»..

فانتفض «عودة» لهاذ الرّد القاسي وتميّز غيظاً واصفر غضباً ومزّق عمامته وألقاها أمامي، ثم تسلق الأكمة إلى القمّة كالمجنون ونادى رجاله بصوته المرتعد الأبح، فتجمعوا حوله لحظة ثم تفرقوا على سفح الجبل، فخشيت أن يكون قد انقلب الأمر

إلى ضده وأجهدت نفسي كي ألحق به، وهو على القمّة منتصب وحده يحدّد إلى العدو نظرات مريعة، فنظر إليَّ وقال: «إذا شئت أن تنظر إلى أفعال الرّجال الشّيخ فاذهب وفتش على هجينك...». وأرسل «ناصر» يطلب هجينه وركبنا...

وانسل العرب إلى ملجأ أمين خلف رفرف من التل. وكنا نعلم بأن انحدار التل الثّاني هيّن ومتصل بوادي «أبا اللِّسن» الرّئيسي تحت نبع الماء. فتجمع محاربونا الأربعمئة هناك على غفلة من العدو فلحقنا بعميدهم وسألناه عما جرى وأين ذهب الفرسان؟ فأومأ إلى الوادي الثّاني ما وراء الجبل ثم قال: «هناك مع عودة» وبينما نحن نتكلم وإذا بصعقة ما وراء الأكمة زلزلت الأرض. وقصف رعود ومطر رصاص من بنادق رجالنا حوّلت الأرض من حولهم لجة من لجج جهنم. فحثثنا مطايانا ونحن نلتهب لرؤية الخمسين خيالاً ينقضون كالمنهزمين ولكن إلى الأمام من السّفح التل حتى الوادي الأكبر، فسقط منهم إلى الأرض اثنان أو ثلاثة، أما الباقون فقد لاحقوا انقضاضهم كالعاصفة الهوجاء على المشاة التُّرك المتجمعين من غير نظام تحت الصّخور، يفتشون يائسين عن مخرج يبلغون منه معان تحت ستر الليل الموشك على الانسدال. إلّا أنَّهم ماجوا اضطراباً وتقطَّعت أوصالهم لشدة الصّدمة، وتشتتوا من كل جهة لهول الصّعقة التي ألقاها «عودة» في قلوبهم.

وناداني ناصر وشفتاه تقطران دماً، وقال: اتبعني، وأركضنا مطايانا فكانت تحتنا أشباه الجن وانحدرت بنا على سفوح التلال كي نلتقي بطليعة العدو المولي الأدبار، ولم يكن المنحدر وعراً للهجن الرّاكضة، إلّا أنَّه كان على كل حال صعب المسالك، لنخشى عاقبة السّرعة التي لم يكن بإمكاننا إيقافها، والتحكم في مطايانا الهائجة. وقد نجح العرب باكتساب مواقع عن اليمين وعن الشّمال بإطلاقهم النّار باطّراد على العدو عند دغشة الليل! وكان الأتراك قد صعقوا صعقاً لاندفاع «عودة» الجنوني، فلم ينتبهوا لدنوّنا من المنحدرات الشّرقية فأخذناهم على غرة من الجناح. وأي قوة يمكنها أن تقاوم هجمات قلاص تركض ثلاثين ميلاً في السّاعة.

ولقد دخل أولاد الحويطات في ثورة من الغضب لا خمود لها لأن جريمة ذبح

نسائهم في الليل الماضي التي اقترفها الأتراك أحيت فيهم فجأة منظراً مرعباً مشؤوماً وشرعة حرب غريبة عن شرائع الحروب.

ولذلك لم يأخذوا سوى مئة وخمسين أسيراً، وثلاثمئة قتيل يتوسّدون الثّرى في منعطفات ذلك الوادي.

وتمكن بعض الجنود من الهرب مع بعض رجال المدفعية وبعض الرّاكبين وضباط تحت إمرة مرشدهم «جازي» فتبعهم محمّد الضّغلان، مسافة ثلاثة أميال إلى «مُريجة» وهو يمطرهم شتماً وسباباً، وعرّفهم بنفسه حتى لا يتحملوا القياه مرة ثانية على الطّريق.

أما خصوم عودة مع أولاد عمه فقد كان ينمو على غير علم محمّد. هذا الرّئيس العاقل اليقظ الذي هو وحده دون رفاقه عرف كيف يكتسب محبة كل رجال قبيلته. وقد عرفنا من بين الفارين ضيف الله العربي الذي خدمنا في الجفر بمناسبة آبار الملك.

ولحقنا عودة متبختراً وعيناه تشعان ابتهاجاً والكلمات تخرج من فمه سريعة متقطعة... «شغل...شغل!!. رصاص أبو تايه! أقوال من غير أفعال!» ورفع يديه ليرينا نظارتيه المفتتين وحمائل سيفه الممزق. لأن وابلاً من رصاص الأعداء كان مصوباً عليه، فقتلت فرسه تحته واخترقت ست رصاصات ثيابه ولم يصب جسمه بأذى!..

وبعد انقضاء زمن أسرَّ إليَّ «عودة» بأنه ابتاع اثنتي عشرة سنة عوذة قرآنية بمئة وعشرين ذهباً وبفضل هذه العوذة لم يجرح قط منذ ذاك الوقت البعيد. وللحقيقة كان الموت يتغاضى عنه ويفترس أولاده وإخوته وخلصاءَه! فيالنكاية القدر!.. ولم تكن هذه التميمة سوى نسخة من كتاب مطبوع في «جلاسكو» تباع بثمانية عشر بنساً! إلّا أنَّ إيمان «عودة» السّاذج الحار لا يدعو إلى الضّحك. ولم يكن أحد يهزأ من اعتقاده الثّابت.

ولقد تهلّل عودة وبلغ منتهى الغبطة بالفوز في ذلك النّهار. وكان يزداد ابتهاجه كلما شعر بأنه أفحمني وأدهشني بما يمكن أن يقوم به رجال قبيلته من العجائب، إلّا أنَّ محمّداً كان حانقاً علينا، ويعتقد بأننا الإثنين مجنونان ـ وكان يريدني بهذا القول

أكثر من عودة. لأني أغضبت هذا الأخير وأهنته في حومة الوغى، وكنا نوشك أن نكون جميعاً ضحايا هذه الإهانة، وللحقيقة لم يقتل سوى رجلين من جانبنا! رجل من الرّولة، وواحد من شرارة.

وإذا كان فَقْد رجلين من رجالنا العرب أمراً يؤسف له إلّا أنَّه لم يكن الوقت وقت حصرة، فعلينا احتلال معان بأي ثمن كان، والهجوم على المخافر المتسلسلة أمامنا إلى البحر وإرغامها على التسليم.

ويمكنني بملء إرادتي أن أضحي بأكثر من اثنين من رجالنا العرب لبلوغ الهدف الذي نصبو إليه. وأن مثل هذه المواقف الدّقيقة لتبرّر كل تضحية، وكل غال يرخص أمام نجاحنا المقبل.

وقد سلب العرب التُّرك بعد الموقعة ونهبوا الذّخائر والمواقع، ولما أطلَّ القمر من وراء الأكمة أمر عودة بالسّير والتقدم. أما ناصر وأنا فقد تلقينا هذه الدّعوة بتململ، لأن الهواء في تلك الليلة كان يهبّ من الغرب ناعماً بليلاً، وكان على هضاب «أبا اللِّسن» - على علو أربعمئة قدم - برد يتمشى في عظامنا ويجدد آلام جروحنا ورضوضنا. وكان عرق الماء الفضي وخريهر الهادئ وانسيابه على حصباه كاللؤلؤ بين الأعشاب الخضر كالزّمرّد، يغرينا لقضاء بعض تلك الليلة، لا نبرح ولا نحور، لأننا كنا ناعمين براحة عذبة ملتفين بعباءاتنا ونتساءل: هل يساوي انتقالنا حتى تحضير بعض الطّعام هذا الهدوء المنشود!...

وكنا في تلك السّاعة عرضة للعار الجسماني، بعد شرف الانتصار. وما من شيء يساوي الرّاحة بعد التّعب. وإنَّا لم نقم بعمل نطلب لأجله مديحاً.

فألحَّ عودة بالرّحيل لأسباب عديدة. منها أنّه قد تملكته الوساوس لوجود هامة الموتى من حوله. وأنه ربما عاد التُّرك إلينا بقوات تفوق قواتنا، ولربما كذلك يفاجئنا جماعة من بني الحويطات ونحن منهوكين من التّعب ومأخوذين بسكرة الرّقاد، وبينه وبين بعض أفرادها عداوات دم عائلية، ويطلقون علينا النّار، ثم يتمحلون الأعذار بأنهم حسبوا معسكرنا معسكر عدو.

فنهضنا وامتطينا الهجن وقذفنا بالأسرى أمامنا وهم في حالة وهن وتضعضع... وكان من المحتم على أكثرهم أن يسيروا مشياً على الأقدام. وقدر عشرين جملاً من جمالنا لم تعد تصلح للخدمة، منها المقتول، ومنها المجروح جروحاً قاتلة، ومنها المنهوكة لا تقوى على حملين فوق ظهرها. وقليلة كانت المطايا التي تحمل رجلين عربياً وتركياً. ومن الأسرى من هو مجروح جرحاً خطراً لا يقوى معه على الاحتفاظ بنفسه على السّرج، فاضطررنا أن نترك عشرين أسيراً في مكانهم فمدّدناهم على الحشيش الأثيث بجانب السّاقية، وهناك على الأقل لا يموتون عطشاً. ولم يكن من أمل في الحياة بعد جروحهم البالغة أو في وصول الإسعاف إليهم من معان.

وطلب ناصر أغطية لهؤلاء القوم النّصف عراة المتروكين للقدر، وبينما الرّجال يشدون الأحمال، هبطت الوادي لعلي أجد على القتلى بعض الثّياب يمكنني أن أنزعها عنهم، إلّا أنَّ البدو كانوا قد سبقوني إلى هناك ولم ألاق إلا أجساماً عارية تماماً. وهذه هي غاية الشّرف عند أهل البادية. وأعز سلب عند العربي هو ثوب العدو المقتول. ولذلك رأينا رجالنا على ضوء الصّباح في اليوم الثّاني، ويرتدون دراعات الكاكي التُّركية وهي بحالة جيدة، ويظهر أن جيش الأعداء قد بلغته من الشّمال ملابس جديدة بجميع لوازمها.

وتابعنا السّير ندور حول المرتفعات القريبة منا، ثم توقفنا في منحن ساكن لا يهب عليه هواء فنام الرّجال نوماً عميقاً من شدة الجهد. وحررنا رسائلنا إلى رؤساء حويطات السّاحل نعلمهم بانتصارنا كي يقرّروا محاصرة العدو القريب منهم ومنعه من الخروج من مخافره لحين وصولنا. وكان أحد الضّباط الأسرى المغضوب عليهم من التُّرك والذي عاملناه بالحسنى، قد رضي بأن يكون كاتم أسرارنا إقراراً بالفضل لنا. فاستكتبناه باللغة التُّركية إلى رؤساء مخافر «قويرة» و«كثيرة» و«حَدرة» مؤكدين بأننا لا نلحق بهم ضرراً إذا استسلموا دون مقاومة وأنَّا نكتفي بأسرهم ومعاملتهم معاملة طيبة، ولا نلبث أن نطلق سراحهم حال وصولهم إلى مصر.

ولم ننته من هذه الرّسائل إلّا عند بزوغ الشّمس، وقادنا عودة وهو على رأس الحملة

إلى نهاية الوادي المغطى بالخلنج، والذي يتسع بين تلين مستديرين منحدرين انحداراً خفيفاً.. فشعرنا كأننا في منازلنا وبين أهلينا تحت هذه الأشجار المخضوضلة، وأنه لكالحلم اللذيذ مالبث أن تبدد عند نهاية هذا المنحدر الظّليل، وإن ما بعد ذلك لفضاء لا نهاية له. وتلك كانت مفاجأة غير منتظرة ملأتني حيرة. وكنا عندما عبرنا هذا الرّوض الطّبيعي الذي لم تتعب فيه يد الإنسان نتمنى لو أنا مررنا به ثانية. حتى أن قلوصي تقوّمت ورفعت عنقها الطّويل إلى الأمام، لتودعه من وراء عرف الوادي في الأفق الهارب.

وكانت تنحدر تحتنا صخور «شتار» على مسافة مئات من الأقدام. تعوج وتتفتح وتتسامى وتنخفض كالأبراج، تصطدم بها غيوم الصّيف عند السّحر، وتحت أقدامها تنشق وتنبسط سهول «قويرة» وربى «أبا اللِّسن» المستديرة كالأثداء النّواهد، كانت مفروشة بالحشيش الأخضر مظللة بأشجار الخلنج المنتصبة النّضرة. أما «قويرة» فكانت كأن مجهولاً ألقاها بيده على بساط من الرّمل الوردي المُعْلَم بخطوط العليق والعوسج التي تدل على مجاري الأودية، ومن هنا ومن هناك جزر من الحصى، وحلقات صخرية مشرشرة بفعل الأمطار، وتأكّل الهواء. لها لون ذوّبته الشّمس ومزجته مزجاً عجيباً.

وبعد أن سرنا أياماً على المرتفعات وفي الأعقَّة الضّيقة كأنها السّجون. كانت تلك الأماكن الخلوية الخالية لدينا كالرّؤى النّادرة. وكأنها كانت ـ مكافأة لجهادنا الماضي ـ تفتح لنا نوافذ على حائط الحياة.

فترجلنا ومشينا في معابر «شتار» الملتوية فقدرناها حق قدرها لما حوته من الجمال الرّائع، لأننا على ظهور جمالنا كنا نتهادى نعساً ونتوجس سقوطاً فلم يكن لنا هاد يهدينا إلى هذه الرّوائع، ولم نكن نجسر أن نميل بنواظرنا يميناً أو شمالاً خوفاً من فقد الموازنة والسّقوط. وتلقت جمالنا في القيعان بعض الأشواك السّائغة فحرّكت فكوكها الجافة. وكان قد بعد رجالنا فتوقفوا وتململنا على الرّمل النّاعم كأنه الزّغب ورقدنا. وما هي إلا لحظة حتى انقض علينا «عودة». فدافعنا عن راحة أسرانا المنهوكين، فأجابنا

بأن متابعة السّير تميتهم هم وحدهم نصباً. أما إذا تأخرنا نحن، فالظّافرون المنتصرون يموتون أيضاً. وللحقيقة لم يبق لدينا غير النّذر اليسير من الزّاد والماء. ولم يبق لنا من حيلة نحتال بها على «عودة» فسرنا خمسة عشر ميلاً وقضينا بقية الليل على مرتفع فوق «قويرة» حيث ينتظرنا الشّيخ ابن جاد. ذاك الشّيخ الأصيل المتردد الذي كان ينتظر أقوى الخصمين فينضم إليه. ولما سمع الثّعلب الهرم بانتصارنا القريب العهد، لم يبق لديه شك في تفوقنا، فجأة يخطب ودنا، ويجانبنا بجلد الحمل ويجاملنا بمعسول الكلام.

وكانت الحامية التُّركية المؤلفة من مئة وعشرين جندياً طوع أمره، فاتفقنا على أن يقودهم إلى العَقَبة وقرأنا التقويم فإذا التاريخ في ذلك اليوم 4 يوليو. وكان الوقت يضيق بنا والجوع يهددنا. والعَقَبة مفصولة عنا بمعقلين تركيين. أما مخفر «كُثيرة» فقد امتنع بتاتاً عن مخابرتنا وهو أقربهما إلينا. وكان كالقلعة الصّغيرة فوق الصّخور الوعرة يتحكم بالوادي، فمهاجمته تكلفنا أرواحاً ووقتاً طويلاً.

فقرّرنا ونحن نمزح بأن نكلف ابن جاد ورجاله الأبطال بهذه المهمّة الجميلة، وأشرنا عليه بأن يقتحمها في الليل المقبل. فتراجع ابن جاد أمام هذا الأمر الشّديد الوعورة محتمياً بحجة نور القمر الفاضح. فأجبناه بأن القمر سيختفي وقتاً ولو قصيراً. وحسب مفكرتي سيكون خسوف القمر في ذلك الليل. ويالها فرصة من سوانح الفرص.

فقد انقض العرب على المخفر واجتاحوه ولم يفقدوا رجلاً واحداً، بينما التُّرك البلهاء المولعون بباطل الاعتقادات، يصوبون بنادقهم إلى السّماء ويطلقونها، ويضربون بهوس وحماس على حللهم النّحاسية، كي ينجدوا القمر المهدد ويخلصوه من محنته. وهدأ روعنا من هذه النّاحية، فسرنا بين سهول شاسعة، وناصر يحمي إلى جانبه «نيازي بك» قومندان الطّابور من البدو بأنه أهانه بلفظ تركي مشين. فاعتذرت إليه وأفهمته بأن أولئك البدو قد حفظوا تلك العبارات البذيئة من حكامهم إخوانه التُّرك! والعربي الآن يدفع ما لقيصر لقيصر، فلم يقتنع قيصر.

ثـم أدخـل يده في جيبـه وأخـرج قطعة من الخبـز متكسـرة متجمعة علـى بعضها، وسألني: هل هذا فطور يليق بضابط تركي!...

واتفق أن اشـترى توأماي أو ملاكاي الحارسـان داود ورفيقه، أو سـرقا جراية أحد الأسـرى التُّرك، فقسـمناها أربعة أقسـام. فأجبته بأن هذه القطعة من الخبز هي فطورك وعشاؤك، وربما فطورك صباح الغد.

وأنـا نفسـي الضّابط أركان حـرب في الجيـش البريطاني الذي هو ليـس بأقل نعمة وبحبوحـة من الجنـدي التُّركي، التهم هذا الجـزء من الجراية التهـام طيبات النّصر!.. وقد كان ذلّ الانكسار عالقاً في حلقه. لا خبث الجراية! ودعوته أن لا يحسبني مسؤولاً عـن معركة كان شـرف كلينـا موقوفاً على نتيجتها سـواء بسـواء، وكانـت معابر وادي «إضـم» كثيرة الرّفارف والمنحنيـات، كلما زدنا فهيا توغلاً زادت وعورة. وقد هجرت الحاميـات التُّركية مخافرها المتسلسـلة فوق «كثيرة» علـى طول الطّريق وانطوت على «خضـرة» وهـو موقع منيـع محصَّن على مصب «إضـم» للدّفاع عـن «العَقَبة» ضد كل احتلال من البحر.

ولسـوء حظ العدو لم يخطر بباله أنه سيكلَّف ضد هجمة خصمه من البر، ولم يكن فـي التحصينـات التي تكلـل العَقَبة موقع مـا أو جبهة أو خندق يمكنهـا أن تصمد لأي صدمة من هذه النّاحية. وكان تقدمنا الفجائي صعقة عامة لأولئك القوم.

وبلغنـا هذا الموقـع الهام عند الأصيل. وقال لنا عـرب النّواحي بأن رجال المخافر دعوا للحاق بفرقهم، ولم يبق منهم غير ثلاثمئة رجل تقريباً يأخذون علينا طريق البحر، فترجلنا للمداولة والاستشارة.

وكان العـدو في حمى منيع ضـد قنابل البحر، ولديه بئر ارتوازية حفرها حديثاً، فهو إذن يتمكـن من مقاومـة الحصار طويلاً، ولكن هل نصدق عفـواً الأقاويل التي يرددها أهل النّاحية بأن الزّاد ينقصهم.

ولـم تكـن لدينـا معلومات أكثر من ذلك. إننـا والحق يقال كنا في مـأزق لا نرى لنا

مخرجاً منه. وتشعبت الآراء، وكان الحريص منا كالمجازف، كل يرد الحجة بالحجة قدر المستطاع. فتكهربت الطّباع، وتوتَّرت الأعصاب في ذلك الجو الملتهب داخل المعبر المطبق. وأعراف الصّخور الصّوّانية ترسل إلينا لعاباً من الأشعة الحامية ونحن في هذا القاع الكثير الأغوار. لا تهب علينا نسمة تخفف من أجيجها. وتزاحمت قواتنا في ذلك الخندق الطّبيعي، وفاضوا على الجانبين حتى بلغوا إلينا. وقد قطعنا حديثنا مراراً لأننا رأينا أنه ليس من الحكمة أن يسمعوا رؤساءهم يتشاحنون على هذا النّحو! فضلاً عن أن رائحة العرق في ذلك الجو الجهنمي تتصاعد من أجسام أولئك الجنود المحرومين من الاغتسال مدة طويلة فتصبح الإقامة غير محتملة.

وأرسلنا إلى التُّرك الإنذارات المألوفة ورفعنا لهم علماً أبيض للمخابرة، وأرسلنا إليهم أسرى ليجيبوا دعوتنا، فأجابونا بإطلاق الرّصاص علينا، فهاج العرب لهذا وفهموا الأمر من وجهته الرّديئة، وبينما نحن نتداول تسلقوا المرتفعات وأمطروا العدو وابلاً من الرّصاص، فركض ناصر حافياً ليصد هذا الاندفاع، لكنه طلب نعلين يحتذيهما لأن الصّخور كانت حامية كالجمر، وكنت أتحايل على ظل ضئيل وقد أنهكني النّصب من هؤلاء الرّجال، فلم أهتم بمن منهم يمكنه أن يذلل اندفاعهم الهائج.

وحاولنا مرة ثالثة أن نتخابر مع العدو بوساطة رجل شاب كان مطلوباً للقرعة العسكرية. فقبل أن يقوم بالمهمّة ولم يخش الدّنوّ منه ورافقنا الجندي الشّاب لجهة الخنادق ودعونا ضابطاً لموافاتنا ومخابرتنا. فأطل علينا الضّابط وهو يتردد. فأفهمناه بأن الحالة دقيقة جداً، وأنا قد استولينا على جميع المخافر والمعاقل وراءنا، وأن قواتنا تتعاظم دون انقطاع، وفوق ذلك ليس من المستطاع بل من المستحيل تخفيف غليان رجالنا المتحفزين، وبعد الأخذ والرّد صرّح بأنه سيسلم غداً عند الفجر. وهكذا كان لنا نصيب مرة أخرى، بأن نذوق طعم الكرى رغماً من الظّمأ الذي كان يحرق أحشاءنا.

وفي الصّباح ألفينا المعركة تنفجر من فوق التلال التي حولنا. لأن قوة كبيرة من رجالنا قد وصلت في الليل ولم تعلم باتفاقنا مع العدو، فأصلته ناراً حامية فصمد لها بشجاعة.

فركض ناصر يرافقه «ابن دغيثر» ورجاله العقيليون وهبطوا الوادي فتوقف رجالنا عن إطلاق النّار وتوقف التُّرك من ناحيتهم، لأن العدو لم يبق لديه أمل ما في المقاومة. وقد فرغ منه الزّاد تماماً، وفوق ذلك كان يحسب بأننا ممونون أحسن تموين. فتم التسليم على أفضل الشّروط.

ولاحظت بينما كان العرب منهمكين بالسّلب ضابطاً من السّلك الهندسي يرتدي ثوباً رمادياً وله لحية شقراء وعينان زرقاوان في حالة اضطراب. فكلمته بالألمانية! وكان قد أرسل قريباً ليفتش عن الطّبقة المائية وينبش بئراً ارتوازية للجنود، لأنه من المختصين بهذه الأعمال. ولم يكن يعرف التُّركية، وقد كن مستغرباً هذا الحادث في الصّحراء المسالمة! فأجبته بأنَّ العرب قد انتقضوا على الحكم التُّركي. وبالطبع لا يمكنه أن يفهم سر هذه الحوادث دفعة واحدة. ثم سألني: من يقود هذا العصيان؟ فقلت له: «شريف مكة»، فأجابني: إذن سأكون أسيراً في تلك المدينة!! قلت له: «بل في مصر» وكان يريد أن يعرف ثمن السّكر، وانشرح صدره لما علم بأنَّ السّكر موجود بكثرة وبثمن بخس!

وقد رضي هذا الضّابط الفني بفقد كل شيء واستسلم للقدر، ولكنه أسف جداً لتركه البئر التي كادت أن تنتهي، ولكانت تكون من حسناته في الصّحراء... وأراني موقعها وكيفية استعمال آلاتها ورفع لنا دلواً من مائها الوحل فشربنا شيئاً منه لنخفف من ظمئنا. ولم نلبث أن دهمتنا عاصفة من الرّمال وقذفتنا مدى أربعة أميال وذلك في 6 يوليو بعد خروجنا من «الوجه» بشهرين، وهكذا عدنا وارتمينا في أحضان مياه البحر.

* * *



داڤيد جورج هوغارث

الفصل الثّاني عشر
العَقَبة والسّويس وآلِنْبي

وبلغنـا الشّـاطئ ننظـر إلى جماعات مـن النّاس يمـرّون أمامنا بوجـوه أوربية لا أثر للشّعور في ملامحها. وكانت العَقَبة محط آمالنا وأفق أرواحنا شهوراً عديدة. ولم يكن لنـا هـم ولا لذة إلا بذكر العَقَبـة. والآن وقد تحوّلت الرّؤيا إلى حقيقة فقد شـعرنا بكل احتقار نحو أولئك الرّجال الذين ضحوا بكل قواهم ليصلوا إلى نتيجة لم تبدّل شيئاً لا من الأفكار ولا من الأشياء.

ولقـد أخرجنـا الجوع من سـباتنا العميق. وعلينا في العَقَبة أن نطعم سـبعمئة أسـير وخمسمئة من رجالنا عدا الذين نتوقع وصولهم وهم نحو ألفي رجل من حلفائنا. ولم يكن لدينا مال. ثم أنه لم تكن هناك أسـواق سـوى العَقَبة لتموينا بالغذاء. وكانت آخر أكلة أكلناها منذ يومين، مع أن لحوم جمالنا كانت تكفينا ستة أسابيع، إلّا أنَّ هذا الحل كان رديئـاً لأنَّ جمالنا غاليـة الثّمن، وفوق ذلك لا بدّ من يوم تنفد فيه حيواناتنا ويصبح جيشنا الصّغير عديم الحركة لفقده وسائل النّقل.

وكان إذن من المحتم علينا أن نوصل خبرنا إلى البريطانيين على بعد مئة وخمسـين ميلاً في الصّحراء التي تفصلنا عن السّويس، ونطلب إرسال سفينة تنجدنا في الحال.

فقرّرنـا بـأن أسـافر ومعـي ثمانيـة أكثرهـم من رجـال الحويطـات يركبـون قلاص الجيـش النّجيبـة. وكانـت «جدَّة» بين تلـك القلاص لا تتجاوز السّـبعة أعـوام، والتي مـن أجل امتلاكها نشـبت حرب خليـج العَقَبة كنا نتباحث عن كيفية تنظيم السّـير، فإذا مشـينا الهوينى كي نرفق بمطايانا تعرّضنا للهلاك جوعاً. وإذا سـرنا سـراعاً أنهكنا هذه

الحيوانات الطّيبة، فتسقط في وسط الصّحراء أو تتوقف عن السّير مفلعة الأخفاف.

فقر رأينا على أن نسير بين بين!... وخير الأمور أواسطها، حسب طبيعة الأرض. ونقطع مسافات كل يوم حسب مقدرتنا على البقاء على ظهور مطايانا. وعند الانتقال والأسفار إذا تدخل عامل الوقت في الأمر ـ وعلى الأخص للرّجل الغريب عن البلاد ـ فالإنسان يموت من التّعب قبل الحيوان.

وأنا شخصياً كنت أقطع منذ شهر كل يوم خمسين ميلاً، حتى بلغت الحد الأقصى من المقاومة. وإذا تحملت هذا النّصب يمكننا أن نكون في السّويس بعد خمسين ساعة. وكي لا يغرينا تحضير الطّعام إلى التوقف، فقد سلق كل منا قطعة من لحم الجمل وشوى شيئاً من الثّمر، ولففناها بقطعة من قماش وربطناها في مؤخر السّروج.

وعند منتصف الليل كنا في «ثَمَد» وهو مورد الماء الوحيد في طريقنا. وكانت الآبار في قاع واد صغير ومنظرها يشرح الخاطر، وهي قائمة تحت مخفر الحرس وقد هجره حرس سينا. فتركنا قلاصنا تتنفس وتشرب، بينما نكون نحن قد أروينا ظمأنا. ولم نلبث أن طوينا السّرى في ذلك الليل البهيم الأخرس ونتلفت وراءنا كأننا نسمع حساً غريباً في تلك التيماء المبهمة. هميس أخفاف إبلنا على الرّمال، وبين مشذَّب من النّبات العطري يرتفع طيبة إلى معاطسنا كشذى الخزامى. وما هي إلّا أوهام من أعصاب تعبة أنهكها السّهر والفكر.

وطلع الفجر متلكئاً. والشّمس لا تزال وراء الرّمال بين الأودية التي تنفرج، ثم تتقابل على طريق العريش. فتوقفنا لنمني إبلنا بالرّاحة والرّعي بضع دقائق، وعدنا على سروجنا حتى منتصف النّهار، ولما رأينا خرائب قلعة «نخل» الحزينة ترقص في السّراب وقد تركناها عن يميننا توقفنا ساعة كاملة، ولم يبق للإبل حيلة وليس لنا قوة. إلا أن «مثلجاً» صاحب «جدة» القلوص العملاق دعانا لتلبية الأمر. فركبنا كأننا أصنام هاوية، فتسلقت بنا الإبل جبل «مثلاً» وطلع القمر على هذه الأعراف الكلسية، وتلألأت الصّخور البيض كأنها مرصعة بالبلور الذي لا عدَّ له.

وعند الفجر مررنا بجانب حقل مزروع بطيخاً لأحد العرب. وهي شقة حرام تفصل بين المتحاربين! فتوقفنا رغماً من وقتنا الغالي الثّمين لنسرح بهائمنا على تلك المنخفضات، لعلها تلاقي شيئاً أخضر تقضمه، وقطفنا بعضاً من تلك الفاكهة، وبللنا شفاهنا المشققة من لفح الهواء وسفع الرّمال. وسرنا دائماً إلى الأمام، وفي يوم دائم القيظ. إلّا أنه لم يكن مضنياً في ذلك الوادي لهبوب الصّبا عليه من خليج السّويس. وانخرطنا بين كثير من الكثبان المتنقلة القريبة المنحدرات كأنها «جبل روسي» إلّا أنّنا رجعنا عند الأصيل إلى السّهول المنبسطة، وشعرنا بأننا نلمح خطاً في الأفق يرقص على السّراب لجهة منخفض القناة، فأيقنا بأننا أمام السّويس.

ووصلنا إلى صفوف خنادق كثيرة مسوّرة بالحواجز والأسلاك الشّائكة. وكيفما كنا نتجه نلاقي طرقاً وبعض أطراف خط حديدي خرب.

فاجتزنا كل ذلك ولم ينتبه إلينا أحد. وكان «الشّط» نهاية مرحلتنا وهو المخفر القائم تجاه السّويس على الضّفة الآسيوية من القناة. وكان ذلك في السّاعة الثّالثة بعد الظّهر بعد أن مشينا تسعة وأربعين ساعة من العَقَبة.

وأنها لَسرعة حسنة جداً لدى البدوي في غزوته. فكيف بنا ونحن كنا في العَقَبة منهوكي القوى قبل أن نبتدئ برحلتنا.

وكانت الفوضى سائدة في «الشّط» فلم نلاقِ ظل حارس قط، وكان منذ ثلاثة أيام قد تفشّى الطّاعون ودخل بين المضَارب دخول الذئب على الحظيرة. فنقلت المخافر القديمة وهُجرت الخيام على حالها التي كانت عليه، وآوي رجالها إلى قلب الصّحراء. ولهذا السّبب كنا ضائعين بين المكاتب الخالية. ولا نعلم كنه الحقيقة. إلى أن وقع تحت يدي تليفون. فطلبت اتصالي بمركز قيادة السّويس العام لأني أريد التسليم!! فأجابوني آسفين. لأن ذلك لم يكن من اختصاصهم، إلّا أنَّ «مصلحة نقل المياه» هي التي تهتم لهذا الأمر بحسب طرق النّقل عندها من ناحيتي القناة. وكنت ظننت بأني فهمت ـ لطنين في أذني ـ بأن هذه الطّرق لدى المصلحة لا علاقة لها مع أركان حرب العام. فطلبت مكاتب «الماء والخبز» وأفهمتهم بأني قادم من الصّحراء الآن ولدى

المعلومات يجب أن أقدّمها للأركان حرب في الحال وأطلب وسيلة للوصول، فأسفوا ألف مرة كذلك. لأنه لا يوجد مركب في القناة يمكنه أن يعبر بهم إلى الضّفة الثّانية. وأنهم في الغد سينقلونني إلى المحجر الصّحي دون تأخير! وهنا انتهت المخاطبة.

فقلت لنفسي هأنذا قد قضيت أربعة أشهر في صحراء العرب دائم الحركة لا أملك يوماً أتنفس فيه، ووصلت إلى هنا بعد أن قطعت ألف وأربعمئة ميل على ظهر جمل لا أرحم جسدي كلما قضت الحاجة للتقدم نحو الانتصار. فإني أرفض أن أقضي ليلة واحدة باطلة مع الحشرات التي تنهش جلدي. إني أطلب حماماً وبعض الشّراب المثلج وأطلب تغيير ثيابي اللاصقة بقَذَرِها على جروحي الدّامية، وآكل شيئاً أطيب طعماً من البلح الفج وغضروف الجمال! فطلبت الاتصال هذه المرة بحدَّة... وهذه المرة قفلوا في وجهي!! إلّا أني سمعت من تليفون مكتب الجيش صوت لهجة أبناء الشّمال يقول لي بلطف: «لا فائدة يا سيدي من الإلحاح مع مثل هؤلاء القوم».

وكان هذا الكريم المجهول الصّوت على حق في كلامه! وأَسْرَعَ ووصلني بمكتب القوارب الذي كان رئيسه الميجور «ليتلتون»، الدّائم الإنهماك. وقد خطر له أن يضيف إلى مهامّه الكثيرة مهمّة تموين العرب. فكان يحجز كل مركب حربي يجاذف بالدّخول في مياه السّويس، ويقنع ربانه بأن يضع على ظهر سفينته ما استطاع من الذّخائر والمؤن «برسم»، «الوجه»، و«ينبُع» وكانَ بعضهم جذلاً لمثل هذه المهمّة.

وهكذا كان يسلبنا ألوف رجالنا وطرودنا على مرأى منا، كأنَّ هذه الممارسة اليومية كانت سلوى طيبة بين مهامّهِ الشّاقة. وكان مع ذلك يجد وقتاً ليبتسم لأعمالنا الغريبة التي نقوم بها. نحن أولئك النّاس الأكثر غرابة.

وعليه. فلم يهملنا قط. ولقد علم بالعراقيل التي أقامتها أمامنا شركة الشّحن فمهّد لنا كل عقبة في لحظة. وكان زورقه مجهّزاً وسيكون على «الشط» بعد مرور نصف ساعة. وما كدت أطأ أرض الضّفة الغربية حتى هرولت إلى مكتبه. ولم أطلع كائناً ما على هذا الحادث. إلّا بعض الأخصاء بُعيدَ انتهاء الحرب.

لأنّـه لا يمكـن لزورق صغيرٍ أو كبيرٍ أن يطوف على مياه القناة «كلّيّة القداسـة» دون أمر سـابق من مجلس الإدارة، لكنه أمرٍ ونفذ أمره. وأرسـلت رجالي وجمالهم شمالي «الكُوبري» kubri وتكلمت بالتليفون إلى السّويس ليضيفوهم ويطعموهم في معسكر الحيـوان القائم على الضّفة الآسـيوية. وبالطبع قد كوفئ رفاقـي بعد مدة بقضاء بضعة أيام بديعة في القاهرة.

ولحـظ ليتلتـون التّعـب الشّـديد الـذي أعانيه فأرسـلني إلـى فنـدق متواضع كنت أعرفـه مـن زمـن بعيد. إلّا أنـي تخيّلته الآن فخماً. ولقـد عانى رجال الفنـدق كثيراً من الجهـد لتخفيف تأثيرهم السّـيئ نحـوي. بل لقبول غرابتي ووضاعتي وضآلة جسـمي وأطماري. ولم يحجموا عن أن يقدموا لي كل ما احتجت إليه. فلقد حصلت أولاً على حمّام. وعلى شـراب مثلج يُقدّر بسـت كؤوس على الأقل، وعلى غذاء طيب، وفراش طالما كان يراود أحلامي.

وعرف أحد ضباط الاسـتعلامات الشّهم الهمام ـ نظراً لخدمته في دائرة التجسّس ـ بوصول رجل أوروبي في الزّي العربي ونزوله في فندق سيناء. فثبّتَ إقامة رجالي على «الكوبري» وسهّل لهم أمورهم، وطلب لي جواز سفر لأسافر من الغد إلى القاهرة.

وغيرت القطار في الإسـماعيلية لأقلّ القطار السّـريع القادم من بور سعيد. وآنست الأميـرال ويميس Wemyss، وبورمسـتر Bormester، ونڤيـل Neville. ينزلـون من الصّالـون الفخم وهم يتبعون جنرالاً ضخماً جداً ذا رتبة عالية. وكان الضّباط الواقفون علـى الرّصيف كأنهم مسـمّرون فـي أماكنهم احترامـاً وقلقاً وجمهور الرّؤسـاء الكبار يغـدون ويروحـون من هنـا وهناك، منهمكيـن بمحادثات لاشـك بأنها علـى غاية من الأهمية.

وكانوا يؤدون التحية مرة واحدة ـ ثم مرتين... وأما ذوو الرّتب العالية فكانوا يخطون خطواتهم الكثيرة... ثم سلّم الضّباط مرة ثالثة. وكان ذلك كثيراً حقاً، ثم انصرف فريق وراء الحواجـز ووقفوا بحذر. مسـتعدين للسّـلام أيضاً. إنهم لذوي نفوس مسـتعبدة! وكان البعـض منهم يختبئ، فهم أصحاب النّفـوس المكروهة. والباقي كان يدير ظهره

ويتقدم إلى باعة الكتب ويقرأ العناوين بلهفة، وفي وجل، ولم يجرؤ غير واحد فقط أن يكون ذا جَلَبَة!!..

وفاجأتني عين «بورمستر» وبيّنَتْ باصرتي الواقعة عليه وتساءَل: من أكون يا ترى؟ لأن وجهي الذي حرقته حرارة الشّمس كان أحمر «كالقرفة» أو كأنه صُبغَ بحبر الأخطبوط. ونظراتي التائهة كانت تنم على تعبي البالغ من جراء تغربي الطّويل، وقد دفعتني الرّغبة إلى معرفة وزن جسمي فلم يكن أكثر من سبعة ستونس. أي أربعة وأربعون كيلو جراماً وأربعمئة وثلاثة وأربعون كيلو جراماً!! ورغماً من شكلي غير الجذّاب فقد واجهني «بورمستر» وتقدم إليَّ فأطلعته على غزوتنا الأخيرة دون أن نفشي سرها إلى أحد. فحرّك كلامي عواطفه! وطلبْت من الأميرال أن يرسل شحنة إلى العَقَبة في أقرب وقت مستطاع. فأكّد لي «بورمستر» بأنَّ مركب «دوفرين» *Dufferin* الذي عاد إلى السّويس في ذلك النّهار سيأخذ ما يمكنه من المؤن من ذلك المكان ويسافر حالاً إلى العَقَبة، ثم يعود بالأسرى التُّرك على أحسن حال. وقد نفذ الأوامر اللازمة لي بنفسه كي لا يشوش على الأميرال محادثته مع آلِنْبي. فصحت به: «آلِنْبي! وما شأنه هنا.. فأجابني بأنه هو القائد العام الآن: ومَري!! مَري! عاد إلى إنكلترا!!».

لقد آلمني هذا الخبر البالغ الأهمية، وسقطتُ حقّاً من علوي وخفضت من غلوائي! وتساءلت ألا يشبه هذا الرّجل الضّخم القاني الوجه أسلافه الكثيرين من القواد الذين كانوا يجهلون الشّرق! وهل يحتم عليَّ أن أعيد الكرة وأدرّسه كتاب الشّرق مدة ستة أشهر أخرى. ولقد ذكرت «مَري Murray وبليندا Belinda» فلم تكن بلادتهما في بداءة أمرهما لتبلغنا النّصر. بل تبلَغنا إلى قول رؤساؤنا لنا «تفضلوا وانصرفوا» ولم ننجح إلّا مع الوقت وبعد أن برهنا عن حمية ونشاط متواصلين، في أن نهدي السّير أرتشيبولد وكاتم سرّه الأركان حرب إلى الصّواب. فأقنعناهما إلى حَدّ أنهما كتبا إلى قلم المخابرات يوصيان خيراً بالحركة العربية، ويطلبان تثبيت فيصل قائداً لها. وبهذا قد أبديا حقاً كرماً وشهامة، وانتصرنا نحن انتصاراً سحرياً، لأنَّه كان من المستحيل أن يلاقي المرء شخصين متناقضي الطّباع مثل «مَري، وليدن بل Lynden Bell» سكرتيره!

فلقـد كان الأول كله دماغاً ومخالب! عصبي المزاج، ناعم الملمس، متقلباً، وكان هذا الأخير المثل الأعلى للموظف والأسير الأعمى لأحكام وظيفته وقوانينها.

وكنـت، وأنا في القاهرة أحتذي نعلين، وأتسـلَّل صامتاً في دهاليز سـافواي الهادئة الموصلة إلى «كلايتون» هذا الضّابط الذي كان يحرص على وقته وأمانة مهنته إلى حد أنه كان يختلس من ساعة إفطاره ليسرع ويعود إلى عمله الذي يتكاثر كلما أكثر هو من الجهد. وعندما كنت أدخل عليه كان يرفع بصره ويقول بالعربية «مُش فاضي» "Mush fadi" التـي معناها باللغة العامية (مشـغول)، لكني لمـا كنت أتكلم كان عدم اكتراثه يتحول إلى اهتمام ويريد عندئذٍ أن يحسن استقبالي!

وكنـت قـد كتبت في ليلتي بالسّـويس تقريراً موجـزاً. فكان حديثنا يـدور فقط على المواضيع الأكثر أهمية، ولم تمض سـاعة حتى بشـرنا الأميرال بأن السّـفينة «دوفرين» *Dufferin* قد وُسـقت طحيناً وستقوم إذن بسفرها الطّارئ، فانتزع كلايتون من الخزانة الحديدية ألفاً وستمئة جنيه ذهباً وأمر بشحنها، محروسة إلى السّويس في قطار السّاعة الثّالثة. وكان مثل هذا العمل السّريع محتّماً علينا، لكي يتمكن ناصر من تسديد حساب نفقاته.

أما السّـندات التـي كتبناها على ورق تلغـراف الجيش وبالقلم الرّصـاص في «باير والجفـر وقويـرة»، فقـد كانت عهـوداً علينا ندفـع قيمتها لحاملهـا في العَقَبـة. إن هذه الطّريقة بسـيطة في حد ذاتها، إلّا أنَّه لـم يجسـر أحد إلى الآن أن يجازف، ويصدر مثل هذه التحاويل لحاملها، لأنَّ ثياب العرب لا جيوب لها. ولأنه لا خزائن حديدية تحت خيامهم، ليتمكنوا من الاحتفاظ بمثل هذه الأوراق!..

وكنت لما عدت إلى الفندق أخذت أسـعى لأحصل على ثياب ألبسـها تكون على الأقل غير ملفتة للأنظار، مثل ثوبي العربي الغريب في ذلك الوسط. إلّا أنَّ خزانة ثيابي كان قد سـطا عليها العث ونخرها نخراً، فبقيت ثلاثة أيام حتى تمكنت من الظّهور ولو بحالة مزرية بثوب إنسان متمدن!..

وكنت لا أزال منهمكاً في تغيير هندامي، فدعاني القائد العام إليه وهو يلتهب رغبة إلى ما سأقصه عليه، وكنت في تقديري قد تغلغلت في مطاوي التاريخ، وذكرت صلاح الدّين الأيوبي وأبا عبيدة، ونوّهت عما للحركات الحربية عند القبائل السّورية الشّرقية من الأهمية، وبما يحتم علينا القيام به، لنهدد مواصلات التُّرك بمدينة القدس، وكانت هذه الوجهات غاية أطماعه، فأراد أن يسبرها معي دون أقل تأخير.

ولم تخل مقابلتنا من بعض الأمور المضحكة، لأن آلِنْبي كان ضخماً قوياً ممتلئاً واثقاً من نفسه، مرتفعاً، أديباً، متسامياً فوق المعاونين المتوسطي الحال، وكان لا بدّ من مضي وقت ليصل شعور مقامنا الصّغير إلى عقله. وكان غارقاً في كرسيه. ولم ينظر إليَّ مواجهة ـ وتلك كانت عادته ـ بل رماني بلحاظه من زاوية عينيه كمن يخشى أن يدس له.

لقد قدم من فرنسا حيث كان هناك زمناً طويلاً إحدى أضراس تلك العجلة الهائلة، التي كانت تطحن العدو ببطء، لكنه كان مشبعاً بمبادئ الغربيين، الذين يقدمون قوة المدفع على كل قوة أخرى ـ وما أخطأها فكرة في حربنا الأسيوية! وكان آلِنْبي ـ بصفته ضابطاً قديماً في فرقة الفرسان ـ متردداً في أن يضرب صفحاً عن نظريات المدرسة الجديدة في هذه البلاد الأسيوية المختلفة كل الاختلاف، أو يسير وراء «چيتوود» Chetwode و«داوني» على هذه الطّريق المطروقة بحرب التدريبات والحركات.

ولم يكن شيء أغرب على آلِنْبي من أن يرى أمامه إنساناً غريب الشّكل مثل شخصي التافه، إنساناً ضئيل الحجم، عاري القدمين، متعثراً بأذيال ثوبه الحريري الفضفاض يتقدم لعرقلة سير العدو، ناشراً لواء الجهاد والحرب المقدسة في قبائل الصّحراء ضد التُّرك. وأن هذا الكائن الغريب لا يطلب سوى التموين، ومقدار مئتي ألف دينار من الذّهب لتثبيت أولئك المهتدين في عقيدتهم الجديدة وإدارة حركاتهم.

فلم يصل آلِنْبي إلى فصل ناحية الحقيقة من ناحية الشّعوذة في هذا الشّخص الغريب، وعلمت من نظراته أنه يعمل على حل هذه العملية. وأنا لا أتقدم إلى معاونته. وقد سألني أسئلة قليلة، وسكت، إلّا أنّه أخذ يدرس الخارطة التي أمامه، على حين كنت أشرح له شيئاً عن سوريا الشّرقية وسكانها.

وأخيراً رفع عينيه ونظر إليَّ وجهاً لوجه. وقال لي: «حسناً حسناً! سأعمل لك مايمكنني عمله». وانتهت المفاوضة.

الحق أني لم أكن أعلم إلى أي حد قد جذبته إلى ناحيتي. لكني علمت بالاختبار شيئاً فشيئاً، بأنه كان يفكر فيما يقوله تماماً، والذي تمكن الجنرال آلِنْبي من عمله، كان كافياً لأطمع أصغر خدَّامه.

* * *

الفصل الثّالث عشر

تغيير تشكيلاتنا القتالية

أما عند كلايتون فقد كشفت عن أعماق نفسي. فلقد أخذنا العَقَبة بفضل تدبيري وجهودي أنا وحدي، ورأسي وأعصابي يدفعان الآن جزية نجاحي، ولقد كنت مستعداً لأن أقوم بأكثر من هذا ـ و كنت أشعر بقدرتي على ذلك ـ لو صدر حكم بأن لي الحق أن أكون سيد نفسي. فالعرب يعتقدون بأن قرودهم غزلان، وأنا أيضاً كنت أعتقد ذلك اعتقاداً صادقاً.

فسلَّم كلايتون بأن قرودي تفيض حماسة نافعة، إلّا أنه عارض فكرة عدم صلاحية تسليم قيادة العرب إلى ضابط أقل أقدمية من زملائه، وعرض بأن يكون «جويس» حاكماً على العَقَبة، فكان هذا الإلهام موافقاً لرغباتي تماماً، لأنَّ «جويس» كان رجلاً يعتمد عليه. ولو أن قيامه العالم قامت علينا! وكان رزيناً نيراً محباً ومنشطاً لصاحبه. يكترث بالرّجال والأشياء، ويقوم بعمله على أحسن وجه وإن يكن محدود الإقدام والبداهة.

وأما باقي التشكيلات فكان أمرها ميسوراً: فقد عيَّن «غوسْلِت» ضابطاً إدارياً... «غوسْلِت» التاجر اللندني الذي خلق من الوجه ـ ذلك الخلاط الذي استولينا عليه ـ مدينة نظيفة جذَّابة. أما الطّائرات فلم يكن قد حان الوقت بأن تنقل من مطاراتها، إلّا أن السّيارات المصفحة كان يمكنها أن تسافر في الحال. كذلك سفينة الحرس إذا شاء الأميرال أن يكون كريماً. ودعونا «روسلين ويميس» إلى التليفون فرضي عن طيب خاطر بأن ترسو «أوريالوس» *Euryalus* ـ باخرة الأميرالية ـ بضعة أسابيع في مياه العَقَبة.

وكان هذا القرار من بنات الفكر، لأن تقدير قوة الباخرة الحربية إزاء العرب قائم على عدد مداخنها. وكانت «أوريالوس» ذات أربع مداخن نادرة الوجود في المدرّعات

الطّافية على البحر الأحمر وشـهرتها ستحمل حقيقة انتصارنا إلى أعلى الجبال، وفوق ذلـك فـإن بحارتها الكثيرين، سـيبنون لنا بإلهـام «إقرار فيلدينـغ» Everard Feilding رصيفاً جيداً على الميناء فيلهون وننتفع به.

وقد طلبنا أن تكون مدينة «الوجه» ـ نظراً لشعبها الصّعب المراس ونظراً لغلاء ثمن الحبـوب ـ مقفلـة في وجه الوطنيين، وأن ينتقل فيصل بكامل جيشـه إلى العَقَبة لتكون مركزه العام.

ورأيـت بأن يسـتند جناح آلِنْبـي الأيمن إلى هـذا الجيش، الذي وإن يكـن يبعد عنه مئة ميل فقط، ولكنه يبعد عن مكة ثمانمئة ميل. ويتقدم العرب ويقتربون من فلسـطين رويـداً رويداً، على قدر مجهودهم وفوزهم ورؤى من حسـن المنطق أن يرحل فيصل عن منطقة الشّريف حسين في الشّمال، وأن يعين قائد جيش في اتحاد جيوش الحلفاء بالقطر المصري تحت قيادة آلِنْبي.

وإزاء هذه الأمنية واجهتنا بعض مشكلات، وتُرى إذا رضي فيصل بهذا الحل، وقد كنت حدَّثته في «الوجه»منذ بضعة أ شـهر. وهل يرضى المندوب السّـامي هو بدوره؟ ومـن بين جميـع الوحدات الحجازيـة، كان جيش فيصـل أهمها وأحسـنها قدرة على العمل. وكان المستقبل الباهر مفتوحاً أمام جهاده.

وأما الجنرال «وينغايت» نفسـه وقد أخذ جميع الحوادث على مسـؤوليته في أظلم ساعات الانتقاض العربي، فهل يخذل في تعهداته وتثلم شهرته العالية. وهل نجسر أن نقول له بعد أن وصلنا إلى عتبة النّصر، تنحَّ عن قيادة المعركة؟!...

إلّا أنَّ كلايتـون كان يفهم وينغايت ولم يخـش أن يكلمه في هذا الموضوع، وقد أجاب الجنـرال حالاً، بأنه في حالة تمكن الجنرال آلِنْبي من الاسـتفادة من فيصل مباشـرة سـوف يكون مسروراً، وفي الوقت نفسه يقوم بواجب التنازل للرّئيس الجديد حبَّاً بنجاح المشروع.

وقد يمكن أن ينفجر عائق ثالث من الشّـريف حسـين، هو الخوف من أن لا يضحي بأنانيتـه العزيـزة لديه لأجـل توحيد القيـادة. فرفضه يعـرض خطتنا للحبـوط. ولذلك

عرضت أن أذهب إليه وأحاول إقناعه. فأمر فيصل وأطلب إليه أن يزكّي بكل قوته كتاب «ويلسن» المقدم للشّريف. فقبل اقتراحي وسافرت إلى جدة حال رجوع مركب «دوفرين» *Dufferin* إلى العَقَبة لهذا المهمّة الجديدة.

وجاء الحسين من مكة ودافع عن نفسه وهو يجول وينتقل من موضوع إلى موضوع جولاناً غريباً، ولكنه قرَّر، بفضل ويلسن، أن ينتقل جيش فيصل تحت إمرة اَلِنْبي دون جدال. فاغتنم الشّريف حسين هذه الفرصة ليعرب مرة أخرى بلهجة قوية عن شهامته وإخلاصه لاتحادنا، ثم أنه انتقل فجأة إلى الحديث عن نزعاته الدّينية، وأنه لم يكن بالشّيعي المتمكّن ولا بالسّني الملتهب، إلّا أنَّه يطبق مبادئ القرآن كما جاءت قبل الافتراق إلى مذهبين.

وما لبثت أن فهمت كيف ينظر النّاس إلى موقف فيصل العصري بعين الحسد في قصر والده. كما فهمت كيف تمكن أولئك الذين يلعبون بالنّار من زعزعة نيات الشّريف الطّيبة.

وبينما نقوم بهذا الدّور الهام في جدة، وافتنا رسالتان بالتلغراف من القطر المصري كَدَّرتا فجأة صفو اجتماعنا. الأولى تفيدنا بأن الحويطات يتخابرون سراً مع معان، والثّانية تشكو عودة لموافقته على هذه الخيانة. ولقد كانت الضّربة قاسية على ويلسون الذي اختبر شهامة هذا الرّجل، والذي لم يعد يشك قط في إخلاصه. أما محمّد الضّغلان فقط كان من الممكن أن يلعب هذه اللعبة المزدوجة. ولم يكن من المعقول الآن أن نعتمد على إخلاص ابن جاد وأصحابه الاعتماد الكلي. فتأهبنا للرّحيل حالاً إلى العَقَبة. ولم يكن ناصر، ولا أنا كذلك، عند تخطيط طرق الدّفاع عن هذه المدينة، قد تنبَّهنا لاحتمال وقوع خيانة ما.

ولحسن الحظ كانت السّفينة «هاردينج» *Hardinge* على أهبة الرّحيل في المرفأ، وفي اليوم الثّالث عند الأصيل كنا في العَقَبة، وتحقق ناصر بأنه قد حدث حادث غير طبيعي. فتمنيت أمنية واحدة وهي أن أذهب وأحيي عودة! فأعارني قلوصاً ودليلاً. وعند الفجر كنت كأني هبطت على عودة ومحمّد وزعل من الغمام، وهم مجتمعون تحت خيمة في «قويرة» فاختلط عليهم الأمر عندما رأوني بينهم من غير سابقة إنذار،

إلّا أنهم أكدوا لي بأن كل شيء على ما يرام، وأفطرنا معاً كأننا أصدقاء!...

وجاءنا بعض الحويطات فكان حديثنا عن اتجاه الحرب. ووزعت هدايا الشّريف، وأفهمتهم بأن ناصراً قد منح شهراً إجازة ليذهب إلى مكة. فتهللوا لهذا الخبر، ثم عطفت وقلت: إن الشّريف مبتهج جداً لنتيجة هذه الثّورة العربية، ومعتقد بأن كل خدامه لا بدّ أن يكونوا قد اقتحموا الأهوال دفاعاً عنها.

ولم يكن يشأ أن يأمر بزيارة مكة. وهؤلاء الرّجال المساكين المحرومين من نسائهم يرون، بأن الخدمة العسكرية المتواصلة شاقة جداً.

وكم كنا نمزح مع ناصر بقولنا: إذا أخذنا العَقَبة فإنك تستحق إجازة حقاً. ولم يكن يعلم من الأمر شيئاً، إلا ليلة تسليمي إليه كتاب الحسين بالسّماح له بالسّفر، فباعني «غزالة» إقراراً بالجميل، «غزالة» تلك القلوص الجميلة مركب الأمراء، وربيبة الحويطات. ولقد عظمت قيمتي تجاه بني «أبو تايه» لمجرد اقتنائي مثل هذه المطية!..

وبعد أن تناولنا الغذاء صرفت الزّائرين مدعياً التّعب وطلب الرّاحة. ثم دعوت عودة ومحمّد ليرافقاني لزيارة القلعة الخربة وحوض الماء. ولما خلا لنا الجو وخلت الأرض من الآذان السّامعة، لمحت لهم عن المخابرات الدّائرة بينهما وبين الأتراك، فضحك عودة وغضب محمّد، وبعد ذلك أفهماني في تفصيل بأن «محمّداً» أخذ خاتم «عودة» وكتب إلى حاكم معان يعرض عليه ترك قضية الشّريف، فسر التُّرك لهذا العرض ووعدوا المرتدين بمكافأة جزيلة. ولما علم عودة بالأمر يمّم طريق معان وتعرّض للرّسول القادم منها واستولى على الهدايا المرسلة من التُّرك باسم محمّد، ولم يشأن أن يتقاسماها، فقهقهنا كثيراً لهذه الواقعة المضحكة!...

ولكن... على دخن!... وتذمر رفيقاي لعدم وصول نجدة من الرّجال والمدفعية. واستغربا كيف أنه بعد الاستيلاء على العَقَبة لم ينالا أية مكافأة. ثم سألاني: كيف علمت بتصرفهما، وإلى أي حد وصل إليه علمي. وكنا نتزحلق على منحدر خطر، فلعبت برباطة جأشهم وتظاهرت ببهجة لم تكن في محلها، وأخذت أتلو مازحاً

عبارات كاملة من الكتب التي تبادلاها مع العدو كأنها من مخترعاتي ـ وهكذا خلقت الجو المرح المطلوب.

وأخبرتهما عرضاً بقرب وصول فيصل مع كل جيوشه، وأن آلِنْبي سيرسل إلى العَقَبة بنادق ومدافع ومتفجرات وذهباً! ثم دسست عبارة: بأن عودة يحتاج الآن بدون شك إلى نفقات باهظة للاستقبالات والضّيافة وسألت عما إذا كان يرغب في أن يأخذ مبلغاً على الحساب ليستعين به مؤقتاً، هذا فضلاً عن الهدية الثّمينة التي سيقدمها له فيصل حين وصوله. فلمح عودة وميضاً من الغنم السّريع. وفهم بأن قدوم الشّريف سيكون مثمراً، ولا بدّ أن يكون قد قال في نفسه: «وعلى كل حال فالتُّرك أمامنا في كل وقت إذا نضب معيننا، من هذه النّاحية»، فرضي إذاً مع الشّكر بأن يأخذ مبلغاً سلفاً ليطعم الحويطات ويقضي لهم حاجتهم.

وقاربت الشّمس المغيب، وكان زعل قد ذبح خروفاً فتعشينا على ذكر صداقتنا وعدنا إخواناً متحابين كأمس الفائت. ثم استويت على السّرج يتبعني «مفدًّى» الذي سيحمل المبلغ من النّقود المخصص لعنودة ـ وعبد الرّحمن خادم محمّد، الذي همس في أذني بأن سيده يرضي بسرور ما ترسله معي إليه سراً. وعند وصولي إلى العَقَبة، أيقظت ناصراً في الحال وتداولنا في الحادث الأخير. ثم انسللت إلى زورق مهجور وجذفت حتى بلغت «هاردينج» *Hardinge* والفجر يتلألأ على أعراف الجبال الغربية.

ونزلت إلى سطح السّفينة السّفلي، واغتسلت، ونمت إلى ما بعد الضّحوة وكان المركب في تلك السّاعة يشق مياه البحر على طول الخليج الضّيق قاصداً شواطئ القطر المصري. وكان لظهوري على ظهر السّفينة وقع شديد، إذ لم يكن أحد يصدق بأني سافرت إلى «قويرة»، وأنهيت أعمالي وعدت إلى العَقَبة، وقفزت إلى باخرة تمخر العباب!...

وكنا قد أبرقنا إلى القاهرة بأن موقف «قويرة» لا بأس به، وأنه لا يوجد فيها محاولة ما، للقيام بخيانة ولا في أي مكان آخر، وكان تأكيدنا مجازفة، ولم يكن يخلو من مواربة. ولكن بما أن مصر تحرم نفسها القوت لتعولنا، فمن حسن الفطن أن نخفي عنها شيئاً من الحقيقة، حتى نبقى دائماً موضع ثقة هذه الأم المرضع، والبقرة الحلوب،

ونضع تجاهها هالة ظفر على رؤوسنا، لأنَّ الجمهور يطلب دائماً أبطالاً كما في الكتب.

ولا يفهـم بأن عودة كان إنسـاناً رحيماً أكثـر من أي وقت بعد المعركـة والمجزرة، وأنه شعر بعطف وتائر أمام هذا العدو المغلوب المعرّض للقتل أو للعفو حسب دوافع الزّمن.

ولم يكن قط عدو أكثر جاذبية لهذا الرّجل البدوي الصّحراوي.. الذي كان بالأمس تحت رحمة هذا العدو وبين مخالبه...



الشّريف شاكر

الفصل الرّابع عشر

إنهاك قوى العدو

ارتقت السّفن إلى خليج العَقَبة، ونزل فيصل إلى البر يرافقه جعفر من أركان حربه، وجويس «ملائكتنا الحارسة»، ووصلت إلينا في الوقت ذاته سيارات مدرّعة و«غوسْلِت» وفلاحون مصريون وآلاف من الجنود. وكان «فون فالكنهاين» von Falkenhayn قد أتى حاملاً المشورة للترك بعد صمت ستة أسابيع. وقد صيرتهم فطنته الحربية البديعة جديرين بلا شك بمقاومتنا. ومنطقة معان هي شبه قيادة خاصة تحت إمرة بهجت القومندان القديم لمنطقة سيناء. وكان لديه ستة آلاف من البيادِه، وطابور سواري ومُشاة (پيادِه) راكبين. وبنفوذه كانت معان محزومة بخط دفاع لا يؤخذ على الأقل في عيون المسحورين بحرب التنقل. وكانت طائرات كاشفة تطير في كل يوم. وقد أفرغت في المستودع المنشأ حديثاً ذخائر كثيرة.

وأتمّ التُّرك استعدادهم وابتدأوا في التقدم وجهتهم «قويرة»، وكان هدفهم العَقَبة طبعاً يزحفون عليها بالطّريق الأفضل، واندفع ألفا رجل من المشاة حتى «أبا اللِّسن» وحصَّنوا هذا الموقع، ولزم الخيالة خارج الموقع ليتداركوا غزوة محتملة يقوم بها العرب من ناحية وادي موسى. فكانت عصبية العدو شعارنا. فأخذنا نمازحهم ونقلب الأدوار إلى ضدها، وندحرهم رويداً رويداً في ذلك الوادي الذي يغصّ بالعقبات الطّبيعية الهائلة، وإن الرّجل المفرد الرّديء الدّفاع، ليمكنه في ذلك الوعر أن يقاوم كل مهاجمة.

وحركنا العرب في نواحي «دلاغة» مترقبين دنوّ التُّرك من الشّصّ. فتهافتوا بحماسة

علـى الطّعم وتراجعوا بخسـارة جسـيمة، فأظهرنـا لهؤلاء الفلاحين في وادي موسـى عظـم الغنيمة التي التقطها خصومهم بنو «دلاغة»، وكمن «مولود» رجل الحرب أزرق النّاب مع رجاله البِيادِه الرّاكبين في خرائب البَتراء المشـهورة. فتشـدّد اللياثنة متمثلين برفاقهم وأخذوا يغزون المرتفعات تحت قيادة خليل الشّيخ الأعور، وقد توقفوا ثلاث مرات إلى سـلب عربات ذخائر العدو واقتياد الحيوانات المسـرجة والحمولة وسـلب أسلحة رجالها. واستمرّ هذا التّمرّن الشّائق عدة أسابيع مما أثار غيظ العدو.

ويمكننا أيضاً أن نلحق بالتُّرك أضراراً جسـيمة إذا طلبنا إلى الجنرال «سـالموند» أن يأمر حسب وعده بغزوات جوية على مسافات شاسعة ضد معان. وقد كان الشّروع في هـذه الغـزوات الخطرة من الصّعوبـة بمكان، فاختار لها الطّيار «سـتنت» وبعض رفاقه المجربيـن مـن «رابـغ» و«الوجه» وأوصاهـم بأن يعملـوا كل مايمكن عملـه لخبرتهم الواسـعة بالنّـزول القهري في قلـب الصّحراء، والوصول إلى الأهـداف المجهولة بين الجبال التي أهملها المسـاحون. وكان ستنت يتكلم العربية بفصاحة وله خبرة ودراية. متسربلاً بالحيل والدّهاء، قادراً على التلاعب بطيارته برشاقة وخفة.

واتفق أنه أمر رفاقه بأن يسـفّوا ليتمكنوا من إصابة الهدف. فطاروا سـفيفاً فوق معان وألقـوا اثنتين وثلاثين قنبلة على المحطة وما جاورها. ولم يكن لينتظر النّاس مثل هذا النّوع من المفاجآت. إذ سـقطت قنبلتان على البيوت الخشـبية، فقتلت خمسة وثلاثين رجلاً وجرحت خمسـين. ووقعت ثمانية منها على مخازن العدو والسّـقايف فعطّلت كثيـراً مـن الآلات والبضائـع والأدوات. وسـقطت واحـدة فـي مطبخ القائـد فمزقت الطّاهـي تمزيقاً وأوقفت الفطور فجأة! وكان نصيـب المطار أربع قنابل، وعاد طيارونا سـالمين غانمين، بالرّغم من رصاص بنادق التُّرك إلـى الأرض الممهدة للطّائرات في كنتيلّه Kuntilla فوق العَقَبة.

واستمرّ الطّيارون بعد الظّهر في ترتيب طائراتهم وتنظيفها وفحص آلاتها، ثم قضوا الليل على أجنحتها.

وأعادوا الكرة عند الفجر، فطار ثلاثة منهم إلى «أبا اللِّسـن» فافتتن «سـتنت» Stent

بمرأى معسكر العدو المنظم. فضربوا صفوف الخيل وهي على مرابطها، فقطعت هذه الحيوانات أرسانها وهاجت هيجان الجن، فقوَّضت الخيام وشتتت التُّرك، ثم أسفَّوا مثل أمس فأصابهم بعض رصاص العدو إصابات لم تكن خطرة، وعادوا قبل الظّهر إلى «كنتيلَّه» ثم قدّر «ستنت» Stent ما بقي لديه من القنابل والزّيت فرأى أن يهجم هجمة أخرى ويحاول أن يكشف مكامن المدافع التي أقلقته في الصّباح، فطار الطّيارون في وقت الظّهر. ولم يتمكنوا من الارتفاع كثيراً لثقل الذّخائر حتى بلغوا قمّة ما وراء «أبا اللِّسن» على علو ثلاثمئة متر من الوادي. وباغتوا التُّرك الغارقين في قيلولتهم الموروثة، بثلاثين قنبلة أسكتت المدفعية وقتلت الرّجال والحيوانات بالعشرات، وانطلقت في أجواز الفضاء وطوت مجاهل الصّحراء وجثمت على العريش!...

فسر العرب لهذا النّجاح، أما التُّرك فقد أصبحوا حقاً قلقين. فأمر بهجت باشا بحفر ملاجئ لرجاله. وبعد أن أصبحت طائراته في حالة صالحة عرضها، غباوة منه، على الهضبة المكشوفة للدّفاع عن المعسكر.

وهكذا قد أقلقنا راحة العدو بطريق الجو... وبالغارات المتواصلة المثيرة، كنا نخدع حسبانه فيقع في الفخ! ـ والحرب خدعة ـ والوسيلة الثّالثة لدينا كي نبطل هجومه هي تعطيل الخط الحديدي الذي كانوا يحتاجون لحراسته إلى نثر الجيوش المعدة للقتال. فتتلاشى القوات في صيانة هذا الخط.

ولذلك قد فكرنا في تخريب عدة أماكن في منتصف شهر سبتمبر. وعزمت على تحقيق فكرة قديمة: وهي بثّ ألغام تنفجر بمرور القطار. إلّا أني لم أكن واثقاً كل الوثوق من الآلات الأتوماتيكية، فاهتديت إلى طريقة أقرب إلى النّجاح وهي إشعال النّار في اللغم بوساطة السّلك الكهربائي حال مرور القاطرة. فشجعني الفنيون البريطانيون على هذه التجارب، أخصهم الجنرال «رايت» Wright أحد كبار الضّباط الفنيين الملحقين بفرقة القطر المصري. وأرسل إليَّ الآلات اللازمة، وعدة الانفجار، وحبلاً عازلاً، ولمّا حصلت على هذه الآلات نزلت إلى سفينتنا الجديدة الرّاسية «هَمبَر» *Humber* وتقدمت إلى قبطانها الكابتن «سناغ» Snagge.

ومن حسن حظ «سناغ» أنه وقع على سفينة جديدة لأن «هَمبَر» كانت قد بنيت للبرازيل فهي مريحة، وفرشها أفضل من فرش السّفن الكشّافة البريطانية. وكنا مغتبطين بوجودها في البحر أمامنا، كما أننا اغتبطنا بحسن ضيافة قبطانها. وكان «سناغ» يريد معرفة ما يحدث في البر وما يحيق بنا من الشّقاء. ويأخذ كل شيء حتى الجد في معرض الهزل. ويضحك لكل فشل. وكان يمنحني لكل طريفة حماماً ساخناً مع الشّاي وتوابعه اللذيذة. فأنسى، ولو هنيهة، رمال الصّحراء. وأغنتنا شهامته مؤونة السّفر إلى مصر لإصلاح ما يتعطل من الأدوات. وساعدتنا على القيام بحركات مثمرة ضد الأتراك مدى شهور، كنا فيها بين اليأس والرّجاء.

وكانت آلة الانفجار ملفوفة وموضوعة في صندوق كبير أبيض ثقيل جداً وهو مقفل بالمفتاح، وكان علينا أن نشقَّهُ لنحلم من داخله. وأنزلنا الآلة إلى مخزن الفحم وفحصناها، فوجدناها سليمة فأحطناها بسلكين موصلين، وأحببنا أن نتحقق من أن المجرى الكهربائي يمرّ بحالة جيدة، وأخذت في تجربة الآلة فلم أفلح فخاب رجاؤنا. إلّا أن «سناغ» دعا أحد رجال المدفعية الخبيرين بالكهرباء، فأشار علينا بدون أقل تردد أن نستعمل لهذه الآلة عدداً للانفجار غير هذه. يوجد ست منها على ظهر السّفينة. فجرَّبنا واحدة بهزة واحدة فحدث الانفجار على أتم حال، فأعطونا منها ثلاث، فتحققت عندئذٍ بأن بِملكي قيادة الآلة، لأني أعرف طريقة استعمالها جيداً، ولم يبق إلّا أن نهتم بدرس دقائق الغزوة.

والنقطة التي اخترناها لغزوتنا، بل النّقطة التي يكون تعطيلها ضاراً كثيراً بالعدو هي نقطة «المدوّرة» وهي محطة لتموين الماء على مسافة ثمانين ميلاً جنوب مَعان. فإذا خرّبنا الخط في تلك الجهة سببنا للعدو قلقاً شديداً مستمراً. وعرفت أن أنتقي رجال العمال من بين رجال الحويطات الذين اختبروا ذلك قبلاً، وأضفت إليهم على سبيل التجربة ثلاثة من فلاحي حوران كانوا في خدمتي.

ولما كنا سنقوم بعمل حَرْبي دقيق في منطقة حوران، كان من الحتم علينا، أن نتعلم لهجة البلاد وطريقة تنظيم قبائِله السّياسية، والأسباب التي من شأنها أن تُلقي الشّقاق

بين بعضها بعضاً!... وكان علينا أيضاً أن نعرف أسماء الأشخاص الممتازين وطرق البلاد السّلطانية.

وسأتحدث إلى هؤلاء الرّجال الثّلاثة: رُحَيل، وعسَّاف، وحُمْيد، ونحن في الطّريق، فيطلعوني على مشاكل العائلات عندهم دون أن يشعروا وعلينا أن نحصل على مدافع ورشّاش حتى نتحكم في القطار بعد نسفه، ولِمَ لا يكون عندنا مدافع هاون للخنادق ومدافع هاون للخنادق ومدافع «لويس». وبناء عليه عيّنت لنا مصر جاويشين مدرّبين جيءَ بهما من مدرسة الزّيتون وأرسلتهما إلى العَقَبة، ليدرّبا العرب على استعمال هذه الآلات. وأضافهما «سناغ» على ظهر سفينته لأنه لم يكن لدينا على البر في المعسكر مكان يأويان إليه.

ويمكن أن يكون إسمهما «يِلْز Yells، وبروك Brooke». أما رجالنا فكانوا يدعونهما باسم الآلتين «لويس Lewis، وستوكس Stokes»... إذن لويس كان استرالياً كبير السّن نحيلاً متثنيَّاً. وهذا التثني في جسمه ـ كأنه تثنى أفعوان ـ لم يكن من صفات الجندية بشيء. لقد كان له وجه خشن، وحاجبان مقوسان، وأنف أعقف كمنقار الباشق، إنه على طراز الاسترالي المقدام الذي يخفي تحت قناعه العزم الأكيد والعمل السّريع الحسن. أما «ستوكس» الفلاح الإنكليزي ـ الضّخم المتجمع على بعضه، فقد كان مثال العامل الصّامت المجدّ الواقف في القترة ليسمع الأمر وينفذه في الحال.

كان تخيُّل «لويس» فيَّاضاً، ولم يكن يقوى على ضبط ابتهاجه عند تنفيذ عمل ناجح. أما ستوكس فلم يكن يجازف بآرائه قبل العمل. وكان يقلب في قلنسواتهِ ويدعكها دعكاً وهو يجهد فكره لعمل ما. ثم يشرح الأغلاط بعد ذَلَك ويصف طرق اجتنابها. فكان الإثنان عاملين بارعين! وكانا يتفاهمان مع تلاميذهما العرب على أحسن ما يكون. رغماً من أنهما لا يفهمان لغة أبناء الصّحراء. وكنا من ناحيتنا لا نطمع بأكثر من هذا. ويظهر أن التعليم بطريق الاختبار يوافق عقلية غُزاتنا، أكثر من التعليم النّظري الكامل!..

وكلما تقدمنا في تنظيم غزوتنا زادت قابليتنا إلى العمل. وكان يظهر لنا أن محطة

المدوّرة قابلة للإنثلام. وأن ثلاثمئة رجل يمكنهم أن يفاجئوها ويأخذوها عنوة. ويكون النّجاح له أهمية كبرى نظراً لبئرِها العميقة الوحيدة في تلك المنطقة غير المأهولة جنوب عمان، وانقطاع الماء عن القطار يكون مشكلاً من أغرب المشاكل في تسييره.

وزادت أطماع الاسترالي فطلب بحماسة أن يشاركنا هو ورفيقه في هذه الغزوة، فلم يكن هذا العَرْض ليسوءَني، لأن القسم الفني يكون مكفولاً، على حين نكون منهمكين باقتلاع المعقل. وبما أن للجاويشين رغبة أكيدة بمرافقتنا، فعلينا أن نكافئهما على عملهما الشّاق المتواصل، إلا أننا أفهمناهما بأنه ليس هناك نزهة طيبة، وأن السّير في الصّحراء يفقدهما كل معاملة ممتازة. وكل مجاملة من جهة المشي والطّعام والإشتراك في المعركة. فعليهما إذا رافقانا أن يطرحا عنهما كل أمل في الرّاحة، وفي المعاملة التي يتمتع بها الجندي البريطاني. وأن يتقاسما حظهما من الأكل والنّظام مع العرب ـ ما عدا الغنيمة ! ـ ويتحملا طرق معيشتهم الشّاقة.

فأجاب لويس بأن هذه المفاجأة الشّاذة في الدّنيا هي هي التي تجذبه. وقال ستوكس: إذا كنتم عازمين على القيام بهذه الغزوة، فمن الواجب أن أشارككم في هذا المجهود. ومع ذلك أعرتهما هجينين من هُجُني الممتازة، وحشوت خرجيهما بيضاً وأطعمه محفوظة وبسكويت. وصعدنا جميعاً في 2 سبتمبر سنة 1917، في وادي «إضم» لنصحب في طريقنا حويطات «أبو عودة» إلى قويرة.

وكنا نعامل الجاويشين بالرّفق ونعوّدهما على ركوب هذا المركب الخشن رويداً رويداً أقل مما توعدناهما به، فسرنا في هوادة إلّا في المناطق المريبة، ولكونهما لم يركبا قط هجيناً في حياتهما، فكان يخشى عليهما الهلاك لشدة الحرارة التي ترتدّ عن صفحات الصّخور العارية الجبّارة في وادي إضم فيموتان قبل القيام بأي عمل ما! ـ شهر سبتمبر عادة شهر للغزوات مشؤوم ـ فإن ميزان الحرارة في العَقَبة منذ مدة وجيزة كان متصاعداً إلى 50 درجة (سنتغراد) أي 120 فهرنهايت، فتوقفنا في منتصف النّهار تحت صخر هائل. ثم تابعنا السّير مسافة عشرة أميال، وترجلنا وقضينا الليل وأصبحنا والحر لا يزال شديداً ونحن نتقدم إلى «قويرة»، بين سهول الرّمل التي يتخللها الشّوك

والعليق الأخضر الرّمادي المريح للنّظر. وما هي إلا لحظة حتى سمعنا أزيز محرك. فقفز الرّكب دفعة واحدة وترك الطّريق المكشوف وتشتت في الأرض المجاورة فاختفت الجمال بين الأشواك القائمة، ويمكنها هناك أن تفلت من نظارات الطّيارين الأعداء، لأن المقذوفات المحشوة بالغراء مخربة مريعة ـ وهي من النّوع المفضل بنظري ـ فإذا سقطت في قلب أحمال الذّخيرة، تكون ضيفاً ثقيلاً رديئاً على «ستوكس» وقنابله وعلى كل المقذوفات التي نحملها.

ولزمنا سروجنا من غير حركة إلّا أنَّ حيواناتنا كانت تقضم بعض رؤوس الأعشاب بجانب الطّريق. فدار العدو مرتين برأس جبل «قُويرة» وألقى ثلاث قنابل كان لها دوي مريع ومضى ومضينا في سيرنا.

وكان نظام النّهار في «قويرة» قائم على قدوم الطّيارة. فكان العرب ينهضون عند الفجر وينتظرون قدومها فيرسل «مستور» عبداً إلى إحدى القمم ليعطي إشارة الخطر الأولى. ومتى دنت ساعة الغزو المألوفة يتقدم العرب ويتمشون كأنهم في نزهة حول الصّخور، وهم يتحادثون ثم يتسلقون كل واحد على تل، ويصعد «مستور» مع رفاقه العبيد، ويجلسون على أعلى مرتفع ويبسطون سجادة ويجلسون ويصنعون القهوة على موقد غاز، وأحياناً يجلس مستور وعودة في ظل أحد الصّخور ويتمازحان ويثرثران، إلى أن يسمعا أول أزيز يتردد في معابر شتار فيحدث في نفوس أولئك القوم، في أركان تلك الجبال ومنحنياتها رعدة خفيفة، كل واحد يتكوّم على ذاته في شقوق الصّخور صامتاً منتظراً مرور العدو من فوقه، يدور دورته فوق تلك الجلاميد الغريبة الشّكل القرمزية اللون القائم عليها آلاف من العرب بثيابهم البيض، يعششون كالنّسور في أوكارها، وكانت الطّائرة تلقي من ثلاث إلى خمس قنابل تترك دخاناً كثيفاً يعلق بنبات العليق الأخضر. ثم ينقدّ عصائب ثم يدور لوالب في جوٍ ساجٍ إلى أن يضمحل في الأعالي. ورغماً من عدم خوفنا من أي خطر كان تنحبس أنفاسنا تحت هذا لمحرك الذي يحشرج فوق رؤوسنا، ثم يرسل تلك القنبلة التي تصمّ آذاننا عند سقوطها على الأرض!..

وتركنا طنين «قويرة» بابتهاج وهدأت أعصابنا. ولم نتوقف حتى فرَّطنا على طول

الطّريق فولى الذباب الذي كان يهاجمنا. ولم يكن هناك للحقيقة داع إلى الإسراع وقد اكتوى رفيقانا المسكينان بوهج لم يحلما به منذ أن ولدا. وهج كان يشدُّ على وجوهنا كقناع من حديد متقد. لكنهما صبرا صبر الجمال، وعاندا هذه القوة عناد العرب أنفسهم حباً في نجاح الغزوة. ولقد كان إغراقهما بالصّبر والصّمت على الألم أكثر مما يطلب منهما، وجهلهما لغة البلاد مما زاد في ثبات جنانهما، مع أن العرب كانوا يتذمرون ويضجون من هذه الشّمس القاسية الحردة والجو الخانق المطبق، فكنت أنتقل من هنا وهناك وأدور حول المركب ألهو وأمزح لأثبت جنان ضيفي البائسين!..

وتابعنا السّير حتى المساء وقصدنا إلى أشجار الحمر وهو مكان ظليل جميل ووراءنا جبل من الصّخور يعلو أربعمئة قدم فوق رؤوسنا تلقي عليه أشعة الشّمس الغاربة كمدة فوق حمرته القاتمة. وتحت أقدامنا أرض صلبة صهباء ملساء كالخشب المصقول تمتد ميل ونصف ميل تقريباً من كل جهة وعلى جانب واحد من هذه البحيرة الجامدة ينبت شجر الحمر الذي كانت رؤوس أغصانه المتباعدة، ذات الورق الأخضر اليانع، قد تحولت بفعل الحرارة والجفاف إلى لون أخضر فضي يماثل ورق الزّيتون.

وأخذنا وجهة رمّ وهو مورد ماء شمال منطقة بني عطية فشعرت بابتهاج عظيم لدنوّنا من هذا المكان الذي كان بنو الحويطات ـ القليلو التقدير للمناظر الطّبيعية ـ قد وصفوا لي جماله. وهكذا ستهدي لنا الطّبيعة صبيحة اليوم الآتي شيئاً جديداً.

وكانت النّجوم لا تزال تتلألأ في سمائها فأيقظني «عيد» الشّريف الحارثي المتواضع الذي كان يرافقنا، وتقدم مني، وقال لي بصوت خارج من أعماق القبر: «لقد أصبحت أعمى أيها السّيد» فمدّدته على بساط خشن، فإذا به يرتعد كأنه قد أخذته حمى البرداء، وقال إنه قد استيقظ من النّوم لا يرى شيئاً وأن الشّمس قد حرقت عينيه.

وماكاد يطلع النّهار حتى تغلغلنا بين رؤوس من الحجارة الصّوّانية، ثم بلغنا منحدراً خفيفاً يتهاوى عن الجبال على شكل قبب أمامنا والأرض كلها مغطاة بالحمر، فقيل لنا إنها بداية وادي رمّ ويمتد من ناحية وسط الوادي، وإلى يميننا جلاميد تتصل بسلسلة من التلال الضّخمة المنخفضة ذات اللون العقيقي. وعدنا فتسلقنا منحدراً وشققنا طريقنا

بين أشذاب ذات أغصان قصفة. وكلما توغلنا في تلك العصيان ازدادت الأشجار أثاثاً واخضوضلت أغصانها، يتقابل لون خضرتها الصّافي بألوان الكثبان الوردية الزّاهية، وهان الصّعود، وسهل النّجد، فاندفعنا في سهل متمعج متثن تسوره من كل ناحية جلاميد عظيمة. وكانت الجبال التي تستقبلنا تناغي السّماء بأعرافها الرّشيقة، تاركين وراءنا جدراناً من الصّخور الحمر المتجمعة المنخفضة. وفي نهاية هذه الجبال والصّخور ينشق ممرّ عرضه ميلين، محصور بين جبال متقابلة يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم فوق رؤوسنا، كأننا نمشي في دهليز شاسع الأطراف.

ولم تكن تلك الأسوار متصلة تمام الاتصال. فهناك صخور هائلة مفصلة عن الجبل كأنها ممرّ دات على جانبي الشّارع الجبار. وبينها الممرّات العميقة على اتساع خمسين قدماً تفصلها عن بعضها بعضاً، وعلى رؤوس تلك الصّخور المبتورة بفعل الشّمس والهواء دوائر وأشكال غريبة تبين طبقات هذه الصّخور المنضدة كأنها بريت لأعمال جيولوجية. وفوق تلك الصّخور مغائر فاغرة الفوهة، ذات فتحات معوجة كحنايا النّوافذ، منها المرتفعة ومنها المنخفضة كأنها أبواب عظيمة دائمة الفغر ومهاو من الحجارة السّود ممتدّة تحت ظل الحائط الطّويل على مسافة مئات من الأقدام كأنها المساحب السّود القذرة على جدران معاملنا وبعض مساكننا. والصّخور مقسمة خطوطاً عمودية على نتوءاتها الخشنة المرتفعة نحو مئتي متر. ورجام هائلة من الحجارة المتكسرة ذات ألوان وصلابة أقتم وأمتن من الجلاميد. هذا هو الوادي الذي لا يمتد كغيره من الأودية المتثنية المغطاة برجام الحصى النّاعم؛ كلا بل هو تتابع زخارف من الحجارة المتصدعة يسند بعضها بعضاً أشبه شيء بدعائم البنيان.

وترتفع فوق قمم هذه الصّخور أشكال كالقبب لونها وردي أحدثت فيها يد الطّبيعة ثقوباً غائرة فتذكرنا عند رؤيتها الفن البيزنطي، وتقدمنا في هذا الطّريق الذي لا يمكن للعقل أن يتخيل مشهداً أروع منه، واختفت روعة الجيش العربي، وكان كأنّه قد ضاع في ذلك الفضاء الذي لا حدَّ له. وكان في إمكان فرقة الطّيارين أن تدور بطائراتها بنظام حول تلك الجبال، وفي ذلك الدّهليز العديم النّظير، وشعرت قافلتنا بضآلتها

أمام عظمة الطّبيعة فسارت صامتة كأنها استحيت من عرض تفاهتها أمام تلك الجبال العجيبة. وزادت المرائي والصّور التي تأخذ بالألباب عند تقدمنا، جلاءً وظهوراً، إلى أن عرضت لنا فجوة كانت أعجب ما رأينا، فجوة على اتساع ثلاثمئة متر ثغرة صغيرة لمدرج صخري!! مدرج بيضوي الشّكل متناسب عند مدخله إلى أن يتسع على البعد إلى حجمين مجوفين من اليمين ومن الشّمال.

جداراهما عموديان ككل جبال رمّ، إلّا أن علوهما كان شاهقاً إلى حد بعيد كأنهما يسحقان الملعب الشّاسع الذي تضاءل كأنه بين مارد والأبلق أمام عظمة هاتين الفليقتين من الجبل.

واختبأت الشّمس وراء الجدار الغربي إلّا أنَّ نورها المتوهج لا يزال يتلألأ على جدران المدخل ويغمر الصّخور المتجمعة في النّاحية الثّانية من الوادي الكبير، وكانت أرض المدرج رملية رطبة مغطاة بالشّجيرات.

أما أقدام الجوادين الماردين فقد غاصا في ركام من الصّخور المدوّرة الكبيرة كالبيوت وأحياناً كالقلعة بكامل حجمها، قد تدهورت من الأعالي وانغرزت في هذا السّهل، فاتخذنا طريقاً مطروقاً متثنياً إلى أن بلغنا تلك الصّخور فضؤل أثره على حرف منحن تحده بعض شجيرات أثيثة. وهنا طرقت أسماعنا مفزعة آتية من فجوات الصّخور. وصدى يتردد كنغمات موسيقية غريبة لأصوات أناس من العرب يسقون جمالهم على ينابيع متدفقة من الجبل على علو ثلاثمئة متر فوقنا.

واتجه محمّد إلى الجدار الأيسر حيث العرب ببراعتهم قد اكتشفوا أرضاً منبسطة تحت رفرف من الصّخور، فترجلنا وأنزلنا الأحمال، وهجم الظّلام وشيكاً تحت هذا الكنف المصون وشعرنا ببرودة الليل في هذا الجو الرّطب الحار، وجمع بنو الحويطات جمالهم وحرصوا على القذائف التي في عهدتهم. وأخذوا يتلهون بالصّياح ليرسلوا صداه إلى العرب القائمين على المياه ليخبروهم بأنهم عائدون إلى «قويرة». وأوقدوا ناراً وطبخوا أرزاً شهياً للنّفس ليدفع ضيوفنا إلى أكل اللحم الذي يتزودون به. وجهَّز رجالي القهوة إكراماً للضّيوف الذين قد يأتون إلينا.

فتراكـض العـرب الضّاربون عند الينابيع ليسـتطلعوا الخبر. ولـم تمضِّ سـاعة حتى كان حولنا رؤساء قبائل الدّراوشة والزّلباني والزّوايدة والطّقايقة وخاضوا في أحاديث لا قيمة لها. وكان «عيد» الشّريف الذي فقد بصره كبير القلب شهماً، وكان يقوم مقامي فـي هذه الاسـتقبالات التي لا حدَّ لها، وكانت مهمّة شـاقة لا يقـوى عليها إلّا من كان ممارساً عادات العرب، فلم يكن من الهيِّن أن أقوم بها وحدي.



الفصل الخامس عشر

ألغام على سكة الحديد

وخرجنا من رَمّ يوم 18 سبتمبر سنة 1917 عند بزوغ الفجر. وألح علينا «عيْد» الأعمى بأن يسافر معنا وأكد بأنه يتمكن من الرّكوب والبقاء على السّرج وإن يكن قد فقد حسن الرّماية. ويرجو أن يكلل مسعانا بالنّجاح فيستأذن فيصلاً إذن ويعود إلى بيته ليقضي بقية حياته على غير أمل وهناء. وقاد «زعل» الخمسة والأربعين فارساً من النّواصرة القادمين من قبيلة كانت تابعة «لعودة» وهي مشهورة في جميع الصّحراء بجودة إبلها. وكان هؤلاء الفرسان يبتهجون إذ يقال لهم بأنهم رجالي، وقد فتنهم تحمُّلي الصّبر على الرّكوب. وهم بنو الصّحراء والرّكوب والمجالدة. وكان «مُتلج» الأعور صاحب القلوص «جَدَّةْ» أجمل ناقة في شمال جزيرة العرب معتلياً متنها وهو يسير أمامنا. وكنا نرمق هذه النّاقة بعيون معجبة وأفواه فاغرة متلهفة كُلٌّ حسب علاقاته مع صاحبها. أما «غزالتي» فكانت أعلى ذروة وأسرع خطىً وأشرف نسباً إلّا أنَّ سنّها كان يمنعها من الجري السّريع. وعلى كل حال كانت هي الوحيدة التي كان يمكنها أن تتشبه «بحدَّه» في كل هذه المقاطعة من الصّحراء، وكانت شهرة هذه «الغزالة» تسبغ عليَّ ثوباً من الشّهرة.

وكان باقي الرّجال يمشون جماعات جماعات من غير نظام. فألتزم الجري كالصّيصة ذهاباً وإياباً على طول الرّكب أكلِّم شيخاً حرِداً مقطب الجبين وأتقدم إلى آخرين يتناظرون فأوفّق بين الجميع وأحاول تخفيف العداوات والمناظرات حتى إذا جاء وقت العمل ودقَّت السّاعة يكون المتحاربون متمكنين من بعضهم البعض، ألا

يذعنوا لأوامر «زَعَل» فيما يختص بخطة السّير رغماً من أنَّ زَعَلاً هذا كان أنْبَه من جميع المتحاربين وأكثرهم خبرة وتجارب وفي اعتقادي أنه هو الوحيد الذي يمكن للمرء أن يثق به ويتوكل عليه.

أما الباقون فكان كلامهم عندي ومشوراتهم حتى وبنادقهم غير موثوق منها، وتوقفنا عند الظّهيرة في مكان خصب، وقد أنبت الرّبيع حشيشاً أثيثاً مخضلاً أخضر قَضِباً نعمت به إبلنا. وكان الجو ناعماً طيباً مثل شهر أغسطس في إنكلترا. وتكاسلنا على تلك البسط الخضر وحللنا قيود أفكارنا لحربية طيلة هذه الأيام السّابقة للسّفر إلى الكفاح. ولهونا عن هذا الانقباض العصبي الذي لا مفرَّ منه عند ترك المكان الذي نزلنا عليه لو وقتاً قصيراً. وإن لمرء في ظروفنا هذه ليأخذ جذوراً في الأرض ولا يبغي انتقالاً.

وعندما مالت الشّمس إلى المغيب تصوّبنا إلى أسفل الجبل ودخلنا عقيقاً ضيقاً على جانبيه صخور صوّانية معتدلة الارتفاع. وقبل أن تغيب الشّمس دخلنا أرضاً منبسطة مغطاة بالوحل الأصفر كالتي مررنا بها فكانت توطئة لعجيبة رمّ!... ثم نزلنا على حواشي الوادي. وقد جنيت عندئذٍ ثمار تعب ذلك النّهار لأن المعسكر قد انقسم إلى ثلاث جماعات فقط حول النّار المتقدة بحطب الحُمَرَ، وكان رجالي حول واحدة من تلك الوقدات يتعشون، وحول الثّانية زعل، والحويطات يتحلقون حول الوقدة الثّالثة. وبعد أن شبع الرّؤساء من لحم الغزلان وخبز الملّة واستراحوا، دعوتهم فتجمعوا من حولي وتناقشنا بهدوء حول النّار «المحايدة» بخطة السّير غداً.

ويظهر أننا سنأخذ ماءَنا عند غروب الشّمس من آبار المدوَّرة على بعد ثلاثة أميال من محطة المدوَّرة، في وادٍ يحجبنا عن الأنظار. وعند دَغْشة الليل يمكننا أن نتقدم إلى جهة المحطة لنفحصها ونتحقق إذا كان بإمكاننا أن ضرب ضربتنا فيها رغماً من قوتنا الضّعيفة. وهذا كان رأيي الخاص رغماً من الآراء السّائدة حولي ـ لأنَّ هذه النّقطة هي أهم المواقع على طول الخط. إلّا أنَّ العرب لا يفقهون لهذه الأهمية. ودماغهم لا يمكنه أن يقدر مجموع الجبهة التُّركية ومشكلة تموينهم حق قدرها. غير أنَّ الاتفاق

كان حاصلاً وحُسن النّية بيننا لا يشوبُه شائبة وعاد كل إلى مكانه هادئاً مستعداً لنوم هنيئ.

ومشينا عند الصّباح دون فطور لأن المسافة أمامنا لا تزيد عن ست ساعات! فبعد أن جزنا سهل الوحل الجاف، دخلنا أرضاً منثورة بالحَصى والصّوّان الأملس الأسمر وقد صقلته العوامل الطّبيعية على مرِّ الأيام ثم ظهرت التلال المنخفضة تتخللها بطون من الرّمال النّاعمة نسفتها الرّياح إلى تلك المنخفضات المطمئنة ثم دخلنا أودية غير بعيدة الغور وخرجنا منها. فاعترضنا مجاز ضيّق غاص بالحجارة الضّخمة فجزناه. فاستقبلنا السّهل الواسع بشمسِهِ الوهاجة تتخلله كثبان منخفضة مختلفة الاتجاه.

وتوقفنا عند الظّهر حال دخولنا الأرض المأهولة وبلغنا البئر قبل الليل ولم يكن هناك بئرٌ حقيقية إن هو إلّا ضَحْلٌ على منخفض من الرّمل والصّوّان لا يبلغ وسعه أكثر من بضعة أمتار، وكان الماء راكداً محجوباً عن الأبصار بطبقة خضراء لمحنا تحتها لطخاً دهنية واسعة فنفرنا من هذا الماء الخبيث وقال لنا العرب بأن التُّرك ألقوا جمالاً قد نفقت ليفسدوا علينا الشّرب، إلّا أنَّ هذا الحادث كان بعيد العهد ولا بدّ أن تكون خفَّت وطأة الفساد والتحول!!...

ولم يكن لدينا ماء قط نشرب منه إلّا إذا أخذنا «المدوّرة». إذن لا بدّ من الشّرب. فملأ كل قربتَهُ. فانزلق أحد الحويطات على الأرض الوحلة وهوى في الماء وأسدل عليه ذلك البساط الأخضر واختفى. ثم لم يلبث أن ظهر على وجه الماء وخرج منه ونحن نضحك. وترك وراءه ثغرة سوداء انتشرت منها رائحة كريهة واعترانا منها غَثَيان وأفسد خُمُّ اللحم النّتن هواء ذلك الوادي.

وتسللتُ إلى الأمام عند الغَلَس يرافقني «زَعَل» والجاويشان وبعض الرّجال ودنونا بعد مسير نصف ساعة من خنادق العدو المدعمة بمعاقل حجر يبس. ولم يكن هناك حارس من أولئك التُّرك في موقف دفاع تحت ذلك الليل البهيم. وتحت هذه الخنادق على منحدر خفيف كانت المحطة مضاءَة مفتحة النّوافذ ونور أصفر يدل على مطبخ الموقع. والبنايات تبدو لنا قريبة في الظّلام إلّا أن مدى مدافع «ستوكس» لا يبلغ أكثر

مـن ثلاثمئة متر. فتقدمنا حتى أننا سـمعنا حركات رجـال الحامية. لكن الخوف تولانا من استرواح الكلاب لنا فتنتهك مكامننا. وأخذ «ستوكس» يفتش في الأرض لعله يجد أمكنة لمدافعه فلم يفلحا.

وزحفـت مـع «زعل» كبنات عـرس إلى أن تمكنا مـن عَد الخيام وهـي غير مضاءة وسـمعنا أحاديـث الجنود ورأينا واحـداً قد خطا بعض خطـوات نحونا متـردداً فتبيّناه وبينمـا هـو يشـعل لفافتـه بالثّقـاب وهو ضابط شـاب شـاحب الوجه عليه وشـاح من المرض توقف هنيهة ثم قرفص قليلاً لقضاء حاجته وعاد إلى خيمته والجنود سـكوت عند مروره.

وعدنـا إلى التل حيـث موقع ترصدنا الأول وتشـاورنا بصوت خافـت. فوجدنا أن مسـاحة البنايات كبيرة، وأن جدرانها المبنية بالحجر متينة لا تقوى على ثَلْمها مدافعنا الحقيـرة، ولا بـدّ أن تكون الحامية مؤلفة من مئتـي رجل تقريباً وليس معنا نحن إلا مئة وسـتين بندقية غير متجانسـة. فإذا دهمنا العدو نكون قد غررنا بنصيب ليس لنا سـواه، فسلّمت برأي القائلين بأن ننصرف إلى موعد آخر دون أن ننبه العدو. فنَجت «المدوَّرة» مؤقتاً لأسـباب كثيرة ولم تلق نصيبها الذي كان مخبأ لها إلّا على يد هجّانة «بكسـتون» في شهر أغسطس سنة 1918.

ولحقنا بجمالنا واستسـلم كلٌّ منا لنوم عميق. وعند الصّباح عدنا إلى الطّريق الذي سـلكناه بالأمس والذي كان يخفينا عن أنظـار العدو وأخذنا وجهتنا إلى الجنوب على سهل به آثار الغزلان والتيوس البرية والنّعام. وتبينا بينها أثر حيوان مفترس، وسرنا بين تـلال منخفضة علـى طريق مقابل لطريقنا الأول مصممين على نسـف قطار! وأفهمني «زعل» بأن نهاية هذه التلال ملتقى الخط الحديدي الذي يعود إعوجاجاً موافقاً لخطتنا وسيكون لنا دعائم تسـيطر على هدفنا وتخفي مواقع رشّاشـاتنا. وسـرنا شـرقا إلى أن بلغنـا جبلاً على بعد نصـف ميل من الخط. وتوقفت المفرزة في غور وادٍ يبلغ الثّلاثين قدمـاً. وسـرت مع بعض الرّجال نسـتطلع موقع الخط المائل إلى الشّـرق ليدور حول مرتفـع مـن الأرض. وينتهـي بخـط أفقـي مقابل للشّـمال ثم يشـق الـوادي على عمق

خمسين قدماً ويمرّ على جرف عال يقطعه جسر ذو دعامتين لانبجاس الماء العارض عند نزول الأمطار. فظهر لنا بأنَّ المكان صالح لوضع اللغم. ولأول مرة سنستعمل الإشعال بالكهرباء ولا ندري ماذ تكون النّتيجة. إلّا أنَّ سقوط الجسر لا بدَّ منه مهما كان خط القاطرة. وعلى كل حال سيتحول القطار عن القضبان الحديدية.

وعدنا إلى ركبنا وأنزلنا أدوات اللغم وسرحنا بهائمنا ترعى في ركن منزوٍ بين جلاميد عظيمة تردعنا أبصار العدو وحيث بعض العرب هناك يستخرجون الملح من الصّخور. ونقل الرّجال مدافع «ستوكس» وقنابلها. ومدافع «لويس» والغراء وأداة الانفجار والأسلاك المبطنة العازلة وأدوات الحفر ووضع الجاويشان هذه الأدوات على صخرة منبسطة ملساء وذهبنا نحن إلى الجسر لنحفر نقرة بين عارضتين من الحديد نضع فيها الخمسين رجلاً من المواد القابلة للانفجار. ونزعنا الورق عن المقذوفين وعجناهما تحت حرارة الشّمس حجماً واحداً يتلقلق كالعجين وأدخلناه في كيس تراب.

ولم يكن من السّهل دفنه لوعورة الجرف وكانت الأرض مستورة التي نقوم عليها تمتد على بطن التل إلى كثيب من الرّمال كومتها الرّياح. وأنا وحدي الذي تجاسر وقطع هذه المسافة تاركاً وراءه أثر خطوات عميقة. وكان من المحتم أن تُخفى فتات الصّخور والرّمل المتساقط من النّقرة فنقلته مراراً في عباءتي وألقيته في ساحوب لينحدر بسهولة إلى أسفل الوادي. فقضيت ساعتين كاملتين حتى تمكنت من وضع المرجل في حفرته. إلّا أن عقبة اعترضتني! وهي دفن الحبال الهابطة حتى ما وراء التلال لتتصل بأداة ثقب النّار. وكان سطح الرّمل جافاً وعلينا أن نكسره لندفن الأسلاك، حتى أن هذه الخيوط القاسية لم تشأ أن تنتشر وتتمدّد في حُفِرها وكنت إذا بسطتها من جهة تَقَوَّسَتْ ونفضت الأرض من جهة أخرى، أو ترتفع فيحدودب ظهر الرّمل فوقها وتتمعَّج ثنيَّاته تمعَّج ظهر الأفعى. فعمدت إلى حيلة أخرى وهي تثبيت هذه الأسلاك في حفرتها بوضع حجارة فوقها. ولكي لا تبدو هذه الأجسام النّاتئة على أرض منبسطة كالكف كان عليَّ أن أحفر وأمعن حتى أخفي بقدر الإمكان السّلك المثقلة معاً. فظهرت على وجه الأرض نتوءات معيبة. وعمدنا إلى الأكياس الفارغة نجرُّها على سطح الرّمل

لنعيد إليها تثنيها الطّبيعي فتخفي معالمنا.. وخطرت لي فكرة نسف الهواء فحاكيته بعباءتي ألاعبها كالمروحة أو المنفاخ فتغطي الرّمال شكلاً معروفاً كأن الرّيح سحبت عليها أذيالها. فقضينا خمس ساعات متوالية لقضاء هذا العمل الشّاق إلّا أنَّ النّتيجة كانت منشطة ناجحة ولم يكن أحد قط ولا أنا أيضاً يمكنه أن يهتدي إلى اللغم ولا إلى الأسلاك الممتدّة على مسافة مئتي مترٍ وراء المرتفعات حيث يترصد رُماتنا بمدافعهم.

وقد كانت الأسلاك كافية لتصل إلى أداة ثقب النّار بفضل قَطْعٍ في الجبل أذن بمرورها من غير مداورة، وما أحسنه موقعاً لهذه الأداة ومديرها ولو أنّه لا يرى الجسر مباشرة. وكان في الإمكان وضع مراقب على علو خمسين متراً يمكنه أن يرى الجسر وثاقب النّار معاً. فطلب سالم أزكى عبيد فيصل أن يقف هذا الموقف. موقف الشّرَف فَمُنِحَ ذلك وهو يتهلل حبوراً... وقضينا الوقت بعد الظّهر بتمرين سالم على الأداة التي بالطّبع لا تزال مفصولة عن الأسلاك إلى أن أحسن استعمالها وضربها بقبضة يده حالما رفعت ذراعي عند مرور القطار المزعوم.

وعدنا إلى المعسكر وتركنا حارساً قرب الخط الحديدي. فوجدنا جميع الأدوات والأمتعة منثورة هنا وهناك وفتشنا فلم نلاقِ أحداً من رجالنا إلى أن رأيناهم متمدّدين فوق تل عالٍ في الشّمس الهاربة. على الرّمال النّاعمة الذّهبية. فصرخنا بهم أن انبطحوا أو انزلوا فلم يزدهم نداؤنا إلا عناداً وإهمالاً. وكانوا كسرب من الغربان القابعة معروضين ببلاهة على نظارات العدو من الشّمال والجنوب.

فأحوجنا الأمر إلى التسلق إليهم وإرغامهم على النّزول. ولكن للأسف بعد فوات الوقت. فقد أبصرهم التُّرك من موقع صغير قرب «حالة عمّار» على بعد أربعة أميال من الشّمال فأطلقوا النار على طول الظّل المنحدر عن التل إلى المعسكر. إلّا أنَّ العرب أبناء الصّحراء كانوا خبراء ماهرين يملكون فن الاختفاء والازدراء ببلادة التُّرك فلم يحاولوا أن يدافعوا ويدفعوا نار العدو. وكانت تلك القمّة معرّضة لأنظار الموقعين موقع «حالة عمّار» وموقع «المدوّرة» ففوجئ التُّرك بهؤلاء العرب الشّاخصين إليهم كأنهم في موقف تهديد وتحدي ووقع الرّعب في كلا الموقعين.

إلّا أنَّ الظّلام أخذ يسبل ستائره رويداً رويداً ويضمّنا. وعلمنا أنَّه من المحتوم علينا أن نتجلد تلك الليلة ونجتهد أن ننعم بالكرى. فربما يقتنع التُّرك بأننا ركبنا الليل وبعدنا من هذا المكان إذا رأوا المكان خالياً فأشعلنا النّار في حفرة عميقة وتمكنا من محل مريح وخبزنا وتعشينا. وقد علم الجميع بأنه لم تبق لدينا سوى فكرة واحدة وعمل واحد. وأخْجل الطّيش على قمّة الجبل كلَّ أفراد الرّكب وأقمنا «زعل» رئيساً علينا باتفاق جميع الآراء.



الكولونيل ستيوارت فرانسيس نيوكومب

الفصل السّادس عشر

انتصار وغنائم

وطلع النّهار على صمت الصّحراء فوقفنا نرصد الخط الحديدي ساعات ونرقب المعسكرات من حوله فلا مرَّ قطارٌ ولا تحرَّك جنود. وقد كان سهر زعل وابن عمه الحويطي الأعرج ويقظتهما كفيلين بالتزام الرّجال مخابئهم. وكانت مهمتهما من الصّعوبة بمكان نظراً لتقلقل العرب وعدم ثباتهم عشر دقائق في مكان واحد. فلهم في كل لحظة حركةٌ ولأقل فكرة شيء يقولونه. وهذه الأخلاق الموروثة منذ القدم تجعلهم على طرفي نقيض من الإنكليزي الثّابت الجنان الصّبور الذي يجالد ضغط الانتظار الشّديد لدى المواقف الحربية. وهذا هو السّبب أيضاً الذي يجعل البدوي عديم الصّبر في المعارك الهجومية. وكان ذلك اليوم يوماً عصيباً علينا لعدم انتظامهم واستكانتهم.

وربما يكون قد لمحنا التُّرك. لأنَّ شرذمة منهم تركت خيامها نحو السّاعة التاسعة وكانت معسكرة قرب قمّة الجبل جنوب «حالة عمَّار» وتقدمت صوبنا ثم انتشرت على شكل خط ضرب النّار، فإذا تركناهم وشأنهم يقتضي لنا أكثر من ساعة لنبتعد عنهم ونكون تركنا اللغم. وإذا هاجمناهم وهم أقل عدداً منا تتنبَّه السّكة الحديدية وتمتنع عن تسيير قطارها مؤقتاً وهذا هو المأزق الذي لا مخرج منه. فسرنا مع التقادير. وحاولنا أن نحل الموضوع بإرسال قدر ثلاثين رجلاً ليشاغلوا الكشافة التُّركية ويجذبوها إلى التلال المطروقة ربما تخفي عنهم بهذه الحيلة مركزنا الرّئيسي ويعتقدون بأن هذه القوة الضّئيلة لا يُعتد بها. وقد مَرَّ هذا العارض في بضع ساعات كما كنا نرجو وأصبح

إطلاق الرّصاص بعيداً ومتقطعاً. ومرت كشافة أخرى معتدة بنفسها وعبرت على الأسلاك المطمورة وتقدمت إلى «المدوّرة» دون أن تشعر بوجودنا. وكان عدد هذه الكشافة ثمانية عساكر وأونباشي ضخم ما برح يمسح العرق عن جبينه وكانت السّاعة الحادية عشرة والجو يلتهب من وهج الشّمس. وبعدما طاف الأونباشي برجاله مسافة ثلاثة أخذ التّعب منه كل مأخذ فمال بهم إلى جسر يمرّ الصّبا تحت حناياه وتمدّدوا على الرّمل النّاعم. وشربوا من مَطَرَاتهم وأشعلوا سجائر ثم مال بهم النّعاس. فقدرنا أنهم يحتفلون بالقيلولة وهي العادة المقدسة عند التُّركي الحقيقي في جزيرة العرب... وبما أنهم سكنوا إلى اطمئنانهم. ولم يظهروا أقل هاجس تحت هذه القنطرة الباردة أيقنا بأنهم لم يتنبهوا لوجودنا أو على الأقل لم يعتدوا بحركاتنا وعليه فلا خوف من هذه النّاحية.

إلّا أنَّ ساعة الظّهيرة أقلقتنا. فقد أرتني نظّارتاي بعيدتا المَدَى. قدر مئة جندي تركي خارجين من محطة «المدوّرة» متجهين نحو السّهل الذي ينتهي إلى مكمننا. وكانوا يتقدمون دون شك على غير رضى منهم وقد فقدوا ساعة القيلولة العزيزة لديهم. إلّا أنه رغماً من تلكؤهم في السّير لا يحتاجون إلى أكثر من ساعتين للوصول إلينا. فابتدأنا في رزم الأحمال تأهباً للرّحيل وقد قرّرنا أن نبقي اللغم والأسلاك في مخابئها مجاذفين. غير أن هذا التصميم يدعونا إلى العودة مرة أخرى دون أن تتكلف عناءً جديداً. وأرسلنا رسولاً إلى كشافتنا القائمة إلى الجنوب لتوافينا إلى هناك عند تلك الصّخور المهشّمة الواقفة كالدّريئة أمام جمالنا السّارحة. وبعد أن سار قليلاً. نبهنا الحارس على رأس الأكمة إلى دخان كثيف يتصاعد فوق «حالة عمَّار» فاندفعت واندفع ورائي «زَعَل» إلى القمّة فتبينت قطاراً واقفاً على المحطة دون أقل ريب. وما كدنا نحدّد نظاراتنا إليه حتى تحرّك إلى جهتنا. فصرخنا بملء حناجرنا إلى الرّجال ليقفوا بسلاحهم مستعدين لإطلاق النّار. وكانت صيحة، وكان خلاط جنوني. وتراكض وتقاذف من كل ناحية على الرّمل والصّخر أما «ستوكس ولويس» المقيدين بجرموقيهما فلم يتمكنا من محاكاة حركات العرب الخفاف إلّا أنهما قد بلغا القمّة معنا رغم الآلام الدّوزنتاريا.

وكمـن حَمَلَةُ البنادق على طول الخط وراء المعقل مـن مواقع المدافع إلى الوادي مارين أمام أداة ثقب النّار. حيث يتمكنون من هناك من إطلاق بنادقهم على مسـافة مئة وخمسين متراً فقط على الشّاحنات المتدهورة. بينما مدافع ستوكس ولويس يمطرانها على مسـافة ثلاثمئة متر نـاراً حامية وكان أحد رجالنا العـرب على رأس إحدى التلال يهدينا إلى حركات القطار.

فمثـل هـذه الاسـتعدادات الدّقيقة كانـت لازمة لحفـظ كياننا، إذ لـو أنَّ القطار كان حامـلاً جنوداً وأنزلهم على سـفح الجبل فمـن المحتم أن نصمد لهـم وجهاً لوجه في الحـال ونداقع دفاع المسـتميت عن أرواحنا، على طول حرف الوادي، ولكنه لحسـن الطّالع تابع القطار سيره قدر ما تسمح له قوة القاطرتين الموقدتين حَطَباً!..

وأخـذ العدو يقترب من المكان الذي اكتشـفنا فيه وهو يطلـق النّار على غير هدى. فسـمعت هذه الضّجة من فوق التل حيث كنت جالسـاً غير بعيد من الجسـر حتى أدى الإشـارة إلى سـالم الـذي كان يرقص على ركبتيه حـول أداة الإنفجـار ويزمجر هائجاً مستعطفاً!!...

تالله! لو نجحت العملية!... وما زال التُّرك يطلقون الرّصاص فيردد صداه الوادي. وكنتُ أُسـائل نفسـي. كم نفراً مـن جنود الأعداء يقـاوم رجالي قليلي العـدد وهم لما يبلغوا الثّمانين إذا خاننا اللغم أو فسـد تركيب الأدوات الثّاقبة عند آخر لحظة!.. وكان يمكن أن يكون جهازنا الكهربائي أقل تعقيداً وأبسط تركيباً!...

ولقـد ظهـر أمامي القطـار وصفيره يصـمّ الآذان يتهادى في سيره وقـد بلغ مدخل العطفة يجر وراءه شاحنات عديدة بعض منها مملوءٌ خيلاً ومدافع كثيرة ملأت النّوافذ والأبواب بفوهاتها وعلى سطحه أكياس رمال مكدَّسة يتلصص وراءها جنود ببنادقهم على أهبة إطلاق النّار. ولم أحسـب أن سيكون للقطار قاطرتان معلقتان. فخطرت لي في الحال فكرة نسف اللغم تحت القاطرة الثّانية حتى لو بقي القطار سليماً لا يمكنه أن يستفيد من القاطرة الأولى التي تكون قد انفصلت عنه نهائياً..

ومـا كادت القاطـرة الثّانيـة تبلغ الجسـر حتى رفعـت يدي لسـالم فزلزلت الأرض زلزالهـا فـي ذلـك الوادي ولـم تلبث أن سـكنت الصّعقـة وتعالى دخان كثيـف وغبار أسـود قاتم إلى ارتفاع مئة قدم. مع أصوات تقصُّف الخشـب ورنين الأدوات المعدنية المتكسـرة، وشـظايا الحديد والخشـب تتناثر بين الدّخان. وقذف دولاب من دواليب الشّـاحنة بأكملـه إلى الجـو وهو يدور فوق غمـام الدّخان. ومر فوق رؤوسـنا كالرّجم ليرتمي بثقلهِ ما وراءَنا في الصّحراء وسـاد بعد هذه العاصفة سـكون القبور. لا صراخ ولا طلقة نار. ومر الدّخان من أمامنا هباءً لينعقد على رؤوس التلال الغربية.

وركضـت في هذه السّـكتة نحو الجنوب إلى الجاويشـين، وأمسـك سـالم بندقيته وحشـاها ولـم أبلـغ مدافعنا حتى كانت قـد اتقدت نـاراً وألقت على الأعـداء أوارها، والأجسـام السّمْر في الوادي تتحرّك وتتقدم إلى الأمام لتضمّ العدو ضمة دونها الفناء. ثم نظرت إلى ما وحلي بعد أن انقشعت الغيمة فإذا بالقطار قد همد والشّاحنات متفجّرة متمـدّدة على طـول الخط لا تزال أخشـابها تتفلق من وقع القنابـل. والعدو يحاول أن يهرب من الأبواب ليختبئ وراء جرف الخط الحديدي من الجهة الثّانية.

وبينما أفكر في هذا المنظر المروع رأيت رشّاشاتنا تفعل فعلها فيمرّ الرّصاص فوق رأسـي إلـى العدو فيتسـاقط الرّجال كـورق الخريف وقد حصدهـم الرّصاص من غير رحمة، بين الأخشـاب والحديد. وعند وصولي إلى «سـتوكس ولويس» كان الموقف قد أخذ شـكلاً آخر. إذ تـوارى التُّرك وتحصّنوا خلف جرف الخط المرتفع أحد عشـر قدمـاً وبين عوارض الحديـد وعجلات القطـار المحَطَّمة ويرمون رجالنـا بالرّصاص وهم على عشـرين متراً منهم. إلّا أنَّ «سـتوكس» قد أحسـن الرّماية فأصابت أول قنبلة مراكـز العـدو فأمال خط الرّمايـة قليلاً وأطلق القنبلة الثّانية فسـقطت فـي قلب المخبأ وانفجرت بين تلك الأجسام فحوّلت المكان إلى مجزرة بشرية حقاً. فلم يبق من العدو إلّا النّذر اليسـير ترك مهماته وسـلاحه وهرب إلى قلب الصّحراء. ودقت ساعة مدافع لويس فأصاب الجاويش الهدف فغطّت الجثث وجه الأرض. وأطلق «مشرف» الشّاب الشّـراري مدفعـه الثّانـي طلقة الختـام ثم تركه وأخـذ بندقيته وصرخ صرخـة ارتجَّ لها

الوادي ولحق برفاقه الذين كانوا كالوحوش الكاسرة وكسروا ما بقي من أدوات القطار وابتدأوا بالسّلب والنّهب ـ وقد جرى ذلك بأقل من عشر دقائق. وركضت بدوري لأرى بنفسي فعل اللغم فلم يبق هناك جسر بلا هوة سقطت فيها شاحنة مملوءة مرضى جهَّز عليها الانفجار إلا ثلاثة أو أربعة كانوا يتقلبون في جروحهم ودمائهم. وما دنوت من الشّاحنة حتى سمعت واحداً منهم يقول ـ تيفوس.. تيفوس (طاعون) ـ فقفلت عليهم الباب في الحال وتركتهم إلى القدر المحتوم. وكانت الشّاحنات الأخرى محطَّمة والأدوات المعدنية الملتوية غير قابلة للإصلاح. والقاطرة الثّانية وكأنها تل من قطع الحديد لا يزال الدّخان يتصاعد من أحشائها. وطارت الدّواليب في الجو حاملة معها الموقد. وموقف السّائق وخزان الفحم محطَّمان موسّدان الأرض وقد ضاعت معالمهما بين حجارة ردم الدّعامة في حالة لا تصلح للعمل مطلقاً. أما القاطرة الأولى وإن تكن قد هوت عن القضبان، ورغماً من تعطيل موقف السّائق كان لا يزال مرجلها يشتعل وأدوات القيادة سليمة.

وأخذ الوادي منظراً خيالياً. وقد جُنَّ القوم لهذا الكسب يركضون من هنا ومن هناك بأسرع من البرق مكشوفي الرّؤوس عاريي الأجسام يصرخون ويطلقون النّار في الفضاء ويتلاكمون فيما بينهم ويتخدّشون الواحد الآخر عند تحطيمهم الشّاحنة. ويتمايلون لثقل حزم الثّياب فيحلّونها وينتقون ما يصلح لهم ويرمون ما رَثَّ منها في الفضاء.

سجاد بالعشرات مُلقى على التراب وعشرات من الفرش. وأغطية مزهرة مزركشة كوّمت كوماً وثياب من كل شكل وجنس للرّجال وللنساء. وساعات كبيرة. وقِدَر من الحديد الملبس بالصّيني وذخائر ومؤن وأدوات زينة وسلاح. تلك هي الغنيمة التي يتشاحن المُغيرون لأجلها. وثلاثون أو أربعون امرأة في إحدى الأركان قد أصبن بنوبات عصبية، فمزّقن أحجبتهن وقطّعن ثيابهن وزمجرن كالمجانين. فلم يرثِ المُغيرون لحالهنّ بل استمرّوا في سلب أمتعتهن الخاصة وكل ما يمكنهم حمله. وأصبحت الجمال مشاعاً للجميع. كل واحد يحمل حصّته على ظهر النّاقة القريبة منه

أحمال قد ترزح أحياناً تحتها، ثم يقذفها أمامه إلى جهة الغرب لاحقاً بغنيمتهِ..

ولما رأت النّسوة بأنّي غير مكترث لهذه الفوضى. تقدمن إليَّ وتعلقن بثيابي وطلبن شفاعتي صارخات ضارعات. ولم يقنعن بوعدي الصّادق بل أغرقن بالبكاء والعويل. فتدخّل بعض أزواجهن وفصلوهن عني. ثم ارتموا على ركبتيّ وتعلقوا بقدمي كأنهم في ساعة النّزع وحشرجة الموت. وما أقبح مشهد الرّجل وهو في حَمأة الذُّلّ والهوان. فنفضتهم عن قدمي العاريتين وتخلّصت. وتقدم لويس وستوكس ليحتميا بي. وفي الحق شعرت بقلق نحوهما. لأن المغيرين وقد طاشت رؤوسهم يمكنهم أن يظنّوهما عدوين.. ألم أدافع عن نفسي وعن أمتعتي ثلاث مرات وقد تجاهل بعض الرّفاق معرفتي؟

إلّا أنَّ درّاعتي الجاويشين الكاكي الملطختين بدم المعركة وزيت الآلات لم تجذبا شهوة المُغيرين ولم تُسِل لعابهم. وسار لويس لجهة الشّرق كي يعد ضحايا قنبلتهِ ويفتّش في جيوبها وجعبها عن بعض الذّهب وثمين السّلب.

وتغلغل ستوكس بين خرائب الجسر فرأى عشرين تركياً وقد طُحنوا طحناً بقنبلته الثّانية فخرج منها مهرولاً. وعاد إلى أحمد يحمل غنيمة ملء ذراعيه فأنزلتها عنه وأرسلته ليأتي بناقتي والهُجُن الحمولة لنحمل المدافع. والآن وقد هدأت الحركة والصّراخ ابتدأنا نسمع طلقات نار العدو بوضوح، إلّا أنَّ العرب قد اختفوا عن الأبصار في الجبال يقذفون الجمال أمامهم رازحة تحت الأثقال وكانت خطة رديئة بأن تترك المدافع مطروحة على الأرض لآخر ساعة. إلّا أنَّ الحيرة تملكتنا لدى الفوز فعمينا عن الحكم الصّائب.

أما «أحمد» فإنه لم يعد إليَّ قط. وتشتت رجالي في جميع النّواحي مع رجال البدو وقد بطروا للغنائم واعتراهم جنون الطّمع وحب الاحتفاظ بما سلبوه. وبقيت وحدي مع جاويشيَّ أمام تلك الأكوام الخرِبة وقد ساد عليها سكون مخيف. وابتدأ الخوف يدب في قلوبنا بعد ثورة الظّفر وكحدنا نترك مدافعنا مسجاة على تلك الرّمال. وإذا بحملين عليهما «زَعَل» وبعض الحويطات يبحثون عني.

وكنـت أجمع الأسـلاك وهـي البقية الباقية مـن غزوتي. فترجَّل «زعـل» وألحَّ عليَّ بالرّكوب فحمّلت الأسـلاك على الجمل بدلاً مني. فضحك «زَعَل» لهذه اللقاطة التي كنت أهتم لها بينما القوم يحملون الذّهب والفضة!.. ولم يتمكن «حويمل» من السّـير لعـرج قديـم فثبّتناه على ظهـر ناقته وأردفنـاه مدفعَي «لويس» مربوطَين من وسـطهما. وقدم ستوكس يقود جملاً حمولاً من منخريه كان تائهاً في تلك النّواحي فحملناه هاون الخنادق.

وركب سـتوكس المسـكين الذي أنهكه داء الزّحار «الدّوزنتاريـا» على ناقة «زعل» وسلمنا قيادة الثّلاثة جمال إلى «حويمل» الأعرج وأخذنا طريقنا. تاركين وراءنا الدّمار والموت.

وبينما كنا نشـد الجمال كان «زعل»، و«لويس» قدانحدرا إلى منخفض مسـتور عن الأبصار وجمعا الرّصاص والمواد الملتهبة والأدوات التي تركها العدو وبعض ذخيرة بقيـت عن جشـع المدفعين «سـتوكس ولويس» وأضرما فيهـا النّار وأسـرعا إلينا. فلم تلبث أن انفجرت ألوف من المقذوفات وكثير من القنابل وتتطايرت شظاياها في الجو يتجاوب هديرها في تلك الأغوار كأنه هدير البعران، وانتشـر فوقنا سـحاب كثيف من الدّخان والغبار. وكان قد اقترب منا العدو فصعق لهذه الدّمدمة وقد اهتزت الأرض من هولهـا فتوقف وحاول أن يختفي ويتخذ معاقل له. ثم أراد أن يدور دورة ويلتف حولنا حسـب الفن القديم البالي! فتوارينا عنه خلف مـارد الجبال وجبار الصّخور. وختمت غزوتنـا بأحسـن مما كنا نحلـم. ولم تكن خسـائرنا غيـر مطايا الجاويشـين وحوائجنا الخصوصية. إلّا أننا لا نحرم طعاماً في وادي «رَمّ» وأن حاجاتنا الضّائعة سـتكون دون شـك بيـن أحمال النّوق في المعسـكر. فلم يكذبنـا فألنا. فإن رجالنا قـد حملوا كل ما وجدوا أمامهم على ظهور المطايا وجدوا السّـير. فنزعنا الغنائم عن هجننا، وركبنا في الحال ثم سألنا عن عدد جرحانا.

فأجاب واحد قائلاً: قتيل واحد وهو «ابن شـحنة» وكان هذا المسكين شاباً شجاعاً مقداماً وربما كان قد تغلب عليه طيش الشّباب فكان أول الهاجمين بعد سقوط القطار.

وهـذه الهجمة كانـت غير ضرورية ولم آمر بها لأن مدفعي «لويس» و« سـتوكس» كانا ينهيان العمل بعد انفجار اللّغم إذا انفجر في الوقت المناسب ـ فلم يكن عليَّ أن أشعر بثقل المسؤولية في موت هذا العربي.

وكان ثلاثـة من رجالنـا قد جرحوا جروحاً خفيفة. ثم أن أحـد عبيد فيصل أقرَّ بفقد سالم فجمعنا الرّجال نستعلم منهم الواحد بعد الآخر. فقال واحد منهم بأنه رأى سالماً سـاقطاً أمام القاطرة جريحاً وتذكر «لويس»، بأنه رأى عبداً أسود مجروحاً جرحاً مميتاً ولـم يدر أنه من رجالنا.

ولـم يقولوا لي ذلك إلّا بعد فوات الوقت. فأخذتني ثورة الغضب. لأنَّ نصف رجال الحويطـات لا بـدّ أن يكونـوا قد رأوه على تلـك الحال ومن جـراء إهمالهم قد تركت صاحباً للمرة الثّانية إلى الوراء.

فطلبـت متطوعيـن أن يلحقوا بي للتفتيش عن سـالم وإسـعافه إذا كان ممكناً فتقدم «زَعَل» بعد قليل من التردد وأقرني على رأيي وأتانا عشرة من النّواصرة وطلبوا اللحاق بـي فسـرنا خبباً سـراعاً إلـى أن وصلنا إلى أكمـة تحجبنا عـن موقع الوقعـة المروعة. وفوجدنـا التُّـرك كالنّمـل يدورون حول كـوم الحديد والخشـب والصّخـور والجثث ويبلغ عددهـم المئة والخمسـين تقريباً. وكان الدّنوّ منهم ضرباً من الجنون وسـعياً إلى التهلكة. وسيكون التُّرك قد أجهزوا على سالـم لأنهم لا يأسرون العرب! وربما يكونون قد مثلوا به أشـنع تمثيل وقد خضعنا بدورنا لإرادة القدر وأجهزنا على أسـرانا البؤساء وخلصناهـم من آلامهم المبرحة ولكثرة جراحهم المميتة لـم يكن في الإمكان نقلهم أو تركهم لقساوة هذا القدر في الصّحراء.

وقرّرنا أن لا سـبيل إلى إسعاف سـالم وعاد الرّكب حزيناً. وكان بين التّسعين أسيراً عشـر نسـاء من القبائل الموالية لنا جئن من المدينة. فطلبنَ الذّهاب إلى مكة بواسـطة «فيصل». وكان لدينا إثنان وعشـرون جملاً لا راكب لها. فركبت النّسـاء على خمسـة جمـال. وأركبنـا الجرحـى مثنى مثنى. علـى ظهور المطايـا الباقية. ودنـا الأصيل وقد أنهكنـا التّعـب وألهبنا العطش وقد جاء الأسـرى على آخر نقطة مـن الماء. فكان علينا

أن نملأ قِرَبنا من آبار «المدوّرة» القديمة في تلك الليلة حتى نستعيد قوانا. ونتمكن من الوصول إلى «رَمّ».

وكان علينا كذلك أن نجدَّ في السّير ونصل إلى الآبار قبل أن يشعر بنا العدو ويتبعنا إلى هناك. لأنَّ موارد المياه مجاورة للمحطة فيفتك بنا وما من دافع يدفع الغائلة عنا. وانقسمنا إلى فرق صغيرة وأسرعنا إلى الشّمال.

إنَّ النّصر يبلبل الجيش العربي دائماً، فلم نكن جيشاً يتقدم للغزو، بل قوافل مثقلة تمشي ببطء وراء أحمال باهظة ومقتنيات شخصية تغني قبيلة بدوية سنين عديدة.

وطلب إليَّ الجاويشان سيفين تذكاراً لأول معركة اشتركا فيها فعلياً فتقدمت وانخرطت بين الرّكب لأُلبي طلب هذين الشّهمين الكريمين وإذا بي أمام عبيد «فيصل» وقد أردف أحدهم سالماً المسكين وراءَه مربوطاً فاقد الرّشد مخضباً بدمه! فأسرعت إلى «فرحان» واستطلعته خبر صاحبنا سالم. فقال: إنه بعد أول قنبلة أرسلها ستوكس على القطار هجم سالم على القاطرة فأصابته رصاصة من رصاص العدو في ظهره. وقد خرجت قرب السّلسلة الفقرية دون أن تمسها ـ على زعمه ـ وأن سالماً على زعم جميع رفاقه لم يكن مجروحاً جرحاً خطيراً. وقد سلبه رجال الحويطات عباءَته وخنجره وبندقيته وعمامته، وقد تعرَّف عليه «مُقبل» أحد العبيد فحمله على ناقته وسار به سراعاً إلى كوخه ولم يُعلِم بذلك أحداً. إلّا أنَّ فرحان قد التقطه في الطّريق وخلَّصه من مقبل.

وقد شفي سالم بعد مدة ولم ينس أن يحفظ لي حفيظة لم تذهب بها المعذرة.. لأني تركته ورائي في حالة توجب الشّفقة... فكان ذلك مني إخلالاً بعهد المحبة!!..

ووصلنا إلى البئر بعد سير ثلاث ساعات دون أن يعترضنا عارض فتموّنا ماءً وسرنا عشرة أميال وهي مسافة كافية لا نخشى بعدها لحاقاً. وتوقفنا ونام الجميع. وعند الصّباح استيقظنا على عذوبة التّعب. وكان ستوكس قد تألم كثيراً من داء الزّحار «الدّوزنتاريا» إلّا أنَّ النّوم خفف منها فاستيقظ مرتاحاً خالي الهم وشعر بالشّفاء.

وكانت مطايانا الثّلاث فقط لا تحمل أثقالاً فتقدمنا الرّكب وجزنا سهلاً من الطّين الجاف لا نهاية له إلا أن بلغنا غور وادي «رمّ» عند غروب الشّمس.

وقد كان لهذا الطّريق في نظري أهمية كبرى. لأنَّ العشرين ميلاً التي قطعناها على بساط الوحل الجاف الملبّد تصلح لسير السّيارات المصفحة فنبلغ بها «المدوّرة» ويمكننا عندئذٍ أن نوقف القطار في أي وقت نشاء. وقد ولجنا لأجل هذه الفكرة وحدها دهليز «رَمّ» الذي لا يزال رائع المناظر تحت أشعة الشّمس الغاربة وقد اصطفت على الأرض وفي السّماء جلاميد حُمر كالورد وسحاب مُنقَدّ كالأرجوان يَخفر الكوكب الملتهب كجنود جبابرة في تشابه زيهم وتساوي علوهم. ولقد شعرنا بأن مناظر «رَمّ» هذه بصفائها وروعتها قد عملت على تهدئة أعصابنا المتوترة. فيالها من عظمة تضغط على مناكبنا وتروع قلوبنا وتوقف على شفاهنا ضحكات السّلوى والاستخفاف التي كنا نتمتع بها على ظهور مطايانا في الصّحراء التي لا نهاية لها.

ومرت ساعتان بلغنا فيهما العَقَبة. فدخلناها معجبين بنفوسنا متهللين لفوزنا مثقلين بالغنائم، وقد اكتشفنا الطّريق الذي به يكون من الآن خط سكة حديد جزيرة العرب تحت رحمتنا، ونزل الجاويشان إلى البحر على ظهر سفينة سريعة ذاهبة إلى القطر المصري. وقد افتقدتهما القاهرة وتململت لعدم رجوعهما إليها! ولكنهما يرضيان بأن يتحمّلا غَضْبَ رؤسائهما بسرور. ولقد ربحا الموقعة بدون مساعدة وتجملاً لداء الزّحار وعاشا على لبن النّوق وتعلما أن يقطعا خمسين ميلاً في اليوم على ظهر جمل دون كثير عناء، وكان جزاؤهما وسامين من آلِنْبي!...

* * *

الفصل السّابع عشر
وضع خطط جديدة

كان أكتوبر شـهر فتـرة وانتظار، وكنا نعلم بـأنَّ آلِنْبي مع «لويـس» و«داوْني» ينويان الهجوم على غزة وبئر سبع.

كانـت غـزة محاطة بنطاق دفاعـي حديث تتبعه صفوف من الخنـادق على أكمل ما يكون من الاسـتعداد على الطّريقة الأوربيـة. فكانت دون منازع أمنع نقطة للعدو. وقد عزمـت القيـادة العليا مرتين على غزوها رأسـاً. وكان قد وصل آلِنْبي من فرنسـا حديثاً فألـح بأن يكون الهجوم قائماً على عدد سـاحق من الرّجـال والمدافع مجهزين بكامل وسائل النّقل ومن كل نوع.

وكان «داوْنـي» يناقـض هذه الفكرة ويعتقـد بأن قرض قوات العدو بوسـائل أخف كلفـة وأقل قعقعة هو الأجدى. وأشـار بـأن يمتد رأس خط مسـتطيل إلى طرف الخط التُّركي الشّرقي من جهة بئر سبع. ولكي يكون الانتصار قليل الثّمن كان يريد أن يحتفظ بالقـوة الكبـرى إلى ما وراء غزة معتقـداً بأن هذا الموقع يكون قريـب المنال إذا أخفى البريطانيـون تجمعهم في جهة الشّـرق بنوع أن التُّرك يمكنهـم أن يعتقدوا، بأنَّ هجومنا على جناحهم خدعة لا حقيقة.

أما نحن في الجهة العربية فكنا قائمين على قدم المسـاواة مع العدو وكنا أشـبه بعائلات متمازجة، فمن ضباط عَرَبَاً كانوا يخدمون قبلاً في الجيش التُّركي ويعرفون الرّؤسـاء، ومن تقارير من شـعوب لا يزال التُّرك محتلين أرضهم تأتينا تباعاً دون رشـوة ولا استجداء. ومن العبث التفتيش عن مكتب استعلام أوفى وأوسع وأدق من نظامنا هذا في الصّحراء.

ولقد كنا نعرف مواطن الضّعف في العدو وأهمية وسائل البريطانيين أكثر من آلِنْبي، وكنا لا نعتد كثيراً بكثرة مدفعيتنا وزحف مشاتنا وفرق فرساننا، فقد كانت كل هذه القوات تصاب بشيء من الشّلل عند الزّحف فتتقدم ببطء على ظهر سلحفاة. فليُسعد الحظ آلِنْبي شهراً واحداً ليتم استعداده ونحن كفيلون بأنه يحتل ليس فقط القُدس بل يحتل حيفا أيضاً ويكتسح أمامه على تلك الجبال جميع قوات التُّرك المتقلقلة.

وعندئذٍ تدق ساعتنا! فنكون على أهبة الانقضاض كالعُقبان على الموقع الذي لا ينتظرنا فيه العدو. على تلك النّقطة التي تكون لقواتنا وحركاتنا أحسن النّتائج. وفي نظري أن الذي يجذبنا إليه هو محطة «درعا» نقطة الاتصال بين حيفا ـ دمشق ـ المدينة، قلب الجيش التُّركي في سوريا. ولقد شاء القدر أن تكون تلك البقعة ملتقى جبهات التُّرك. قلت لقد شاء القدر المحتوم أن تكون مستودعاً هاماً للمحاربين العَرب. مستودع رجال لا يُمسَّ إلى الآن إلّا أنَّه مدرب بعناية «فيصل» ومسلح من مستودع العَقَبة.

وكنت أسائل نفسي ألا يجب أن ندعو إلى نصرتنا جميع الأعوان من الآن ونستولي على مواصلات التُّرك بكل قوانا، فإذا كنا لبِقين وحسني السّياسة يمكننا أن نجمع إثني عشر ألف رجلاً عاملين ينقضُّون على «درعا» ويستولون على الشّام فجأة ويعطلون جميع الخطوط الحديدية. وإن حركة واحدة من حركاتنا هذه تضع جيش بئر سبع في مأزق حرج، وكنت أغالب نفسي وأفكر في هل أطلع القيادة العامة حالاً على النّتيجة المحتملة.

كان أهل البلاد يطلبون ذلك بإلحاح، ولقد لجَّ الشّيخ طَلال الحريديني في الطّلب يبعث الرّسل تلو الرّسل ويقول إذا كان في الإمكان الاعتماد على بعض من فرساننا ليبين لرجاله أننا نتعاون مع العرب يمكنه أن يسلمنا «دَرْعا». وطلال هذا هو شيخ المنطقة الصّحراوية حول هذه المحطة. وكان يكون هذا العمل العظيم العلاج الوحيد الشّافي لمشروع آلِنْبي إلّا أنَّ فيصلاً لم يكن يقوى على القيام بهِ إذ كان لا يرجو أن يتخذ مقره في تلك المنطقة في الحال. فإن الاستيلاء على «درعا» فجأة والتراجع حالاً إلى الوراء يسبب مذابح وفناء لأولئك الرّجال البواسل فلاحي الصّحراء.

وإن أولئك المحالفين الموالين لنا لا يمكنهم أن يحاولوا الانتقاض إلّا مرة واحدة. وعليه يجب عليهم أن يوحّدوا كلمتهم ويستجمعوا كل قواهم للقيام بالهجوم الحاسم. فإذا دعوناهم الآن للعمل جازفنا بالضربة القاضية التي ينتظر فيصل سنوح الفرصة ليضربها. نعم نكون جازفنا لأجل انتصار غير مضمون وعلى شرطين أساسيَّين منهما: أن يقوم آلِنْبي بهجوم أول يقذف به العدو بعيداً. والشّرط الثّاني أن يكون شهر نوفمبر غير مطير فيتقدم البريطانيون إلينا بسرعة.

وكنت كثيراً ما أزن الجيش البريطاني في وحدتي إلّا أنّي في الحقيقة لم أكن متأكداً من قوته. لقد كان الرّجال في الغالب من خيرة الجنود. إلّا أنَّه في الغالب أيضاً كان القواد يضيعون ما ربحوه من غير أن يعرفوا السّبب. ولم يكن آلِنْبي قد وُضِعَ على المِحك فكان يقود جنوداً أضاعوا شيئاً من طيب أخلاقهم في عهد مِري وبسبب عهد مِري. إننا بدون شك كنا نحارب لنصرة الحلفاء، وبما أن الإنكليز هم من الشّركاء الأصليين فمن المحتم علينا عندما تضيق بنا الحيل أن نضحي بالعرب لأجلهم. ولكن هل ضاقت الحيل ولم يبق غير هذا المنزع في الوتر. إن الحرب كانت تتمايل بين الشّك واليقين فلا هي ناجحة ولا هي خاسرة. وتدل الدّلائل على أنَّ لدينا متسعاً من الوقت في العام المقبل لنقوم بمحاولة أخرى. وهكذا قد صمَّمت على تأجيل المجازفة حباً بخير العرب.

وكانت الحركة العربية لا تزال حيَّة بفضل آلِنْبي. فمن الضّروري أن نقوم بأعمال قبل اتساعاً من الانتقاض العام على ساقة العدو. أعمال لها أهمية الغزوات لا تدخل فيها الشّعوب الساكنة وتكون كافية لأن تُرضي آلِنْبي. أي أنها تكون دعامة مادية نقدمها للحملة البريطانية ضد التُّرك. وعند التأمل وجدت أنه ما من شيء يملأ «خانات» هذه الشروط المتعددة إلا نسف أحد الجسور الكبرى في «وادي اليَرموك». في ذلك الغور الضيق الوعر. غور جدول اليرموك حيث تمر سكة حديد فلسطين لتصعد إلى حوران على طريق دمشق. وقد ذلل المهندسون لمد هذا القسم من الخط عقبات كثيرة في وادي الأردن الغائر ومرتفعاته الشّرقية الصّعبة المسالك. وكان عليهم أن يماشوا

منعرجـات الوادي كثيرة الالتواء ويتخطوا مجاري المياه لبناء جسـور متعدّدة. وكانت الأعمال الفنية القائمة على طرفي الخط الشّرقي والغربي من أدق الأعمال وأشقها.

فإذا نسفنا جسراً من تلك الجسور نكون قد فصلنا قوة التُّرك الفلسطينية عن قاعدتها دمشـق مدة خمسـة عشـر يوماً وحرمناها من كل وسـيلة تمنع تقدم آلِنْبـي. ولكي نبلغ اليرموك قادمين من العَقَبة يجب أن نمرّ بالأزرق ونقطع مسـافة أربعمئة وعشـرين كيلو متراً. وكان التُّرك يعتقدون بأن هذه المنطقة غير مهدَّدة فأهملوا حراستها. فعرضنا هذه الفكـرة على آلِنْبي فأقرها على شـرط أن تنفـذ يوم 5 نوفمبر أو في الثّلاثـة الأيام التالية لهذا اليوم.

وكان ناصر الذي ينظِّم خططنا غائباً، إلّا أن علياً بن الحسن عميد بني صخر شريف بني الحارث الشّـاب الجذاب النّبيل كان موجوداً بيننا. وقد اشـتهر هذا الشّاب ببسالته أيـام فيصـل العصيبة حول المدينة. وأظـره بعد ذلك ضروباً غريبة من الشّـجاعة حول «العُلا» ففاق بهذه الصّفات «نيو كومب» نفسه.

وقد كان ضيفاً على جمال باشـا فترة من الزّمن فعرف شـيئاً كثيراً مما يتعلق بأحوال سـوريا، فرجـوت فيصلاً بأن يضعه تحت قيادتي. لأنَّ بسـالته وإقدامه وحسـن تصرفه وحيلتـه، تلـك الصّفـات المجرَّب بها مـن زمن بعيد تكـون لي خير معـوان. فلم تكن عقبـةٌ مهمـا كان خطرها تقف أمامه فيحجم عنها. ومامن نكبة قـط لم يقابلها بثورة من الضّحك والاستهزاء.

وقد كان متين البنية، لا طويلاً ولا ضخماً. إذا ركع على ركبتيه وكوعاه إلى الأرض وكفاه مبسوطتان في الفضاء كان يقوم حاملاً رجلاً على راحتيه. وفوق ذلك كان يربح الرّهان إذا سابق مع هجين وهو حافٍ ثم يقفز بعد جري نصف ميل على سرج الحيوان الآتي ثانياً.

إلّا أنَّـه مـع هذا كان حرداً، دعياً، لا يبالي بمـا يقول وبما يفعل. وإذا تكلم في النّاس استحث رغبتهم. وهو متعلم علماً راقياً يكفيه بأن يفوق أقرانه ويشبع مطامعه كرجل

بدوي ـ من فنون الحرب والفروسية والرّياضة البدنية.

وقد درست خطتي بإمعان وتدقيق وهي أن أثب وثبة تحت قيادة «رافع» هذا الشّيخ الظّريف الذي لحق بي في شهر يوليو وأقطع مرحلة أو مرحلتين من «الأزرق» إلى «أم قيس» مع حفنة من الرّجال يبلغ عددهم الخمسين.

وأم قيس تقع بالدّقة فوق جسر غربي اليرموك وهذا الجسر مثال الفن الفولاذي، وهي ليست سوى «غادارا» Gadara المدينة المشهورة منذ القدم بتذكارات منيپّوس Menippus وملياغر Meleager اليوناني السّوري الذي دلت كتاباته الغرامية على ازدهار الأدب السّوري في ذلك العصر الغارق في القدم.

فإذا قمت بتدمير هذا الجسر أكون قد حصلت عن جدارة على لقب «ڤندالي» واشتهرت بالهمجية.

ولم يكن في ذلك الوقت غير ستة حراس يحرسون الدّعائم والكتل الحديدية. وستين حارساً يتبادلون الحراسة مناوبة إلّا أنّهم كانوا يسكنون في بنايات على محطة «الحمَّة» حول ينابيع «غادارا» التي لا تزال جارية حارّة يقدّرها المرضى هناك حقَّ قدرها. وكنت أرجو أن أقنع بعض رجال «أبو تايه وزعل» فيتبعوني. لأن معونة هؤلاء الفهود تكفل لي النّجاح. ويكون علينا أن نكتسح الحامية التي تجسر أن تأتي من مساكنها على محطة «الحمَّة» وتدنو من الجسر، برشّاشاتنا التي يكلف بإطلاقها المتطوعون الهنود تحت قيادة الكابتن براي Bray، من فرقة الفرسان الهندية التي كانت مرابطة في فرنسا تحت إمرة جامادار حسن شاه.

وكان تخريب الأقواس الفولاذية التي ترفع ظهر الجسر عملاً دقيقاً شاقاً، تحت نيران العدو. فدعونا المهندس الفني «وُود» Wood من العَقَبة كي يساعدنا على العمل عند الاقتضاء فلم يتردد بالقبول رغماً من مشورة الأطباء له بعدم الإجهاد لأنَّ رصاصة كانت قد احتلّت رأسه في ميدان فرنسا.

وقد أسف «لورد جورج لويد» الذي قضى بضعة أيام في العَقَبة لعدم تمكنه من

مرافقتي حتى «الجفر» لأنه كان مدعواً للإشتراك في جلسة استشارية بين الحلفاء في فرسايل. وما كدنا ننهي استعداداتنا حتى هبط علينا حليف من السّماء على غير انتظار في شخص الأمير عبد القادر الجزائري حفيد عبد القادر بطل الجزيرة المشهور بحروبه ضد فرنسا.

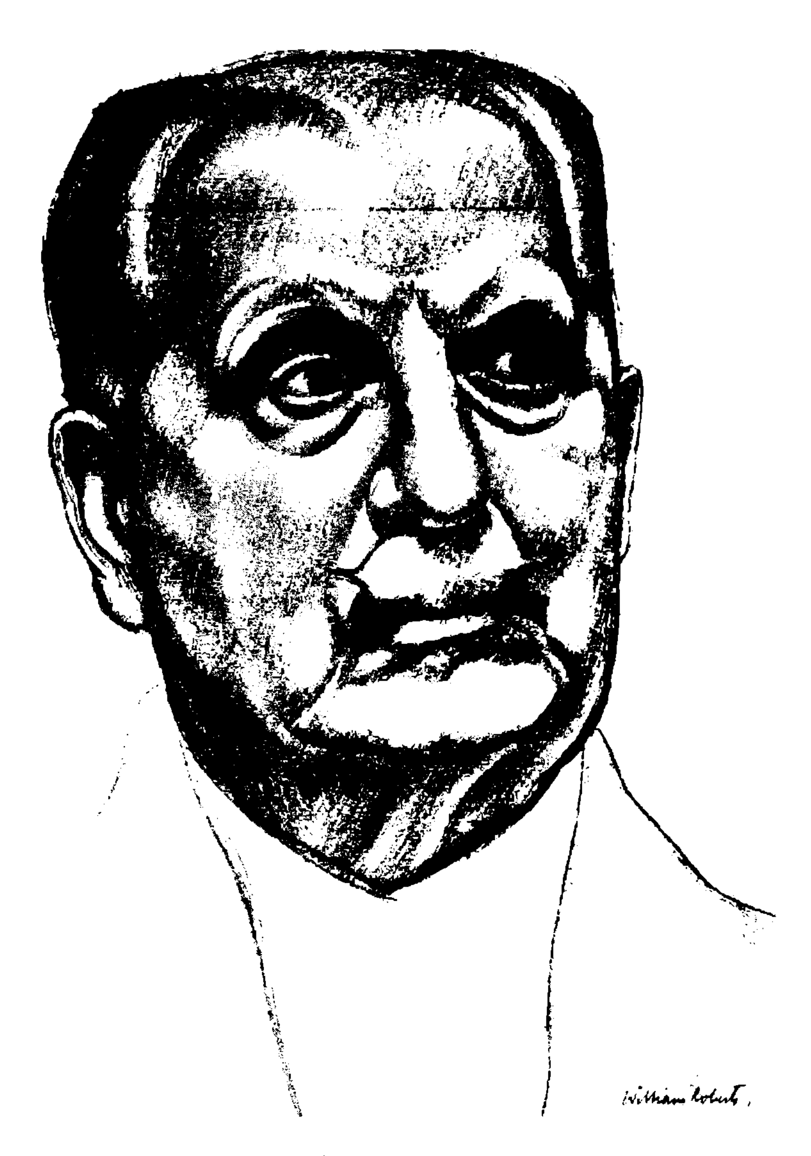
قدم هذا الأمير رجاله روحاً وجسداً وهم منفيون جزائريون أشداء إذا ضربوا عطبوا. ولقد صعدنا على مناكب الخط فأمَّننا وقتاً ولو قصيراً عند استعراضنا قسم السّكة الحديد الأوسط في ذلك الوادي الذي تقوم عليه ثلاثة جسور من أهم أعمال الخط الفنية. وكان من المحتمل أن لا يشترك عرب الضّفة اليسرى معنا ولا يحركوا ساكناً، لأنهم يعتبرون الجزائريين غرباء ممقوتين لا تجب معاملتهم.

وعليه قد توقفنا مؤقتاً عن دعوة رافع إلى الأزرق ولم نُوحِ بكلمة قط من كل هذا إلى زعل. لأنَّ أفكارنا ظلت متجهة فقط إلى وادي خالد وجسوره.

وبينما ننظم خططنا ونمهد لعملنا الخطير وإذا ببرقية من الكولونيل بريمون تفهمنا بأن عبد القادر جاسوس على حساب التُّرك. فياله من نبأ مبلبل، فقال لي «فيصل»: «أنا أعرف بأنه مجنون إلّا أني أعتقد بأنه شهم.. أحرسوا رؤوسكم وانتفعوا به». ولزمنا ثقتنا بهذا الجزائري على مبدأ أنَّ الرّجل الخائن لا يزداد إيماناً بشهامتنا. وأنه من الممكن تحويل الرّجل الصّادق الأمين بسرعة إلى رجل خائن إذا اتُّهِمَ.

وفي الواقع كان عبد القادر متعصباً لإسلامه وقد هَوَّرَتْهُ نعرته الدّينية إلى الحد الأقصى من الاعتداد بنفسه فصار ممسوساً. وكانت تأخذه عزّة النّفس فيتألم لمرافقتي أبناء دينهِ ولاستقبالِهم إياي بأحسن من استقبالهم له ولمعاملتهم لي بأطيب من معاملتهم له. وكادَ هذا الحرد الأحمق يُفقِد علياً ثلاث مرات رباطةَ جأشه ويفك قيود صبره. وقد حدثت بينهما أمور مؤلمة وكانت جهود عبد القادر تقصد غرضاً واحداً أقل مافيه أنه يعرقل سيرنا ـ إذا كان في مقدوره ـ ويقلب خطنا ويقضي علينا ساعة نكون فيها واقفين على حافة الهاوية.

* * *



الجنرال سير ريغينالد وينغايت

قائد الجيش والمندوب السّامي البريطاني في مصر

الفصل الثّامن عشر
عبر الخطوط مرة أخرى

وكان سفرنا يوم 24 أكتوبر فتغدينا في المعسكر غداءً طيباً وسافرنا عند هبوط الظّلام. وكان سيرنا معتدلاً مدة أربع ساعات. والمشي في أول الرّحلة يكون بطيئاً عند الإنسان مثلُه عند الحيوان لأن كل سير إلى مجازفة جديدة مكروه، وكانت الأحمال متقلقلة محلولة فلزم ربطها بالحبال وحزم بطان الجمال. وكانت المطايا مفتقدة فلم تألف هؤلاء النّاس الغرباء عنها. وكانت لنا فوق جمالي الخاصة ـ غزالة ـ الجِدة العجوز التي ستضع قريباً، و«ريما» النّاقة الشّرارية التي سرقها بنو صخر من الرّوَلَة وجمال حرسي الخاص. وكان عليَّ أن أركب الهنود وأعير «وودْ» ناقة وهو لا يكاد يثبت على السّرج حتى يطلب إبدال ناقة بناقة أخرى. وهكذا كل يوم. وأعرت أخرى لـ «ثورن» الجندي التابع «للويد» وكان هذا الرّجل يثبت على السّرج كالعربي ويخاله من يراه في عمامته وعباءته المُعلَّمة التي تخفي تحتها الكاكي أنه بدوي صميم. و«لويد» ذاته كان يركب نجيباً أصيلاً استعاره من «فيصل». وهي قلوص جميلة سريعة الجري واسعة الخطى إلّا أنَّه قد جزَّ صوفها حتى ظهرت بَشْرتها لِجَرَبِ أصابها فهزلها.

ولم تلبث عصابتنا أن انتشرت، فتأخر «وود» إلى الوراء فكان رجالي الحديثو العهد قلقين خوفاً من عدم انتظام الهنود وقد غابوا عن أبصارهم. ووجد «وود» مع «ثوْرن» بعيدين عن كل احتكاك بالحملة.

ومالبث هذا الأخير أن اتجه نحو الشّرق وانخرط في معابر عميقة مُظلمة لا تسلك حتى يتعالى القمر ويرسل ضوءه إلى أغوارها. وما زالا يسيران على طريق قويرة على

غيـر هدىً إلـى أن توقفا. وانكمشـا في قاع الوادي. ولـم يكونا يثقـان بالعرب لحداثة عهدهما بالبلاد فتناوبا الحراسـة طوال الليل. ولما لم نلقهما عند توقفنا خشـينا أموراً كثيـرة وجالت في أذهاننا احتمالات شـتى. وما أن بـزغ القمر حتى رجع أحمد وعزيز وعبد الرّحمن إلى الوراء وكانوا منقسـمين على تلك الطّرق المطروقة وكان عليهم أن يعيدوهما إلى «رَمّ».

وبقيـت مـع «لويـد» والرّكب كي أقودهـم إلى رَمّ بيـن منحدرات الحصـى الوردية وأوديـة الحُمـر المخضـرة. ودخلنا المعابر والشّـمس متقـدة فوق الجلاميـد العجيبة وأرسـلت أمواجاً من الأشـعة على الأرض التي لا تزال معطَّرة ومتمعَّجة تحت ظلال الأعراف الرّشـيقة التي تحاكي دعائم قائمة على مدخل الملعب، وكان قد وصل «وود وثـورن» وانتظرانـا علـى ينابيع المـدرَّج الفياضـة، وكان «ووُدْ» مريضـاً فانتحى ناحية رصيف مُعسكري القديم واستراح وظن بأنه لن يرانا قط! لذلك نظر إلينا بعدم اكتراث لما رآنا واقفين مبهوتين خاشـعين خشـوع التقوى أمام عظمة الطّبيعة ولم نهتم لآلامه، وكنا نجيبه بكلمة نعم على شكواه ثم نتركه ممدّداً ونغوص إلى أعماق الفكر ونرود مرة أخرى ونتحادث بهدوء مملوءين روعة وابتهاجاً لهذا المشـهد الفريد. ولحسـن الحظ أن أحمداً و«ثُوْرن» لم ينسـيا أن يأكلا.. وعادت العلاقات حسـنة بينهما أمام السّماط. وفي اليوم الثّاني ونحن نسـرج المطايا طلع علينا علـيّ وعبد القادر. ففطرت أنا ولويد معهما مرة ثانية لأنهما كانا على وشـك الخصام وكان وجـود ضيفهما ضرورياً ليضعا حداً للقتال ولويد هذا كان من أولئك السّياح الذين يمكنهم أن يأكلوا أي طعام مع أي إنسـان، وفي أي مكان، ولما انتهينا من الأكل استأنفنا السّـير في السّـهل بمشـقة لنبلغ الرّكـب، فبلغنـاه كأننا عاصفة تسـعى وراءه فهوجئت المطايا واختـل نظامها، ونخرت جمـال الهنـود وزمزمت ولـم تهـدأ حتى أُنزلـت عنها الأحمال وسـاد الهدوء ومشـينا الهوينـى علـى كتـف وادي «حفيرة» ذلـك الوادي الـذي كان في وسـط الهضاب كأنه منفلق بضربة حسام. وفي مدخله طريق يصعد إلى أن يبلغ «بَطرة» فلم نحث مطايانا في ذلك اليوم كسـلاً لاحتياجنا إلى الرّاحة والاستجمام. واحتجبنا عن الأنظار على كتف

الـوادي العميـق. وأوقدنا ناراً كبيرة لنتقي برد الليل. فأضاءت إبّالتنا المشـتعلة جوانب الرّكـب الجذلان وطبخ لي فرّاج أرزاً وهو أكلي المألوف أما «لويد» و«وُود» و«ثُوْرن» فقد حملوا معهم من الجيش البريطاني لحم بقر محفوظاً في علب وبسكويت فتحلَّقنا وضاقت حلقتنا حول ذلك السّماط الشّهي.

وعنـد طلـوع النّهار تسـلَّقنا المعبر في طريـق كثيـر التّعاريج وتركنا تحتنا حشـيش «الحفيرة» يمتد على سـفوح تل مرتفع مخروطي الشّـكل كالقُمع المقلوب. وتظهر ما وراء ذلك بجلالها وهيبتها، تلك الأهرامات الهائلة، والقبب الرّمادية الجبارة يحسـبها الإنسان من أعمال الجِن وهي تحيط بوادي (رَمّ). وكانت أعرافها في ذلك اليوم مكلَّلة بسـحاب ضخم كأنـه يقف أمام عظمتها مبغوتاً متأملاً. وشـاهدنا الحملة تسـير بهدوء وتبلغ الأكمة جمالاً وعَرَبَاً وهنوداً وأحمالاً دون حادث ما. فابتهجنا وانحدرنا في أول واد أخضـر تحميه الجبال من هبوب الشّـمال وتدفئه حرارة شـمس الخريف الصّفراء على تلك المرتفعات العالية.... وأعاد أحد الرّجال التحدث عن الأكل. وعمدت إلى الاستكشـاف فأخذت عَوّاداً معي وسـرنا شـمالاً. وعوّاد هذا جمّال من وادي «رَمّ» قد استأجرته لا لشيء إلّا لبنيته المتينة ومنظره الجميل. وكانت الجمال كثيرة لدينا أخصّها الحَمولـة. وكان الهنود لا يحسـنون شـد الأحمال على ظهر المطايـا وقيادها. فدعاني الأمر إلى أن أتنازل عن حَرَسي لمساعدتهم ورفضت ركوبهم حولي. حتى أنَّ «شَواخ» Showakh قد قدّم لي ابن أخته وهو خيّال شراري يريد أن يخدم تحت إمرتي بأي وجه كان وعلى أي شـرط أعرضه. فقبلتُهُ لأول وهلة معتمداً على مراقبتي له فأرى مايمكنه أن يقوم به من الأعمال الشّاقة.

ومررنا بـ «أبا اللِّسن» لنتأكد من سكون التُّرك وبطالتهم الشّريفة!. وكان من عادتهم أن ينقضُّوا على جهة «بَطرة» لأقل كشـافة راكبة. إلّا أني لـم أشـأ أن أزج حملتنا في أمر لا فائدة منه مسـتعجلة. وكان عواد رث الثّياب أسـمر الجلد عمره ثمانية عشـرة سـنة، قوي البنية، له عضلات وأعصاب، مصارع صنديد، خفيف كالهِر، ثابت على السّـرج، سريع الكرَ والفرَ. وكان عوَّاد حيّياً مرتبكاً أمامي. مَرِحاً طروباً بين رفاقه، وكان دخوله

في خدمتي حظّاً لم يكن ينتظره وأمْراً كان فوق أحْلامه. يقوم على ذلّ الانتظار وقلق التخمين إلا أن أبديت رأيي في تعيينه، وكان علينا الآن أن نرود الهضاب حول «معان» لنلفت إلينا أنظار التُّرك. حتى إذا لحقوا بنا ركوباً على بغالهم انسحبنا من أمامهم شيئاً فشيئاً وانفصلنا عن الحملة وجررناهم إلى جهة بعيدة عنها. فاهتم عواد لهذه الخدعة وأخذ بندقيته التي صار يحسن استعمالها.

وصعدت وعواداً وحدنا على رأس تل يشرف على «سلع» والأودية الهابطة إلى أن شاهدنا رأس الحملة التي تتسلق مناكب المضيق فأسرعت إلى ملاقاتِها وخُبِرتُ بأننا فقدنا في الصّعود أربعة جمال وأخبرني عليَّ بأنه تماسك مع عبد القادر، وأنه يصلي ويدعو الله كي يخلصه من صَمَم هذا الرّجل وكبريائه وأخلاقه الخشنة، وكان على الرّكب أن يسافر قبلَ هبوط الليلَ. وقد سلمته عواداً ليقوده وكان موعدنا تحت خيام عودة. وركبنا في أودية تنفتح على رؤوس التلال. إلى أن غابت الشّمس على مكّعب «غدير الحاج» الذي كان يتراءى لنا بالغاً في الإرتفاع عن الأرض وبعيداً عنا أميالاً.

وكنت مع «وود» نجوس المكان تحت «شَدْيَة» تماماً في النّقطة التي نعبر منها الخط الحديدي. ولما لمعت النّجوم في الجَلَد الأعلى توافقنا على أن نمشي على يد الجوزاء فسرنا وعيوننا شاخصة إلى هذا النّجم ساعات. فلم يدنُ منا بل ازداد بعداً. ولم يدلنا على أن هناك شيئاً ما. وخرجنا من بين الجبال إلى سهل مُمِلَّ لا آخر له ممتدّ من الوادي على خط مستقيم أحسبه على ضوء الكواكب الباهت كالشّهاب خطوط السّكة الحديدية تلمع وتتلألأ. وهي القضبان التي كنا نفتش عنها. وكانت الأرض صلبة تحت أخفاف الإبل والصَّبَا يهب علينا. فجدَّ الرّكب في ذلك الليل هادئاً ناعماً، وكنت أمشي مع «وودْ» في الطّليعة دائماً. أفضل الخط الحديدي عن الحامية كي لا تقع في كمين. وأن تندفع إلى معقل من معاقل العدو أو تلتقي بكشّافة ليل. وتسير جمالنا البعيدة الخطى سيراً حثيثاً منتظماً وهي خفيفة الحمل إلى أن تخطّينا ركب الهنود المثقّلة. وفصل «الجَمادَار حَسَن شاه» رجلاً ودعاه إلى الأمام كي لا نغيب عنه ولا ينفصل عنا. ولم يلبث أن أرسل وراءه رجلاً آخر ليفتش عنه ثم ثالثاً في إثره بحيث أصبح ركبُهُ عقداً

منثوراً. فطلب منا أن نخفف من سيرنا، إلّا أنَّ رسوله بعد أن مرَّ بثلاث لغات مختلفة وصل إلينا غير مفهوم العبارةَ أخيراً توقفنا على ضوضاء الخِلاط والأصوات المختلفة ومال العشب اليابس بالمطايا تقضمه وتتبلغ به على نسيم الصّبَا الهارب. ثم مشينا على مهل ساعات طويلة ضاع فيها الزّمن ويظهر أنه قد خَدَعنا النّجم وضللنا الطّريق. وكان «لويد» يملك إبرة مغناطيسية، فتوقفنا للتفتيش عنها في خُرجِهِ الشّاسع وتقدم «ثورن» ووضع يده فسلَّ الإبرة من الخرج! وتجمعنا حولها ننظر إلى زبانتها ترقص رقصها المعلوم وقرّرنا ترك الجوزاء والإهتداء بنجم آخر إلى الشّمال. فتابعنا سيراً مملاً لا آخر له إلى أن جذب «لويد» رسن مطيته بحدة وانقطع نَفَسُهُ ومدَّ أصبعه على طول ذراعيه في الظّلام. فقد بدا له تحت ستار الحَلَك وعلى طريقنا المستقيم مكعبَّان أقْتمان بلون السّماء إلى جانبهما سطح رفيع مخروطي الشّكل. إذن أننا نسير رأساً إلى محطة «شدية». ولقد أصبحنا تحت أقدامها.

فملنا يميناً وجزنا أرضاً مكشوفة خطرة على قافلتنا. ولا بأس من تضليل بعض المتوانين في المؤخرة إلّا أنَّ الأمور سارت على ما نروم، وفي بضع دقائق كنا محجوبين عن الأبصار في منحنٍ نلهث ونتبادل شعورنا بالإنكليزي والتُّركي والعربي والهندي. وقد خَفَّ وراءنا نباح الكلاب في معسكر التُّرك. إلّا أنَّ قلوبنا كانت لا تزال تختلج.

لقد قدرنا الآن موقفنا وعلينا إذن أن نميل قليلاً عن اتجاهنا الأول لنتجنب معقلاً قائماً جنوب «شدية» فسرت في الطّليعة مع رفيقَّي وكلّي أمل في اجتياز الخط.. إلّا أن السّاعات لا تزال تتباطأ ولم يدق جرس النّجاة.

ومشينا ست ساعات وانتصف الليل. و«لويد» لا ينفك عن التذمر بحرارة لأنه كان يعتقد أنه سيصل إلى بغداد عند الفجر!!

وقد لمح «ثُورن» في الحلَكَ على البعد صفَّاً من الأشباح السّود فأخذنا بنادقنا استعداداً للمقاومة. فكانت تلك الأشباح أشجاراً! وتغلغل اليأس في جميع الرّكب. فسرنا منهوكي القوى مقوّسي الظّهور على مطايانا التي شاركتنا اليأْس والنَّصَب متهدلي الجفون من النّعاس. وكان الهنود لا يزالون متأخرين عنا. فسرنا قدر نصف ساعة إلى

أن التقينا بسـنَدَ السّـكة الحديد لكنه كان مختلفاً عما كنا نعهده، لقد كان مستقيماً تظهر عليه في الظّلمة أجسـام سـود متباعدة لعلها فتحات المجاري تحت الخط. وانتهى بنا الوادي إلى مرتفع عليه مثل سـوار تشـق الجو بأطرافها. فتقدمنا فإذا هي أعمدة أسلاك البـرق. ففحصنا الموقع بدقة خوفاً من كمين. وقد يمكن أن تنقذف علينا نيران البنادق فيتحول هذا السّـكون العميق إلى معركة. ثم ترجلنا وسـرنا يميناً وشمالاً قدر مئتي متر فلم يكن حارس قط لهذا الخط. فأذنا بالعبور وأمرنا بالإسـراع والانتظار لجهة الشّرق فـي مكان أمين من الصّحراء. وجلسـنا تحت الأسـلاك التلغرافية وهـي تدندن بطنينها النّاعـم إلـى أن مَرَّ آخـر جمل من الحاميـة وتبعناها في الصّحراء وبعدنا عن الشّـبهات ورقدنا حتى الصّباح.

وفي اليوم الثّاني التقينا «بعودة» معسـكراً سـراً حول الآبار لجهة الجنوب الشّرقي. فـي سـهل مطروق مخضَّـل الأديم وقد نبتـت عليه الأشـواك الجميلة. وكانت النّسـاء والمضارب الكبيرة قد نُقلنَ خارج خط نار الطّائرات التُّركية. وبعض من بني الطّويحة وباقـي الرّجال لا يزالون يتخاصمـون على أجورهم وحصص قبائِلهم. فحزن الشّـيخ لهذه المصادفة وقد فاجأناهم يتنازعون على أمور تافَهة.

فعملت كل مافي وسـعي لأوفق بينهم وأعدهم بالمسـتقبل الطّيب. ولحسن الحظ قد أصغوا إلى كلامي واقتنعوا. ودليلي على اقتناعهم ابتساماتهم التي هي علامة ربحي لنصـف المعركـة. ولـم أرَ مـن الحكمـة أن أمنّيهم بأكثر مـن ذلك. وذهبنـا إلى محمّد الضّغلان وتغدينا على خَوانِه. فاستقبلنا بلطف وبشاشة. وقد كان من الوجهة السّياسية أزكى من عودة. إذ كان يعرف كيف يملك شعوره في داخله.

وكانت عادته في الأكل عادة أهل القرى فأكَلَ كثيراً، وبعد الغداء تمشـينا على تلك الأرض الرّملـة تتخللها بطون واسـعة كأن المَاموث قد تَملمَـل عليها وترك وراءَه هذه الحفر الواسـعة. يتخللها بعض الطّمي من فيضانات سـابقة. وقد أومأت إلى زعل من طرف خفي عن مشروع غزوتنا لجسور اليرموك. فاستقبل اقتراحي بقليل من الاهتمام وكان «زَعَـل» أكتوبـر غير «زَعَل» أغسـطس الـذي كان في الرّبيع الفائـت يركب ليالي

وأياماً لا يعرف نَصَباً ولا يخشى خطراً إلّا أنَّ السّلب الأخير أغناه لمدة سنين عن المجازفة. وعرف قيمة التنعم بالحياة والتمسك بالوجود وفي الرّبيع أيضاً كنت أقذفه إلى المهالك فيركض ولا يلوي على شيء باسماً هازئاً من كل عقبة تعترضه. أما الآن فقد قال لي: «إن أسير معك على شرط أن أعرف واجبي وأعمل له فقط».

فسألته: من أي الرّجال يمكنني أن أصوغ عصابتي، فدلني على ثلاثة شبانٍ كانوا أمامنا في الدّوّار وقال لي: يمكنك أن تعتمد عليهم في أي مجازفةٍ كانت فلا يحجمون عنها. وكان قد تفرَّق باقي رجال القبيلة غير راضين، فرأيت أنه ليس من حسن السّياسة أن آخذ ثلاثة أنفارٍ من الطّوايحة. يعتدّون بأنفسهم أمام رفاقهم الذين يتَّقدون غيرةً وحسداً. وأن عهدهم الضّئيل لا يكفي للقيام بمشروعنا، وقرّرت أن آخذ رجالاً من ناحيةٍ ثانية. فسُرَّ زعل في داخله لهذا التغيير وتعزّى!.

وكان على «لويد» أن يسافر لحضور مؤتمر فرسايل، وهو اتفاق سيِّئ لم يكن في محلِّه لأنَّه قد اطَّلع على موقفنا اطّلاعاً دقيقاً وكان يمكنه أن يكون لنا عضداً قوياً نظراً لعطفِهِ على قضيتنا. وفوق ذلك كان الرّجل المثّقف الوحيد في الصّحراء. وكم كُنا نغوص في مواضيع لا شأن لها في الحرب. نتذاكر البيان والأدب. وكل موضوع يخطر على البال. وبعد أن سافر عادت الحرب والقبائل والجمال جُلَّ مواضيع أحاديثنا.

وقضينا أول الليل بالأشغال الشّاقة كوضع حلٍّ لحادثة الحويطات وقد تجمعوا حول نار «عودة» ساعاتٍ وكان عليَّ أن أتغلغل في تلك العقول الحَرونة وقد استعملت جميع الحيلَ التي علمتنيها التجارب، وأفرغت كل دهائي على هذا وذاك إلى أن لمحتُ في عيونهم بريق الرّضى وأيقنت بأن سهمي قد أصاب الصّميم. وفي بعض الأحايين كنت أضيِّعْ وقتاً ثميناً لمثل هذه الأغراض مع البدو ولم أكن أشعر بمثل ما شعرت هذه المرة من الارتياح لفوزي. وأن عقول بني «أبو تايه» كانت صلبة كأجسامهم. وللحقيقة كانت قد انطفأت من صدورهم كل حميَّة بعد الخدمة الإجبارية الطّويلة المَدَى في الأشهر السّابقة. إلّا أنّي رويداً رويداً حصلت على ماكنت أطلب منهم. وكان قد انتصف الليل والمناقشات لا تزال حامية الوطيس، إلى أن رفع «عودة»

عصاه وطلب السّكوت. فتوقفت أنفاسنا في صدورنا وأرهفنا مسامعنا لنسمع من أي جهة كان الخَطَرُ قادماً علينا. ولم تمضِ دقيقة حتى سمعنا دمدمة صَمَّاءَ وارتجاجاً موقَّعاً تهتزُّ منه الأرض تحتنا. دون أن نعلم سَبَبَهُ، كأنه هدير عاصفةٍ هوجاء لم تصل إلينا. وأدار عودة إلى الغرب أنظاراً تائهة كأنظار الفهد الواجم وصرخ: «هذه مدافع الإنكليز». فقُطع الشّكّ باليقين، وانتهى الأمر بانتصاري دون مناقشة، لأنهم علموا بأنَّ آلِنْبي قد بدأ الزّحف إلى الأمام.

* * *

الفصل التاسع عشر
خدمات ومواعظ

وطلع النّهار على المعسكر والقلوب صافية فتقدم مني عودة الشّيخ الذي ذلّلنا عناده مرة أخرى وعانقني عناقاً حاراً داعياً لنا البركة من الله ورسوله.

وبينما كنت أهم بالرّكوب على ناقتي واضعاً يدي على عرفها أعاد الكَرَّة وعانقني وهَمس في أذني «أن أحذْر عبدَ القادر»! فشاكت لحيتُهُ الكثَّة الخشنة صفحة وجهي، **ولم يقل أكثر من هذا حذراً من المجتمعين حولنا.**

وودعنا وسرنا حتى منتصف النّهار وتوقفنا للأكل والقيلولة، وكان علينا أن نطعم الجنود ثلاث مرات في اليوم. ثم فوجئنا برجال راكبين جمالاً وخيلاً قادمين من الشّمال والغرب وهم يقومون بحركة التفاف سريعة حولنا، فأخذنا بنادقنا. والهنود الذين تعودوا أن يقفوا موقف الدّفاع في أقل من نصف دقيقة كانوا قد ركزوا مدافع «لويس وفيكرز» وفي أقل من ثلاثين ثانية كنا على أهبة إطلاق النّار.

وكان لمجموعنا منظر من أغرب المناظر، فوقفت أنظر إليه بينما علّي يأمر بأن لا يطلقوا قبل التثبّت من الحملة القادمة علينا. وتقدَّم عوَّاد يأمر بأن لا يطلقوا قبل التثبّت من الحملة القادمة علينا. وتقدَّم عوَّاد بابتهاج أمام الرّكب ودخل في الصّحراء ملوِّحاً بكمه الطّويل فوق رأسه علامة الصّداقة. فرماه البدو فأخطأوه فانبطح على الأرض وردَّ لهم الرّصاص فوق رأس أول فارس. فتحيروا من أمر هذا العيار النّاري المفرد وهذا السّكوت من ناحيتنا. وترددوا في الأمر إلى أن تجمعوا إلى بعضهم ثم رفعوا، ولو بالرّغم منهم. عباءاتهم في الهواء رداً على علامة السّلام.

وتقدم أحدهم راجلاً، وتقدم إليه عواد مئتي متر تحت حماية بنادقنا فعرفه وهو من بني صخر. ولما تعارفنا تظاهر بالدّهشة. وقال: إن عصابتهم تقوم بغزوة ورجالها من زَبَن صخر يعسكرون أمام «باير».

فعجب عليّ لهذه الهجمة الخائنة وتوعدهم بالقصاص الشّديد، فتحمّلوا التأنيب بمظاهر النَّدَم مدّعين بأن من عادات بني صخر أن يطلقوا النّار على الغرباء. فأقرَّ على هذه العادة في الصّحراء إلّا أن التفافهم من ثلاث جهات إنما هو كمين مدبَّر. فبنو صخر هم قبيلة خطرة لأنهم لم يكونوا بدواً صرفاً كي يحفظوا شرف القوانين ويعملون بها في الصّحراء، ومن جهة أخرى لم يكونوا حَضريين إلى حد أن يهجروا الغزو والنّهب.

وسافرت العصابة إلى «باير» لتعلن وصولنا، وقَدَّرَ مفلح رئيس القبيلة أن من حسن السّياسة وأصالة الرّأي أن يعمل على نسيان هذا الحادث، فأقام لنا حفلة اجتمع فيها جميع الرّجال والخيول يلعبون ألعاب الفروسية ويتقدمون إلينا وثباً وخبباً ويطلقون النّار في الفضاء بين أصوات تصم الآذان. وكان الفرسان يدورون حولنا إلى ما لا حدَّ له ويتلاحقون ويتلاحمون بجسارة غريبة ثم يتغلغلون بيننا دون أن يحفظوا حرمة مقامنا، ويطلقون بنادقهم بوقاحة تحت أنوف نياقنا، فارتفع الغبار الجيري النّاعم وانعقد في الجو وجَفَّتْ له حلوقنا وعميت أبصارنا. وانتهت هذه الظّاهرة بسلام. واقتنع عبد القادر بأن هؤلاء المجانين على حق في اعتقادهم وأنهم لا بأس بإخلاصهم وأعتقد بأنه يظهر فروسيته أمامهم. وأخذ البدو ينادون «فلينصر الله رئيسنا الشّريف علي بن الحسين» والذين من حولي القابضون على أعنة خيولهم ينادون «أهلاً ومرحباً بأَورَنس مدبّر الحملة». ونهض عبد القادر وتمايل على سرجه المراكشي العالي وتبعه خدمه المراكشيون وابتدأ يمرح ببلادة ويصرخ «هوب! هوب!» من حنجرة بَحَّاء ويطلق مسدسه في الفضاء من غير ما حذقٍ ولا لباقة.

فتململ البدو من هذه الجولة المضحكة وتثاءب الرّؤساء. وتقدم مفلح متملقاً وقال لي: «أرجو أيها السّيد أن توقف خادمك هذا، لأنه لا يحسن الرّكوب ولا إطلاق النّار. وأخشى ـ إذا أصاب أحداً ـ سوء المغبَّة».

ونزل الرّكب بجانب الخرائب وأمامه خيام بني صخر السّود كأنها قطيع من الماعز المنتشر في الوادي. وتقدم الرّسول يدعونا إلى خيمة مفلح. وكان رجالي يتهامسون ويوشوشون بأنهم رأوا الأغنام تذبح وراء الخيام فوق المدافن.

لقد كانت ولائم الحويطات تُسقى من فائِض السّمْنِ، إلا أن السّمن في بني صخر كان فيّاضاً فعلق رشّاشها بثيابنا وسال فيضُها من أفواهنا وأطراف أصابعنا وأصابتنا التخمة والتقزز من أول وليمة. وخفتت صَولتنا للأكل وثقلت يدنا على السّماط. وكنا في بدء الأكل وإذا بعبد القادر قد نهض من بيننا متذمراً وجلس بعيداً وحده على السّجادة يمسح يديه بمنديله، وكنا نتردد في الأمر وهل نقوم تاركين القوم وحدهم وسط المعمعة. إلّا أنَّ عليّاً نظر إليه خلسة وسمعته يقول: «ياله من فلّاح»، وتابعنا الفتك بالطّعام بهمة ونشاط إلى أن انتهى الأكثر قناعة منا لينزع ما علق من الدّهن المتجمد على أصابعه المكتوية بحرارة الأكل الحار.

ونهض عليّ والجميع وأخذوا أمكنتهم على السّجادة، ثم تقدم الفوج الثّاني ثم الثّالث يلتهمون ما زيد على السّماط. وتقدّم بين القوم ولدٌ بطين عمره ست سنوات، لابساً ثوباً كدراً وأخذ يزدرد الطّعام بكلتا يديه وهو صامت ولما انتفخ بطنه وسال السّمن على وجهه تراجع دون أن ينبس بكلمة ضاماً على صدره بفوز عظيم قطعة من الضّلع كانت قد خفيت على الآكلين.

وكانت الكلاب على أبواب الخيام تقرض الغضاريف وتطحن العظام ومفلح يفلق الجمجمة ليصطلب المخ. وعبد القادر منزوٍ وحده يسعل ويبصق ويسوك أسنانه بأظافره. ثم يطلب صيدليته النّاقلة ويأخذ من عقاقيره ما يهضم اللحم الخشن العسر الهضم متذمراً معتقداً بأن هذا النّوع من الحركات يحيطه بهالة من العظمة، ولعلها كذلك لدى رجاله المراكشيين أما لدى «الزَبَن» مجاوري الصّحراء فإنها لحماقة وكبرياء، وكان عبد القادر المسكين يدني نفسه بنفسه ويقيد ثمن المهانة على حسابه.

وخرج ولزمنا أمكنتنا على مدخل الخيمة ننظر عند هبوط الظّلام إلى النّيران العديدة المنتشرة ألوفاً في تلك الوادي. إلى أن خمدت حياءً من أضواء النّجوم الثّاقبة في القبّة

الزّرقاء، وساد الصّحراء حَلكٌ شديد، وسكوت لا يقطعه غير هرير كلاب القبيلة آناً بعد آن، ولما نامت الطّبيعة وهدأ الكون سمعنا ثانية هدير المدافع البريطانية الضّخمة. وأيقنا بأن هذا هو أول الهجوم على فلسطين.

فاخترنا هذه السّانحة لنعلن لـ «مُفلح» رغبتنا بغزوة قريبة على «درعا» وإنا نكون مسرورين إذا اشترك معنا وبضعة عشر من رجاله الهجّانة. وبعد صدمتنا عند الحويطات لم نعد نعيّن خطط سيرنا خوفاً من أن ينفثوا الفساد في أتباعنا. إلا أن مفلحاً رضي مسروراً ومن غير تردد بأن يكون معنا ووعد بأن يأخذ ابنه الوحيد «تركي» وخمسة عشر من رجاله الأقوياء راكبي النّياق.

وسار الرّكب تحت الحلك، تاركاً باير مزوّداً بالماء. إلّا أنا انتظرنا كثيراً أبناء زَبَن الذين زاروا قبر «أَسَد» جدّ القبيلة المزعوم. ذلك القبر المجاور لقبر عناد، والذي لا يزال مزداناً مجدّداً! واعتقد الشّيخ بأنه من المناسب أن يضيف ربقةً إلى الرّبَقِ المعلّقة المهلهلة على حَجَر الشّاهد فوق قبر أسد ـ وطلب إلينا أن نقدّم هذا القُربان ـ فقدمْتُ له قطعتين من الحرير الأحمر المُعَلم بالفضة من زينة لباس رأسي الثّمينة التي أرسلت إلي من مكة. وأفهمته بأن أجر التقدمة والثّواب يعود إلى صاحبهما. فطلب مني مفلح الحريص أن أتقبل درهماً ثمن القطعتين كي يُرضي ضميره ويستحق الفخر بأنه اشتراهما بمالِهِ. ولما عدت بعد بضعة أسابيع رأيت أن القطعتين قد سُرقتا. فلم يتمالك مفلح من لعن بعض بني شرارة الذين لا دين لهم لانتهاك حرمة جَدَث جده الأكبر! وكان «تُركي» أكثر من أبيه لعناً وشتيمة ووعيداً.

وخرجنا من وادي باير بطريق قديم وعر، إلى أن بلغنا جبلاً التقينا في سفحه بباقي الحملة فنزلنا وقضينا الليل ولكن من غير مداولة ولا قهوة. وتضامّت أكواعنا إلى بعضها حول النّار وصمتت أفواهنا وأرهفت آذاننا لسماع هدير مدافع آلِنْبي. ولقد كانت تلك القطع النّارية تنطق بفصاحة والبروق الصّيفية التي تَقُد السّحاب قَدّاً من جهة الغرب تقوم مقام اللّهب المندلع من فوهاتها.

وفي اليوم الثّاني مررنا بشمال «الثلاث أَخَوَات» التي كانت أعرافها البيض فوق

سفوحها شارات للمسافرين مسافة يوم كامل. وما وراء ذلك هبطنا منحدراً خفيفاً نُثرت عليه الحصى الملس.

وكان ذلك الصّباح النّاعم في نوفمبر يحمل إلينا ذكريات صيف إنكلترا الْعَذْب. لكنَّه كان علينا أن نهرب من هذه السّعادة السّريعة الزّوال. وندفع نفوسنا عنها. فقصّرتُ أُويقات التوقف وألهبتُ المسافات والمراحل في قبيلة بني صخر، وعوّدتُ أذني على سماع لهجتهم ووعيتها كما وعيت خصائص كل قبيلة وكل أسرة وكل شخص. واكتسبتُها بمعاشرتي لمختلف النّاس. وانسدل ستر الليل فترجلنا وهبطنا مجرى وادي «جشا» Jesha إلى جانب العليق الأخضر الرّمادي الذي حظي بعيون وأضراس إبلنا، والذي أوقدنا من أغصانه ناراً فأدفأتنا. وسمعنا في ذلك الليل أصوات مدافع آلِنْبي تقصف قصفاً وتتجاوب على تلك المرتفعات كصوت القَدَر، فتهامس العرب: «إنَّ الإنكليز يتقدمون... لقد دنوا.. ربنا يسلّم من هذا المطر الحامي». ولقد أخذتهم الرّأفة اليوم، لأولئك الأتراك الضّعفاء جلاّديهم بالأمس. وآثروهم الآن على الأجنبي الذي يحكّم العَدل الأعمى الذي لا مرد لقضائه ولا محاشاة.

وصحونا باكراً وحثثنا مطايانا لنبلغ «عَمَارى» البعيدة قبل غروب الشّمس وأبصرنا عند الظّهيرة قطيعاً من الجمال يجري سراعاً على رأس الجبل ويتقدم إلينا علانية. فركض «تركي» الشّاب على ظهر ناقته العجز وغِدّارته المحشوة مسندة على فخذيه وتَقَدَّم ليستطلع نوايا هؤلاء المجهولين وصَرَخَ مفلح وهم على بعد ميل منا: ها.. هذا فهد على ظهر الشّقراء يسير في الطّليعة. وهؤلاء هم حلفاؤنا ولم يكذِّبه حدثَه، فقد كان فَهد وأدهْب من رؤساء الحرب من بني «زَبَن» معسكرين غرب السّكة الحديد قرب «زيزا» لمَّا علمَا بوصولنا، فركبا وجدا السّير إلى أن بلغانا ونحن في منتصف المرحلة. وعاتبني فهد بظرف ولباقة لدخولي منطقة نفوذهم عرضاً بينما أولاد أبيه ينعمون في خيامهم.

كان فهد رجلاً صغيراً ذا سوداء وصوت ناعم. وكلام قليل ربما كان عمره ثلاثين سنة. إلّا أنَّ في وجهه الشّاحب وفوق لحيته السّوداء المشذبة عينين حزينتين مفجوعتين.

أما أخوه «أدهب» فكان أشد منه جسماً وإن يكن ذا قامة متوسطة. ومضطرباً نافراً ذا أنف أفطس، أجرد العارضين، أخضر زيتوني العينين بحدقتين غريبتين ترقصان على كل شيء دون انقطاع، وشعر رأسه أشعث رقيق. وثوبه وسخ يدل على طبيعة أخلاقه. وكان هو وأخوه يركبان ناقتين كثّتي الصّوف ربيبتي دارهما لا تدلان على أن صاحبيهما من المشايخ المشهورين. وعلى كل حال كانه الإثنان بطلي حرب وطعان.

ولما وصلنا إلى «عمارة» طلعت علينا عاصفة ليل باردة أثارت غيوماً في الفضاء مربدة مالحة فوق الآبار، وكان شذر الملح يصرّ تحت أسناننا صريراً سيئاً. والماء يأسن في الأضحال أشبه شيء بمياه السّرحان. تعافُهُ نفوسنا العطشى، إلّا أنَّ بين هذه الأضحال رقارق مشهورة بجودتها ـ نسبياً بالطّبع ـ في منخفض جيري محاط بالكثبان. وكان مالحاً جاسئاً له طعم النّشادر يروي هضبات تلك الصّخور التي يخرج من شقوقها. ولكي يرينا داود عمق هذا الضّحل قذف فَرّاجاً فيه وهو مرتدٍ ثيابه، فاختفى فرّاج في هذا الماء المنتن ثم ظهر خَجِلاً وخرج وتوارى وراء نتوء الصّخور التي تحيط بالمكان. فلم نتميّزه عند دغشة الليل وخاف صديقه داود عليه فشهق ومزّق عباءَته ونزل وراءه للتفتيش عنه، ولمّا خرج من الماء رآه يهزأ منه في مخبأِه. وتماسكا في تلابيب بعضهما البعض وكانت مصارعة طريفة حول الماء تحمّلا فيها اللّكمات القاسية بشجاعة. ولما انتهيا تقدّما من نارنا وهما يقطران ماءً وثيابهما ممزقة وجلداهما مخدشان يسيلان دماً وجسماهما ملوثان بالطّين ممزقان من الشّوك، حتى ليحسبهما المرء عفريتين قد صارعا زوابع البحر أو عواصف الصّحراء. مع ما يُرى في جسميهما من النّحول والهزال. وهما يدّعيان بأن أقدامهما قد عثرت في الأشواك وإنَّ كرَمي المعتاد لا يلبث أن يأمر لهما بثياب جديدة، إلّا أنّي كذبت فألهما وأمرتهما بأن يذهبا ويرقّعا ثيابهما بأيديهما.

وسكن الهواء عند الفجر فتقدمنا إلى «الأزرق» وهو في منتصف مرحلتنا وما كدنا نخرج من الزّوبعة حتى توقفنا ثانية ـ وقد رأينا رجالاً يختبئون خلف العلّيق ـ لما نعلم بأن هذه المنطقة مشهورة بالعصابات التي دأبها السّطو والسّلب، وتجمعنا في المكان

الموافـق للدّفـاع، ونزل الهنـود على مرتفع بعـد أن أناخوا الجمال في مـكان لا يراهم فيه العدو وسـلّطوا المدفعية واستعدوا لإطلاق النّار. ونشر عليٌّ وعبد القادر عَلَمَيهما الأحمريـن القُرْمزيّيـن في مهـب الصّبا ووقـفَ عوَّاد وأحمـد عن يميـن الرّجال وعن شمالهم وأمرا بإطلاق النّار. وكنا على مسافة بعيدة من العصابة. ثم توقف القتال فجأة ورأينا العصابة تلوِّح بأردانها وعباءتها وتتقدم إلينا منشـدة أناشيد الترحيب الحماسية. لقد كانوا محاربين من قبيلة السّرحان جاءوا إلينا ليقدموا عهد الوفاء لفيصل، فكفيناهم مؤونة السّـفر الطّويل إليه، وللحقيقة لم يكن بنو السّـرحان قـوم بدوْ ولا رجال حرب. وأدخلونا إلى دوّارهم في «عين البيضاء» باحتفال عظيم. وهي على مسـافة أميال قليلة من الأزرق. واجتمعت القبيلة كلها للقائنا فكانت هزة في المضارب ومناحة بين النّساء لما علمنَ برحيل أزواجهن معنا إلى الحرب.

وفرقنا الرّؤساء على الخيام التي تطلب أن نضيفها. وكان نصيبنا ـ عليٌّ وعبد القادر ووُدْ وأنـا. والشّـيخ «مطير» رئيس القبيلـة وهو عجوز أثرم ظريف، له فك سـفلي دائم الاهتـزاز يسـنده بكفـه ليتمكن من الـكلام. فرحَّب بنا كثيـراً بعبـارات التفخيم ودعانا إلـى وليمة من الغنم المسـلوقة وخبز الملّة. فتردد عبد القـادر «ووُدْ» أمام كومة اللحم الرّديئة. ويظهر أن بني السّـرحان لا يزالون على الفطرة فيما يختص بتحضير السّـماط. وكان القـوم يتفلون ويبصقون في قلب الخيمة فيتلوث الطّعام مما لم يكن لائقاً بخيمة شـيخ القبيلـة. وبعد التـردد الطّويل أرغمتنـا اللياقة أن نذعن لكرم الشّـيخ مطير ونأكل على خوانه وننام على سجّادتهِ!

إلّا أنَّ الليل كان شـديداً علينا وقد اسـتقبلتنا جميع الحشرات من قمل وبراغيث... الـخ. وهـي منـذ الأزل تأكل طعـام السّـرحان الجافي. فطربـتْ للقاء جلودنـا النّاعمة وأمعنت في التزاحم والنّهش على هذا السّماط الشّهي! إلّا أنّني لم أشأ أن أكون كريماً إلى حد أن أقدم دمي طعاماً لهذه الضّيوف الثّقيلة. وكان عليَّ من رأيي فتمثل بي ونهض بحجة أن الأرق لا يدعه ينام وأيقظنا الشّـيخ مطير. وأرسـلنا بطلب مفلح، وهو شـاب نشـط تعوّد أن ينظم خطط القتال في القبيلة. وأفهمناهم مشيئة فيصل، والطّرق المؤدية

إلى حرية العرب واستقلالهم. فأصغوا إلينا بكل اهتمام. ثم أجابونا وأكدوا لنا بأنه من المستحيل أن نفكر في اقتحام الجبهة الغربية لأنَّ الأتراك قد ملأوا السّهل والجبل بالجنود. فلا سبيل لأي عدد أن يتسلل إلى هذه المواقع المكشوفة، ثم أنهم كانوا يخشون المراكشيين وعبد القادر نفسه فلا يسيرون تحت قيادة هذا الغريب المشكوك في إخلاصه. أما جسر «تل شهاب» أقرب الجسور إلينا فقد ادعوا بأنهم لا يتمكنون من الدّنوّ منه خوفاً من القرويين الضّاربين حوله وهم أعداؤهم الألداء فيطعنونهم في ظهورهم وقت العمل. وفوق ذلك إذا اتفق وسقط المطر لا تتمكن الجمال من العودة سراعاً في سهول «الرَّمثا» الموحلة فتتقطع أوصال الحملة ويذبح الرّجال دون أن يتمكنوا من الدّفاع.

فوقعنا في حيرة لا مزيد عليهم. ولم يبق لنا وسيلة غير السّراحين، فإذا رفض هؤلاء السّير معنا خاب أملنا وأضعنا ثقة آلنبي بنا. ودعا عليّ حول نارنا بعض الرّجال الممتازين في القبيلة وأرسل في طلب فهد ومفلح وأدهب لعل وجود هؤلاء الأقوياء يشدد عزيمة القوم. وأخذنا نخفف أمامهم بأقوال مناسبة من حذر لجال السّرحان المرذول. ذلك الخوف المخجل الذي دعاني للخروج بعد طول الإقامة المملة إلى محيط الصّحراء النّقي.

وتحوّلنا عن الطّريقة المجرّدة، وكلمناهم بشكل عملي يوافق حالتهم الاستثنائية وموقفهم الحاضر. وقلنا لهم: يالها من حياة لا تهم إلا لإشباع حواسها وشهواتها. وكم هي ضئيلة وبخسة قيمتها إذ تستمر على هذا النّمط إلى الأحد الأقصى وتفنى خاملة. وإن الثّورة لا تعرف مكاناً للرّاحة، ولا زمناً للهناء، وقد كتب للعصيان في لوح المقدور روح التجول، والانتشار الدّائم، وحتى أن يقاسي المرء العذاب إلى أقصى حدوده، وأن يعتبر كل نجاح بداية لطريق مشاق أخرى مبذورة حرماناً أشد، وعذاباً أحد.

والذي ينخرط في الصّحراء يحكم على نفسه ـ مختاراً ـ بالقتال المستمر الدّائم ضد عدو ليس من هذا العالم، وليس هو الحياة. إنما هي قوى الأمل ذاته التي تسيطر علينا. وإنَّ الله لا يعطي للمرء غير حرية واحدة، هي حرية السّقوط.

وأي شـرف للمرء أن يركض وراء الفوز المضمون بينما يمكنه أن يسـتخرج حكمة بالغـة من انخذاله المؤكد! الجبروت واللانهاية هما ذانك العدوان اللذان كانا علينا أن نحاربهما، الجبروت واللانهاية أعني بهما تفوق سـلاح العدو ومسافات الصّحراء، ثم كـررت وقلـت: إن مجد هذا العصيان لا يقوم إلا على مرارة العيش، وعذاب الجسـد، والتضحيـة، والخذلان في الجهـاد أمجد من الفوز، والأفضـل أن نتحدى الجد العاثر باتخاذنـا الطّريـق الـذي يـؤدي حتمـاً إلى المـوت مبددين كل وسـائل الحيـاة المادية حتـى ليخجـل القدر أمام انتصـاره الضّئيل. ورغمـاً من أننا نحـارب الجبروت، فليس من الشّـهامة أن نلقى سـلاحنا الضّئيل نحن البدو المسـاكين، ونتحداه بأيدٍ عاطلة من السّلاح. فإنَّا قد صممنا على أن نكون مغلوبين لا بقوة الفن الحربي فحسب بل بالتفوق المـادي للوسـائل الحربيـة... فكان هـذا الخطاب الـذي أكثره غير مناسـب للموقف والذي ارتجلته أعرج مهشماً، آخر سهم في كنانتنا، ومحاولة يأس لاحتياجنا إلى طرق تخيلات أولئك العرب الخشنة والمتجمعين على ضوء آخر بصيص حول نارنا الآخذة بالخمـود. ولـم أدرك معنـى كلماته إلّا بعد مرور شـيء من الزّمن ولـم أحفظ شـيئاً من تأثيراته. فخجل السّـراحين واستصغروا نفوسهم شيئاً فشـيئاً. وسكن الليل واضمحلّ كل مـا هو عملي وضعي في الصّحراء وهو من الطّبع البدوي. وحلت الأحلام اللذيذة والخيالات السّـاحرة محل الحقائق، وتحمس القوم وقرّروا السّـفر معنا إلى أية ناحية من نواحي الأرض.

ودعونـا عبد القادر عند الفجر وأبعدناه وراء كثبان الرّمال وصرخنا في أذنه الصّماء بأن السّـراحين يسـافرون معنا تحت رعايته إلى وادي خالد بعد شروق الشّمس. فأومأ بالاستحسان، إلّا أننا قرّرنا فيما بيننا بصوت خافت، أنه إذا أحوجتنا الفرصة مرة أخرى وكنا أحياء، فلا نسلم قط قيادة مؤامرة إلى أذن صمّاء.

* * *



From a drawing by Cosmo Clark

فصيل مدفعيّة ستوكس في العَقَبة

عن رسم بريشة كوزمو كلارك

الفصل العشرون

الاندفاع نحو الجسر

وأخذنـا شـيئاً مـن الرّاحة وكان التّعـب قد أنهكنا إلّا أنّا سـنكون حـالاً على أقدامنا نستعرض فرق السّرحان (تلك القبيلة التي إذا أطلقتها إلى الأمام وسارت مسرعة يظهر لديك مشـهد من مشـاهد العالم الأولى). ومع ذلك قد حكمنا بأنهم من الطّراز الوسط بين الفرسـان، لأنهم قد أغرقوا بالألعاب والمباهاة لنثق بتفوقهم. إلّا أنّه على كل حال لم يكن لنا الخيار. بل يجب أن نستخدمهم كما هم. إذاً فلنسافر بعد الظّهر إلى الأزرق. وركـب عبـد القادر وخدمـه خيولهم ليدلوا على أننـا اقتربنا من جبهة القتال! وسـاروا وراءنا..

وسـار عليٌّ إلـى الأزرق لأول مرة، وقد شـعرنا نحـن الإثنان بهزة طرب وتسـابقنا لبلوغ قنّة الجبل. ولما أخذنا نتسـلق ذلك السّـفح الصّخري مرت على السّنتنا ذكريات الماضي الغارق في القدم. من حروب وأناشـيد، وشـهوات ملـوك الرّعاة الذين أحيوا هذه الأماكن. إن أسـماءهم كانت مشـجية كنغمات الموسـيقى. لقد مـرت في الخيال ذكريـات الجيـوش الرّومانية الذيـن رقدوا هنا في هذه المخافر مـن الصّحراء. ثم ظهر أمامنـا الحصن المرتفع فوق الصّخور المشـرف بأسـواره الزّرق القديمـة الباهتة على خضـرة النّخيل المترنح في نسـمات الصّبـا. فتوقفنا قليلاً على الحشـيش اليانع حيث يلمع بينه غدير ماء في مجاريه الضّيقة.

وأرخـى علـيٌّ العنان لمطيتـه فأخذت سـيرها المعتاد تخطو بحذر على الأعشـاب الكثـة التـي تمتد إلى الينابيـع وتنتهي إلى منحـن ضخم من الحمـم، وتفتحت أجفاننا

المجعدة على وهج الشّمس وخفت آلام الأسفار وقطع المسافات الشّاسعة في الصّحراء العارية وصرخ عليَّ: «حشيش!» وارتمى عن سرجه وأخذ يتململ على ذلك البساط الأخضر المحبوب في تلك البيداء الجافة. ولما عدنا إلى العمل الجدي لم يكن عبد القادر حاضراً. وعبثاً حاولنا التفتيش عنه في خرائب القصر وبين النّخيل، وأبعد من ذلك من وراء الينابيع، وأرسلنا خيالتنا للحاق به، فأحضروا بين أيدينا رجلاً من العرب فأخبرونا بأنه من زمن يسير قد مرَّ عبد القادر لجهة الشّمال منخرطاً بين الكثبان قاصداً جبل الدّروز. ولم يكن يعرف رجالنا شيئاً من خططنا إلّا أنهم كانوا يكرهون عبد القادر ويتمنون ألّا يعود أبداً. أما في نظرنا فقد كان انفلاته من أيدينا أمراً خطيراً. ومن مرامينا الثّلاثة كان جسر ألأم قيس وقد أخطأناه إذ لم يبق لنا رجاء في وادي خالد بعد انشقاق عبد القادر عنا. ولم يبق إلّا أن نوحد قواتنا وجهودنا على جسر شهاب. ولكن دون الوصول إليه سهل مكشوف بين «الرَّمثا» و«درعا». ولقد بلغ عبد القادر العدوَّ دون أقل شك وأبلغه حركاتنا وقواتنا وجميع خططنا. وليس على التُّرك إلّا أن يقوموا بمجهود ضئيل وحركة خفيفة حتى يباغتونا على الجسر. فعقدنا اجتماعاً وتداولنا مع فهد وقرّرنا أن نتغافل مرة أخرى قوة العدو ونتقدم، إلّا أنَّه لم يكن حلاً حكيماً، وبينما كنا نتناقش مرَّت غيمة حجبت نور الشّمس وتشاءمنا بكمدة الأزرق واربداده، وفي اليوم الثّاني سرنا أميالاً على الأرض ثابتة مغطاة بالرّبيع الطّيب اليانع فنعمت بهائمنا إلى أن بلغنا «أبو صوَّانة» حيث هناك حوض طبيعي عرضه عشر أقدام وعمقه قدمان يمتد إلى ميل ننصف طولاً. وهو قِلْد شاسع بين الصّخور ذو ماء غزير عذب فرات أصفى من البلور. فتقرّر أن يكون «أبو صوَّانة» موردنا الوحيد في غزوتنا للجسر، وصعدنا على صخرة لنتحقق من خلوّ البلاد من الأعداء، ومنذ خمس دقائق مرَّت قبلنا مفرزة چركسية أرسلها التُّرك لاستكشاف العدو حول حوض الماء فعادوا من حيث أتوا وجئنا إلى حيث كانوا ولم يكدّر صفو الواحد الآخر! وعند الفجر تقدمنا بأمان إلى أن بلغنا مرتفعاً يعلو ثلاث أقدام فقط يحدُّ سهلاً عارياً ممتدّاً إلى خط سكة الحديد، على بعد بضعة أميال، فانتظرنا الغَسق بحذر لنعبر هذا الخط ونبتعد عنه ونحتمي في سفح الجبال تحت «درعا». فاغتنمنا فرصة التوقف وأخذنا شيئاً من الأكل

المغـذى الخفيف لأننـا في الأيام الأخيرة كنا نأكل بِنَهَمْ ونفرط في مؤونتنا بشَـرَهَ كلما سـنحت الفرصة. ممّا خفف أثقال جمالنا وألهانا عـن التفكير. إلّا أنَّه رغماً من ملذاتنا كانت الأيام علينا طويلة مملَّة... وغربت الشّـمس وارتعش السّهل تحت أذيال الصّبَا. وانتشر الظّلام الحالك المتكوم فوق الآكام وهبط رويداً رويداً وغمَرَها بظلاله الأثيثة، فاعتلينا سـروجنا ومشينا مسافة ساعتين على أرض خصباء حتى بلغنا الخط الحديدي وجزنا أرضاً وعرة يشـقّها طريق لا يترك أثراً لأخفاف إبلنا، وكان الحَرَسَ التُّركي ناعم البال غافلاً مما يدل على أن عبد القادر لم يبلّغ العدوَّ إلى الآن أخباراً مقلقة لراحته.

وحاذينـا الخـط من الجهـة المقابلة مدة نصف سـاعة كي نبلغ وهـدة صخرية قليلة العمـق مغطـاة بالحشـيش الرّخـص اللذيـذ الطّعم فكان هـذا غدير «الأبيـض» الذي أ فهمنـا مفلح عنـه أنه خير كمين. ووثقنا بكلامـه إلّا أنّنا لم نفهم كيـف يمكننا أن نكون هنـا فـي مأمن من كل مفاجأة. وتمددنـا بين جمالنا الباركة التي لا تـزال حمولتها على ظهورها لنأخذ سـاعة من راحةٍ، لأنَّ بزوغ الصّباح سـيرينا إلى أي حدٍّ نكون آمنين في هذا المنخفَض.

وأصعدني فهد عند طلوع النّهار على مرتفع قريب يعلو خمس عشـرة قدماً، يشرف على منحدر بسيط من الحقول، وأراني الخط الحديدي كأنه تحت أقدامنا. وهذا الدّنوُّ لـم يكـن موافقاً لخطتنا لكـن الصّحراوي لم يكن يعرف مكان الملجـأ الأمين فأرغمنا على أن نقضي النّهار في حذر شديد.

وكان رجالنـا لـكل إشـارة، أو حكاية يتسـلقون التـلال فتظهر رؤوسـهم كالأفاريز المتراصَّـة. وكان علينـا أن نقيم حراسـاً كثيرين علـى الجمال الرّاتعة فـي الرّبيع كي لا تتبـدد فـي الصّحراء، أو تـرى بنظارات الأعـداء، وأن نعاملها بكل تـؤدة كلما مرت بنا كشـافة. فـكل هدير كان يمكنه أن ينبـه العدو. وكان الأمس شـديداً طويل الأمد إلّا أنَّ هذا النّهار كان عصيباً ضاقت فيه ساحة الأمل وفني الصّبر. فلم نتمكن من الأكل توفيراً للماء خوفاً من ضياعه لرحلتنا في اليوم الثّاني. وكل منا يزداد تلهفاً للماء.

وتكاتفـت مع عليّ لإقرار نظام سـفرنا القريب، ولقد تسـمّرنا فـي ذلك المكان إلى

غياب الشّمس، وكان علينا بأن نسير ثمانين ميلاً في ثلاث عشرة ساعة تحت ستار الظّلام وأن نخرّب عملاً فنياً قوياً. والقيام بمثل هذا العمل يفوق مقدرة كثير من الهنود لأنهم لا يحسنون الرّكوب فأتعبوا مطاياهم وأنهكوها في سيرنا من العَقَبة بعكس العربي اللبق فإنه يحفظ ناقته بحالة جيدة رغماً من السّفر الطّويل. ومع ذلك كان الهنود يجتهدون قدر استطاعتهم. إلّا أنَّ المسافة التي قطعوها وإن تكن مراحل هيّنة، فقد كانوا يحاولون تعلم الرّكوب على النّوق فتعبوا وأتعبوا مطاياهم.

ولذلك فقد انتقينا من بينهم ستة من أشد الفرسان، وستة من أشد الجمال، وقاد حسن صالح المفرزة الهندية، وهو شجاع مقدام فألقى كثيراً من أحمالهم وخفض من أسلحتهم، ولم يصحب معه غير مدفع «ووكر» واحد رغماً من أنه أضعف بهذا التخفيض وسائل دفاعنا. وبقدر تأملي كان استنتاجي بأن أعمالنا على اليرموك تتقدم من سيئ إلى أسوأ، فقد كان بنو صخر صالحين للقتال إلا أننا لم نكن نثق ببني السّرحان، فقرّرت مع عليّ أن نؤلف فرقة هجوم من بني صخر تحت قيادة «فهد» وندع بعض السّراحين يحرسون الجمال والبعض الآخر ينقلون الدّيناميت، وآلات الانفجار.

وأخذ عليَّ بن الحسين ستة من خدمنا، وتممنا فرقتنا بعشرين رجلاً من بني صخر، وأربعين من بني السّرحان، وتركنا الحيوانات العُرج العجاف في الأبيض بحراسة باقي الرّجال، وعليهم أن يسيروا عند الصّباح ليعودوا إلى «أبو صوّانة» وينتظرون أخبارنا هناك.

وافترقنا عند غروب الشّمس، وصعدنا على تل يشرف على الوادي ولكن لم يكن لنا جَلَدٌ، على السّير، وكلنا نادمٌ آسف لهذه الرّحلة، وهبط الليل عند ولوجنا في أول جبل، ونحن متجهون نحو الغرب نأخذ طريق الحجاج القديم مسترشدين بآثار الدّواليب في ذلك الحلك. وهبطنا أول مصبّ ونحن نتعثر إلى أن تقدم الرّجال الخبراء واندفعوا أمامنا فركضنا وراءهم حتى لحقنا بهم، وقد أحاطوا ببائع وامرأتين وحمارين محملين عنباً ودقيقاً ومقاطف ففزعوا لمفاجأتنا لهم، وقالوا إنَّ وجهتهم «مفرقة» وهي آخر محطة من ورائنا فلم يكن موقفنا يحسد عليه، لكننا أمرناهم أن

يلزموا مكانهم تحت إمرة أحد رجالنا السّـراحين، الذين حتمنا عليه ألّا يطلق سراحهم إلّا فـي الصّباح. ويهرب إلى «أبو صوّانـة»، وتقدمنا والظّلام دامس إلى أن ابتدأت آثار الدّواليب تظهر لامعة على الطّريق. ذلك الذي قطعه العرب معي قرب «رابغ» أول ليلة نمتها في صحراء العرب ومنذ ذلك الوقت وفي مدة سنة كاملة قد حاربنا مرات عديدة في أماكن مختلفة من الألف والمئتي كيلو متر التي تمتد من المدينة إلى معان.

واتفـق أن أحـد الرّعاة أطلـق بندقيته علينا بينما كنا سـائرين في قلب الليل سـاكنين حَذِرين فأفسد علينا خطتنا. فلم يُصب منا أَحد إلّا أَنَّه لشدة فزعه فرَّ هارباً صائحاً، وهو يطلق النّار فوق رؤوسنا.

وكان «مفلـح الجمعان» الذي يقود الْحَملة قد أَمـال المِقْوَد ومال عن الطّريق الذي نسير عليه، وقادنا بسرعة جنونية على سفح الجبل كي نلج بأقرب ما يمكن من الوقت وراءَ حاجـزٍ ندفـع بـه عدواناً، وتابعنـا المرحلة دون أن نصطدم بشـيء تُضِـيءُ طريقنا النّجـوم الزّواهـر، ثم صادفنا كلباً ملأ نباحه الوادي، وجمـلاً هائجاً تائهاً فقد راكبه، إلّا أنَّ نظام سيرنا لم يختل.

ودعاني مفلح إليه باسم «العربي» كي لا يخونني إسمي المشهور في تلك الأصقاع ويتعـرف عليـه أحد ممن قد يكونون مسـتترين فـي الظّلام. وهبطنا إلـى منحدر مظلم فاسـتروحنا رمـاداً، وإذا بامـرأة تخـرج مـن مخبأهـا بين الأشـواك وتركـض صائحة. ولاشـك بأنها غجريّة (نوريّة) لأن الحادث مرَّ دون أن يترك أثراً. ثم صعدنا جبلاً رأينا من فوقه على البعد قرية منوّرة، فمال مفلح إلى اليمين على أرض مفلوحة وتخطينا تلاً بهدوء و كانت سروجنا تتقطع من شدّة الإجهاد، توقفنا على عرف القمّة، وكانت أنوار تشعُّ تحتنا لجهة الشّمال، فهذه هي محطة درعا التي يشتغلون فيها ليلاً لخدمة الجيش ذلك المسـتودع الوديع الهادئ المطمئن الذي يبدي علانيةَ احتقار التُّرك لمشـروعاتنا والاسـتخفاف بمقدرتنـا إلّا أننا قـد أخذنا بثأرنا. فلـن ترى إذن «درعـا» منذ الغد تلك الأنوار المتلألئة في الظّلام، ومنذ الغد سـتكون «درعا» في ظلام دامس سـنة كاملة إلى أن يحل عليها القضاء المبرم وتسـقط في أيدينـا. وحاذينا عرف التلة متلاصقين، وبعد

أن تدحرجنا على منحدر وادٍ بلغنا سهل «الرَّمثا» وكنا نرى أنوارً حُمْراً في القرية من وقت إلى آخر لجهة الشّمال الغربي، وانبسطت الأرض المفلوحة تتخللها جحور الأرانب الكثيرة فتهوي أخفاف الإبل فيها، ويخشى عليها من الكسر، ورغماً من ذلك كان يجب علينا أن نسرع الخطى لأننا لهونا في طريقنا، وقرَّر مفلح أن يخبَّ بهجينه الذي أضرب عن السّير.

وكان حظي حسناً إذ أركبوني ناقة اشتروها من بني أدهم، وهي شهباء طويلة منسرحة ميادة ذات خطىً شاسعة من بني أدهم، وهي شهباء طويلة منسرحة ميادة ذات خطىً شاسعة صبورة قوية على حمل الأثقال. تسرع في السّير على هدىً فتتقدم دائماً الحملة مجالدة إلى الحد الأقصى. ومتى عبرت رفيقاتها وتجاوزتها فترت غيرتها ووقفت مطامعها واقتنعت بالخطوة الطّيبة تفوق خطى رفيقاتها الاعتيادية ببضعة قراريط، وعلى كل حال يمكنلكل راكب في ركبنا أن يعتمد على ذخيرة عظيمة من القوة والنّشاط والاحتمال كامنة في مطيته. وتراجعت إلى الوراء وحاذيت الحملة مُحثّاً الرّجال على الإسراع، وكان الهنود الحديثو العهد بركوب الجمال ـ وقد اعتادوا ركوب الخيل ـ متقلقلين تنقصهم المرونة، وزادت وعورة الطّريق في ارتباكهم ومجهودهم. وكلما طال عليهم السّير زاد تشتيتهم الواحد بعد الآخر على الطّريق فقرّرت إذن أن أمشي إلى الوراء مع عليّ بن الحسين الرّاكب ناقة للسّبق جميلة سنها أربعة عشر حولاً لم تخفف من سيرها في ذلك الليل المضني. بل كانت تتقدم ممدودة العنق، واسعة الخطى سريعة الجري لينة الثّفن هينة على الرّاكب عذبة لأحلامه وكانت حياة المتلكئين وجمالهم وراءنا شاقة شقية تحت سياطنا وصياحنا.

وخرجنا بعد السّعة التاسعة من الأرض المفلوحة واعتقدنا بأنا سنسير سيراً مريحاً، إلّا أنَّ ضباباً كثيفاً غمرّنا وحلت الأرض، فكنا نزلق بالإبل وسقط جمل من جمال السّرحان، إلّا أنَّ صاحبه رفعه بسرعة وتقدم إلى الأمام خبباً، وسقط آخر من بني صخر ونهض ومشى كأن لم يكن شيء. ثم أبصرنا أحد خدم علّي واقفاً أمام هجين حَرِد، إلّا أنَّ علياً صفر له صفيراً غريباً كأنَّه يأمره بالتقدّم وغمغم بعض أعذار عنه إلّا أنَّ

صاحبـه ضربـه ضربة شـديدة بهراوة على أُمِّ رأسـه، فذعر الجمل وتقدم مسـرعاً فتبعه العبد وتمكن من التعلق بسـيور السّـرج والتسلق على كفله بينما كان عليّ يوسعه ضرباً بهراوته. وسـقط مصطفـى أحد رجالـي القليلي الخبـرة بالرّكوب مرتيـن، إلّا أنَّ عوَّاداً رفيقه كان كل مرة يأخذ بِرَسَنِ المطيّة ويثبته على السّرج قبل وصولنا إليه. ولما توقف المطر أسـرعنا في النّزول عن الجبل، وأخذ مفلح عصاه في الحال ورفعها فوق رأسـه فسـمعنا رنين النّحاس يطنُّ في آذاننا فكان دليلاً على أنه طني سـلك التلغراف الممتدّ إلـى مزيريب. وأطلَّ علينا الأفـق المربدُّ بعيداً وخيَّل إلينا أننا نمتطي مناكب السّـحاب ونسير في ظلام يزداد حلكاً. وتهب علينا في هذا لحلك ريح ناعمة كريح الصّبا لاعبت أغصـان الشّـجر. إلّا أن آذاننا أخذت تصغي إلى صـوت غريب عذب حتى تبين لها أنه خرير الشّـلال تحت تل شهاب، فتابعنا تقدمنا بثبات، ومرت بضع دقائق فأوقف مفلح ناقتـه وركـب على صفحة عنقها وأناخها، وترجَّل عنها وتمثّلنا به في سـكون الليل من غير أن نبس بكلمة. وكان المعبر مغطى بالحشيش الأثيث، وإلى جانبنا خربة كأنها تربة، وأمامنا هدير الغدير المتدفق نسـمعه من مدة. هذا هو حَرْف معبر «اليَرموك» والجسـر على اليمين من تحتنا. فسـاعدنا لهنودَ على النّزول عن ظهر مطاياهم المحمَّلة حتى لا نُسـمِع صوتاً ولا تحدث حركة تصل إلى أسـماع العدو المرهفة ثم تجمَّعنا وتهامسـنا علـى العشـب اللـزج ولـم يكن قد أطَـلَّ البدر مـن وراء الجبل حرمـون إلّا دهُمة الليل سـارعت بالانهزام أمام غُـرَّة الفجر وقِدَد من الغيوم المرعدة تتزاحم في سـماء ربداء. ففرَّت المتفجرات إلى خمسـة عشر حاملاً وسافرنا. وتوارى عنا بنو صخر تحت قيادة أدهـب في المنحنى المظلم ليجسـوا لنـا الطّريق. وكان ارتكازنا الوحيد في مشـينا هو أصابـع أقدامنـا الحافية التي نغرزها في الأرض الوحلـة لنتمكن من اجتياز بطن الجبل الذي هطلت عليه أمطار غزيرة.

وبعد لأيٍّ ظهر تحت أقدامنا شـيء أسـود بل عارضة طويلة ممتدّة في ظلمة المعبر وفـي الجهـة المقابلـة يترجرج نـور مصباح، فظهر أنه الجسـر يُرى أفقياً مـن أعلى إلى أسـفل وخيمـة الحارس منصوبة عند الدّعامة تشـرف عليها القريـة القائمة على القمّة.

وكان كل شـيء ساكناً ما عدا الغدير، ولم يكن شـيءٌ يتحرّك سوى لهب الفانوس أمام الخيمة.

وكان «وودْ» واقفـاً لدى الهنود على أهبة الاسـتعداد يدعوهم لضرب النّار وتمزيق الحـراس عنـد المعمعة وليس عليـه أن يتقدم نحوي إلّا إذا أصبحـت جريحاً. أما عليٌّ وفهـد ومفلـح ونحن مع بني صخـر ومع حاملـي المقذوفات، فقد تسـلّلنا في الطّريق المؤدي إلى دعامة الجسر، وتقدمنا واحداً واحداً بخفة وحذَر. وكانت معاطفنا السّمر وثيابنا الوسـخة تذوب لحسـن الحظ وتمتزج بألوان الصّخور المكمدة وتخفي نزولنا إلـى أن بلغنـا الخطـوط المعوّجة وهي تبتـدئ بالدّخول على الجسـر، فتوقف الرّجال هنـاك وزحفت أنـا وفهد، إلى أن بلغنا واجهـة الدّعامة الملسـاء، فتابعنا زحفنا في ظل الخطـوط النّاتئـة، وتمكنـا مـن لمس هيكل الجسـر المعدنـي وتبيَّنا الحـارس الوحيد المُسـند على الدّعامة المقابلة على بعد سـتين متراً منـا، ولاحظناه يروح ويجيء حول النّـار دون أن يخطـو خطـوة واحدة على الجسـر المرتفع فـي الفضاء إلى علوٍّ شـاهق فعدت إلى حاملي المتفجرات. لكنني لم أكد أصل إليهم حتى سـمعت دوي رصاصة على الصّخر وسقوط رجل. فاضطرب الدّيدبان ونظر في الفضاء فإذا به أمام رشّاشات تتـلألأ في ضوء القمر الصّاعد، الفاضح مشـاهد الوادي العجيبـة وتتحرّك من أمكنتها مع الظّل الهارب. فصرخ بملء شدقيه ينادي رفاقه ويهدر كالبعير ويطلق الرّصاص.

وفي لحظة اختلط الحابل بالنّابل، وأخذ بنو صخر المترصدون فوق رؤوسـنا على طـول الطّريق يرمون الرّصاص على غير هـدىً. ونزل الحارس في الخنادق المحفورة خصيصـاً وأخـذوا يطلقون بنادقهم على لمـع البروق المندفعة مـن المكامن المقابلة، وفوجـئَ الهنـود وارتبكـوا ولم يتمكنـوا من تركيـب مدافـع «ووكر» وتمزيـق الخيمة بالرّصاص قبل إخلائها. وكان إطلاق النّار عاماً، وصدى بنادق التُّرك المتراصة لجهتنا يتـردد في تلك الوديـان الضّيقة ويمتزج مـع قصف القنابل التي تصطدم وتسـقط على الصّخور وراء جنودنا، وكان بنو السّرحان يعلمون مني بأن غراء الدّيناميت ينفجر لأقل صدمـة، لكنهـم ما كادوا يـرون مطر الرّصاص يتسـاقط من حولهم حتـى ألقوا أكياس

هـذه المـادة الهلامية على الأرض وولّوا الإدبار. وكنـت وفهد لا نزال متربصين تحت الدّعامـة يحجبنا الظّلام، وبقفزة واحدة لحق بنـا عليّ لكن صَفْر اليدين لأن الدّيناميت كان يتدحرج إلى أسـفل الـوادي ومن العبث النّزول إلى هـذا الجحيم الفائر والتفتيش على ضالتنا، ولم يبق علينا إلّا أن ننسـحب فنجحنا بتسـلق الجبل من غير أن تمسنا نار العـدو وبلغنـا القمّة، وهنـاك التقينا بـ «وود» Wood يفيض غضباً بين جنـوده الهنود، فأبلغناه انتهاءَ كل شيء وعاد باقي العصابة مسرعين إلى التربة حيث كان بنو السّرحان يهمّـون بالرّكـوب وجَدَدْنا السّـير بأسـرع مـا يمكن وتقدم العـدو إلى المعبـر واحتلّه، واسـتيقظت «طُـرَّة» القرية القريبة واشـتركت بالصيـاح وتمثلت بها القـرى المجاورة وأُضيءَ السّهل من جميع النّواحي.

للذّلـة والانخـذال وللدّور المخـزي الذي مَثّلـوه وقت المعمعة. ولمـا هزئت بهم أرادوا أن يهدئـوا ثـورة غضبهم بالسّـطو علـى أولئك النّـاس. فسـلبوهم كل متاعهم. فهرب الرّجال ونسـاؤُهم على ضوء القمر يولولون ويصيحون صيحات المَدَدَ فسـمع أهل «الرَّمثا» أصوات الاستغاثة فهدروا وزمجروا وتعالت رعودهم حتى أيقظت جميع السّـكان المجاورين، وركبـوا الهُجُن، وأعملوا فيها السّـياط يريدون الانقضاض على جناحنـا. وكانت السّـطوح على طول أميال مملـوءة بالرّمال وهم يحاولـون اقتناصنا. فتركنـا السّـراحين الجناة المغتصبين وشـأنهم مـع غنائمهم المعيقة، وتابعنا السّـير في سـكوت موحـش نضـم صفوفنـا يعاوننا هجانتنا الأشـداء الذين أظهروا جلـداً عظيماً، ويلتقطـون الرّجـال الذيـن عجزت نوقهـم المكلومة عـن حملهم بأثقالهم والإسـراع بهـم، ويردفونهم وراءهم، وكانت الأرض المفلوحة لا تزال موحلة صعب فيها السّـير السّريع، ومن ورائنا سكان البلاد المجاورة يصخبون ويصيحون كأنهم يستحثوننا على الهرب رجالاً وجمالاً كلاب صيد يتعقبون الطّريدة ويلحقونها حتى وكرهاً في الجبل.

إلـى أن دخلنا الوا دي وأخذنا طريقاً حسـناً وانفصلنا عن الأماكن الصّياحة دون أن نخفف سير إبلنا المنهوكة لأن الصّبح قد تلألأت أضواؤه على المرتفعات إلى أن خفَّت الأصـوات من ورائنا وخفتت نهائياً ووراء المتلكئين تعمل في أعجازهم هراوة علي بن

الحسين كما كانت تعمل فيها عند قدومنا. وشاركَتْها هراوتي في هذه المهمّة حتى تمكنا من ضمِّهم إلى الحملة. ولما دنونا من الخط الحديدي كان الصّباح قد انفلق. وسار الآن، «وود» وعليّ على رأس الحملة وأخذا يقطعان الوقت بتقطيع الأسلاك التلغرافية في أماكن مختلفة.

لقد كنا نمرّ في الليل الدّابر على هذا الخط ووجهتنا جسر «تل شهاب» لننسفه ونعزل فلسطين عن دمشق، والآن وقد ضاعت ثمار جهودنا وفاتتنا غايات مجازفتنا نَتَدَّنى إلى حد أننا نقطع بعض خيوط البرق الموصلة إلى المدينة، وكانت لا تزال مدافع آلِنْبي تدمدم عن يميننا وصداها يدق في قلوبنا دقة الحزن على ميّت الآمال.

وطلع النّهار ناعماً رمادياً لكنه ينذر بيوم محزن مظلم ممطر، وكان هذا المطر رذاذاً يبسم عن سخرية القدر، ويهزأ وراء متاعبنا وشقائنا إلى أن وصلنا إلى «أبو صوّانة» وغابت الشّمس عند بلوغنا قِلْدة الماء المستطيلة وتجمَّع ما بقي من رجالنا جشعين لمعرفة تفاصيل مأساتنا، لقد كنا كلنا بُلَهَاء وكان لا يحتدم غضبنا على أمر معين.

وتشاجر أحمد وعوّاد ثانية وأخذا بتلابيب بعضهما البعض، وامتنع الشّاب مصطفى عن طبخ الأرز، فضربه فرّاج وداود حتى أبكياه، وأمر عليّ بضرب اثنين من خدمه، فلم يبال أحد منا ولا من المضروبين بهذه الإهانة، وقد تجلّى لنا هَول النّكبة وأنهك النّصَبُ أجسامنا بعد اجتياز مئة ميل في منطقة شاقة وظروف رديئة من غروب الشّمس إلى شروقها من غير زاد ولا توقف.



الفصل الحادي والعشرون

اللحاق بقطار

وكانت مسألة تموينننا تتقدم على كل اعتبار آخر، فعقدنا اجتماعاً للمداولة ولما يمكننا عمله تحت رذاذٍ من المطر وفي أرض مجلودة من شدة البرد، وكنا كي لا نثقِّل على مطايانا لم نحمل من الأرز سوى زاد ثلاثة أيام نرى بأعيننا نَفَادَهُ الآن، فكيف نعيد الكرة ونقوم بالعمل ووفاضنا أفرغ من فؤاد أم موسى. وكان بنو صخر يطلبون الشّهرة وردِ الشّرف، وبنو السّرحان يريدون أن يرفعوا عنهم الذُّلّ فنادوا إلى العمل وطالبوا بغزوة جديدة! وكان لدينا ثلاثون ليبرة من الدّيناميت، وصرخ عليَّ بن الحسين الذي سمع بغزوتنا تحت معان والذي هو على كل حال عربي صميم كباقي إخوانه وقال: «فلننسف قطاراً» فقبل النّاس جميعاً هذا الطّلب بتهليل، وأحدقت بي العيون، وكان من المستحيل أن أجيبهم بالإيجاب فوراً، لأنَّ نسف قطار عمل فني يجب درسه بهدوء وأناة من جميع نواحيه ودقائقه، وتحت رحمة عدد كاف من رشّاشاتنا، لأن النّجاح متوقف على الفن والدّقة فإذا فاتنا دخلنا في مأزق حرج، ووقفنا موقف الخطر، والصّعوبة في الأمر هو أن رجال مدفعيتنا الهنود رغماً من شجاعتهم فإنهم يجبنون أمام البرد والجوع، فإذا كنت لا أحصل على زاد وافر لا أتمكن من جرهم ورائي أو دفعهم أمامي إلى غزوة تستغرق أسبوعاً كاملاً على أقل تقدير. أما تجاه العرب فلا قسوة قط إذا جوّعناهم بضعة أيام لأنهم لا يموتون جوعاً ويحاربون بشجاعة فائقة ومِعَدهم خاوية، وبطونهم طاوية. وعند الاقتضاء يمكنهم أن يذبحوا جملاً ويأكلوه، أما الهنود وإن كانوا مسلمين فمن مبادئهم ألا يمسوا الجمال بأيديهم.

وشـرحت هذه النّظرية أمام عليّ فأجابني بأنهم لا يطلبون مني غير نسـق قطار! وأنه هو نفسـه مع العرب يتولون هذه المهمّة بدون مسـاعدة الرّشّاشـات، وبما أن التُّرك لا يعتقدون بأنا باقون في هذه المنطقة فمن المحتمل أن قع على قطار مؤن وذخائر يقوده رجـال غير عسـكريين أو حَرَسٌ ضئيـل من الرّديـف، وقبلت المجازفة بهـذه الضّربة، وصفَّق الرّجال طويلاً لهذا القرار ثم تحلَّقنا حول ما بقي لدينا من الزّاد للعشاء المتأخر البـارد، وكان الحَطَب مبلَّلاً فلم نوقد ناراً إلّا أنَّ الحرارة دبَّت في مفاصلنا شـيئاً فشـيئاً لتمشي الأمل بمجهود جديد يمكننا أن نجني ثماره.

وعـاد رجالنـا من جهة الخـط الحديدي وعددهم سـتون عند طلوع النّهـار فقدتُهُم إلى منفطير حيث قمّة الجبل كأنها متن سَرْج تصلح لأن تكون مرقباً بديعاً ومناخاً طيباً تحيط به المراعي وطريقاً حسناً للتراجع. فمكثنا إلى غروب الشّمس جالسين نرتجف من شـدة البرد وعيوننا شـاخصة إلى السّهل الشّاسع الممتدّ حتى جبل الدّروز المغطى بالثّلـوج، وكانـت «أم الجمـال» والقـرى المجاورة تظهـر أمامنا كأنها لطـخ مداد على خريطـة، وترجلنا وسـرنا إلى الأمام عنـد اللُّغم، وقرّرنا أن ندفنه فـي مجرى ماء تحت الخـط في الكيلومتـر 172. وبينما نحن في عملنا سـمعنا جلجلة صمَّـاء ثم طلع علينا بين الظّلام والضّباب المحيق بنا قطار قادم من الجهة الشّمالية على بعد مئتي متر فقط، فانبطحنـا فـي ذلك الثّقـب إلى أن مر من فوقنا والحزن يشـملنا لفـوات الفرصة، ودفنا اللغـم في المكان المناسـب، وامتـازت تلك الليلة البـاردة بالضباب الكثيف والشّـتاء الجـارف، وكانت القنطرة مبنية بناء متيناً لها فتحة اتسـاعها أربعة أمتار تفترشـها أرض حصبـاء فتمـرُّ عليها سـاقيةٌ نابعة من ظهر الجبـل. وقد قَرَضَت الأمطـار طَرَفَي الوادي فحفـرت قناة مسـتقيمة فـي عمق أربعة أمتار كأنهـا خنادق أمامية تمتـد ثلاثمئة متر من الخـط وأخفينـا عدة الإنفجار في سـقف العقد أبعد مـن المعتاد. وأسـندنا هذه المادة الرّجراجـة بجسـم صلب حتى لا تتسـاقط الرّمـال المغطاة به عند مرور كشـافة فوقها. ومددنـا الأسـلاك في الـوادي ودفناها بالحصى. ولـم نلاق أقل صعوبة فـي مدّها إلى النّهاية ولكن للأسـف لم تمتد أكثر من سـتين متراص إلّا أنَّه لحسـن الحظ كان قد بلغ

طرَفـه باقة من الشّـوك تعلو قدمـاً عن الأرض في حَـرْف الـوادي صَلُحـت دليلاً كافياً، ولـم يكن في الإمكان ترك الأسـلاك متصلة بالآلة المتفجرة لأن المكان كان مكشـوفاً للجنود الأتراك عند مرورهم.

فاشـتغلنا في الوحـل وقتاً أكثر من المعتـاد إلّا أننا انتهينا من عملنا والنّهـار يطلع علينا. فانتظـرت نـور النّهار مبللاً تَعِباً حـاد المزاج في تيـار الهواء تحت القنطـرة وطفت المكان الذي دفنا فيه الأسلاك وقضيت نصف ساعة أخرى أمحو كل أثر رامياً الأوراق والأعشاب اليابسـة فـوق الأرض المقلوبة مالئاً النُّقَر التـي أحدثَتْها أقدامنا بالماء الـذي كنت أنقله من البـرك القريبـة التـي ملأها مطر المسـاء. عندئـذٍ أومـأوا إليَّ بأن كشـافة قادمـة على الخط فأسرعت إلى رجالي واختبأت في مكان مستور، وما كدت أصل إليهم حتى تأهبوا للمعركة وراءَ جرف السّاقية في منعرجات مجراه. وكان قطار قادماً من الشّمال. وحَمدُ وعبدُ فيصل يحمـل عـدّة الانفجار إلّا أنَّـه لم يصل إلـيَّ إلا بعد مرور القطـار القصير السّـريع المقفولة شـواحنه والممتلئة خيلاً. وقد أخفته الزّوبعة وهطلت الأمطار فزادت هذه الخيبة من حزنا وأخـذ عليّ يتذمر ويقول: إننا لا ننجح مرة قط في هذه الحملة. وفي مثل هذا التشـاؤم كان يخشـى من عيون شـريرة بيننـا. ولكي ألهيهم عن هـذه الصّدمات المتتابعة أرسـلت رجالاً يترصـدون في أماكن مختلفة لجهة الخرائب من الشّـمال ولجهـة التربة العالية على العرف الجنوبـي. وكان على باقـي الرّجال المحرومين من الفطور أن يعتقـدوا بأنهم غير جائعين! فأعجـب هـذا العمل رجالي. وجلسـنا قليلاً تحـت المزنة متجمعين على بعضنا لنسـتدفئ محتميـن قـدر الإمكان بمطايانـا التي تقطر ماء. وكانـت الرّطوبة تقلـص صوفها وتعقصها كجدائـل الحريـر، وحلَّ الهواء البـارد محل المطر ونفذ إلى أجسـام أولئك القـوم الرّديئي الدّثار وتبلّلت قمصاننا ولصقت بجلودنا فكانت واقياً وهمياً للبرد القارص. ولـم يكن عندنا ما نأكله ولا شـيء نعمله. ولا مكان نأوي إليه سـوى الصّخور المبلّلة والحشـيش المنقوع الموحل، ثم إن اسـتمرار رداءة الجو كان يؤخر من تقدم آلِنْبي في فلسـطين ويفقد كثيراً من حسـن حظه العاجل. وإن سـوء البخت الذي ألَمَّ بأسدِنا سيشجع بدون شك أولئك الفئران الخاملين، إلا أننا سنتضامن على العمل في العام المقبل.

إن الانتظار للقيام بالعمل في الظّروف الموفقة لا يطاق! أما ذلك اليوم فقد كان قاتلاً مهلكاً، والكشافات التُّركية تمر على الخط بتهاون، لا هَمَّ لها غير اجتناب المطر. واقتربت ساعة الظّهيرة وانقشعت الغيوم قليلاً عن قرص الشّمس، وإذا بالمتربَّصين الرّاصدين في مخابئهم يلّوحون بعباءاتهم تلويحاً جنونياً علامة قدوم قطار. وما هي إلّا لحظة حتى شغل كلٌّ مكانه المعدَّ له من قبل لأننا مكثنا ساعات مقرفصين إلى جانب الخط في منحن غارق في الماء والطّين كيلا يفوتنا الصّيد هذه المرة. واحتمى العرب في مكامنهم لضرب النّار ولم أكن أرى وأنا في مخبأي رأساً واحداً ورائي على منحدر التل الرّمادي، ولم أكن أتمكن من سماع دمدمة القطار ولكني كنت شاعراً بدنوِّه. فركعت نصف ساعة في الطّين حتى ضاق صدري فأومأت إلى رجالي لأعلم منهم ماذا حدث، فأجابوني بأن القطار طويل جداً وهو يتقدم ببطء، فزادت شهوتنا لدنوِّه لأن الغنيمة تكون على قدر عدد الشّاحنات. ثم أعلموني بأنه قد توقف. ثم عاد إلى السّير.

ومضت ساعة وهو يلهث، كأن القاطرة كانت معطلة، والحقيقة هي أن الوقود بالحطب كان سيئاً لا يعطي ناراً كافية لجرٍّ مثل هذا القطار الذي يحاول الانعطاف والولوج في معبر قبل وصوله إلى القنطرة الملغومة وكانت الثّماني شاحنات الأولى مسطّحة مكشوفة مملوءة جنوداً. إلّا أنَّه لم يكن لي متسع من الوقت للخيار. وماكادت القاطرة تنتصف القنطرة. حتى أنزلتُ قبضتي على عدة الانفجار، ولكن لم يحدث شيء ثم جرَّبتُ مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً... ومع ذلك لم تنفجر.

فيالها من خيبة! خيبة في كل مكان، إذن لا بدّ أن تكون الآلة معطلة، وقد علمت بأني راكع على حافة الوادي أرى القطار المملوء بالجنود الأتراك ينساب ببطء كالأفعى على بعد خمسين متراً مني، وتضاءَلتْ العلّيقة التي كانت ترتفع بضعُ إنشات ورقَّت حتى أصبحت كورقة التين، وشعرتُ بأني هدف لهذه المنطقة من السّهل، فمن ورائي وادٍ مكشوف يبعد مئتي متر عن مكان رجالنا القلقين الذين يستغربون هذه الخيبة، وكان من المستحيل أن أصل إليهم بقفزة لأن التُّرك يشعرون بي فينزلون من القطار ويهبطون علينا ويذبحوننا جميعاً فكمنت حيث أنا مشتغلاً بخلاص نفسي أمام ثماني

عشرة شاحنة مكشوفة مسطَّحة وثلاث شاحنات للخيل وثلاث مركبات للضّباط تسير علـى خطوطهـا والقاطـرة تتلكّأُ وتلهثُ؛ وكنت أخشـى في كل لحظـة أن تتوقف. إلى أن انسـاب القطار ووّضعت آخر شـاحنة تتلقلـق عَجَلاتُها وَتَصـرفُ أَلجمتُها، وغابت فـي معبر الشّـمال فانتصبت عندئذٍ ودفنت أسـلاكي وأخذت الآلـة الملعونة وركضت كالأرنـب إلـى رأس الجبل لأتقي شـراً يفاجئني. والتبس عليَّ «مفلح» ومسـكته غصة فلـم يتمكن من البكاء، وقـد اعتقد بأني تركت القطار يمرُّ عمداً، ولما علم السّـراحين بسـبب **هذه الخيبة صَرخوا جميعاً «سـوء الطّالع يرافقنـا» وكان لهم الحق في ذلك إلا** أنَّهم كانوا يعتبرونها نبوءَة من نبوءاتهم. ولقد ذكرتهم بمرارة واستهزاء بشجاعتهم منذ أسـبوع على جسر «تل شـهاب» وكان الأحرى بالقبيلة أن تدعهم يحرسون الجمال لا أن يقدموا على أعمال كبيرة كهذه، فانتفضوا لهذا الهجو اللاذع وتصدى لي السّراحين إلّا أنَّ بنـي صخـر قد عضدوني. وأسـرع عليَ عند سـماعه هذه الغوغـاء، ثم تصالحنا وخفّت وطأة اليأس. وقد دافع عليٌّ عني بشهامة وإباء رغماً من أن ذلك المسكين كان يرتعد، **وقد أزرقَّت أطرافه وانكمشَ جلده من شدة البرد. ورغماً من انحباس نَفَسَه أراد** أن يذكّر السّـامعين بأنَّ النّبي جدّهم الأول قد مَنَحَ الأشـراف هبة خاصة، وهي أن يروا الأشـياء وأضدادها وأنه هو قد رأى الآن سوء حظنا سينقلب حظاً حسناً فتقوَّى العَرَب لهذا التأكيد وقد اسـتحق أول قسـط من أقسـاط الحظ الحسـن عندما توفقت إلى فتح آلة الانفجار بحد خنجري ـ ولم يكن عندي عدة سـواها ـ وعندما تمكنت من إصلاح الخَلَل الذي أصابها أصبحت صالحة للعَمَل.

وعدنا إلى مواقفنا في طرف الخط وانتظرنا فلم يقدم علينا قطار وجاء الليل بسمومه وهي تزداد هبوباً سـاعة بعد سـاعة وتزيد في شجوننا وآلامنا ولـم تسمح لنا الرّطوبة أن نوقد ناراً ونطبخ طعاماً سـائغاً، ولم يكن لدينا غذاء غير لحم جمل نيء، فلم يقبل عليه أحـد. وتحمّلت مطايانا المسـكينة شـر تلك الليلـة إلى الصّباح. أما علـي فقد انتهى به الأمـر إلـى الانبطاح على بطنه ليخفف من قارصة الجـوع واعتقد بأنَّ النّوم يخفف عنه الحمى، ودثره خادمه «خازن» بعباءته.

وهبطت الجبل لأرّكب العدة على السّلك وقضيت الليل إلى جانبها وحدي تحت الأسلاك التلغرافية التي كانت تدعوني إلى النّوم بدندنتها العذبة، وكنت أخشى النّوم لشدة البرد، وأرقب الأفق فلم يقبل علينا شيء.. إلى أن بزغ الصّباح ماطراً باهظاً عن ذي قبل فنهكنا التّعب والجوع والسّهر إلى حد الموت. فتسلقت حتى بلغت رجالنا، بينما عسس الصّباح يترقب قدوم قطار. وانقشع الضّباب وانكشف السّهل واستيقظ عليَّ نشطاً مرحاً فأدخل السّرور على نفوسنا، وأخرج حمد من تحت ثيابه المبلّلة قشاً كان قد أدخله يابساً ليقيه شيئاً من البرد فكان لا يزال جافاً. ثم قطعنا بعض نسائر الغراء لنساعد على إضرام النّار في الحطب المبلّل، بينما كان بنو صخر يسلخون جملاً أجرب يمكننا أن نستغني عنه من غير ضرر على الحملة، وقطعوه بسرعة حتى أصبح قابلاً للحمل على ظهور الجمال. وفي تلك اللحظة أشار العسس إلينا بقدوم قطار، فتركنا النّار مسرعين وركضنا ركضاً جنونياً مسافة ستمئة متر إلى أن بلغنا مواقع المعركة. وتقدم القطار وهو يصفر عند المنحنيات: قطار بديع ذو قاطرتين واثنتي عشرة شاحنة ركاب فنزل المنحدر بسرعة، وضغطت على العدة عندما بلغت دواليب أول قاطرة القنطرة المُلَغمة. فكان الانفجار مخيفاً مرعباً. فغمرني التراب والحصى ودرت على نفسي مرات عديدة إلى أن استعدت موازنتي شيئاً فشيئاً، وأسرعت متمايلاً إلى جرف الوادي. حتى بلغت العرب الذين أمطروا الشّاحنات المملوءة رجالاً ناراً حامية. ولم يلبث العدو أن قابلنا بالمثل. وأصبحت بين نارين، فرآني عليّ قد سقطت فاعتقد بأني قد جرحت جرحاً مميتاً، وركض يتبعه «تركي» وعشرون رجلاً من رجاله وخدمه وبعض بني صخر.

وقد تدهور القطار كله عن الخط. وتداخلت العربات بعضها في بعض، وتثنّت كالثّعبان بجانب القضبان الحديدية. وكان محمّد جمال باشا (جمال باشا الصّغير) قائد الفيلق الثّامن يركب شاحنة جميلة مزينة بالأعلام قاصداً فلسطين ليدافع عن القدس ويدفع عنها هجوم اَلِنبي، وأفقنا حالاً بأننا لن نحصل على غنائم تذكر لأن القطار كان يحمل أربعمئة رجل، وبعد أن عاد الأحياء إلى رشدهم اعتصموا في مكامنهم، ورمونا

برصاص بنادقهم، وتبعنا «مفلح وأدهب» على الجبل يفتشون عن فهد في كل مكان فقال أحد السّراحين: إن فهداً تقدم إلى الأمام بينما كنت أدور على نفسي مغموراً بالتراب والحصى، وقتل قريباً من هناك. وقد أرونا حزامه وبندقيته شهوداً على موته. وقد حاولوا أن يخلصوه فلم يتمكنوا، فلم ينطق «أدهب» ببنت شفة واندفع خارج الوادي ونزل عن الجبل ركضاً. وقد تملكتنا الدّهشة وانحبست أنفاسنا لهذه المجازفة المميتة، إلّا أنه كان يظهر بأن التُّرك لم يروه. إذ رأيناه بعد هنيهة عائداً يجرُّ جسماً وراء الجرف من جهة الشّمال.

وعاد مفلح إلى فرسه وقادها وراء حاجز واق، وساعد «أدهبا» على حمل هذا الجسم الهامد ورفعاه على السّرج وعادا إلينا، وكانت رصاصته قد اخترقت وجه فهد وكسرت أربع أسنان وقطعت لسانه فغاب عن رشده وكان قد أفاق بل وصول «أدهب» وجاهد وهو ملطخ بدمائه زاحفاً على يديه ورجليه ليبتعد عن العدو. وعندئذٍ تمكن من إعادة توازنه والثّبات على السّرج. فحملوه على أول جمل وجدوه في طريقهم وأعادوه حالاً.

ولما ترك التُّرك منا الهدوء والاستكانة قرّروا أن يتقدموا إلينا، فتركناهم يدنون منا وأمطرناهم وابلاً من الرّصاص أردى منهم عشرين رجلاً وتراجع الباقون مدافعين بنظام وفرشت جوانب القطار بجثث القتلى وقتل كثير داخل الشّاحنات المحطَّمة، إلّا أنَّ الجنود التُّرك كانوا يحاربون تحت أنظار قائدهم، فأعادوا إليهم ثباتهم وشجاعتهم وداروا دورة حول مكامنهم ليطغوا علينا، ولم نكن غير أربعين رجلاً، وكان من العبث أن نقاومهم فتراكضنا عصابات وصعدنا من الوادي إلى قمّة الجبل وقد امتطى كل منا جملاً وأسرعنا ووجهتنا الشّرق إلى الصّحراء، وبعد مضي ساعة أصبحنا في مأمن من العدو وتعرف كل منا إلى مطيته.

ورغماً من الثّوَران والخلاط الذي حدث بعد الانفجار ورغماً من الانهماك بالارتداد لم ينس الهمام «رحيل» أن يأخذ فخذاً كبيراً من لحم الجمل الذي ذبحناه قبل المعركة ويردفه على ناقته، فكان لنا حجة للتوقف على بعد خمسة أميال في وادي

ضُلَيْل قرب تينة عقيم لا تُثمر، واشتريتُ جملاً أجرب ليكون كافياً لمؤونتنا ووزّعتُ مكافآت من نوع السّلْب وتعويضاً للنّساء اللواتي فقدت رجالهم ثم تمكنت من إهداء بعض البنادق من السّتين أو السّبعين بندقية التي استولينا عليها، إنها والحق يقال غنيمة ضئيلة ولكن لا يستهان بها، وقد وجد بعض السّراحين أنفسهم مسلحين ببنادق بعد أن كانوا في حادثة الجسر عزلاً يرمون العدو بالحجارة التي كانت في كثير من الأحيان عديمة الضّرر بالعدو.

وعدنا عند الصّباح إلى الأزرق حيث استقبلونا استقبال الظّافرين، وكنا ـ أستغفر الله ـ نفخر بانتصارنا.

ووصل الدّرزي أمير صلخد إلى القصر القديم قبلنا بزمن قليل وأخبرنا عن نهاية رحلة عبد القادر المراكشي، قال: إنه بعد أن تركنا خِلسة توجّه رأساً إلى قراهم ناشراً العلَم العربي متهللاً محاطاً بفرسانه السّبعة الذين يطلقون بنادقهم في الفضاء، ففوجئ السّكان بهذه المظاهرة واعترضت الحكومة التُّركية على هذه الوقاحة وعدَّتها تحدياً لسلطتها وتقدم الأمير الدّرزي من عبد القادر، فخاطبه هذا بعظمة وهو جالس على أريكته وقال: إنه إذا كان الشّريف فيصل قد احتلّ هضبات جبل الدّروز فالفضل في ذلك عائد إليه، وثبت جميع الموظفين في وظائفهم!! وفي اليوم الثّاني توغل في البلاد فأثار غيرة الحاكم الذي استثقل ظلّه في القضا إلّا أنَّ عبد القادر قد استلَّ سيف مكة ذا القبضة الذّهبية وأقسم ألا يحور حتى يفري بحده هامة جمال باشا. فأنذره الدّروز لهذه المجازفة وأفهموه بأنهم لا يرضون عن هذا التحدي لسعادة الحاكم على مسامعهم وفي بيوتهم. فعدَّهم الأمير لُطاء أولاد زنا وأولاد كلاب قوادين وسماسرة سوء طمعاً في الرّبح. وكانت صيحاته بهذه الشّتائم في قاعة غاصة بأهل البلاد، فغضب الدّروز من هذه الوقاحة، ولم يلبث أن استوى على سرجه وقال: إن اليوم الذي أرفض فيه جبل الدّروز بقدمَيِّ سيتبعني النّاس من أقصى البلاد إلى أقصاها.

وركب جواده وأعمل المهماز في شاكلته وتبعه خدمه السّبعة إلى أن بلغ «درعا» ودخلها كما دخل صلخد دخول الفاتح. وكان التُّرك يعرفون جنونه من زمن بعيد

فتركوه وشأنه يفضح نفسه بسخافاته، ولم يصدقوه لما أخبرهم بأني وعليّ نحاول هذه الليلة نفسها القيام بهجوم على جسر اليرموك، إلّا أنّه بعد وقوع الحادث تنبهوا إلى النّاحية الجدية من الخبر وأرسلوا عبد القادر إلى دمشق مخفوراً بحرس قوي، فجذل جمال باشا وتلاهى بهذه الأحدوثة الخيالية وأطلق سراح البهلوان الأبله.



اللورد لويد

المندوب السّامي البريطاني في مصر

الفصل الثّاني والعشرون

العودة إلى العالم

وأصبح الجو مخيفاً لزوابع الثّلج ولوافح الجليد المتواصلة، ومن الواضح أنه لم يجر شيء ما في الأزرق سوى المداولات والإرشادات المألوفة، إلّا أنَّ هذا لم يجر شيء ما في الأزرق سوى المداولات والإرشادات المألوفة، إلّا أنَّ هذه الأمور لم تكن تشغلني ولم أكن أحجم أمام آلام جديدة ومتاعب محتمة للدّعاية. وكنت كثيراً ما أنقلب إلى رجل مهتد حديثاً دخيل في مذهبهم، وأهتدي قدر استطاعتي رغماً عن شعوري بموقفي الذي هو موقف الأجنبي، شاعراً بما يصح أن يكون معيباً وغير لائق تدخل رجل كافر في الدّفاع عن حرية القومية العربية. وكان عندي أن هذه الحرب تستنفد قوى الفكر فأحاول أن ألبس لباسهم وأدعوهم إلى قبول العصيان كأمر طبيعي شرعي لا بدَّ منه، والثّبات فيه إلى النّهاية، وعليَّ أيضاً أن أقنعهم وأثبتهم في اقتناعهم بأن الحكومة البريطانية لا تخلف بوعودها ولا تنكث عهودها. وكانت هذه الجهود تنهك قواي خصوصاً وقد مرضت في تلك السّاعات الدّقيقة الحرجة وهدَّ هذيان دماغي المُجهد كل ما بقي لي من الصّبر والجَلَد.

وكنت لا أكاد أنتهي من مقابلة البدوي الخَشن الذي يدخل عليَّ فجأة من غير استئذان ويقول لي مسلِّماً «يا أورَنس» ويطلب طلبَهُ بجفاء. وبدون أقل مجاملة، حتى يدخل عليَّ القروي المتملِّق ويطلب أن يُلقي عليَّ خطاباً ويبذر الألقاب ويلقبني أحياناً بالأمير وتارة بالبك، وأخرى بالسّيِّد والمخلِّص، فينتهي بي الأمر إلى نوبة غَضَب، فهجَرَتُ النّاس جميعاً وقرّرتُ السّفر إلى الجنوب لعلي أقوم ببعض محاولات على البحر الأ؛مر حيث لا تزال جبهات للعدو تفصل عنا فلسطين.

فسلّمت ما بقي لديَّ من النّقود إلى الشّريف عليَّ وأوصيته خيراً بالهنود، وانفصلنا على أتمِّ ولاء؛ بعد أن قاسمني ثيابه من قمصان وعمائم وأحزمة، ودرّاعات، وهكذا قد ألبسني ثيابه وألبسته ثيابي، ثم تعانقنا معانقة داود ليوناتان، وركبتُ مع رُحَيل على ناقتين من أجود نياقنا واتجهت إلى الجنوبز

وتركنا الأزرق عند الغسق، وسرنا رأساً إلى الغرب نحو سماء ملتهبة تطير فوق رؤوسنا أسراب من الكراكي كأنها نِصال السّهام، وقد دب التّعب فينا منذ أن ابتدأنا برحلتنا إذ حلك الليل وتعسر السّير في «بُطْمْ» وكانت الأرض رطبة تنزلق عليها أخفاف الإبل المسكينة وتسقط فنسقط معها. إلّا أنَّ حظنا كان أحسن من حظها لأننا ثابتون على متونها آمنون وهي تهوي إلى الحضيض، وترغم على النّهوض في أرض رديئة وهي مثقلة بالأحمال. ولمَّا انتصف الليل كنا قد قطعنا «الغَدَف» ولم يكن في الإمكان التقدم أكثر من ذلك في ليل دامس، وعلى أرض مملوءة بركاً وأوحالاً، فنمنا حيثما نحن في الوحل. ولما نهضنا عند الصّباح وثيابنا ملطخة مبلّلة نظر بعضنا إلى بعض ببلاهة وضحكنا ومشينا، وهبّت ريح على وجه الأرض فجففتها شيئاً فشيئاً إلى أن توسطت الشّمس كبد السّماء، فتوقفت ناقتانا، وامتنعنا عن التقدم. لأنهما دخلتا في أرض لون حجارتها أحمر وهي مفتتة تدمي أخفافها. إلى أن أذعنتا وتقدمتا ببطء فصعدنا بسرعة على تلال مرتفعة إلى السّماء على شكل خيام هرمية وإذا هي «الثلاث أخوات».

وسرحنا الطّرف نحو الشّمال من فوق تلك الجبال عند غروب الشّمس على السّهل الذي انتهينا من اجتيازه. فإذا به يتباعد عنا في لونه الرّمادي بمنحدر خفيف تتخلله نقط وبقع نارية قرمزية وهي آخر أشعة ترسلها الشّمس قبل وداعها على أضحال مياه الأمطار المتلألئة في الفضاء الشّاسع فأثرت في نفوسنا هذه الرّؤى الحمر كالعندم أكثر من أي رؤيا أخرى في هذا السّهل. ودعتنا إلى مشاهدة أميال من المناظر البهيجة العديمة النّظير. تخالها منقدة من السّماء ومعلقة في الفضاء ترقص على السّراب البعيد.

ولم نمرّ «بباير» إلّا بعد اشتداد الظّلام وتضاؤل نار الخيام وتلألأت النّجوم

الزّواهـر، وانعكسـت أضواؤها على أضحال المطـر الفائت تعبٌ فيـه ناقتانا عباً لاهثة من شـدة التّعب. وسـرحناها ترعى نصف ساعة، وإن سـفر الليل لشاق علينا كما على الحيوانـات. لأنَّ الجمـال تميـز المنحدرات والحجـارة والنّقـر في النّهـار وتجتنبها. والرّاكـب يشـبه تثنّي المطيـة ويتلوى مع الخطوات الواسـعة والضّيقـة فيتّقي الاهتزاز والعنف. على عكس الليل الذي تتساوى فيه الأرض سهلاً وحزناً وتتقدّم المطايا بتردد فتصطـدم فتصل الصّدمة القويـة إلى الرّاكب المعذب وقد أخذتنـي نوبة حمّى أثارت هياجي فلم أشأ أن أسمع لتوسلات رحيل فأتوقف.

لقد أغضبنا هذا الولد الغرّ النّزق شـهوراً باستعراضه قوة شبابه أمامنا وبتهكمه على ضعفنـا، لذلك قد صممت علـى أن أنتظر منه طلب العفو فلا أمنحـه إياه، إلى أن رأيته عند الفجر يدمع على سوء حاله صامتاً كي لا أرى، ولا أسمع.

وذر قرن الشّـمس بين الضّباب شـبحاً من نور يتسـلل فوق البسـيطة ولا يتمكن من البلـوغ إليهـا، ويكاد يعلو فـوق أبصارنـا، وانحلَّت ظلالنا فـي الغمام الكثيـف العالق بالأرض، وكنا نتساءَل إذا كانت تلك الأشكال المضطربة تحت أقدامنا على الثّرى هي هـي أظلالنـا الحقيقية. وتصبحنا بمضـارب «عودة» فتوقفنا قليلاً للسّـلام عليه ولتحيَّة تَمْـر الجوف اللذيذ. لكن الرّئيس الشّـيخ لم يكن بمقـدوره أن يبدل بناقتين مرتاحتين، فسـافرنا حالاً كي نتمكن عند المسـاء من اجتياز الخط الحديدي، فلم يقو رُحَيل حتى على المعارضة وهو راكب إلى جانبي صامتاً واجماً شاحب اللون غارقاً في همّه يحاول أن يُظهـر جَلَداً أكثر منـي، وقد ابتدأت أتبين عليه الأنفة والاسـتخفاف بالآلام. وتابعنا السّير معاً حذوك النّعل بالنّعل! لكنه كان يفضلني بشيء واحد وهو القوة، وقد شعرت الآن بأنـي بلغت الحد الأقصى وخارت قـواي، فأصبحت كل خطوة عندي ألماً مبهماً وكانت قد هبطت الحمى واسـتحكم الملل والسّـأم من نفسي، فاتحدت هذه العوامل على قتل شـعوري. غير أني حسـبتُني مركّباً من عناصر مختلفـة. واحدٌ يداوم الرّكوب بحكمـة وتعقـل ويرقـب الأرض تحت أخفاف المطيـة ويجذب المقود كـي يقيها من خطـوة عاثرة، وآخر يحوم في الجو ثم ينعطف إلى اليمين ويسـائل الكائن الجسـماني

عمـا يفعلـه فلا يجيبه لأنه للحقيقة لا يفقه إلّا لأمر واحـد، وهو الدّافع الذي يدفعه إلى الأمام دائماً أبداً. غير أن عنصراً ثالثاً ثرثاراً يتكلم وينتقد ويعجب من المشـاق الحسِّـية التي يفرضها الجسم لنفسه، ويحتقر كل سبب يدعو إلى هذا الجهاد.

ونقضـي الليـل وأنا أخاطب عناصر نفسـي عنصـراً عنصراً. إلـى أن أبصرت عيناي المغمورتان بالظّلام شـفق الصّباح المقبل، ونهاية مرحلتنا، أعني «رأس المعبر» الذي تنتشـر عليـه دنيا غير دنيانا منورة وضاءة، أعجوبة الزّمـان! «وادي رم»! وكانت لا تزال عناصر شـخصي الثّلاثة تتنافـس في أمر العراك. إذا كان يسـتحق الاهتمام أو أن نهايته حمـق وبدايـة لآلام جديـدة، إلاّ أنّ هذا الجسـم المنهوك لا يزال يسـعى للقيام بواجبه غير مكترث لهذا الجدل. وهذا حق لأن عناصري المتناقضة لا تقول شيئاً لا يمكن أن أفكر فيه بثبات ورباطة جأش، أو لم تكن كلها فلذة من ذاتي؟ كان الفيلسوف الإيطالي «تليزيو» Telesio يعتقد بعد اختبارات أجراها من هذا النّوع بأنه يتمكن من حل الرّوح عن الجسـد الإنسـاني، فلو أنه تابع اختباره إلى آخر حد من التجزئة لكان رأى مجموع الأفـكار والأفعـال والعواطف التي اسـتوعبها تصطف حوله كجواهـر منوّعة متربصة كالعقبان في مخابئها لمجيء هذا الشّيء السّري الغريب ليعيد إليها الحياة.

وجـذبَ رُحَيْل رَسَـنَ ناقتي فأخرجني مـن هَذَياني وجولاني فيمـا وراء الطّبيعة ثم ربـت على كتفي وأفهمني بأننا أضعنا خط السّـير ونكاد نقع على خطوط التُّرك في «أبا اللِّسن» ولم يكن واهماً فوجب علينا أن نرتد وندور دورة بعيدة كي نصل إلى «البَطرة» سـالمين. وفصم هذا الحادث عروة العناد بيني وبينه، وأخذنا في الحديث إلى أن بلغنا «القاع» فاستسلمنا لنوم في رابعة النّهار تحت أشجار حمر السّهل لأن سيرنا لبطيء إلى «البَطـرة» أضاع علينا أمل قطع المسـافة في ثلاثة أيام من الأزرق إلى العَقَبة. وسـافرنا بعد القيلولة، وقد هدأت أعصابنا وطابت نفوسنا، وتمازحنا كثيراً.

وكان ليل شتاء طويل ينتظرنا، وشاهدنا دنوّ الشّمس من المغيب بعد أن جزنا سفوح «خُزَيـل» وقـد مالت إلى الغروب وراء عصائب من الغيـوم البيض الواطئة، وأرتنا هذه النّاحيـة غروبـاً جميلاً من النّوع الإنكليـزي!.. إذ كان الضّباب في «إِضم» يرتفع شـيئاً

فشيئاً ويتجمع فوق المنخفضات كالقطن المندوف، وتابعنا سيرنا إلى أن بلغنا «العَقَبة» عند نصف الليل، فنمنا إلى الصّباح خارج المضارب، ثم ذهبت تواً لزيارة «جويس».

ولـم يمض وقـت طويل حتـى دعوني للسّـفر إلى فلسـطين بطريق الجـو فحملني «كُرويل» على متن طائرته وألقاني في السّـويس فذهبتُ تواً إلى مركز القيادة عند آلِنْبي ما وراء غزَّة. وكان القائد الأكبر مغموراً ببشائر الفوز فاكتفى بتقرير قصير عن فشلنا في «اليرموك» وتمكنت من أن أستر التفصيلات المؤلمة لهذا الفشل.

وكنـت لا أزال بجانـب آلِنْبـي لما جاءه رسـول من «چيتـوود» Chetwode يبشّـره بسـقوط القُدس... فاسـتعد آلِنْبي لدخول هذه المدينة المقدسة بموكب رسمي عظيم نظمتـه بدائـع «مارك سـايكس» الكاثوليكية، وتكـرم القائد وأوعز إلـى «كلايتون» بأن يحتفـظ بـي في ذلـك اليوم مـع أركان حربه. رغماً من أنـي لم أكن قد قمـت بأمر نافع لفـوزه الأخير، فزَّينني زملائي الجدد ببزَّة رسـمية برتبة ميجور فـي الجيش البريطاني، وأعارنـي «دالمِني» Dalmeny رمَّانتيـن حمراوين لكتفيَّ. وألقى «إيڤانز» Evans على رأسـي خوذة نحاسـية. وهكذا حصلت علـى كل أدوات الوظيفـة المبهرجة للاحتفال العظيـم بدخول البريطانيين إلى القُدس من باب يافا. وكانت هذه السّـاعة لديَّ أسـعد سـاعات الحـرب. وقد أقيمَ هـذا الاحتفال تكريماً أكثـر منه تهليلاً قدَّمه آلِنْبي لقداسـة المدينـة الخالـدة، وعدنـا إلـى القيـادة العامّـة فـي Shea[1] بالعرَبـة متعبين مـن حفلة الانتصـار، وكانت سـاعة مواتية لسـؤال القائد العـام عما يفعل بعد ذلـك، فكان يفكر بالرّكـود التام إلى منتصف فبرايـر وعندئذٍ يحتل «أريحـا». وكان التُّرك قد جمعوا مؤناً عظيمة وكدّسوها في أعالي البحر الميت فطلب مني أن أدوِّن ذلك في مفكرتي كَهَدف ثان إذا نجحنا في «الطَفَيلَة».

وطلـب الزّيـادة وقدّرت بأنه لو تابع التُّرك اندحارهـم ألا يمكننا أن نلتقي بآلِنْبي في

(1) يستخدم المؤلف هذه التّسمية لمقرّ القيادة البريطانيّة، علماً أنّ هذا المقر بفلسطين كان في قرية بئر سالم على بعد 40 كم عن القدس و16 كم عن يافا، وقد أسّسه الفيلد مارشال إدموند آلِنْبي. وقد ورد الاسم مترجماً في كتاب «أعمدة الحكمة السّبعة»: شيحا.

الطّرف الشّمالي من البحر الميت. ولو أن وسائله سمحت بتخصيص خمسين طناً يومياً من الذّخائر من جميع الأصناف في «أريحا» لجيش فيصل ألا يمكننا أن نقل القيادة العامة من «العَقَبة» إلى «وادي الأردن».

وكانت هذه الآراء تعرض نفسها بنفسها «لآلِنْبي» و«داوني» وأجمعنا على هذا المبدأ. إذن يجب على العرب أن يبلغوا البحر الميت بأقصى سرعة ممكنة وأن يدمّروا وسائل نقل الأعداء من الشّمال، ويصلوا إلى الأردن قبل شهر مارس.

ولما وصلت إلى «العَقَبة» قضيت الأيام القليلة الباقية في تدبير شؤون داخلية، وأخذت في تنظيم حرسي الخاص، لأنَّ أهميتي أخذت تنتشر يوماً فيوماً. وبعد أن كان التُّرك يشعرون بالرّغبة في معرفة محل وجودي لمَّا تصعدنا في البلاد من رابغ إلى ينبُع قد أصبحوا يشعرون بالمضايقة والقلق إلى حد أنهم نسبوا تدبير عصيان العرب إلى الإنكليز وأنهم هم المحركون والمنظمون لهذه الثّورة كما كان شائعاً عندنا بأن قوة الجيش التُّركي مستمدَّة من الرّوح الألمانية.

وما برح التُّرك ينادون بأعلى صوتهم مؤكدين وجودي عند العرب وابتدأوا بتعيين جوائز قدرها مئة جنيه لكل من يستولي على ضابط إنكليزي حياً كان أم ميتاً، ولم تكن تضاعف قيمة هذه الجوائز مع الوقت فحسب، بل رفعوا ثمن رأسي إلى الحد الأقصى، وأسبغوا عليَّ ثوب هذا الشّرف الخاص. فقد كانت قيمتي كبيرة بعد استيلائنا على العَقَبة. أما بعد نسف قطار جمال باشا فقد احتلَّ اسمي واسم عليَّ رأس القائمة وبلغَنا رقم العشرين ألفاً من الجنيهات في حالة الحياة، وعشرة آلاف إذا جيء بنا ميتين! ومن العلوم بأنَّ هذا العَرْض التُّركي لم يكن إلا نفاضة دنيئة، ولم يذكروا قط إذا كان هذا المبلغ يدفع ذهباً أم ورقاً، وعلى كل حال لم يمنع ذلك من أن آخذ بعض الحذر، فضاعفت عدد رجالي حتى بلغوا مفرزة منظمة وضممت إليها دون تردد الأشقياء الفَجَرة، والشّبَّان الأشداء الجسورين الطّامحين إلى المجازفة. وكنت أرغب في فرسان لا يكلُّون ورجال لا يحجمون فيهم أنفة وكبرياء، لا عائلات لهم ولا أولاد. وقد قادني الحظ إلى أربعة من هذا الطّراز يمكنهم أن يضرموا نار الحماسة والشّجاعة

في قلوب رفاقهم الجدد ويقدروا قيمة حراستي الخاصة ومنزلتهم عندي.

وكنت بعد ظهر أحد الأيام أقرأ هادئاً في خيمة «مارشال» طبيبنا الاسكتلندي حسب عادتي في معسكرنا بالعَقَبة، وإذا بأحد العقيليين يتسلل على الرّمل النّاعم، وهو شاب أسمر نحيل قصير فخم الثّياب على كتفه أجمل خُرج رأته عيني وأجمل ما صنعت «الحَسَا» مطرّز على الجلد بصوف مختلف الألوان. من أبيض وأخضر وبرتقالي وأحمر قان ومزيَّن من ناحيتيه بصف من الشّراشر المتشابكة وبخمسة سيور مشغولة بالخطوط الهندسية تتدلى خمس أقدام ما عدا شراشرها وأهدابها.

وبعد أن ألقى الشّباب السّلام عليَّ باحترام ألقى ذلك الخرج على الأرض أمامي وقال لي: «هذا لك» وانسل سراً كما جاء، وفي اليوم الثّاني جاء ومعه رحالة متقنة التطريز ملبسة بصفائح نحاسية مزوقة بأجمل الزّخارف اليمانية القديمة، وفي اليوم الثّالث جاء صفر اليدين لابساً شبارق من القطن وتمرّغ على الأرض أمامي طالباً الخدمة عندي، ولقد كان منظره غريباً بعد أن نزع ثياب التشريفات!.. ولم يكن بالإمكان معرفة عمره لأنه كان مغضن الوجه مجدوراً. لا أثر للشّعر في وجهه إلا لين الشّباب يثني قوامه وعليه شارات الصّبا وعدم الاهتمام، وكانت ذوائبه الثّلاث السّود المجدولة اللمَّاعة تتهدل من صدغيهِ على عارضيه وكتفيه، ولم تكن عيناه برّاقتين بل كانتا مطبقتي الأجفان غير ثلم بينها يكاد يظهر كخط القلم، وكان فمه الشّهواني ذو الشّفتين النّاعمتين ينمّ عن مزاج طيب مع طرف من السّفه.

فسألته عن اسمه فقال عبد الله الملقب بالنَّهابي (أي اللّص). إلّا أنَّ هذه الكنية على اعتقاده قد ورثها عن أبيه المحترم. أما رحلاته الخاصة فلم يستفد منها شيئاً، فقد ولد في «بُرْيدَه» ومنذ حداثته كانت تكدّر عليه السّلطة المدنية لكفره وجحوده. ومنذ كان شاباً تعرّض لامرأة متزوجة في بيتها فهرب بسرعة من مسقط رأسه وخدم عند ابن السّعود أمير نجد.

إلّا أنَّ ميله الذي لا يقاوم لسبّ الدّين دون انقطاع عَرَّضَهُ للحَدِّ والحبس، فهجر نجداً واحتمى بالكويت، وهناك أيضاً وقع في شرك الحب، لكنه تخلّص منه بعد

الجهد الجهيد، وسافر إلى «حائل» وانضمّ إلى رجال الأمير ابن رَشيد. إلّا أن طالعه كان يلازمه ويتضافر ضدّه. وغضب عليه ضابطه فضربه بهراوة علانية فطال سقمه، وبُعد شقاؤه في السّجن منبوذاً طريداً لا صديق له في هذا العالم.

وكانوا في ذلك العهد يمدون السّكة الحديد الحجازية فأسرع عبد الله إلى العمل والكسب في هذا السّبيل، غير أن المقاول فاجأه نائماً عند الظّهر وفي وقت العمل فقطع عنه أجرَه. فلم ترق بعينه هذه المعاملة فقطع رأس المقاول. وفي هذه المرة تدخلت الحكومة التُّركية، وأزلج عليه باب سجن المدينة. فصعب عليه الأمر وتنكد عيشه ثم توفق إلى الهرب من نافذة، واحتمى في مكة وأظهر أدباً، وفي الوقت نفسه تفوقاً في ركوب النّوق فسلموه أمر توزيع البريد بين مكة وجدة، فارتاح إلى هذه الخدمة ونبذ كل عاداته السّيئة، وفقد نزق الشّباب، وأرسل في طلب والديه إلى مكة، وفتح لهما حانوتاً يستغلانه لحسابه برأس مال قدمه له بعض التجار... واللصوص.

ووقع عبد الله في كمين بعد هناء وبحبوحة مدة سنة كاملة، ونهب اللصوص النّقود التي كان ينقلها واستولوا على ناقته. فقوّمت الحكومة حانوته تعويضاً عما أضاع من النّقود. إلّا أنَّ شيئاً يسيراً خلص له من هذه النّكبة تمكن به إصلاح حاله وشراء مطية والدّخول في حرس الشّريف الهجّانة. ولم يلبث أن رقيَّ إلى رتبة ملازم لكفاءته لكنه لم يتمكن من كتم ميوله المتطرفة إلى اللعب بالخنجر والإفراط في الاستهتار وملازمة بيوت البغاء في جميع عواصم البلاد العربية، وفي ثلم عرض رفاقه والتعرّض لأحوالهم الدّاخلية والاستهزاء بهم. واختلاق الأرجيف والأخبار الكاذبة عنهم ولما فصل من وظيفته اتهم أحد العتيبة الحسودين بالوشاية عليه وطعنه بخنجره داخل المحكمة وتحت أنظار الشّريف شرف الذاهلة. فعاقبه شَرَف حتى التلَفَ لأن هذا الشّريف كان عادلاً إلى حد القسوة، وبالأخص فيما يتعلق بالآداب العامة. إلّا أنّه أدخله في خدمته بعد أن شفي من آلامه وكان في بداية الحرب من حراس دُخيل الضّابط العُقيلي لدى فيصل وعظم شأنه بعد وصيته. إلّا أن المقاومة التي حدثت في الوجه صيرت «دُخيل» سفيراً؛ فأسف عبد الله لتركه الصّفوف، واستعطف سيده واستكتبه كتاب توصية ليخدم تحت إمرتي، وهذا نص الكتاب:

«منذ سنتين وعبد الله يخدم بأمانة، إلّا أنَّه لم يكن محترماً وهي خصلة في الأولاد المتهتكين فهو أحد رجال قبيلة عُجْيلانَ المجرّبين لأنه خدم أكثر أمراء العرب وكان يُطرد في كل مرة من عمله بعد حَدِّهِ وحبسه لانتقامه ممن يهينون شخصيته العظيمة!». وأكّد ابن دخيل بأنه مامن أحد قط يفوق هذا النَّهابي بالفروسية، وإن عبد الله قد مارس فن انتقاد جياد النّوق ومعرفة صفاتها. ولا يفوق رجولته أحدٌ من بني آدم. فضلاً عن أن الحسر يخفي عنه نواحي كثيرة من الأخطار. وبالاختصار كان عبد الله مثال الرّفيق الشّديد في مثل هذه الحرب، فأدخلته في خدمتي فوراً.. ولم يذق مرارة الحبس عندي غير مرة واحدة. وذلك لوقوع حادث في معسكر آلِنْبي العام يوم أن أبلغني حاكم كبير ـ ولم يكن لديه وسيلة غير ذلك ـ بأنَّ رجلاً وحشياً وجد جالساً على درجات باب منزل القائد العام مدعياً بأنه ابني! وأنه من شجعان فيصل واقتيد بدون مقاومة إلى مكان الحرس. وكان يأكل البرتقال بِنَهَمْ المُرَاهن. وكان البرتقال قليلاً في ذلك الوقت.

وفي هذه الفرصة جرب عبد الله لأول مرة التكلم بالتليفون، وقال للحاكم بأن تعميم هذه الآلة في جميع السّجون يمهد طُرُق الإسعاف والمدد تمهيداً محسوساً، ثم خرج بعد ذلك بحفاوة ولم يكن يشاء أن يعتقد بأن أحداً يمكنه أن يرغمه على التجوال في «الرّملة» منزوع السّلاح. وعليه فقط حصل على إذن خاص بأن يمشي متقلداً سيفه وخنجره ومسدسه، وظهر لأول مرة بفضل هذا الإنعام شاكي السّلاح في ردهة الموقع حاملاً سجاير وقدم منها للحرس العسكري، وهوَ هوَ الذي كان يمتحن المتقدمين للخدمة في حرسي الخاص وبفضل لباقته ولباقة «زعاقي» الرّئيس الآخر في الحرس والذي كانت له صلابة الضّابط. بفضل هذين الشّخصين كنت محاطاً بخيرة الرّجال الذين يندفعون إلى الموت لأجلي. وكان البريطانيون في العَقَبة يسمونهم (قاطعي الطّرق) إلّا أنَّهما لم يقطعاها قط إلّا بأمري. وربما كان بعض الشّخصيات المريبة الحسودة تعتقد بأنه ليس من أصالة الرّأي أن لا يعترف أولئك الذُؤْبان بسلطة غير سلطتي. إلّا أنهم كانوا يعرفون كيف يكسبون عطف الميجور «مارشال» رغماً من أنهم كانوا يرهقونه من الصّباح إلى المساء بأحاديث لا يفهمها، خاصة عن صفات النّوق

وطرق تربيتها وأمراضها ومعالجتها، وكان مارشال طيب القلب صبوراً، فلا يكاد يبزغ نور الصّباح حتى يرى اثنين أو ثلاثة جالسين قرب سريره ينتظرونه إلى أن يستيقظ من نومه ليتابعوا إعطاء دروسهم النّظرية في الفارس الكامل الصّفات، وكان نصف رجالي تقريباً من أبناء عُقيل قرويّي نَجْد الأشداء البارزين في جيش فيصل، وكانوا يمتازون عن سواهم باعتنائهم البالغ بنوقهم، وكان لكل حيوان اسمه يسمعه على بعد مئة متر، وإذا ترجل عنه فارسه يقف أمام الحِمل الملقى إلى جانبه. وبنو عقيل قوم من المرتزقة لا يحسنون الخدمة إلا بالأمر الطّيب، وبما أنهم لم يُكافأوا مكافأة حسنة فقدت الثّقة بهم وباؤوا بالخذلان، ومع أن العقيليين قد قاموا في مدة الحرب بعمل بارز إذ اجتازوا أقبية الماء تحت الأرض في المدينة مرتين متواليتين وقدموا تقريراً عن حالة الموقع المحصور.

وكنت أدفع لرجالي ستة جنيهات عن كل شهر، وهو أجر الخيّال في الجيش ونفقات ناقته على حسابه إلّا أني كنت أركبهم نوقي حتى ليقتصد الرّجل منهم أجره كاملاً، وكنت بهذه المعاملة أسيل لعاب الشّجعان الذين يتوافدون من نوحي الجيش طالبين الخدمة تحت إمرتي، رغماً من أنهم يعلمون كثرة تنقلي وأسفاري الطّويلة الفجائية الشّاقة، والعربي العادي لا يطيب له السّفر على ظهر ناقته التي هي نصف ثروته ويسرع بها وينهك قوها. ولم يكن بإمكانه أن يتحمّل مشاق أسفار طويلة متعبة، إذن، كان عليَّ أن أنتقي فرساناً أشداء يركبون على نوقي الخاصة، فقد اشترينا أشد الجمال وأسرعها بأثمان مرتفعة جداً، ولو أنها شديدة قوية الشّكيمة على فارسها، وقد تُفَضَّلُ المطايا الشّديدة الأخفاف الجافة الأرساغ، لتحمّلها طول الأسفار وشدائدها. ولا تكاد تهزل حتى ترسل إلى مستشفانا الخاص، بحيث أن كل حيوان متعب يفصل عن رفاقه مؤقتاً، وتجري هذه المعاملة نفسها على الفرسان، وكان الزّعاقيُّون يعتبرون كل رجل مسؤولاً عن مطيته وعن حالة سرجها.

وما كان أشد افتخار أولئك الفرسان لانتمائهم إلى حرسي! ولشدة اعتنائهم بأجسامهم كنت تحسبهم حَقْلاً من السّوسن، أو قوس قزح في أثوابهم الزّاهية

بجميع الألوان ما عدا الأبيض الذي كان لون ثوبي دائماً، وإذا لبس أحدهم هذا اللون فيكون قد أفرط بطيب سريرتي.. وكنت بمدة نصف ساعة فقط أراهم مستعدين تمام الاستعداد لرحلة ستة أسابيع، الحد الأقصى للزّاد الذي يمكنهم أن يضعوه على سروج مطاياهم. أما ركوبهم الجمال الحمولة أو سوقها أمامهم إنما كان إفراط في امتهانهم، ولإشارة مني يسافرون ليلاً نهاراً ولا يشكون مللاً أو تعباً. وإذا اتفق أن أحد الرّجال الحديثي الخدمة يُبدي شكوى أو تذمراً ينتهره رفاقه، وإذا لم يَرْعوِ يقدمون له أسباباً أخرى للشّكوى! وكانوا يحاربون كالجن لأقل إشارة مني، وعلى الرّغم مني ويضربون الأتراك غير المحاربين. وإنها لأكبر إهانة إذا ضرب أحدهم الآخر، وينتظرون العقوبة القصوى كالمكافأة القصوى، سواء بسواء، ويفخرون على الجيش بأجمعه بأعمالهم وغنائمهم.

وكان العرب في ذلك الحين كأنهم ممسوسون وكان علينا أن نظهر أمامهم بمظهر القسوة لكي نتمكن من قيادهم، وكان رجالي فوق ذلك أعداء الدّم لثلاثين قبيلة، فلو لم أكن حازماً شديد الوطأة عليهم لوقعت كل يوم مذابح في الجيش، ولولا انقسامهم على بعضهم البعض لاتحدوا ضدي وتآمروا عليَّ، إلّا أن عدم اتفاقهم خلق لي جواسيس من بينهم يؤمّنون في أسفاري الطّويلة بين العَقَبة ودمشق وبين بئر سبع وبغداد، وقد مات في خدمتي أكثر من ستين رجلاً.

* * *

الفصل الثّالث والعشرون
الصّراع على الطَّفيلة

وكنا في «قُويرة» ننتظر الأخبار عن ابتداء حركاتنا ضد الطَّفيلة تلك الكوم من القرويين المتحكمين بطرف البحر الميت الجنوبي، وقد أشرنا بأن نزحف عليها من ثلاث جهات دفعة واحدة من الغرب، والجنوب، والشّرق، وفي هذه النّاحية الأخيرة سيرفع السّتار عن مسرحنا الحربي فنأخذ «الجَرْف» أولاً وهي أقرب محطة لنا على الخط الحجازي، وكان على الشّريف ناصر ـ السّعيد ـ أن يتابع الهجوم بصحبة نوري السّعيد رئيس أركان حرب جعفر على رأس بعض الجنود النّظاميين ومعهم مدفع وبعض رشّاشات فقاموا من «جفر» التي هي قاعدة حركاتهم، وأنهوا مهمتهم في اليوم الثّالث، وقد قاد ناصر غزوته بلباقة ونجاح وهو على أتم استعداد لها حسب عادته. وكان غرضه الأقصى «الْجَرف» وهي محطة قوية لها ثلاث بنايات بالحَجَر الدَّبْش غير المنحوت تحميها مواقع خارجية، وبعض خنادق وكان وراءها تل مرتفع محكم التحصين يصلح للدّفاع تتخلله بعض بنايات متينة وجدران مبنية بالحجر اليَبْس. وقد جهَّزه التُّرك بمدفع جبلي ورشّاشين. ووراء كل ذلك مرتفع أهم وأمنع ذو سفح وعر، وهو آخر وصلة من السّلسلة التي تفصل «جفر» عن «باير».

وكانت هناك نقطة الضّعف عند الأتراك لأنهم لم يدعموا هذين المرتفعين بالجنود الكافية، وكانت قمّة الجبل تشرف على الخط الحديدي فاحتلَّ ناصر في إحدى الليالي جميع هذه القمم، ولم يمهل العدو كي يطلب المدَدَ وقطع الخط من جهتي المحطة فأصبحت منعزلة تمام العزلة. وماكاد يبزغ أول ضوء من أضواء الصّباح حتى كان

مدفع نوري السّعيد مصوباً عليها من فوق القمّة وبثلاث طلقات فقط أسكت المدفع التُّركي المصوب على القمّة السّفلى فاعترت نوري حماسة شديدة، وركب بنو صخر على جمالهم واستعدوا للإندفاع إلى الإمام. أما نوري فقد وجد أنها محاولة خطرة ما دامت رشّاشات العدو تمطر رصاصاً إلّا أنَّ كلامه لم يؤثر في عقلية البدو. عندئذٍ لم يرَ بداً من مساعدتهم، فأصلى العدو ناراً حامية من مدفعه بينما بنو صخر يلتفّون حول الجبل الكبير وينسلّون كالسّراحيل على رأس الأكمة فارتد التُّرك لهذا الهجوم الجنوني. وقد دنا منهم العرب على ظهور نياقهم كالجنّ الصّاخب، واحتموا ببنايات المحطة، وجرح اثنان من المهاجمين جروحاً خطرة. فانقض نوري على الموقع الخالي، ولم يتأثر مدفعه كثيراً، وصوّبه على المحطة بأسرع ما يمكنه فتهلل بنو صخر لما رأوا أن البناية تتداعى حجراً حجراً، واعتلوا سروجهم ثانية، وهم يهدرون كالبُعُر، وانقضوا على المحطة في السّاعة التي كان يسلم فيها العدو سلاحه. وأسر من بقي حياً وعددهم مئتان منهم سبعة ضباط، وبعد أن انتهوا من النّهب. نسف الإختصاصيون قاطرتين وحوض الماء المنصوب والمضخّة الدّافعة ومفاتيح وإبراً كثيرة على خطوط العمل، وحرقوا بعض شاحنات وألقوا بعض متفجرات تحت الجسر، ولكن سراعاً وبدون اعتناء. وكان لا بدَّ بعد الانتصار والسّلب أن تنقل الغنائم على أكتاف البدو فيهملون كل عمل لا يعنيهم مباشرة.

وعاد الجو يعكر علينا صفونا في الأيام التالية فسقط الثّلج مدة ثلاثة أيام متوالية، إلّا أنَّ ناصراً عاد إلى معسكر «جفر» دون أقل صعوبة.

وكانت هذه الهضاب حول معان ترتفع من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، ولذلك كانت عرضة للسّموم الشّمالية والشّرقية. ولقد كان يهبُّ الشّمأل من آسيا الوسطى ومن القوقاز فيكتسح الصّحراء الكبرى حتى قمم «أدوم» حيث تتكسر عليها أول عصفة من عصفاته، ثم يتابع هبوبه فوق المرتفعات ويتغلغل في اليهودية حتى جبل الكرمل، ويلقى وراءه صقيعاً مهلكاً، وشتاءً قاسياً مميتاً.

وإذا استثنينا بئر سبع والقُدس، فقد كان البريطانيون يقاسون مضض البرد، وكان

العرب يحتمون في هذين الموقعين ليتقوا أهواله، وقد فهم أركان حرب الجيش البريطاني للأسف بعد فوات الوقت أننا نحارب في جبال من جبال الألب المصغَّرة، ولم تكن الخيام التي منحونا إياها لتأوي ربع رجالنا ولم يكن لدينا ملابس صوف ولا جراميق ولا أغطية كافية نفرِّقها غطاءً لكل اثنين من رجالنا المعسكرين على صياصي الجبال، وكان جنودنا إذا لم يهربوا أو يموتوا في أماكنهم يحتم عليهم أن يُقاسوا أهوال البرد الأبدية.

وكان على عرب «البَتراء» وقد بلغتهم أخبار «الجرف» الطّيِّبة أن يحتلّوا حسب خططنا الأولية تحت قيادة الشّريف عبد المعين مرتفعات جبالهم في الغابات القريبة من «الشَّوبَك» ولقد كانت رحلة خيالية حقاً إذ انخرط أولئك القرويون الحفاة في غمرات الضّباب الكثيف. وعلى جلودهم جلود الغنم يصعدون ويصوبون في وديان بعيدة الغور، ويتوقّلون المنحدرات الوعرة الخطرة من تلول الثّلوج يتخللها هنا وهناك شجر (العُرعُر) النّادر الورق. وقد هلكت حيوانات كثيرة ورجال كثيرون أيضاً. إلّا أن أولئك الجبليين الأشداء المتعوِّدين على تحمّل البرد الشّديد مدة الشّتاء قد ثبتوا في التقدم إلى النّهاية.

وقد سمع التُّرك بهذه الرّحلة البطيئة المستمرة فهجروا ملاجئهم المصفحة بالثّلوج عند الغابة ونثروا في طريقهم السّلاح والمؤن وهبطوا مذعورين يفتشون عن ملجأ أمين بجوار الخط الحديدي.

وكانت أولويّة العمل دائماً لناصر فانْقضَّ على شمال جفر في ليلة عاصفة وزوبعة كاسحة حتى إذا بزغ الفجر ظهر على ضفَّة الغدير الصّخرية حيث كانت الطَّفيلة لاجئةً راقدة على فراش نومها، وأمَرَها بالتسليم تحت طائلة ضربها وتخريبها بالمدافع فذهبت تهديداته مع أذيال الرّيح لأنَّ نوري السّعيد كان قد سَحبَ مدافعه إلى قُويرة. ولم يكن في الموقع أكثر من مئة وثمانين تركياً إلّا أنَّه كان لهم أتباع من بني مُحيسن. وقرّر القتال جمع من القرويين تحت لوائهم لا حباً في الأتراك وميلاً إلى حكمهم بل لأنَّ «دياب» رئيس إحدى العصابات قد انضم إلى فيصل، وأمطروا رجال ناصر وابلاً من الرّصاص ولحسن الحظ قد أخطأوا الهدف.

وانتشر الحويطيون على طول الصّخور المرتفعة ليقاوموا العدو بالرّصاص، إلّا أنَّ هذه الخطة لم ترق لعين «عودة» الأسد الشّيخ ولم يكن بإمكانه أن يتحمّل رؤية قرويين بؤساء صعاليك يجرؤون على الوقوف أمام بني أبو تايه أسيادهم منذ الأزل وجهاً لوجه كالنّدللنّدّ واندفع على ظهر فرسه خبباً إلى أن بلغ أسفل بيوت الطَّفيلة من جهة الشّرق، ثمَّ توقف وتهدّدهم مشيراً بقبضة يده وصعق فيهم صعقة وقال: «أيها الكلاب، ألا تعرفون عودة»، فخارت قوى أولئك الفلاحين وفقدوا الجَلَدَ ولم تمضِ نصف ساعة حتى كان الشّريف ناصر يشرب الشّاي في أحد البيوت الكبيرة مع ضيفه! الحاكم التُّركي محاولاً تخفيف صدمة القدَر عليه.

ووصل «مستور» عند هبوط الليل. ونظر المطالقة إلى الحويطيين نظرة انتقام لأنهم أعداء الدّم، ونظرة حسد وغيره لأن بني تايه كانوا ينزلون في أجمل منازل البلدة، إلّا أن الشّريفين قد قسما البلد إلى موقعين منفصلين كي يتقي شر اصطدام الفريقين المتنافرين الشّرسين.

وانتدب فيصل أخاه من أمه زيداً الشّاب ليقود حملة الهجوم على البحر الميت، وكانت هي المرة الأولى التي قاد فيها زيد رجالاً في الشّمال، فسافر مملوءاً حماسة وإخلاصاً، وكان من الموافق أن يكون قائدنا جعفر باشا مستشاراً له، وتوقفت فرق المشاة والمدفعيون ومطلقو الرّشّاشات في البَراء لنقص المؤن، وتابع زيد وجعفر سفرهما حتى الطَّفيلة.

إلّا أنَّ الأمور جرت على غير ما نرغب، فقد أظهر عودة أنفه وعظمة تجاه شبَّان المطالقة ومتعب وعناد بن عبطان هذا الذي قتل ابن عودة أباه من مدة طويلة، وتلقَّط أولئك الشّبان المفتونون بأحاديث الانتقام...

يالهُ من بُغاثٍ يطاول نسراً! وجاهر عودة بأنه يؤدبهم تأديباً على مرأى من النّاس إذا أظهروا ازدراءً تجاهه. ولكان هذا هيِّناً لو لم تلعب بالفريقين شهوات الحساد والنَّمامين، وسنرى البلدة في اللهب، وتظاهر شباب المطالقة في الشّوارع يقودهم صاحبي «رُحَيْل» النّفَّاج.

وشكر زيد عودة ودفع له مبلغاً من النّقود المستحقة وأعاده إلى صحرائه ورأى رؤساء مُحيسن نفوسهم مرغمين على الاستقرار الجبري إلى جانب فيصل، وكنا على وفاق تام مع دياب عدوهم، ونعود بالذكرى المؤلمة إلى المثل القديم بأن أجود المتحالفين هم خصوم كل نظام جديد لا مؤيدون له وتحسنت حالنا الاقتصادية بفضل ذَهَبَ زيد وعيَّنا ضابطاً ليقوم مقام الحاكم ونظمنا القرى الخمس حسب موافقة حركاتنا الحربية.

إلّا أنَّ هذه الخطط الجميلة كانت ثقباً في الماء، وما كدنا نستعد ونتفق ما بيننا للقيام بعمل آخر قريب حتى فاجأنا التُّرك بمحاولة غير منتظرة ليخرجوننا من أماكننا، ولم تكن تخطر ببالنا قط مثل هذه الاحتمالات والمحاولات. لأن رغبتهم في استعادة الطَّفيلة أو إمكانهم الاحتفاظ بها كانت أموراً خارجة عن دائرة تفكيرنا. وكان آلِنْبي قد بلغ القدس والتُّرك يرقبون مخرجاً من هذه الحرب وربما يكون هذا المخرج في دفاعهم الحسن عن الأُردن ضد البريطانيين، وإذا تمكنوا من البقاء في أريحا مالكين زمامها فما الطَّفيلة في عيونهم سوى قرية حقيرة لا أهمية لها البتة من الوجهة الحربية، ومع ذلك لم نكن لنهتم بالاحتفاظ بها وما كانت لدينا إلّا وِصْلة عارضة للتقدم منها إلى الشّمال نحو العدو، وإنه لمن الجنون المطبق أن يضحي جيش كجيش التُّرك جندياً واحداً وهو في موقفه الحرج ليستعيد قرية الطَّفيلة.

أما حامد فخري باشا قائد الفرقة 48 وقائد مواقع عمان فلم يكن حكمه كحكمنا أو ربما قد بلغته أوامر، ولذلك قد جمع هذا القائد قدر تسعمئة رجل من المشاة استخلصهم من ثلاثة طوابير (وقد تدنَّى عدد الطّابور التُّركي في يناير سنة 1918 إلى حَدٍّ يرثي له) ومئة خيال ومدفعين هاويتزر جَبَليين وسبعة وعشرين رشّاشاً وشحنهم جميعاً بالسّكة الحديد إلى «الكرك» حيث أعاد تنظيم المواصلات في تلك النّواحي، وجر وراءه جيشاً من الموظفين ليشكل الإدارة المدنية في الطَّفيلة ثم سار نحو الجنوب على أمل مباغتتنا.

والحق يقال إنها كانت لنا مفاجأة، ولم نسمع قط باسم فخري إلا عند ما هبطت

كشافة الخيالة التُّركية على مخافرنا الأمامية في وادي «حَسَا» الواقعة في تلك المعابر الغائرة الصّعبة المسالك الفاصلة الكرك عن الطَّفيلة ومؤاب عن أدوم، وعند هبوط الليل كان رجالنا مشتّتين والعدو ينزل علينا.

وكان جعفر قد ابتكر طريقة للدّفاع السّريع على ضفة غدير الطَّفيلة الكبير، واقترح إخلاء القرية ـ إذا وقع الهجوم ـ والدّفاع عن المرتفعات التي تتحكم من الوراء بهذه الكَوْمة من البيوت إلّا أني حكمت بأن هذا التّدبير كان خطأً، نعم كانت السّفوح وعرة ظالمة. وكان الدّفاع فيها أصعب من الهجوم، إلّا أنَّه كان في الإمكان الدّوران حولها من جهة الشّرق وإذا أفلتت البلدة من قبضتنا لا يلبث سكانها أن يرتموا في أحضان المحتلين. فقدر هذا الاستنتاج في كل مكان تقديراً حسنً. ولم يكن أمام زيد حل آخر فأمر عند منتصف الليل خدمه وأتباعه بأن يخلوا أماكنهم واندفع الجنود إلى القمّة الجنوبية، وأرسلت الأمتعة في الطّريق السّفلي إلى الوراء في مكان أمين فذعر السّكان لهذه الحركات واعتقد الفلاحون بأننا ننجو بأنفسنا ـ وللحقيقة كان الأمر كما توهموا ـ وتحفزوا للهرب ليصونوا حياتهم ومتاعهم. وكان الجليد قاسياً يتكسر تحت الأقدام، وخلاط غريب في ذلك الليل المدلهم البارد، وفي شوارع ضيقة أحدث ذعراً لا يوصف، وقد رسم لنا دياب صورة مضطربة لحالة الأتباع النّفسية، وعدم رضائهم بهذه الحالة، وأعتقد بأنه كان يظهر إخلاصه البديع لقضيتنا أما أنا فكنت أميناً من أمانة أولئك الخضريين الشّجعان الذين يمكننا أن نحتاج إليهم. ولكي أقيم البرهان على استنتاجي جلست على سطح بيتي أولاً ثم هبطت إلى الشّوارع والأزقة أطوفها. وأنا متزمل بعباءتي لا يعرفني فيها أحد يتبعني عن كثب بعض من حرسي الخاص.

فلم يفتنا شيء إلّا أني لم ألحظ على أحد منهم عطفاً نحو الأتراك. بل كانوا يرتعدون خوفاً من عودة العدو إليهم. وكانوا مستعدين لأن يعضدوا أي قائد يدفع عنهم غائلة عودة التُّرك إلى الطَّفيلة، فاقتنعت لهذه العواطف التي كانت توافق مبدأي بوجوب الدّفاع عن القرية دفاع الحرِدَ العنيد.

والتقيت أخيراً بمشايخ جازي وبمتعب وعناد الشّبان الأشداء الجميلي المنظر

بثيابهم الحريرية، وأسلحتهم المفضّضة فأرسلتهم في طلب عمهم «حَمْد العرار» ورجوت هذا الأخير بأن يجتمع إلى القرويين الذين ـ بدليل صدى إطلاق النّار الذي يصل إلينا ـ كانوا لا يزالون يناشدون الأتراك ويفهمهم بأننا نجدّ إلى إنقاذهم وكان حمد فارساً مغواراً إلا أن في خلُقُه سوداء. فركض خَبَباً مع عشرين من أقاربه. وهو كل ما أمكنه جمعه في هذا الذعر العام الشّامل. فبلغ الرّعب أقصاه لهذا الخبب السّريع في الشّوارع. فكان النّساء يشددن حزم المتاع ويقذفنها من النّوافذ، وإن يكن لا يوجد رجل إلى أسفل يتلقف هذه الحزم، والأطفال يصرخون والأمهات يولولن. وكان المطالقة لا يزالون يطلقون النّار في الفضاء تشجيعاً لنفوسهم أو كأنهم يردّون نار الأتراك بالنّار، وقد ابتدأت تلمع في الفضاء على الليل الهارب، وترسم خطاً نارياً حول جلاميد الشّمال. فصعدت مواجهة على المرتفعات كي أتشاور مع زيد.

وكان الشّريف الشّاب جالساً على صخر واجماً يقلب البلاد بنظارتيه البعيدتي المدى، كي يراقب حركات العدو. وكلما تحرَّج الموقف تكاسل واستسلم للخمول والانفصال عن الكون. أما أنا فقد أخذتني ثورة غضب إذ كنت أقول في نفسي: إن الأتراك لو راعوا الخطط الحربية الحقّة لما كان لهم أن يعودوا إلى الطَّفيلة، غير أنَّها كانت شهوة دنيئة وحسداً حقيراً وإنها لسجايا غير جديرة بعدوّ رزين، فكيف يمكن إذن أن يطلبوا منا احتراماً لهم في حرب نظامية كهذه، وقد أثّرت بداهتهم البلهاء هذه في نفوس جنودنا فلم يقرّوا لهم بالشّجاعة، ولا ينحني ضباطنا احتراماً أمام ذكاء ضباطهم. وكان الصّباح قارصاً مجلوداً. وكانت نفسي نفس توتوني جرماني تدفعني إلى أن أكلفهم دفع ثمن تغيير خططي غالياً.

فاقترحت أولاً أن يتقدم عبد الله بمدفعين ليجسَّ قوة العدو ويقدر استعدادهم، وتشاورنا في ما سوف نقوم به، ولم نكن في مداولتنا عبثاً لأن زيداً كان شاباً ومحارباً شجاعاً جداتٌ ذا رباطة جأش، ورزانة ضابط نظامي ورأينا عبد الله يتسلق الضّفة الأخرى، وانقطع إطلاق الرّصاص بعد أن كان متواصلاً، وشدَّد وصول مدفعيتَيْ فرسان المطالقة والفلاحين، فاندفعوا إلى الأمام وانقضوا على فرسان التُّرك ودفعوهم

إلى المرتفعات وراء سـهل عرضه ميلان، ثم إلى مرتفعات أخرى أبعد منها على طول رفارف منحدر «الحَسَا» الكبير.

وكان وراء كل ذلـك يعسـكر الجيـش التُّركي الـذي لا يزال جامداً في مكانه لشـدة البرد! ثم تنبّه وتقدم ببطء بعد قضاء ليل شديد قاس، إلّا أن الجنود لم يلبثوا أن أظهروا نشاطاً وصدُّوا عبد الله عنهم وأخذنا نسمع إطلاق نار الرّشّاشات والمدافع المتواصل، فكأننا نرى بالعين المجردة سير الموقعة، وكانـت الأخبار طيبة، وكنت أتمنى لو تقدم زيـد إلى الأمام بسـرعة، غير أنـي كنت أحتـرم آراءه فدعاني ذلك إلـى التريث وانتظار أخبار دقيقة عن عبد الله الكامن في الطّليعة.

وكان هـذا الحـذر غير ضـروري، إلّا أنهم كانـوا يعرفون بأني لم أكـن جندياً نظامياً فيسـمحوا لنفوسـهم حرية التردّد في الموافقة على مشوراتي، إلّا إذا أفحمتهم بالحجة القاطعـة، ولـحسـن الحظ كانت لديَّ خرائط تسـعفني فتقدمت إلـى الجبهة كي أحكم بنفسـي في أمـر قرارهم، فالتقيت ببعض حرسـي الخـاص يقلِّبون في كُـوَم من المتاع ألقتها النّسوة في الشّارع، وقبل أن يُسرعنَ إلى التقاطها كان حرسي ينزعون منها أشياء كثيـرة مفيدة، فأمرتهم بـأن يعودوا إلى جمالنا ويأتوا بمدافع «هوتشـكيس» الآلي على ضفَّة المعبر الشّمالية.

وكان الطّريـق يمـرّ تحت كرمة من التيـن القاحـل، ذي الأوراق الصّفراء والغصون العُـوج المتثنيّـة والتـي سـتصبر زمنـاً طويلاً علـى عُرْيها إلـى أن يأتـي الرّبيـع بالحياة والخضرة، ودار الطّريق من هناك لجهة الشّـرق متثنياً إلى مسـافة طويلة على السّـفوح إلـى أن بلغـتُ القُمَّـة، فتركتهـا وتنحيت كي أتسـلق الجلاميـد وأبلغ المرتفـع، وكان الإنسـان إذا مشـى عـاري القدمين أتّقى السّـقوط علـى الصّخور الملـس، وخصوصاً وأن الأقدام التي تصلَّبت لطول الأسـفار وشـقائها، والتي جلدت من شدة البرد لم تعد تشـعر بخشـونة الأرض وحدّ الحصى الحَسكة، وقد قصر الطّريق الذي سلكتُهُ ودفئَت الأرض فوصلت بسـرعة إلى آخر قمّة حيث أشـرفت على مناظر الهضبة الجميلة، بعد أن قطعت سهلاً منبسطاً.

وكانت هذه القمّة المنتصبة لا تزال تحرص على بعض أسس جدران بيزنطية طال عليها الأمد وانطوت حولها الأجيال، اتفاق عجيب يمكننا معه صون جنودنا الاحتياطية في ذلك الملجأ الرّفيع، أو إقامة المعاقل العليا للدّفاع عن الطَّفيلة.

وللحقيقة لم يكن لدينا احتياطي في ذلك الوقت، ولم يكن أحد منا يشك في معرفة مكان جنودنا العاملة في تلك اللحظة وفي كيفية توزيع قواتنا إلا أننا إذا تمكنا من الحصول على بعض رجالنا فيكون هنا، نعم هنا مكانهم الأفضل، ولقد رأيت أمامي العُقيليين الملتحقين بزيد يتحفَّزون خجلين للإلتجاء في منخفض من الأرض، ولم يكن من السّهل إخراجهم منه، فالتجأت إلى الكلام الشّديد القاسي فوصلت في النّهاية إلى إقناعهم، ودعوتهم إلى أن يتقدموا ويجلسوا على طول حَرف القمّة ذات الصّخور المرمرية، ولقد ظهرت سُدُوفهم تتراءى في السّحاب، وكانوا قدر عشرين رجلاً، ونظراً لبعدهم عن العدو كانوا يظهرون كأنهم مفرزة من الجيش كثيرة العدد، وأعطيتهم خاتمي علامة موافقتي على تجمعهم فيمكنهم بوساطة هذا الشّعار حَجْز كل رجل يصل إليهم وخاصة رجالي ومدافعهم.

ثم تقدمت إلى الشّمال في وجهة المعركة واجتمعت بعبد الله وهو ذاهب إلى زيد ليطلع منه على الأخبار والحوادث، وقد نفدت ذخيرته وقتل خمسة من رجاله بشظايا القنابل وتعطل مدفع من مدفعه الأتوماتيك وكان يعتقد بأن التُّرك قد انقسموا إلى قسمين، وكان يريد أن يقنع زيداً بوجوب الصّعود إلى الهضبة مع جميع رجاله ويشترك في المعركة، فلم يكن عندي ما أضيفه إلى تقريره، ولم ألجأ إلى الحيلة وتركت لأستاذيَّ السّعيدين العناية والارتياح إلى تغيير المواقف التي يرونها مهددة وبالتوقيع على تقاريرهم التي كانت على كل حال موافقة للحالة الرّاهنة.

وعندئذٍ سنحت لي الفرصة لدرس الموقعة المقبلة، وكان السّهل الصّغير البالغ عرضه ميلين ذا زاوية ومحدوداً من ناحية بالأشجار المخضوضلة قليلة البروز ومن ناحية أخرى بأَسناد الجبل الذي أقفر من حاميتنا، وفي هذا السّهل يمرّ طريق الكرك إلى أن ينحدر في «الحَسَا».

وجاهد الأتراك جهاد المستميت ليشقوا لهم طريقاً على هذا السّهل، إلّا أننا بفضل هجوم عبد الله كنا مالكين من الميسرة جميع التلال الغربية التي تمر عليها خطوط نارنا، وبينما كنت أعبر الفضاء المكشوف تساقطت حولي بعض القنابل ودخلت في قدميَّ الدّاميتين عيدان الحُمَر، وكانت نيران التُّرك مصوبة إلى أبعد مدى، فبعد أن تحلَّق القنابل فوق جبالنا كانت تنفجر وراءَنا إلّا أن قنبلة انفجرت بالقرب مني فتمكنت من معرفة عيارها! وكنت لا أزال أتقدم فأخذ الأتراك يقصرون مدى الرّماية إلى أن بلغت الجبل ويمطرون سفوحه بقذائف المنثار «شرابنل» بسخاء وكان لهم من غير شك مكان مكان مستور للاستكشاف والمراقبة. فرقبت الأفق بإمعان فإذا بجنود يتسلَّقون من جهة الشّرق ما وراء المعبر الذي يمرّ فيه طريق الكرك وسينقضُّون علينا حالاً من طرف الجبل لجهة الغرب.

وكنا نبلغ السّتين عداً ومقسمين إلى قسمين وراء الجبل. قسم في أسفله وقسم على قنَّته، أما القسم السّفلي فكان مؤلفاً من قرويين عُراة حُفاة تكتسحهم نيران العدو. وكان موقفهم رديئاً إلّا أنهم هم وحدهم الذين شاهدتهم في ذلك اليوم لا يرتعدون من شدة البرد! وقالوا لي لقد نفدت منا الذّخيرة وانتهى الأمر، فأجبتهم بأن ما يعتقدونه هو خلاف الواقع إنما هي البداية لا النّهاية وأشرت بسبَّابتي إلى الجبل، وقلت لهم بجرأة: هناك الذّخائر المكدَّسة تنتظركم فشمِّروا وأسرعوا واملأوا أحزمتكم ذخائر وتشددوا، وبهذه الفرصة كنا قد سترنا انسحابهم ومكثنا مكانهم إلى أقصى حد مكنتنا منه الظّروف.

فأسرعوا وقد شدَّد عزيمتهم خطابي الموجز وركضت إلى القمّة وأفهمتهم بأن لا ينقطعوا عن إطلاق النّار في نقطة معينة حتى يكونوا على أتم استعداد لإطلاق نار أخرى على نقطة ثانية، وكان «متعب» يقود هذه الفرقة الضّئيلة وهو بلباس الرّكوب كأنه نصف عار ليتمكن من القيام بهذا العمل القاسي، وكانت عقارب صدغيه الجميلة تتدلى على وجهه شُعْثاً ملوثة. وبدا زائغاً وحشيَّ المنظر إذ تقلصت يداه وهَدَرَ صوته وفاضَ غضبه لخيبته وانفلات الفرصة التي كان يرجو منها أن يكسب أول معركة خاض غمارها لقضيتنا.

وكان لوصولي إليه في هذه السّاعة الحرجة والأتراك يتقدمون مرارة تفطرت لها كبده، ولما قلت له إني قادم إلى هذا المكان لأدرس مناظر الطّبيعة البهيجة اشتدَّ غضبه وظن أني أهزأ به، وغمغم ببعض كلمات ضد المسيحي الذي يذهب أعزل إلى الحرب، فأجبته بأن «كلاوزيفيتس» Clausewitz يؤكد في «كتابه عن الحروب» بأن مؤخرة الجيش تقوم بعملها أحسن قيام بوجودها في مكانها لا باشتراكها الفعلي في المعركة، إلّا أنَّه لم يكن مستعداً للضّحك حتى ولا للإبتسام. وكان محقاً لأن الوادي الصّوّاني الذي كنا نحتمي وراءه كان يدوي دوياً، ولأن العدو قد اكتشف مخبأنا فصوّب عشرين رشّاشاً تقصف مقذوفاتها وتنفجر على مناكب ذلك المخبأ. ولم يبقَ لدينا ما نحتمي به من الأرض سوى ارتفاع أربع أقدام، وعرض خمس ينقبها الرّصاص نَقباً ويقلبها قلباً ويمرّ طائشٌ منه فوق رؤوسنا يصفر صفيراً يصم الآذان كأن جنود الموت تزحف علينا، ويد القضاء تقبض على أعناقنا، إذن كان علينا أن نرتد عن هذه القتْرة الرّديئة، لم يكن لديَّ فرس. فوعدني «متعب» بأنه يتشجع ويثبت عشر دقائق ثم يتبعني.

أدفأني الرّكض، وعددت خطواتي لا تثبت من طول مسافة الموقع ومن عدد المهاجمين إذا تمكنوا من الانقضاض علينا وإخراجنا من معاقلنا. ولم يكن بإمكانهم الإلتجاء إلى مكان آخر وكان هذا المكان مكشوفاً لا ملجأ فيه من جهة الجنوب. فإذا فقدوا جبل المطالقة هذا ربحنا المعركة دون أقل شك. فصمد الخيالة مدة العشر دقائق المضروبة، ثم أطلقوا العنان لخيولهم، وقد بلغني «متعب» فأفسح ركابه لرجليَّ وأردفني على فرسه وإذا بنا بين العقيليين سالمين جميعاً. وكانت ساعة الظّهيرة تماماً. إذن لدينا متسع للتفكير والرّاحة، وكان عرض موقفنا في الجبل يبلغ الأربعين قدماً. وله شكل حسن للدّفاع، وقد احتلَّ القمّة ثمانون من رجالنا ولا يزال الشّجعان يتوافدون، وتقدم المدفعيون ببطاريتهم ومدفعهم. وجرَّ لطفي ـ المخرِّب المشهور ـ مدفعيه بسرعة يتبعه مئة عقيلي. وفكان اجتماعنا كأننا في وليمة وكلمتنا دائماً «حسن» كانت تخفي عن الرّجال أموراً غامضة ومواقف حرجة وتنشط الوهن وتحيي أمل اليائس الرّعديد، وثبتنا المدافع الآليّة وراءنا على طول عرف الجبل الذي يخفينا عن نظارات العدو

بنظام يسمح بضرب العدو في أماكن مختلفة كي نضايقهم في انتشارهم لا أن نمنعهم منه. وتلك حيلة كان يلجأ إليها «ماسّينا» Massena. وهدأت الحال وسكن المكان فرقدت في مخبأ تدفئه حرارة الشّمس. ويقيني الرّيح ورصاص العدو. وغفوت ساعة كالرّجل السّعيد بينما العدو يحتل الجبل الذي أخليناه وينتشر مثل قطيع من الأوزّ وله ذكاء هذه الطّيور الدّواجن فتركهم رجالنا وشأنهم واكتفوا باستعراض أنفسهم.

ووصل زيد وستور عند الأصيل وكذلك راسم وعبد الله. وقادوا معظم قوتنا المؤلفة من عشرين نفراً من البيادهِ على ظهور بغالهم، ومن ثلاثين فارساً من المطالقة ومئتي قروي وخمس بنادق آليّة وأربعة رشّاشات ومدفع الجبال المصري الذي شهد مواقع المدينة، والبَتراء والجرف، فصحوت لأستقبل جيشنا فكان مثل هذا التجمع بديعاً حقاً.

فأمطرنا العدو ناراً حامية من مدافعه ورشّاشاته عند رؤيته تدفق الرّجال حولنا، إلّا أنَّ رجاله كانوا يخطئون المرمى، وقد تذكرنا بأن الحركة هي دستور الفن الحربي وأخذنا في التقدم. وكان راسم قد تحول إلى ضابط فرسان فسار في الطّليعة ووراءه ثمانون فارساً ليلتفوا حول الجبل من الشّرق ويحدقوا بالجناح الأيسر، لأن الكتب تعلمنا بأن لا نهجم على الجبهة بل على نقطة من الجناح بعيدة كثيراً عن القلب. وربما كان طرف جناح العدو هنا قد تضاءل إلى الحد الأدنى - إلى رجل واحد - فراق تقديري بعين راسم وابتسم لفهمه هذه القضية، ووعدنا مازحاً بأنه سيقود إلينا الرّجل الأخير الوحيد. أمّا «حَمْد العرار» فقد نظر إلى الأمر بعين الجد، وقبل أن يمتطي جواده إلى المعمعة نذر حياته للموت حباً بالقضية العربية، وامتشق حسامه باحتفاء واحترام، وأقسم على هذا السّلاح، وخطب به خطاباً حماسياً، وجرَّ راسم وراءه خمسة مدافع آليّة فكان عمله حسناً.

أما نحن - وقد كنا في القلب - فقد تظاهرنا روحة وجيئة من كل ناحية كي نخفي سفر حملتنا الصّغيرة عن العدو الذي كان يجول في الجبهة ويطوف تطوافاً لا نهاية له مستعرضاً رشّاشاته المصفوفة صفاً بديعاً على عرف الجبل كأنها على رف من رفوف

المتاحف، لقد كان فناً من فنون المجانين ـ وكان الجبل جلموداً حقيقياً من الصّوَّان لا يقدّم ملجأ لضب. وكنا نعلم بالاختبار ما لوقع القذائف على مثل هذه الصّخور من التأثير، فإنها تحطمها فتتناثر الشّظايا وتقتل كل إنسان تقع عليه. وكنا نعلم أيضاً مدى مدافعنا «ڤيكرز» ونقدّر عدّة تصويبها الطّويل غير المألوف حق قدرها. فثبّتنا مدفعنا هذا وصوَّبناه، وتأهبنا لقذف الشّراپنل على العدو حالما يبدأ راسم بالهجوم.

وبينما نحن في انتظار هذه الفرصة الدّقيقة وإذا بنجدة مؤلفة من مئة رجل قادم إلينا من «عايمة» وكان هؤلاء الرّجال قد أضربوا عن القتال لخلاف قام بينهم وبين زيد على قيمة الأجر الذي يتقاضونه منه، إلّا أنهم هبوا لنجدتنا بشَمَم تاركين ساعة الحساب لما بعد المعركة، واقتنعنا عند وصولهم باستصواب نبذ طرق «المارشال فوش». والهجوم إذ لا بدّ منه ولا سبيل لنا سواه، من ثلاث جهات دفعة واحدة، فأرسلنا رجال «عايمة» مع ثلاثة مدافع آليّة ليطغوا على يمين العدو ـ جناحه الغربي ـ وأضرمنا التُّرك شواظاً من مدافعنا أقلقتهم وهم على ذلك الجبل الصّوّاني ولم نخطئ المرمى، فشعروا عندئذٍ بأن سعود اليوم قد انقلبت عليهم نحوساً، وأن الشّمس قد مالت إلى الأفق، ونحن نعلم جيداً بأن آخر النّهار يكون فوزاً في جانب المدافعين الذين يثبتون في مواقفهم.

فجمع حامد فخري الشّيخ أركان حربه وضباطه وجنوده وأمرهم بأن يتقلد كل منهم بندقيته، وقال: لقد «مرَّت عليَّ أربعونَ سنة في الجندية، لم أر فيها قطّ عُصاةً يقاتلون بمثل هذه الشّجاعة الغريبة، ضُمّوا صفوفكم». إلّا أنه قد حال الجريض دون القريض لأن راسماً كان قد اندفع إلى الأمام مع خمسة مدافع آليّة لكل مدفع رجلان يتناوبان إطلاق النّار. وابتدأ بالهجوم، وكان رجاله المحجوبون عن الأنظار يسحقون جناح التُّرك الأيسر سحقاً.

وكان رجال «عائمة» يعرفون مخارم تلك الفجاج حتى نوع أشجارها ونباتها وسهولها ونجودها لأنها مراعي مواشيهم، فانسلُّوا سالمين إلى بعد ثلاثمئة متر من رشّاشات العدو وهو لاهٍ عنهم بإنذارنا وتهديدنا للقلب حتى فوجئ بوابل من بنادقهم وفتكوا به فتكاً ذريعاً وشتتوا ميمنته كل مشتت. ورأينا هذا التوفيق بالعين المجرّدة،

فصرخنا بالهجّانة والجنود المحيطين بنا ودعوناهم إلى الإندفاع بأقصى سرعة إلى الأمام.

وركب محمّد الغاصب وكيل بيت زيد على ناقةٍ وقادهم وراءَه، وهو بثوبه الفضفاض الزّاهي بألوانه المنفوخ بأفواه الرّيح يخفق علم بني عُقيل فوق رأسه عالياً، واندفع وراءه كل من كان حولنا من رجال المدفعية، والخدم ومطلقي الرّشّاشات في صف عريض بديع، ولقد كان النّهار أطول من أن تحمله قواي، ولم أكن أتمنى سوى أمر واحد هو معرفة النّتيجة. أما زيد فكان يصفّق وهو إلى جانبي وقد أخذته نشوة النّصر عندما تحقق من نجاح خططنا واتساقها إلى النّهاية.

وكان فرسان راسم من جهة تحصد الجناح الأيسر. ويصرع رجال «عائمة» المنهزمين من جهة أخرى بلا شفقة وبجند لونهم كجذوع الأشجار في هبوب العاصفة. وتزاحم قلب العدو في شَرْم الجَبَل. وتشتتوا من كل صوب يعمل في أقفيتهم رجالنا المشاة والهجّانة والفرسان. وكان الأرمن يتربصون طوال النّهار وراءنا ينتظرون إشارتنا، وقد نفد منهم الصّبر فاندفعوا وراء العدو يصخبون ويصيحون بالتُّركية شاهرين خناجرهم الطّويلة. وجالت في خاطري المضايق الفاغرة بين هنا والكرك. وتراءى لمخيلتي غدير «حَسَا» ذو المعابر والمسالك الوعرة المنحدرة عامودياً، والأشواك التي تزحمها والمخارم التي تزمها فقلت في نفسي، إن انهزام الترك سيتحول إلى مذبحة هائلة فعلّي أن أناشد الرّحمة وأنشدها عند رجالي شفقة على المغلوبين، إلا أني ـ بعد جهودي وعذابي في تلك المعركة ـ كنت منحط القوى قليل الصّبر لا أملك من شعوري وقواي ما يحملني على العودة إلى تلك الأماكن المخيفة وأهلك لأجل خلاص عدو.

لقد قتل من رجالنا عشرون أو ثلاثون لمجرد عزمي على القتال، وسنلاقي عدداً مضاعفاً من الجرحى. وهكذا قد فقدنا ستة أجزاء من قوتنا لأجل انتصار وهمي. لأن الألف جندي تُركي لا تؤثر على نتيجة الحرب.

وكانت أسلاب الموقعة مدفعين «هاويتزر» للجبال ومدفعين «سكودا» Skoda بحالة حسنة وسبعة وعشرين رشّاشاً ومئتي حصان وبغل ومئتين وخمسين أسيراً،

وتأكدت بأنه لم ينج من العدو غير خمسين جندياً وصلوا إلى الخط الحديدي منهوكي القـوى، لأنَّ العـرب الهائجين قد لحقوا بهم وذبحوهم من غيـر رحمة، أما رجالنا فقد امتنعـوا عـن اللحـاق بما بقي مـن الأحياء لأنهم هم أيضـاً قد فقدوا قواهـم، وتولاهم التّعب الشّديد والآلام المبرحة والجوع اللاذع.

وتسـاقط الثّلـج عند رجوعنا مـن الموقعة وتضاعفت مشـاقنا عند لـمّ جرحانا. أما جرحـي التُّرك فقد لزموا الحضيض ينتظرون القدر المحتوم، ولمّا طلع الصّباح لم يبق منهم حيّ وكفّنهم الثّلج بثوبه ناصع البياض.



عبد الله الزّعاقي

نقيب حرس لورَنس

الفصل الرّابع والعشرون

الشتاء يكبّل حركتنا

وتساقط الثّلج يومين متواصلين، واشتدَّ الجليد والبرد، وتمرُّ الأيام والسّاعات مملّة طويلة وتأخذ معها كل أمل بالتحرّك والقيام بأي عمل، وكان علينا أن نتابع سيرنا ونلاحق نصرنا ونتعقب عدونا ونقذفه إلى ما وراء الكرك ونجني ثمار النّصر شهياً. إلّا أنَّ ركودنا أضاع علينا الفرص الثّمينة وضاعت به جهودنا وخسائرنا.

وقذف الشّتاء القاسي بالضباط والجنود والرّؤساء إلى القرية فزحموا أنفسهم وبدوا خليطاً عاطلاً كالحاً منقبضاً لا سبيل للحماسة إلى قلوبهم. ولا للإقناع في عقولهم... إلّا أن الجليد ـ والحق يقال ـ كان يدعونا إلى البقاء في ملاجئنا وحول مواقدنا. ولقد حاولت مرتين أن أجس تلك الهضاب ناصعة البياض المكفنة بالثّلوج إلا ما يتخلّلها من أجسام سُمْر حقيرة هي أشلاء أولئك التُّرك المساكين وقد جلدت ثيابهم، لكن البرد خارج أوكارنا فقد كان لا يطاق، بل الحياة غير ممكنة. إذ يذوب الثّلج في النّهار ويتحول ذوبانه في الليل إلى جليد يغطي وجه الأرض وتهب سموم تقطع الجلود وتحبس الأنفاس وتقلص القدمين واليدين فتخدر وتضّطرب لها الخدود فتصفر كأوراق الخريف، وتتقلص بدورها وتجمد العضلات لِهول الآلام ويخُبل العقل ويعتريه ذهول غريب.

وإذا جاذفنا على ظهور جمالنا البائسة التي لم تتعود أخفافها قط على الزّلق في أرض وحلة مجلودة فإننا ربما نكون قد أسلمنا إلى بعض الفرسان التُّرك المهووسين ـ ولو إلى عدد قليل منهم ـ الذين يحاولون الانقضاض علينا... وطال علينا المقام

المضطرب في الطَّفيلة، وما علينا إلّا أن نخرج من جحورنا. لقد نفد الشّعير من معالف جمالنا وهي محرومة من العشب النّابت تحت صفائح الجليد، وهزلت هزالاً بيّناً وخشينا أن تنفق جوعاً، إذن علينا أن نقودها إلى الغور في أرض أقل قحطاً وحرماناً مسافة يوم كامل من مَجْمَعتنا.

وكن حرسي الخاص مميزاً عن سواه، لأنَّ الزّعاقيين قد أوجدوا لي بناية وإن تكن غير متممة البنيان، إلّا أنه كان فيها غرفتان واسعتان تسكنان. وردهة. وكان لدي مال لشراء الوقود لنا والعلف لجمالنا التي آويناها في زاوية من زوايا الرّدهة، وكان عبد الله يحب الحيوانات ويعتني بمعالجتها وتقويمها. ويدعو كل ناقة بإسمها فتسرع إليه محمحمة، وتقطف بمشافرها اللينة من فم صاحبها قطع الخبز أو بعض الحلوى، وقصارى القول كان وقوفنا في تلك الدّيار، وفي هذه الدّار خطراً على أرواحنا. إذا أوقدنا الحطب امتلأت الغرفتان دخاناً يكاد يخنقنا. وفوق ذلك كانت النّوافذ غير محكمة القفل فتسمح للسّموم القاتلة أن تدخل علينا وتقض مضاجعنا وتجلد أجسامنا وثيابنا. والوكف المتواصل يتساقط من السّقف عن السّطح الملبّد بالتراب ويبلّل ثيابنا ويزيد في آلامنا، والبراغيث على عروشها فوق المصطبة الحجرية تتجمع جوقة بديعة لترتل أناشيد الفرح تمجيداً للجلود الجديدة التي تتقدم صاغرة، وتزكي فيها الشّهوة إلى الطّعام، وكنا ثمانية وعشرين نفراً متكوّمين في تينك الحجرتين.

دولا أذكر بإسهاب خم العرق المنتشر من تلك الأجسام المحصورة في مكان مقفول.

وكان في خرجي كتاب «موت آرثر» *Le Morte d'Arthure* فخفف شيئاً من مللي. أما الآخرون فكان لهوهم بالأشياء المادية، وقد تصلبت طباعهم وغلظت أخلاقهم في هذا السّجن المضني والبؤس المفرط. وكنت في مكان آخر أرى غرائب الرّجال في الصّحراء، أما هنا فكنت أصطدم بهم وأغضب وأتقزز. فضلاً عن ألم جرح مجلود في فخذي يبرّح بي ويضاعف شقائي. وأخذ الاتصال ببعضنا يشتدُّ يوماً فيوماً وتزداد حالنا قذارة وتتقدم شيئاً فشيئاً إلى البهيمية.

وأناخ شهر يناير القاسي بكلكله على شقائنا، ثم انقضى وخلّف وراءه شهر فبراير المرعب المخيف فلم يبقَّ للصّبر منزع فصممت على قطع العروة وفرط تلك الحفنة من الرّجال فتنتشر كيفما يشاء لها القدر وأسافر أنا من جهتي للتفتيش على قيمة إضافية من الذّهب سنحتاج عما قليل إليها. وقد أنفق زيد الذّهب المخصص للطّفيلة والبحر الميت، للأجور والذّخيرة والمكافآت للظّافرين في «سبيل الحسا» ومهما يكن من أمر خط جبهتنا القادم فلا بدّ من أن نحتاج إلى رجال جدد نضمهم إلينا وندفع لهم أجوراً، لأنَّ رجال البلاد هم وحدهم الذين يعرفون مخارم الأرض ومعابرها، وهم الذين يحسنون أكثر من غيرهم الدّفاع عن أكواخهم وحصادهم ضد العدو.

وكان من الممكن أن يرسل إلينا «جويس» نقوداً وإن يكن الأمر صعباً في مثل هذا الفصل القاسي، إلّا أني رأيت أن أذهب بنفسي لقضاء هذه المهمّة، كي أخلص من خلاط طفيلة الدّائم وأفتش عن قيمتي الأدبية المفقودة، وخرجت إلى الفضاء النّاصع مع خمسة من رجالي، وكان الصّباح يعدنا بتحسن حالة جوه فتقدمنا إلى «رشيدية» دون عائق ما، وصعدنا الجبل الذي وراءها فإذا بنا فوق الثّلوج. واستقبلنا شعاع ضئيل من أشعة الشّمس وأطبقت السّماء بعد الظّهر، وهبَّت ريح شمأل هوجاء نحو الشّرق كادت تصرعنا. وندمنا على تقدمنا إلى قلب هذا السّهل العاري. وبعد أن خضنا غدير الشَّوبَك على أقدامنا انصبّ المطر انصباباً ثم استمر هطله رذاذاً يروي أكتافنا اليسرى كأنه يحجز عنا ريح الشّمال وبردَه. فَجرَت الطّرُق سواقي مزبدة لكنها لم تمنعنا من التقدم دائماً والسّير إلى الأمام إلى أن هبط الليل وحلكت الأرض وتباطأت خُطَى جمالنا، تنزلق وتسقط فنرفعها ونزجيها ونكلفها جهوداً أخرى في هذه الأودية الموحلة المخيفة، وكنا نسير ميلين في السّاعة رغماً من جميع الصّعوبات ونحسب أنفسنا سعداء لهذا التقدم المحسوس الذي أنسانا البرد الشّديد.

وكنت أود متابعة السّير إلى الصّباح إلّا أن ضباباً كثيفاً عند «إزرَع» أخذ علينا الطّريق وصدعنا الأمل وانقدَّت الغيوم عصائب وتصعَّدت لوالب عريضة عالية في السّماء السّاجية، وتبدّلت المرائي أمامنا، فكنا نرى الجبال العظيمة البعيدة تتضاءل،

والتلال الحقيرة أمامنا شامخة ترتفع وتجري مع السّحاب، وكنا قد انحرفنا كثيراً إلى يميننا، واعتقدنا بأن أرض هذه النّاحية صلبة إلا أنها للأسف كانت كالثّمرة العفنة تغوص أخفاف الإبل فيها إلى أرساغها، فتجمدت مفاصل تلك الحيوانات البائسة لكثرة سقوطها على تلك الأرض المجلودة وتحمَّلت ما لا يتحمّله حيوان آخر، إلى أن حَرنت وأرادت أن تضرب عن السّير، ثم أسرعت ثم توقفت ثم مالت إلى ناحية الطّريق تحاول الهرب من مصاعب أخرى في انتظارها.

وقد فطنّا لحيلتها فقذفناها عُميً لا نرى أمامنا شيئاً إلا أن بلغنا ودياناً صخرية متساوية الحلَكَ يميناً وشمالاً، وانتصب أمامنا كشبه جبل لا محلَّ له في خارطة الكون، وجلدت الأرض والصّخور واستحال علينا التقدم في مثل هذا الليل ومثل وعورة هذا الطّريق، فهدأ جنوننا ـ وترجَّلنا تحت أقدام صخر عظيم رجونا أن يكون لنا بجانبه ملجأ، وأنخنا الجمال متلاصقة وأذنابها تقابل الهواء ـ لأنَّ مواجهة الإبل للرّيح الصّرصر تميتها، وتجمعنا مستندين على بطونها لنكسب شيئاً من حرارتها ونغفو.

فلم أدفأ، وغفوت لماماً، وصحوتُ مرتعداً وكأنَّ أصابع يدٍ تلطم خديَّ ففتحت جفنيَّ الباهظين فإذا بِبَرَدٍ كبير يتساقط علينا في ذلك الليل الأكدر الأربد، ثم عقبه شتاءٌ غزير ثم جليد لم يبق له مثيل، فتكوَّمتُ على ذاتي كالكرة مقاوماً أشد الآلام، وويلنا إذا تحرّكنا قبل الصّباح، وكفى بي همّاً أن أرى تلكؤَ هذا الصّبح البعيد، فنهضتُ وطفتُ على رفاقي فإذا بهم ملتفون بعباءاتهم وبالسّجاد ومستندون على خواصر الإبل، فقرأتُ على صفحات وجوههم الشّاحبة أقسى ملامح اليأس والاستسلام للقدر المحتوم.

وانطبق الأفق بل الشّفق، إلّا أننا قدرنا بأن الطّريق يبعد قدرَ ربع ميل عن شمالنا. ولما بلغناه مشينا على أقدامنا لنذلل من صعوبة السّير ونريح جمالنا المائتة. وقد نفقت كلها بعد ذلك من هول تلك الرّحلة ـ ما عدا ناقتي ـ وتابعنا السّير ننزلق في كل لحظة على الوحل اللزج ونسقط على الأرض.

وجلد كل شيء في الكون وقد هبَّت في الليل ريح شمالية، وأثلجتنا السّماء فضاعفت متاعبنا، وانتفخت عباءاتنا لهبوب عاصفة جديدة وهي تلطم أجسامنا

كالشّراع المنشور على دَقَلَ السّفينة فخلعناها فسهلت علينا الحركة وحزمنا قمصاننا على أوساطنا لنمنعها من التصفيق. وخدرت أيادينا ففقدت كل شعور حتى إننا لم نكن نشعر بالفُلُوع في أيادينا لولا الدّم المتجمد الممزوج بالتراب فوق هذه الفلوع إلّا أن أجسامنا كانت لا تزال تشعر بشيء من قوة هذا الجو وقد أخذتها القشعريرة ساعات طويلة. والبرد يتساقط عليها والعواصف تلعب بها وقد عزَّ الملجأ في ذلك القفر الموحش. وكنا نحني ظهورنا لنواجه الشّمأل بالنّاحية الأقل ألماً ونباعد قمصاننا المبلّلة عن جلودنا لندخل طبقة هوائية بينما تقينا شيئاً من قوارص القرّ. وكنا قد قطعنا العشرة أميال التي تفصلنا عن «أبا اللِّسن» وقد قارب النّهار الزّوال، ولاقتنا الأرض الدّافئة ملاقاة الحبيب للحبيب. وإلّا أنَّ رجال مولود لم يحيونا. فحسناً ما فعلوا! لأننا كنا قذرين بؤساءَ شُعثاً كالهرَّة ازبأرَّ وبرُها! وسهل علينا السّير بعد ذلك رغماً من أن الأرض كانت لا تزال وحلة حتى دخولنا «شتار». ثم جلدت الأرض على بعد ميلين، وكانت صلبة كالفولاذ، ثم ركبنا مطايانا وهي تلهث وتخرج من مناخرها هباءً كالضّباب الأشهب، وتحرد وتحاول أن تتوقف عن السّير، فأزجيناها وسرنا خبباً وحثثناها على سهول «قُويرة» وقد انقدَّت الغيوم عن أشعة شمس دافئة حمراء فكانت حفاوتها بنا حفاوة الأمُّ بالإبنة الزّائرة! وكان ذلك السّحاب الشّفَّ كأنه سرادق مرفوع على الأودية والجلاميد الشّاهقة دائم التحول إلى أشكال فريدة النّظير تنقَدّ عنه كَبَابٌ بيض كَزَبد الأمواج وكأنها تصفع خدودنا وتحاول أن تصدنا عن السّير. ثم يردها عنا الشّمأل فترتد وتتجمع بعيدة عنا أثيثة، ثم تتقدد على أطراف الصّخور المسننة وتضمحل مرقشة الصّخور بنتفها البيض أو تتساقط نقطاً نقطاً وتضيع في الأرض التربة.

وبعد أن نعمنا طويلاً بمشاهدة ألعاب ذلك الجو الغريبة صوّبنا على منحدرات المعبر جذلين وسرنا في عقيق مفروش بالرّمل النّاعم ساكن ساج عذب، إلّا أن السّرور كان أبعد من أن يخفف من آلامنا لأنَّ الدّم قد شرع يجري في عروقنا ثانية، وهي لا تزال مجلودة فبرحت بنا آلام أشد من آلام البرد والجليد. ودب الشّعور في أقدامنا المفلّعة وكنا قد فقدنا عندما كنا نتخبط في الأوحال الباردة وتمشت الأوجاع من جراء

ذلك الرّمل الحار المالح كأنَّ الشَّبَّ قد مر على جروحنا.

وكان لا بـدّ مـن أن نفاجئ تلك البهائم المنحوسـة المتعوسـة ونمتطيهـا حتى نبلغ «قويرة» إلّا أن الأمل قد دبَّ عليها فسارت مطواعة إلى أن بلغنا آخر المرحلة.

وكانوا قد أرسـلوا إليَّ من «العَقَبة» ثلاثين ألف جنيه ذهباً وناقتي الشّـقراء «وديعة» أجمـل حيوان في مرابطي، تلك القلوص ربيبة العتيبية التي ربحت أشـواطاً عديدة عند أصحابها السّـابقين. وكانت لاتزال قوية عَبْلة. صلبة الأخفاف لسيرها مدة طويلة على أرض الشّمال الصّوّانية وقد نبت وبرها أجعد أثيثاً. ويحسبها النّاظر إلى قصرها القليل بليـدة ثقيلـة الخطا. أمـا طباعها فكانت طيبة سلسـة القيـاد. لا داع للرّبت على صفحة عنقهـا. بـل يكفيك أن تهـز الرّكاب بهـوادة حتى تميلها إلـى الجهة المنشـودة. فكنت أركبها لا أحمل شيئاً بيدي وأتمكن من القراءة وهي سائرة.

وقد تفرق رجالي في «الطَّفيلة والأزرق» لبعض مهام فطلبت من فيصل أن يمنحني حرسـاً مؤقتاً فأعارني فارسـيه العتيبيين و«سـرج» و«رميض» وأتبعهم بالشّـيخ «متلج» كي نسـاعدهم على نقل الذّهب. ذلك الشّـيخ الذي بَلَوْنا شـجاعته لمَّا كانت سـيارتنا المصفحة تختبر السّـهول تحت «المدوّرة» قبل اندفاعنا إلى تبوك. وكانت متلج يسافر معنـا بصفته حارسـاً ويدلنا على الطّريق وهـو متربع فوق الأمتعة المكدسـة على ظهر سيارة فورد.

واندفعت المركبات اندفاعاً جنونياً تتنوح بين الكثبان كالزّوارق المضطربة على ثبج الأمـواج إلـى أن دارت دورة خطرة فارتفعت في الفضـاء وخطت نصف دائرة وكادت تنقلب وتنثر ما عليها. وقذف «متلج» إلى الأرض على رأسه وأوقف «مارشال» مركبته وتراجع إلى الوراء خجلاً من طيشـه في قيادة القافلة معتذراً متعثراً. وفَرَكَ الشّيخ رأسه مبتسماً وقال: «عذراً فإنّي لم أتعود ركوب مثل هذه المطايا»! وكان الذّهب مقسماً ألفاً ألفـاً في أكياس فسـلمتها ثُناءً إلى أربعة عشـر رجلاً من رجال متلج العشـرين. وكانت الأربعة والأربعون ليبرا في خُرْجَي كل ناقة من نوقنا ـ فوق ما تحمل من الزّاد والعتاد ـ كافية لتنقل على تلك المطايا في بعض الأماكن الوعرة من الطّريق.

وكنـا قد بدأنا المسـير عنـد الظّهيرة نعلّل النّفس بقطع قسـم كبير مـن المرحلة قبل التوغل في الجبال. إلّا أنه للأسف قد سقط المطر رذاذاً بعد سفرنا بنصف ساعة وخرق المـاء عظامنا، وانتفش وبـر إبلنا كصوف الكلب أصابه البلل، وقـد أصبح متلج عندما بلغنا أقدام السّفوح أمام خيمة الشّريف فهد، الذي كان واقفاً محتمياً تحت رفوف وعر، فأصـر متلج على النّـزول والمبيت رغماً من إصراري على متابعة السّـير وقال: إننا في الصّبـاح نتدبر أمر صعود الجبل. وأيقنت بأننا سـنجتاز أرضاً وعرة ونضيع أياماً طويلة في التردد فاعتذرت إليه وسرت مع رَجُليَّ وستة من الحويطات قد انضموا إلينا وكانوا عائدين إلى الشَّوبَك.

وقـد أخرتنـي محاولة متلـج فلم نصل إلى المعبـر قبل هبوط الليل. وسـقط المطر مـدراراً بعد ركوبنـا، فندمنا علـى إغراقنا بالتعفف وحسـدنا الرّفاق الذيـن تخلّفوا عنا في ضيافة فهد. إلى أن لفت أنظارنا توماض أحمر لاح عن شـمالنا في معسـكر صالح بن شـفيع. صالح واعتقاله المئـة المحاربين القدماء في ينبُع، ورغمـاً من بلل ثيابي قد أجلسـني على سـجادته وأحضر لي ثياباً خاطته له أمها فبدلتها وانتظرنا نضج الخروف والأرز وتمددنا بعد الطّعام واسـترحنا. ثم نمنا ليلاً كاملاً تهزنا أنغام المطر المتسـاقط علـى قمـاش الخيمة المـزدوج صنع مكة. وطلـع النّهار علينا ونحن علـى متن مطايانا لا نـزال نقـرض الملـى التي زودنـا بها صالح، وبينمـا كنا ننحدر علـى أول منحن رفع «سـرج» عينيه وقال هذا جبل معمم، وكان لكل جبل قمّة بيضاء تراكمت عليها الثّلوج فتزاحـم العتايبـة على هذه العجيبة وجدّوا في السّـير لكي يبلغوها ويمسـوها بأيديهم، كذلك الجمال لم تكن قد رأت الثّلج قط فأخذت تمد أعناقها وتنخر على هذا البياض المجهول. ثم ترفع رؤوسها وتنظر إلى الفضاء نظرات طائشة.

لـم تطل راحتنا حتى هبّت علينا ريح عاتية، بعد أن انحدرنا عن القمم قطعت أنفاسنا وكادت تجلـد أعضاءَنـا فأمعنا في السّـير كـي نلاقي ملجأً في الـوادي. وكنا كمن يريد أن يحـارب القدر ويقاوم القضاء باقتحامنا هـذه الرّيح. إلّا أننا خجلنا أمام هذا الجبن. فعدنا إلى التقدم وأسـرعنا برباطة جأش حتى بلغنا القاع و احتمينا بشـبه ملجأ. وارتعد

«سرج» و«رميض» لهذا الشّعور القاسي الذي لم يألفاه، وقد تملك رئتيهما ألم مبرح غريب. وخشيت أن يُتوقفا عند معسكر أحد أصحابهما فملت إلى طريق آخر وراء الأكمة التي يرابط فيها مولود فلم نلق أحداً من تلك العصابة الحربية.

وكان رجال مولود متربصين منذ شهرين في هذا المكان على علو أربعة آلاف قدم عن سطح البحر يسكنون ملاجئ رديئة، خنادق ليست عميقة حفرت على السّفوح، ولم يكن لديهم وقود سوى أغصان الحمر الضّئيلة الرّطبة التي كانوا يحاولون أن يخبزوا الملّة على نارها مرة كل ثمان وأربعين ساعة، ولا ثياب عليهم سوى الكاكي - ملابس التّمرين الصّيفي للجنود البريطانيين! - ينامون في جحورهم المملوءة ماء السّارحة بحشراتها ودودها على أكياس الطّحين الفارغة الممزّقة. متلاصقين ستة ستة، أو ثمانية ثمانية بعضهم إلى بعض ليتدثروا مجتمعين بأغطية قديمة مهلهلة.

فمرض نصفهم أو هرأهم البرد والرّطوبة فماتوا. وما بقي منهم صمد للشّدائد وكانوا يطلقون الأعيرة النّارية بين الآونة والأخرى على مواقع التُّرك الأمامية، محتمين بقسوة الطّقس ضد قوات العدو المتفرقة. فواجبنا نحوهم عظيم، ولهم علينا دين وافر. وإن مولوداً لحقيق بكل مكافأة لأنّ شجاعته قد شدّدت عزائم أولئك الأقوام وثبتت أقدامهم أمام واجبهم القاسي.

وكان يومنا هذا خَصْباً بذكْرَيات المصائب المختلفة. وكان الجبل قرب «أبا اللِّسن» مدثراً بملاءَة من الجليد. إلّا أنّ الذي كان يصفعنا ويصدنا عن التقدم هي الرّيح الصّرصر، ولم تطل شكوانا حتى أتبعنا القدر بنكبات أخرى، لقد توقفت إبلنا في الوادي بين الوحول المتراكمة، وهي تخور وتدور كأنها تنذرنا بعدم حملنا إلى القمّة. فترجلنا لكي نساعدها على التقدم مع أننا كنا ننزلق وراءها، وأرغمنا على نزع جراميقنا العزيزة لدينا الواقية أقدامنا شر برد الشّتاء القارص فتمكنا حفاة أن نشل هذه الحيوانات من ورطتها وجرها إلى ما فوق المنحدر، وكانت نهاية راحتنا الضّئيلة فقد كان علينا أن نترجل أيضاً أكثر من عشرين مرة قبل غروب الشّمس فوق ما كنا نتدحرج في تلك السّفوح عند سقوط بعض الجمال.

وكان رنين الذّهب يطغى على الأصوات الأخرى ويخفي الزّمجرة الصّماء لتلك البطون المنتفخة مثل البراميل. وكانت نوقنا قبل أن تتعب ويتملكها الملل تحرد لهذا السّقوط، وتظهر لنا قدر ما يستطيع الحيوان إظهاره من الغضب. إلّا أنَّها الآن قد بدلت الحرد بالأنين والاضطراب ونحن أيضاً قد فقدنا العطف بعضنا على البعض لأن هذه السّموم لم تترك لنا مهلة للتؤدة والتفكير، وأنها لسياط لا أقسى منها في جزيرة العرب تلك الرّيح النّكباء الشّمال التي تهب من نواحي معان. وكان ذلك اليوم معدوداً من أروع الأيام وأقساها. لقد كانت تتسلل ثيابنا وتمرح على جلودنا فنحسب أننا عراة وتجلد أصابعنا فلم نعد نقوى على ربط حبل أو القبض على سوط وفقدت أفخاذنا شعورها كأنها مشلولة فلا نقوى على الضّغط على بطون المطايا فنسقط عند انزلاقها ونتدحرج أمامها ونسحق على الأرض دون حراك، متربعين كأننا لا نزال مستوين على ظهور الإبل.

ولم تمطر، بل كان الهواء يجفف ثيابنا، فتجلدنا وتابعنا السّير بشجاعة ورباطة جأش نحو الشّمال حتى قاربنا غدير «بسطة» عند المساء ـ أي أننا كنا نسير أكثر من ميل في السّاعة. وخفت أن نصبح في اليوم المقبل نحن وجمالنا منهوكين لا نقوى على السّير بمثل هذه السّرعة. فأمرت بالتقدم في الظّلام إلى أن نعبر الغدير، وكان قد فاض فتوقفت الإبل مضربة عن السّير، فنزلنا في الماء المثلج على عمق متر لندلها على الطّريق، ولما بلغنا الهضبة العالية صفعتنا السّموم صفع الخصم العنيد، وعند السّاعة التاسعة سقط رفاقي على الأرض، وهم يبكون وامتنعوا عن التقدم وكنت أنا كذلك أحبس الدّموع الجائلة بين أجفاني، ولم يوقفها غير غضبي عند هذه الشّكوى الصّارخة. فترددت في الأمر ـ لكنني سررت في داخلي لإجابة طلبهم. وأنخنا جمالنا حلقة واسترحنا في وسط هذه الحلقة تُسامرنا الأغصان المتلاطمة كأنها أمواج البحر تتقاذف في الليل وتتزاحم، ثم تتكسر على جوانب السّفينة. وكانت النّجوم في السّماء الصّافية تبدو وتختفي، وكل من رجالي مدثر بغطاءين من أغطية الجيش. ومزود بمُلَّى طيبة وبأبسطة تهيئ الرّقاد على الماء والوحل من غير ما ضرر، وقمنا في الصّباح

مستريحين إلى حالتنا وقد جددنا شيئاً من نشاطنا وخفت وطأة البرد، وقد طبع على الجبال البعيدة المغطاة بشجر الدّفلى طابع الكدرة والإربداد، وعليها مساحب ومهاوٍ من الحجارة الكلسية صاحبتها منذ الأزل، والذي كان يعوق سيرنا هو الوحل المتراكم في المنخفضات والسّيول المنسابة من كل ناحية لذوبان الثّلج. ومالبثنا حتى نَدَفَ السّحاب علينا بالرّضاب كالنّديف ملأ الجو والبسيطة، وبلغنا خرائب إزرَع الموحشة بعد الظّهر، فكان كأنه الغسق والهواء يهب هبوباً متقطعاً، والغيوم تغمرنا من ناحية وتتحول إلى ضباب يسد علينا الطّريق والأنفاس.

وملتُ إلى اليمين متجنباً البدو الضّاربين بين إزرَع والشَّوبَك إلّا أنَّ بني الحويطات قادونا إلى مضاربهم رأساً، وقد مشينا ستة أميال في سبع ساعات فتعب رجالنا، وانحطت قوى العُتيبيين وفقدوا كل همّة فاعترضوا بصوت صارخ على هذه الرّحلة القاتلة وجاهروا بالعداء، وأكدوا بأنه ما من قوة تحت السّماء يمكنها أن تسلخهم عن القبيلة، وتابعنا سيرنا مرتعدين من شدة البرد.

وأما أنا فقد كنت مسروراً راضياً وليس لديَّ وقت أضيعه في استقبال البدو، واحتياج زيد إلى المال كان أكبر حجَّة لأختبر مقاومتي الشّتاء الأدومي. وقد أصبحت الشَّوبَك منا على بعد عشرة أميال ولدينا خمس ساعات من النّهار، ويمكنني أن أسافر وحدي، ولا أخشى أمراً لأنه مامن بدوي ولا تركي يجسر على الخروج من خيمته بل التقلقل من تحت عباءته في مثل هذا الجو القاتل، لقد كان لي الفضاء بأسره، ولا ينازعنيه منازع، فأخذت أكياس الذّهب الأربعة من سَرْج ورُميض وأرسلتهما إلى الوادي شاتماً، واتَّهمتهما بالجُبن وهم براءٌ منه فأخذ رُميض يبكي ويشهق. أما سرج فلشدة غيظه كان يوقع أنينه إيقاعاً على خطوات مطيته، لقد كانت نوبة غضب حقاً ساعة أن صرفتهما وسافرت وحدي إلى الشّمال.

وكانت مطيتي كلَّ اعتمادي لأنها كانت أشد المطايا وأحكمها، فصحبتني نشيطة مسرعة رغماً من حملها أربعة آلاف من الذّهب أضفتها على حملها وأنا مستوٍ على متنها وكنت في المنحدرات والسّفوح أمشي إلى جانبها نزلق معاً ونستوي معاً كالأدوار

المضحكة في الرّواية، وتوقّفَ نزول الثّلج عند المساء، وبلغت غدير الشَّوبَك حيث تمكنت من رؤية الطّريق وهي تمتد ربداء على الجبل. فحاولت أن أختصر الطّريق فخانتني قشرة الجليد على الأرض، وتكسرت لأول خطوة خطوتها وطرحتني في الوحل، وهشمت قدميَّ بشظاياها الحادة كشفرات السّكاكين ووحلتُ وغصتُ إلى الأعماق في مستنقع كان يمكنه أن يبتلعني لو تقدمتُ ولكنت مُتُّ موتاً في تلك الليلة. فامتنعت «وديعة» الحكيمة عن السّير ورائي في هذا الطّين الخادع ووقفتُ كأنها واجمة من تخبطي في تلك الوحول مترددة حائرة. إلّا أنّني رجوتها كي تدنو قليلاً فانقادت إليَّ خطوة فتمسكت برسغها فجفلت فجذبتني إلى الأرض الثّابتة وهكذا نجوت من قبضة ذلك الملزم الذي كان يضغط عليَّ بنابيه. وحاذينا الوادي متلمسين الطّريق إلى أن عبرناه سالمين، وجلست قليلاً إلى الماء أنزع ما علق على ثوبي من الوحول.

وركبت ناقتي مرتعداً من شدة البرد وتسلقنا المرتفعات ثم نزلنا إلى أسفل على دعامة السّور الذي لا يزال قائماً من بقايا قصر «مونريال» القديم فخماً رائعاً تحت السّماء الحالكة. وقد جلدت الأرض تماماً وتكوم الثّلج كوماً كوماً بعلو قدم تقريباً في كل منعطف من منعطفات الطّريق المتصاعد إلى قمّة الجبل. وكان الجليد يتكسر تحت قدميَّ العاريتين ويُصعد صوتاً مشؤوماً كلما دنونا من الباب حيث شئت أن أركب ناقتي أمامه وألجه وأفاجئ القوم بوصولي غير المنتظر، إلّا أن «وديعة» جفلت لصوت أقدامها المبهم في ذلك المكان الموحش وارتدت إلى ناحية الطّريق فتعلقت بعنقها واتقيت الاصطدام على حجارة الرّواق.

وكنت أعلم بأن الشّريف عبد المعين لا يزال موجوداً في الشَّوبَك فتشجعت واندفعت صامتاً في الزّقاق على ضوء النّجوم المنعكس على بلور الجليد العالق بالجدران وتحت ظلال رفارف السّطوح المغطاة بالثّلوج، وكانت «وديعة» تتردد وتعثر، إلّا أني لم أكن أخشى السّقوط على تلك الرّفارف الثّلجية وقد بلغت آخر المرحلة، فحييت الليل الجميل بصوت عالٍ ففاجأني صوت أجش من إحدى المرامي الخربة المحشوَّة بالأكياس واعترض على هذا الدّخول المفاجئ، وقال: الله! فسألت

عـن عبد المعيـن فأجابني: «في بيـت الحاكم» وكان هذا البيت في طرف سـور القصر القديم.

فبلغت نهاية السّـور وناديت ثانية ففتح الباب الواسع فانبعث منه نور يكتنفه ضباب مـن الدّخـان. وبين هـذا الضّوء الأدكن المنتشـر حتى إلى خارج الباب تتحرّك أشـباح مربدَّة وتفتش عن الطّارق المجهول، فسلمت عليهم بلطف ودعوت كل شخص باسمه وقلت لهم إني آت لآكل خروفاً عند سيدهم، فتراكض إليَّ العبيد مظهرين تعجبهم من هبوطـي عليهـم وأخذوا «وديعة» وقادوها إلى الإسـطبل حيث ينامـون وتقدم أحدهم أمامي بمشـعل وقادني في دهليز خَرِب تصب ميازيب السّطح عليه إلى أن بلغنا حجرة صغيرة، وكان عبد المعين ممدَّداً على سجادته ناظراً إلى الأرض محاولاً مقاومة ضيق النّفس فـي هذا الجو الدّخِن، وكانت ركبتاي تصطكان فسـقطت إلـى جانبه وتمددت مثلـه حتـى أنزل من مسـتوى الدُّخـان الخانق المتصاعد مـن موقد صغير مـن الحديد تركبَّـت عليه نسـائر الحطـب، وقد وضع هـذا الموقد في فتحة مرمى مـن مرامي ذلك السّور الخارجي الضّخم كي يزيد الهواء إضرام النّار ويسحب الدّخان خارج الحجرة.

وأعارني عبد المعين بعض الثّياب الثّوب فلبسـتها ونشـرت ثيابي كي تجففها النّار وزادت النّـار ضراماً وارتفع الدّخان هارباً وخفَّ التهاب الجفون والحَلَق، والشّـريف يصفق بيديه مسـتعجلاً الأكل وهو يصبّ «الفوزان» السّاخن الحرِّيف (وهو الشّاي في اصطلاح بني الحارث إكراماً لاسـم ابن عمه الشّـريف حاكم البلدة) فشـربنا منه مراراً إلى أن جاءوا لنا بالخروف المسـلوق العائم في السّمن المزيَّن بالزّبيب، وبعد أن حَمَدَ «المعيـن» هذه الجفنة وشـكر قال لي: إن رجاله المئتين كانوا سـيموتون غداً جوعاً أو سـيصبحون لصوصاً. لأنـا لم نعد نملك نقـوداً ولا زاداً وقد حوصر الرّسـل القادمون من قبل فيصل بالثّلج على الطّريق، فصفّقتُ بدوري وطلبت خُرَجيَّ ونقدتُه خمسـمئة ذهبـاً علـى الحسـاب! إلـى أن يصل المـدد، فكان ثمـن الوليمـة ملوكياً دفعتُـه برضىً وسـرور. فخرج معي الشّـريف بظرف ولطف وضحك من شـذوذي وركوبي وحدي في قلب الشّـتاء حاملاً هذه الوزنة الذّهبية. فأجبته: «إنّ شـأن زيد كشأنك، فهو محروم

من المال»، وحكيت له قصّة سَرْج ورُميض وأنهما تخلّفا في مضرب من المضارب، فاتَّقَدت عينا مضيفي من شدة الغيظ ومَثَّلَ بيده كأنه يسيط أحداً، إلّا أني كي أخفف هذه الزّلّة عن رفيقيَّ قلت له إن البرد لا يؤثر فيَّ كثيراً مثل هؤلاء المساكين لأنَّ جو إنكلترا قارص ثلجي مدار السّنة تقريباً.

فقال عبد المعين: «ربنا يحفظنا»، ثم اعتذر لعدم تمكنه من ملازمتي لأنه قد تزوج حديثاً من امرأة من الشَّوبَك. فالتحفت غطائي ونمت دافئاً. وكانت البراغيث كثيرة نهمة إلا أنَّ العُرْي ـ وهي الطّريقة الفعالة عند العرب للتخص من الحشرات – قد خفّف شيئاً من هذه البليّة. ولم تمنعني الرّضوض والجروح من النّوم وقد غَلَبَها التّعب فَغَلبني النّعاس.

واستيقظت عند الصّباح شاعراً بصداع شديد إلا أنني كنت مصمّماً على السّير فتبعني رجلان. وكانوا في الشَّوبَك قد أكدوا لي بأنه ليس من المستطاع الوصول في ذلك اليوم إلى الطَّفيلة. ولم أكن أعتقد بأن هذه المرحلة ستكون أشد وأدهى من سابقاتها، وسافرنا منحدرين بِوَجَل سفوح المعبر الهاوية. وكانت لا تزال في السّهل بقايا الطّريق الرّوماني الغابر، ولا تزالُ تحده هنا وهناك صوىً مؤلّفة ولا تزال محفورة عليها أسماء الأباطرة العظام. وهناك قد انسلّ رفيقاي الزّريّان وعادا إلى القصر الرّابض على الجبل. فتابعت السّير وحدي أركب وأترجل لأخفف عن وديعة كما فعلت أمس، وكانت الأرض لزجة إلّا على ما بقي من البلاط الخالد فكنت أثبت قدمي إثر أقدام روما الإمبراطورية التي كانت في الزّمان الغابر تحكم البلاد والشّعوب الصّحراوية حكماً عملياً مخالفاً كل المخالفة للحكم التُّركي. وكان يمكنني أن أقطع هذه الطّريق القديمة، إلّا أنَّ هبوط الأرض مدة الأربعة عشر جيلاً بسبب تغيير الأحوال الجوية وتفاعل العوامل الطّبيعية الدّائم قد خرب أسس هذا الطّريق فكان عليَّ أن أخوض هذه البرك. ودهمني المطر فبلّلني. ثم انقشعت الغيوم فجلدت الأرض وأخذتني رعدة تحت دروعي البيض الحريرية كأنني أمير في رواية أو قرص عرس مثلج!...

وقطعت السّهل في ثلاث ساعات ـ فكان سيراً حسناً ـ إلّا أنني لم أنته من المتاعب.

وقد صدق أهل الشَّوبَك إذ أنذروني بأن الثّلوج تسد المعابر وتغطي الطّرق المعوَّجة المتثنية بين الجدران والحفر والجلاميد. وقد فنيت قوتي، ولم أتمكن من عبور أول عطفة إلّا بشق النّفس، وملّت وديعة التخبط على غير طائل والغوص بساقيها المجرودتين في هذا الثّلج الهش وفقدت نشاطها، ورغماً من ذلك قد تمكنت من الصّعود إلى القمّة لكنها عثرت وسقطنا جميعاً في وادٍ من علو ثماني عشرة قدماً على كومة من الثّلج ارتفاعها متر. ونهضت بعد سقوطها حَرِدَة مرتعدة متشكية تَشكّي كُميت عُمر بن أبي ربيعة وقد جَهَدَه!..

وإذا توقف جمل في مثل هذه الحالة فإنه يفضل أن ينتظر الموت برباطة جأش أياماً على أن ينتقل. وخشيت أن تكون ناقتي قد بلغت الحد الأقصى من الجهد. فحاولت عبثاً أن أقودها، فركبتها فبركت على الثّلج فقفزت ورفعتها وتساءلت إذا كانت الكومة التي وقعت عليها كثيفة وشققت لها بيدي ورجلي طريقاً طوله ثماني عشرة قدماً وعرضه قدم واحدة، وكان الثّلج متجمداً لم أتمكن من شقه؛ إلا بتكسيره تحت قدمي فتشقق جلدي وسال دمي فترقش المكان ببلورات صغيرة وردّية كَلِباب البطيخ الأصفر الباهت.

وانتهيت من شق الطّريق وعدت إلى وديعة وقد نفد صبرها فامتطيتها فسارت سيراً حثيثاً، وقفزت قفزة بديعة تخطت بها كومة الثّلج، وأخذنا الطّريق القويم، وكان عليَّ أن أغرق بالحرص والتيقظ فأسير إلى الأمام وأجس الأرض بعصاً وأشق معابر أخرى فقضيت ثلاث ساعات إلى أن بلغت قمّة الجبل. وكانت الجهة الغربية مكشوفة للرّيح فأذابت عنها الثّلوج فتركنا الطّريق القويم نتخطى القمم بمشاق قاسية ونتجاوز مخاطر لا عَدَّ لها وأبصرنا في الوديان كرقعة الشّطرنج بيوت قرية «ضانا ووادي عربة» وقد أدفأتها الشّمس واخضوضر نبتها وعلى الضّفتين ألوفاً من الأقدام إلى الغور.

ولما لم تبق فائدة من التوغل في المرتفعات ابتدأت بالهبوط متخطياً كل عقبة أمامي. فحرنت «وديعة» مرة أخرى وتوقفت عن السّير، فوجمت من هذا الحرد لأننا في جبل قفر مفصولاً عن كل ما يربطنا بالكون وأيقنت بأنه إذا هبط علينا الليل هلكت

«وديعة» لا محالة. وهي من أعرق النّوق. ولم أكن آمن أن ألقي ستة آلاف ذهباً إنكليزياً على حافة الطّريق وأقول للعابرين لا تمسوها بأيديكم، ولم يكن الطّريق مأموناً إلى هذا الحد في جزيرة العرب لأترك أكياس الذّهب المملوءة على حافته مختومةً بخاتمي فقط. فقدت مطيتي مئة متر إلى الوراء وقفزت على متنها وحملت عليها حملة صادقة. فأذعنت وقفزت فوق الأكمة الغربية التي تشرف على الرّشيدية، قرية السّنوسي.

وكنت الشّمس قد ذوُّبت ثلوج هذه المنحدرات فلم يبقَ سوى قشرة خفيفة تستر أرضاً وحلة فاجتازتها «وديعة» بسرعة وتشابكت قوائمها جرياً خَبَباً وتصَوَّبت مئة قدم وأنا على سرجها. وربما تكون قد جرحت من جراء الحصى تحت رقارق الثّلج لأنها كانت تهدر وتصك.

ثم أسرعت إسراع الرّئبال إلى الأمام قدر عشرة أميال في السّاعة على الطّريق الموحل المؤدي إلى رشيدية. تعثر وتسقط وتقوم وتركض وترُّجني رجّاً كأنها تتوعدني بالسّقوط والعطب والهلاك فتمسكت بحنو السّرج يائساً، إلى أن بلغت رجال زيد الذين منعهم الشّتاء القارص عن متابعة سيرهم إلى فيصل فتراكضوا جماعات جماعات عند سماعهم خبب «وديعة» الجنوني وتبعوني وهم يصيحون صيحات الفرح، ودخلنا القرية دخول الظّافرين، وسألت عن الأخبار، فإذا كل شيء على ما نروم، فلم أترجل وتابعت السّير لأقطع الثّمانية الأميال فأبلغ الطَّفيلة... فبلغتها وسلمت زيداً بريده ودنانيري. وذهبتُ جذلاً طَروباً إلى ركن أتمدد فيه، مستعداً للتجلد أمام هجوم البراغيث ليلة جديدة بأكملها.

***

الفصل الخامس والعشرون

حصار معان

وكانت رداءة الجو لا تزال تحصر زيداً، فأغضبني هذا الرّكود إلّا أني في الوقت عينه دعيت فجأة إلى فلسطين، لأمثل أمام آلِنبي، لأنَّ وزارة الحربية كانت تعتمد كثيراً على حميته كي تستعيض عن البطالة والأحوال السّيئة في شمال فرنسا، فعليه إذن أن يستولي على دمشق، وإذا أمكن أن يحتلّ «حلب»، وذلك بأقصى سرعة، أعني يجب إخراج تركية من ميدان القتال وتنفيذ مثل هذه الخطة لا يخلو من صعوبات، لأنَّ جناح البريطانيين الأيمن (وهو لجهة الشّرق) يجب أن يكون في مأمن من جهة الأردن، وقد دعاني آلِنْبي لنرى معاً إذا كان العرب يدفعون عنه القلق من هذه النّاحية، فأجبته أن علينا أن ننظر في خطة الأردن تحت زاوية البريطانيين فلم ينكر عليَّ الجنرال هذا النّظر، وسألني إذا كنا لا نزال مستعدين لتنفيذها، فأجبته بنعم بعد أن تُحل بعض مسائل هامة لا تزال معلَّقة.

وأهم هذه المسائل معان. فمن الواجب أن نحتلَّ هذا الموقع قبل أن نقوم بأي هجوم، فيرى العرب عندئذٍ بأنهم طلقون سريعو الحركة إذا أسعفوا بوسائل النّقل فيتقدّمون بضعة أميال من معان ويهددونها ويقطعون خطوط السّكة الحديد، فتُرغم الحامية التُّركية عندئذٍ على الخروج إذ ترى نفسها مفصولة من كل جهة عن الجيش وتجازف مع القدر بمعركة تعتقد بأنها تمكنها من شق طريق نحنو الشّمال، فيفتك العرب بسهولة في السّهول المكشوفة بأعدائهم التُّرك. فنحتاج إذن لهذا العمل إلى سبعمئة جمل حمول وبعض مدافع ورشّاشات إضافية، ويجب علينا أن نتأكد من أننا لا نخشى هجوماً على جناحنا من جهة عمان ونحن نحاصر معان.

وعلى مثل هذه القواعد كنا ندرس خطة حركاتنا، فأمر آلِنْبي بإرسال وحدتَي فرقة الجمال الحمولة المصرية إلى العَقَبة تحت قيادة ضباط إنكليز، وقد برهنت هذه الفرقة عن نتائجها الحسنة في مواقع بير سبع، فسررنا لهذه الهدية الثّمينة لأنه يمكننا بتحسن وسائل النّقل، أن نحتفظ بالأربعة آلاف نظامي على بعد ثمانين ميلاً إلى الأمام من قاعدتنا. وقد وعدنا آلِنْبي بمدافع ورشّاشات. وأفهمنا بأن الخوف من مهاجمة عمان لنا لا محل له وهو يتدبر هذا الأمر الهين. وكي يؤمن على جناحه الأيمن الخاص قد قرّر احتلال السَّلْط ـ شرقي الأردن ـ وإبقاء فرقة هندية ثانية فيها، ودعاني إلى اجتماع القواد في غد اليوم الثّاني.

لقد قرّروا أن يهجم العرب حالاً على معان ويحتلوها. وأن يجتاز البريطانيون الأردن ويستولوا على السَّلط، ويخرّبوا ما يستطيعون من الخط الحديدي ويعطلوا النّفق الكبير على الأخص. وتناقشوا في كيفية إمكان اشتراك عرب عمان مع القوات البريطانية، فارتأى «بولز» Bols أن ننضمّ إليها. فنقضت هذه الفكرة، وقلت: إذا تراجعنا عن السَّلط بعد اشتراكنا معها نمهّد سُبُلاً للأقاويل السّيئة، ومن أصالة الرّأي أن ننتظر اضمحلال هذه الإشاعات قبل أن نشترك في العمل، وسأل «چيتوود» Chetwode المكلف بقيادة الحملة ـ كيف تتمكن الجيوش من التمييز بين العرب الموالين من العرب الأعداء، والبريطانيون ينفرون بالغريزة من كل لابس قفطاناً طويلاً، وكنت في الجلسة لابساً ذلك الثّوب الفضفاض الطّويل فأجبته طبعاً بأنَّ الرّجال ذوي القفاطين هم أيضاً لا يميلون إلى الثّوب العسكري!.. وانتهت المناقشة بقهقهة ضحك عامة، وتقرّر معاضدتنا الاحتلال السَّلط بعد أن يكون قد احتلّه البريطانيون ويتقدم العرب النّظاميون حال سقوط معان ويتموّنون من أريحا، ويساعدهم وصول سبعمئة جمل على القيام بعمل دائرته ثمانون ميلاً، ويمكنهم بهذه الوسيلة أن يدخلوا شمال عمان في شؤون هجوم آلِنْبي العظيم الذي سيقوم به بين البحر الأبيض المتوسط، والبحر الميت، وهو الدّور الثّاني الذي يمهد طريق الاستيلاء على دمشق.

وضمنت موافقة فيصل على الخطة واستعداده للسّير عليها بكل دقائقها وما

ختمت هذه الجلسة حتى طرت إلى العَقَبة لأطلع الشّريف على هذه المداولة وأدعوه لمشاركتي في وجهة نظري، وأخبره بأن آلِنْبي ـ مكافأة لنا على نجاحنا قرب البحر الميت وأبا اللِّسن ـ قد فتح لنا اعتماداً خاصاً قيمته ثلاثمئة ألف ذهباً، وأعطانا فوق ذلك سبعمئة جمل حمولة بمهماتها ورجالها.

فسر الجيش كله لهذه الأنباء ولم يبق عليهم إلّا أن يحملوا أمتعتهم على ظهورهم، وسيعتبر العرب منذ الآن شخصيتهم ويحترمون وحدتهم المنظمة التي جاهد لأجل الوصول إليها «جويس» و«جعفر» وضابط إنكليز وعرب كثيرون منذ شهور عديدة. وأوقفنا تقريراً عن حركاتنا وركبت البحر مسرعاً إلى مصر.

وكانوا في القاهرة خلال الأربعة أيام التي قضيتها هناك يهتمون بأمرنا اهتماماً جدياً، وأكسبتنا ابتسامة آلِنْبي عدداً إضافياً من الضّباط، فكان ضابط للإدارة، وآخرون للاختبارات البحرية، وللمؤن ولإدارة المخابرات تحت قيادة «ألن داوني» ـ شقيق صاحب خطة «بئر السّبع» وهو ما زال في باريس ـ وكان «داوني» أثمن هدية قدمها لنا آلِنْبي ـ بل أثمن من ألوف الجمال الحمولة! لقد كان ضابطاً فنياً متحلياً بجميع الصّفات المؤهلة له فكر يسبق الأفهام، وفطنة تدرك صفات الأشخاص فيقودهم إلى العصيان، وميل غريزي للجندية بحيث يشرك هذه الصّفات المتنوعة للقيام بأعمال متنوعة، وكان العصيان والحرب دليه أمرين متساويين لا فاصل بينهما، ولقد كنت في سالف الزّمن عند «ينبُع» أتمنى أن يرى الضّباط الفنيون رأيه ويحذوا حذوه، ويحكموا على الحوادث حكماً صائباً، ولم يبتكر هذه الصّفة السّليمة مدة السّنوات الاختبارية الثّلاث غير «داوني» Dawnay فقط.

وكان النّاس جميعاً ينظرون إلى العصيان العربي نظرة المستعرض دور قوم غزاة، فكانت وسائلهم ضئيلة، كذلك واجباتهم وأطماعهم، أما الآن فقد عدهم آلِنْبي من عوامل خطة هجومه التي لا يستهان بها، وأن المسؤوليات التي تلقى على مناكب أولئك القوم تضع مشروعنا فوق الأمر العادي، وفوق المجازفة المبهاج ـ مسؤوليات يحملون منها أكثر ما يطلب منهم وهم يعلمون بأنهم يدفعون بدماء جنودهم جزءاً من ثمن انكسارنا إذا انقلب علينا القدر.

وقـد وطّـدت خطة مع «جويـس» ندعم بها أول هجـوم يقوم به آلِنْبـي وهذه الخطة مقسومة إلى ثلاث حركات، فالعرب النّظاميون في القلب تحت قيادة «حعفر» ينقضون على معان. ومن جهة ثانية ينسـل «جويس» مع سـياراتنا المصفحة من جهة «المدوّرة» ويخـرب الخـط الحديدي نهائيـاً، لأننا أصبحنا مسـتعدين لعزل المدينـة. ومن الجهة الثّالثـة أسـير أنا مع مرزوق إلى الشّـمال لكي ننجـز اتصالنا مع البريطانيين. وسـافرت بـدوري مع مرزوق بعد سـفر «جويس» و«داوني» وتركت أبا اللِّسـن في 3 أبريل سـنة 1918. وكان هـذا اليـوم تاريـخ ابتداء الرّبيع، والجو من أسـبوع مضى قد أرسـل على الأرض عاصفة هوجاء ثالجة، ولا تزال إلى الآن بعض ملاءات بيض تتلألأ كالشّهاب تحت أشـعة الشّـمس. ونبت العشب وغطى الأرض وأرسـلت الشّمس أشعتها الصّفر كالقش لتخفف من برد العاصفة.

ورافقنـا ألفا جمل محملة مؤونة وذخيرة، فسـرنا الهوينـى لنخفف عن هذه الحملة فلا نبلغ الخط الحديدي إلا عند هبوط الليل. وتقدمنا البعض، ليتعرفوا في ضوء النّهار على السّـبيل الذي تسلكه الحملة عند بلوغها الخط دون عائق يعوقها، لأن اجتياز مثل هذا الجيش، لا يتم إلا في بضع ساعات تقريباً.

وأبصرت القضبان الحديدية عند هبوط الشّمس، وهي معوجة كالقوس على أرض مكشـوفة نبـت عليها العشـب والتصق بها الشّـوك، وأيقنت بـأن لا عائق فـي الطّريق، فتقدمت إلى الأمام لأراقب عبور الرّكب.

وإن المرء ليشـعر بهزة عندما يمس هذه القضبان التـي كان تخريبها غايتنا القصوى منـذ أمـد بعيد. وعندما صعـدت إلى الرّصيـف اصطدمت ناقتي بالعوارض الخشـبية، وانتفض جندي تركي من تحت القناة وكان بلا شك نائماً طيلة النّهار في ذلك المجرى. ونظر إليَّ وإلى المسدس الذي في يدي مذعوراً مخلوع اللب. ثم أشاح بنظره الحزين إلى البندقية المسندة على بضعة أمتار منه ـ على دعامة الجُسَير وكان هذا الجندي شاباً شـديداً قوي العضل مقطـب الجبين. فانعطف إليه وقلت له: «اللـه رحيم» ففهم معنى عباراتـي العربية ونظر إليَّ نظرة حادة كالبرق، إلّا أن ملامحه الرّزينة المجعدة من كثرة

النّوم ابتدأت تتغير شيئاً فشيئاً، وأبرقت أساريره لنجاة لم يكن يحلم بها.

إلّا أنه لم يفه بكلمة، وضغطتُ على عنق مطيتي بقدميَّ فجسَّتْ الأرض بحذر وخطت خطوة واسعة فوق القضبان، ونزلت على منحدر السّند المحصوب، فأظهر التُّركي الصّغير شهامة، ولم يرمني من ظهري وشعرت نحوه بشفقة شأننا كل مرة نستخلص حياة من براثن الموت المحتم. ولما أصبحت بعيداً عن الرّمية فلا يصيبني رصاصه، نظرت ورائي فإذا به يضع إبهامه على أنفه ويقبض أصابع قبضته ويمد خنصره ويشير إليَّ إشارة معنوية!...

وأوقدنا ناراً قليلة للقهوة ولنهدي الرّكب إلى محل وجودنا فيعبر تحت أنظارنا، وفي اليوم الثّاين سرنا حتى وادي «الجَنْز» حيث لقينا بعض أضحال ومسارب مياه ضئيلة بين الطّمي تدل على فيضان حديث العهد، وعلى الجانبين كانت أشواك خضر عجاف، وكان الماء عذباً لكنه أكمد بلون تراب الوادي، فقضينا الليل هناك، واصطاد «جعازي» حُبَارَى. وهو طائر ذو لحم أبيض لذيذ الطّعم كما قال «كسينوفون»! وبينما كنا نُولمُ على هذه الطّريدة كانت إبلنا تنعم مثلنا وتنغمر قوائمها في الحشيش الشّهي الذي جاد به الرّبيع الكريم على السّهل.

وانتهينا من مرحلتنا الرّابعة وهي نهاية سيرنا عند «عطارة» حيث كان يعسكر حلفاؤنا مفلح وفهد وأدهب. وكان فهد لا يزال في دور النّقه فلم يملك قواه إلا أن مفلحاً وقد أسرع إلى لقائنا وشفتاه تقطران شهداً من معسول الكلام، وملامحه متقلصة لرغبة الاطلاع على الأخبار، كاد يفقد نفسه.

ولقد كنا متيقنين من نجاح خطتنا بفضل مساعدة آلِنْبي الذي أخذ على عاتقه من الهجوم نصيب الأسد. ولما أنجزنا استعدادنا جزنا الخط الحديدي الصّغير إلى «ثَمَد» ـ حيث مورد ماء خاص ببني صخر ـ ومن هناك تقدمنا وراء ستار الفرسان البريطانيين إلى «مادبا» التي صارت مركزاً لقيادتنا العامة بينما آلِنْبي يمهد طريق أريحا ـ السَّلط. وهكذا يجب أن ننضم إلى الجنود البريطانيين دون أن نطلق رصاصة ما. وعلينا على كل حال أن ننتظر الحوادث في «العطاطير» اليانعة المخضوضرة. فكان في كل

منخفض ضحل من ماء المطر. وفي كل مكان حشـيش مرتفع شـهي في أشداق الإبل. ومـن علـى ذرى الجبال الجيرية كنا نشـهد الوديان الشّـمالية والجنوبيـة معاً، ونعجب من مناظرها الزّمرّدية وحلتها السّندسـية التي أسبلها عليها شتاء الأمس. ففي كل عقيق عصائـب عريضـة واضحة من الأعشـاب الغزيرة كأنها رسـمت بالقلـم. وكلما تقدمنا تزداد المشاهد جمالاً ورونقاً فتحولت الصّحراء إلى مرعى خصب وحقول مزهرة.

ويظهـر أن هبوبـاً كان يمرح في الجـو إذ كان يصل إلينا دفعـات دفعات، في فترات تنحنـي لها الأعشـاب الطّويلة، وتضطـرب لمداعبتهـا وتتمعج وتتثنى وتمـر بالألوان الخضـر القاتمـة والفاتحة الزّاهية كسـنابل القمـح، تنحني ثم ترتفع عند مـرور الصّبَا، فجلسـنا على الأكمة نرقب الغيوم البيض المسـرعة في الفضاء وهي تلقي ظلالا هاربة على السّهول الزّمرّدية فتوقعنا هبوب العاصفة إلّا أننا لم نتلق سوى نسمات دافئة ناعمة معطـرة ـ فنعمـت إبلنا بهذه النّجوع مع أنها متأنقة صعبـة الانتقاء لمراعيها. ولـم تنقض سـاعة حتى شـبعت وربضت يفيض على خواصرها الحشـيش الأخضـر اليانع، وهي تجتر وجبتها الغزيرة بهدوء وغبطة.

وبلغتنا الأخبار بسقوط عمان في يد الإنكليز، وما هي إلا نصف ساعة حتى استوينا على سروجنا في وجه «ثَمَد» على الخط المهجور. ثم علمنا أن البريطانيين قد تراجعوا. فاضطرب العرب رغماً من أننا نبّهناهم إلى حدوث ذلك قبل وقوعه. ثم جاءنا رسـول آخر يقول: إن الإنكليز يخلون السَّلط سراعاً. وكان ذلك مخالفاً لخطة آلِنْبي، فأقسمت أن هذه الأخبار ليست صحيحة، ولـم نلبث أن جاءنا فارس يجري وأفهمنا بأن الإنكليز قـد خرَّبوا بعـض الخطوط جنوب عمان ولـم يتمكنوا من القيام بعمـل ما ضد الموقع مدة يومين كاملين، فقلقت حقاً لهذه الأخبار المتقاربة المتماثلة وصممت على إرسال «أدهـب» حتى السَّـلط وهو رزين لا يفقد صوابه بسـهولة، يحمل كتابـاً إلى «چيتوود» Chetwode أو إلـى[1] Shea للقيـادة العامة إذا اقتضى الأمـر، أطلب فيه الإطلاع على

(1) يستخدم المؤلف هذه التّسمية لمقرّ القيادة البريطانيّة، علماً أنّ هذا المقر بفلسطين كان في قرية بئر سالم على بعد 40 كم عن القدس و16 كم عن يافا، وقد أسّسه الفيلد مارشال إدموند آلِنْبي.

الموقف الحقيقي، وفي غضون هذا الانتظار كنا نتكاسل بين مزارع الشّعير تهجس في عقولنا شتى التقديرات فنبني لها خططاً فوق خط، وكان قد انقضى الهزيع الأول من الليل لما سمعنا وقع حوافر الخيل وهي تعبر الوادي. وأخبرنا «أدهب» ورفاقه بأن جمال باشا يعدم سكان البلاد الذين يستقبلون الإنكليز شنقاً، وأن التُّرك يطاردون آلِنبي في وادي الأردن ومن المعتقد أنهم يتمكنون من إعادة القُدس. إلّا أني كنت أعرف بني وطني جيداً فلم أقبل مثل هذه الترّهات على الرّغم من اعتقادي بسوء الحالة في تلك الآونة. وكنا في «عطاطير» كالتائه في عالم آخر. وأثرت فيَّ هذه الصّدمة الفجائية.

وللحقيقة قد كانت خطة آلِنْبي في نظري ركيكة، وخاصة أن العرب ـ أمام ارتدادنا ـ سيشكون في كفاءتنا وتكون نتيجة هذا الشّك وبالاً علينا، لأن أولئك البدو الرُّحّل لم يعتقدوا قط بأن في إمكاننا القيام بأعمال جسيمة وعدتهم بها، أما الآن فأخشى أن يلزموا مكانهم وينعموا ببهجة الرّبيع.

فعزمت على إعادة الهنود إلى فيصل في الأزرق وأعود أنا بذاتي. فركبنا في فجر يوم من تلك الأيام المشرقة حيث تفيق النّفس من غفوتها مع طلوع كوكب الصّباح، إلّا أن الفكر كان لا يزال هاجعاً لشدة تأملات الليل الباهظة. وإن ساعات الصّباح في مثل هذا الفصل تكون مضوضئة، عطرة، وألوان الكون تحيق بالإنسان وحده مباشرة دون أن يدركها الفكر أو يتمكن من تنسيق خواصها المشتتة. وقد تكون هذه الظّواهر الطّبيعية كائنة منذ الأزل فلا يغضبنّك منذ الآن هذا التنافر في الخليقة.

ومرّت ساعات إلى أن التحقنا بالهنود في وادي «الجَنْز» متوقفين بجانب شجرة يتيمة، وبينما كنا نسير مرة أخرى في الحقول مع حسن شاه وبينما نسمع صدى مدافع ڤيكرز يتردّد في الوديان، وبينما نعاون الحملة على شد الحمال وكَرْب المطايا خطرت خواطر رحلتنا العذبة الطّيبة الذكرى. عندما حملنا على جسر اليرموك في العام الماضي. وكان لا يزال الهنود كما كانوا بالأمس بلداء لا يحذقون الرّكوب فلم نبلغ الخط الحديدي إلا عند هبوط الليل. وفارقتهم واعتقدت بأن سفري السّريع في الليل سيخفف عن دماغي هذا القلق. وأسرعنا الخطى في ظلمة الليل الحالكة في وجهة

«إزرَع». ولما بلغنا قمّة المرتفع أبصرنا نوراً إلى الشّمال، ثم تعالى اللهب في الفضاء قرب جردان، فحبسنا مطايانا عن السّير، ثم دمدم الجو لانفجار بعيد وظهرت في الظّلمة نيران قبالة الخط، ثم انقسم هذا اللهب، إلى قسمين متباينين فاعتقدنا بأن محطة إزرَع تضطرم، فأسرعنا نستطيع الخبر من مستور، إلّا أن دوَّاره كان خالياً مهجوراً غير ثعلبٍ كان يرود حول موضع المضارب فعزمت على التقدم حتى أبلغ فيصلاً.

فحثنا المطايا وقد طلعت الشّمس في الأفق، والجراد يسد علينا منافذ الطّرق ويغشى الأرض. إلّا أن هذه الجنادب لم تكن كريهة المنظر على البعد، فقد كانت أجنحتها اللامعة تنتشر في الجو وتضرب سرادقاً شاسعاً من لجين فوق الحقول، وكان يوم 12 أبريل ـ وقد دهمنا الصّيف مسرعاً ـ وهذه هي المرة السّابعة التي احتفل بقدومه في الشّرق.

وبينما نحن نقترب سمعنا طلقات نارية في جهة سَمْنة على خط المرتفعات التي تحجب عنا معان. وكانت جماعات من الجنود يتخطون القمم بهدوء. ثم توقفوا في أسفل الأكمة. وكان علينا أن نحتلّ «سمنة»، فتقدمنا في غزوتنا الجديدة فأبصرنا في السّهل جملاً محملاً محفّات. وكان الذي يقوده يقول. ولا يقول سوى ذلك «مولود باشا» ويدلنا إلى الحِمْل!. فركضت حتى بلغت إليه وقلت: «وهل مولود مجروح؟!» لقد كان مولود من أحسن ضباط الجيش ومن الذين كانوا يخلصون لقضيتنا أشد الإخلاص. ولم أكن أقلَّ إعجاباً بوطنيته الصّادقة وجسارته النّادرة. فأجاب الشّيخ الجريح من حافة محفته العالية بصوت خافت: «أجل... يا لورَنس بك لقد أُصبت! الحمد لله! ولكن لا تجزع فقد استولينا على «سمنة»..» ونهض قليلاً من مكانه الرّفيع وهو يتألم ـ لأن عظم الفخذ كان مكسوراً فوق الرّكبة ـ وتمكن من شرح الموقع الذي يجب أن نظم فيه خط الدّفاع على سفح الأكمة نقطة نقطة.

وقد بلغنا الأكمة ساعة سقوط بعض قنابل تركية ضئيلة، وكان نوري السّعيد قد تسلم القيادة بعد مولود، فرأيته واقفاً على عرف الأكمة رابط الجأش. ساكن الجنان، بينما أغلب الرّجال يتصنعون الرّاحة والمَرَح الكاذب. ويثرثرون أكثر من ذي قبل تحت نيران العدو.. وكان نوري يزداد سكوناً وزيدٌ مَلَلاً.

فسألت عن مكان جعفر فأجابني نوري: بأنه سيكون قد هاجم جردان، وأخبرته عن اللهب الذي أبصرناه عند منتصف الليل، ومن رأيي أنه كان شارة فوزه. وبينما نحن في سرورنا وصل إلينا رسول ينبئنا باستيلاء جعفر عليها وعلى بعض الجنود التُّرك والرّشّاشات، وبتخريب المحطة والخطوط على مسافة ثلاثة أميال. فحلَّ هذا الفوز عقدة تعطيل خط الشّمال لمدة ثلاثة أسابيع على أقل تقدير، لأن نوري كذلك قد قال لي بأنه قد انقضَّ الليلة الفائتة عند الفجر على محطة «غدير الحج» وهدم أبنيتها وخرّب خمسة جسور وميلاً من الخط». وهكذا قطعنا خط السّكة الحديد جنوب معان وبلغنا الغاية التي كانت تشغل عقولنا.

ولم يهدأ ضجيج الحرب إلا عند زوال الشّمس. وأخمد الخصمان ناراً لا غاية لها. وقيل إن فيصلاً قد تقدم إلى «وُهَيدة» فجزنا سيل ماء فائضاً قرب المستشفى المتنقل حيث مدّدوا «مولوداً» وأكد لنا لدكتور محمود بأن لا داع لبتر فخذ الجريح ويعتقد في شفائه دون حاجة إلى إجراء عملية ما. وشاهدنا فيصلاً منتصباً على حافة القمّة ينفصل عنه سدفه الأسود في وضح النّهار، وأشعة الشّمس تذوّب بتؤدة وهوادة دوائر جسمه النّحيل وتُسيل الذّهب على هُدَّاب عقالهِ الحريري. فأنختُ قلوصي، بينما كان الشّريف يمد يديه إليّ ويصرخ: «بعونه تعالى كلُّ شيءٍ حسن»، فأجبته: «الحمد والنّصر له وحده» وقادني إلى خيمته لنتبادل الأخبار والآراء.

وقد عرف من «داوني» عن صدمة البريطانيين في عَمّان أكثر مما عرفت أنا. صدمة حلت عليهم مع رداءة الجو وتضعضع الجيوش. وقد علم أيضاً أن آلِنبي قد أرسل أمراً بالتليفون إلى[1] Shea بوقف الضّحايا ـ كما عادته ـ وإنه لَقرارٌ حكيم وإن يكن يمسُّ مصالحنا مسّاً قاسياً. وكان «جويس» في المستشفى يقضي دور النّقاهة فلا يقوى على الاشتراك في العمل. و«داوني» في «قُويرة» على أتم استعداد للسّفر إلى «المدوّرة» مع سيارته المصفحة.

وسألني فيصل عن «سمنة» وجعفر. فأجبته بكل ما عندي. وأطلعته على شعور نوري وعلى ما هو نصب أعيننا من المطامح. وكان نوري وعلى ما هو نصب أعيننا من المطامح، وكان نوري متشبعاً بفكرة عدم معاونة «أبو تايه» له في ذلك اليوم فلم يقرّه «عودة» على رأيه

---

(1) ذكرنا أعلاه أنّ هذا المقر بفلسطين كان في قرية بئر سالم.

فتذكرت في تلك اللحظة الحادث الذي حدث عند الاستيلاء على الهضبة فسخرت منهما. وكانت هذه السّخرية التي أخجلتهما سبباً للانقضاض على «أبا اللِّسن» ولم يكن فيصل يعلم شيئاً عن هذه القصّة وقد نبشتُها من قبرها، فجرحت عودة جرحاً عميقاً. فأكدَّ لي بكل شدة أنه عَمَل فوق طاقته في ذلك اليوم، غير أن الأحوال لم تكن مؤاتية لطريقة البدو. وبما أني لم أشأ أن أليِنَ له خرج من الخيمة غاضباً هائجاً.

وقضيت الأيام التالية مع «مينارد» Maynard في مراقبة امتداد حركاتنا. وقد احتلّ بنو أبو تايه موقعين أماميين شرق المحطة بينما «صالح بن شفيع» يستولي على خندق ورجاله العشرين ورشّاشاتهم. فحلَّ هذا التوفيق قيودنا حول معان. وجمع جعفر مدافعه في اليوم الثّالث على المرتفعات الجنوبية وقاد نوري السّعيد مفرزة للانقضاض على سقائف المحطة، ولما دنا من غرضهِ توقفت المدافع الفرنسية عن إطلاق النّار. وكنا نطوف في سيارة فورد محاولين اتّباع قفزات رجالنا المتواصلة. فالتقينا بنوري الأنيق الثّياب الجميل القفّازَين، يدخن بغليون من خشب النِّشرين. فأرسَلنا إلى الكابتن پيزاني قائد المدفعية يطالبه بنجدة سريعة من مدافعهِ. فتقلّصت يدا «پيزاني» يأساً ـ لقد نفذت الذّخيرة ـ وقد أكدَّ لنا بأنَّه رجا من نوري أن لا يهجم في وقت تكون القنابل قليلة. فلم يبقَ لدينا إلّا أن نشاهد تراجع رجالنا ثانية عن المحطة تحت نيران العدو. وكانت الأرض مغطاة بالأجساد المتشحة بالكاكي. ناظرة إلينا العيون المعذّبة نظرة الشّاكي. وقد تمزَّقت ثياب هؤلاء المطروحين وجلودهم وتقلَّصت أعضاؤهم من شدة الألم ولا سبيل إلى إسعافهم. لقد كنا نرى ونفكر برباطة جأش إلّا أننا كنا كالمفصولين عن نفوسنا لأن خيبتنا سلبت منا كل خاصة لِحَواسنا، ولم نفقه إلّا بعد مرور زمن بأنا لم نعتمد على روح مشاتنا الحربية البديعة. لقد حاربوا بمقدرة عظيمة تحت نيران الرّشّاشات متخذين الأرض لهم حميً وعوناً، وقد خفَّت مهمّة القائد من هذا القبيل فلم نفقد سوى ثلاثة ضباط. وبرهنت لنا معان بأن رجالنا يعرفون كيف يحاربون رغماً من أن البريطانيين لم يعضدوهم. فسهلت هذه الملاحظة خططنا. وخففت من لوعة اصطدامنا.

وفي 18 أبريل عند الصّباح قرّر جعفر نظراً لرسائله أن لا يتكبد خسائر أخرى وتنحَّى إلى مواقع «سَـمْنَة» ليريح جنوده. وبصفته رفيقاً قديماً للقومندان التُّركي أرسـل جعفر إلى هذا القائد كتاباً ملفوفاً بعلم أبيض يدعوه إلى التسليم. فأجابه بأن أمر التسليم من أقصى رغائبه لـو لا أن الأوامـر صدرت إليه بالدّفاع إلى آخر رصاصة. ثم عرض جعفر أن توقف الأعمال الحربية فيتمكن التُّرك من إعدام ذخائرهم، إلّا أنَّ الحامية ترددت في الأمر، وتمكن جمال باشا في هذه الفرصة من لم شعث جنود عمَّان واستعادة جردان، وإرسال قافلة من الجمال غمرت المحاصرين بالذّخيرة والمؤن، ولم يسالمنا الحظ إلا بعد مرور أسابيع طويلة.



سرج العتيبي

الفصل السّادس والعشرون

غارة داوني على شَحم

وكنت على نار لألتحق بـ «داوني» لأني كنت قلقاً على جنديّ قد ألف الحرب النّظامية المعتادة. وسيندفع الآن إلى معركة صحراوية لا نظام لها. ولا سلاح له سوى السّيارات المصفحة المعقدة. ثم أن داوني لم يكن قد استعرب. وأن «بيك» Peake الخبير بالجمال و«مارشال» الطّبيب لا يحسنان التكلم باللغة العربية. وكان هذا الجسم الصّغير المجازف يعرف من البريطانيين، ومن المصريين، ومن البدو بأن هذين الأخيرين يكنان لبعضهما كرهاً متبادلاً.

ووصلت إلى داوني متنكراً تحت ستار موظف ترجمان عند منتصف الليل وهو في معسكره تحت تل «شحم» فاستقبلني «داوني»، لحسن الحظ استقبالاً طيباً، وعند الصّباح أخذني إلى مكان تنسيقاتِهِ. فكان مشهداً بديعاً: السّيارة العادية مصطفة إلى ناحية بأسلوب حَربَي والمصفحة منها لجهة أخرى. وحراس ومواقع صغيرة مسلحة بالرّشّاشات يحرسون المعسكر. ورجال من العرب يحتلون موقعاً فنياً على أحدث نمط حربي جبلي، فكانوا حامية مفيدة وراء تل يقيهم الأنظار والضّجيج. فبأي سحر توفق الشّريف «هزّاع» و«داوني» بأن يحتفظا بهم في مراكزهم. وقد عضضت على شفتي كي لا أسمع نفسي فأقول: الآن لا ينقصنا سوى العدو!!...

وعندما شرح لي «داوني» طرق استعداده للهجوم زادت فيَّ الدّهشة وعجبت به إلى حد غير معقول. وكان تنسيق الحركات المدوّن من قبل يستدرك حتى السّاعة الأولى التي لاتزال بيضاء في الخانة. والمهلة المضروبة للقيام بتنفيذ الحركات. وكان

لكل وحدة عملها المعين بالدّقة. سنقتحم «موقع السّهل» عند بزوغ الفجر بسيارات مصفحة سائرة من هذه القمّة نفسها التي كنا جالسين عليها أنا وجويس من قبل. حيث ابتسمنا تلك الابتسامة المرة أمام فوات أول فرصة لنا. والسّيارات ذوات الدّروع والمرامي تستولي على المحطة قبل طلوع النّهار وتحتل الخنادق فجأة. والكمين رقم 1 ورقم 2 عندئذٍ فقط يهدمان الجسور المرقومة « ا و ب» على خارطة الحركات (مدرج 1.250.000) السّاعة الواحدة والدّقيقة الثّلاثين من «ساعة صِفْر» في أية ساعة ملائمة ـ بينما تكون السّيارات الأخرى تتقدم نحو «موقع الصّخْرة» يدعمها «هزّاع» ويندفع العرب «الساعة 2:15».. الخ. الخ.

«وهورنبي» Hornby ومعه المتفجرات على مدارج تَالبوت Talbots رقم 40531 ورقم 41226، يتقدم بعد ذلك ويهدم جسور «د» و«ج» و«ك»: وبعد الفطور والشّمس لا تزال منخفضة تسمح برؤية الأشياء ما وراء السّراب ـ أي السّاعة 8 بدقة ـ يقتحم الجمع «الموقع الجنوبي» المصريون لجهة الشّرق، والعرَب لجهة الشّمال تحت حماية الجنود المسلحة بالرّشّاشات بعيدة المرمى. وبمدفع «برودي» Brodie ذي العشر پاوندات المنصوب على «تل المراقبة». وسيسقط الموقع وتتقدم قواتنا نحو «تل شحم» التي تكون قد ضربت من الشّمال الغربي بقنابل «برودي» وبالطيارات القادمة من وادي رَمّ «ساعة 10» وبالسيارات المصفحة القادمة من الغرب، ويتبع العرب هذه المركبات بينما يكون پيك وفرقة الهجّانة ينزلون من جهة «الموقع الجنوبي». ويؤكد التوقيت وهو مما لا يخلو من بهجة وسرور ـ إن المحطة ستسقط (الساعة 11:30 وانتهت التعليمات) إلّا أنَّ اللائحة لم تنفذ بحذافيرها لأنَّ التُّرك بغفلتهم واندفاعهم قد تقدموا عشر دقائق قبل الأوان فأظهروا هذه المرة عدم تنبؤهم بالغيب في ذلك اليوم الذي مرَّ من غير سفك دماء.

وسألت خَجِلاً إذا كان «هزَّاع» يفهم ذلك. فأجبت بأنَّ هزَّاعاً لا يملك ساعة ليضبط بها الوقت (وفي هذا الوقت اغتنمت الفرصة لأضبط ساعتي). وأنه يتحرّك حينما يرى السّيارات تدور إلى جهة الشّمال ثم يزن حركاته بواسطة ضابط ارتباط يتصل بكلينا،

وتنحيت لأرى مكاناً هادئاً أستطيع الرّقاد فيه قليلاً، وعند الصّباح أبصرنا السّيارات تدور هادئة فوق الخنادق المفتوحة بين الكثبان وكان الحارس لا يزال نائماً، فخاف التُّرك وخرجوا من مخابئهم «رافعين أيديهم فوق رؤوسهم»، وهل تُقطف خوخة ناضجة أهون من هذا، واندفع هوربْني بسيارتيْن «رولز رويس»، ووضع حشوة زنتها مئة ليبرة من قطن البارود تحت الجسر رقم 1 فاندكّ في الحال. وكدت لهذا الانفجار أن أهوي وداوني عن مركبتنا الثّالثة التي كنا نرقب منها كل حركة، وأسرعنا إلى هوربني لنرشده إلى استعمال القنوات تحت الخط الحديدي خُفَراً للألغام اقتصاداً للعمل والوقت. وهكذا تقوضت الأعمال الفنية الأخرى كقصور من الورق.

وبينما كنا إلى جانب الجسر «ب» كانت السّيارات تسدد نيران رشّاشاتها على مرامي «موقع الصّخرة» وهو معقل مبني بالحجَر اليَبْس. جدرانه على شكل دائرة ترسل ظلالها بعيداً في ذلك الصّباح فتسهل علينا التصويب، وعلى العدو الافتضاح. وهو واقع على أعلى السّفوح الكثيرة الوعرة والتي لا تقوى سياراتنا على البلوغ إليها، وكان «هزّاع» مستعداً أتم الاستعداد مضطرباً متحمساً. فانخلع لب العدو لهذه الصّواعق المنقضة والزّوابع النّارية المجتاحة من أربع رشّاشات، وتبلبلوا وتشتتوا كل مشتت، فلم يصعب على العرب اقتناصهم وأسرهم، وكانت هذه هي الخوخة الثّانية النّاضجة..

وتوقفنا قليلاً قبل القيام بالعمل مرة أخرى «وهورنْبي» وحده هو الذي كان لا يزال في منتهى الجهاد وشاطرتُه حماستُهُ بصفتي مساعد مهندس! وطفنا الخط على سيارات «رولز رويس» حاملين طنّين من المتفجرات. فكانت تدك الجسور وتتقوض الخطوط في النّواحي التي نميل إليها وتحلو لنا. وكنا نحارب تحت حماية رجالنا الذين كانوا هم بدورهم يحتمون وراء السّيارات المدرّعة وصفير الرّصاص فوق رؤوسهم. وسقط جلمود على بُرج إحدى سياراتنا المدرّعة فتكسّر عليه لكنه بعج فولاذ البرج ولم يحطمه، وكنا نأخذ بعض صور فوتوغرافية لمتفجراتنا في الفترات النّادرة. لقد كانت معركة فخمة لتخريب الأعمال الفخمة. كأننا كنا نلهو بإشعال الأنوار

الاصطناعية، وبعد أن جمعتنا وَجْبَة الفطور ذهبت لأشهد سقوط «الموقع الجنوبي». فسقط في ساعته المحتومة! إلّا أنَّه بطريقة غير جيدة. لأنَّ هزّاعاً وبني عمران كانوا في ثوران شديد فلم يتمكنوا من التقدم بنظام ودقة وبقفزات متوالية كما كان يفعل رجال «پيك» Peake المصريون. بل كان يحسبهم المرء كأنهم على خيول صَيْد لا يلوون على شيء ولا يبقون أمامهم على حاجز. فحملوا وهم على ظهور نياقهم حملة جنونية، وتصعدوا على أعراف التلال وتخطوا المرامي والخنادق، فملَّ التُّرك من القتال، وثبطت عزيمتهم فتركوا مواقعهم.

ورفع السّتار عن أعمال اليوم الهامة ـ عن الهجوم على المحطة ـ فوصل إليها «پيك» من الشّمال مخاطراً بنفسه مرات عديدة. مزجياً رجاله إلى الأمام بصعوبة لأنَّ الحماسة قد فارقتهم رغماً من اندفاعه وأرسل «برودي» ناره بدقته المعهودة، بينما الطّائرات تدور دوراناً فوق البنايات وتلقي قنابلها برباطة جأش لا مزيد عليه على خنادق الدّفاع، وتتقدم السّيارات المصفحة إلى الأمام وتقذف غيوماً من الدّخان. إلى أن شوهد خط من رجال التُّرك بين ذلك الضّباب الكثيف الأدكن. وهم يلوّحون بأشياء بيض.. فاكتفينا بهذا القَدَر!..

وتشابكت «الرّولز رويس» بعضها ببعض فأدرناها، ثم قفز العرب على جمالهم واستعاد أخيراً رجال «پيك» جرأتهم وأخذوا يتراكضون.. وتدافع هذا الحشد المحشور إلى المحطة كالجن الصّاخب. وكانت سيارتي هي المجلية فربحت السّباق. وغنيمتي الوحيدة كانت جرس المحطة الجميل صنع معامل دمشق!... والذي تبعني قد استولى على مِثقاب التذاكر. والثّالث على أدوات المكتب. بينما كان التُّرك المخلوعو اللب ينظرون إلينا بعيون حمر جاحظة غضبي، لعدم اهتمامنا بهم وتغاضينا عن وجودهم.

وما هي إلا لحظة حتى اندفع العرب واستسلمت شهواتهم للغنائم النّادرة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخهم. فقد عثروا على مئتي بندقية، وثمانية آلاف رصاصة، وقذائف ومؤن وثياب متروكة في مخازنها كُلٌّ يحطم ويأخذ ويحفظ لنفسه ما يكون قد استولى عليه من الأشياء التي يراها نافعة. وكان ثالثة الأثافي جمل داخلاً رصيف

المحطة فاتفق أن انفجرت قنبلة تركية فقطعت الحيوان المسكين إرباً وقذفت أشلاءه في الهواء فهدأ العرب لهذه الصّعقة، وقد ظنوا أن «برودي» أعاد إطلاق النّار.

واكتشف الضّابط المصري مخزناً من المؤن لم يمس، فأقام عليه حارساً لأن حصة جنوده من الغنائم كانت ضئيلة. إلّا أنَّ ذئاب هزّاع لم يُقِروا المصريين على ذلك، لأنهم يطلبون كل شيء لنفوسهم.

ودارت حرب بين الفريقين إلّا أنَّ نفوذنا وعزمنا الأكيد أوقفاهما عند حدهما وحكمنا على أن ينتقي المصريون ما يحتاجون إليه. ثم بعد ذلك وقفنا مكتوفي الأيدي عاجزين عن صدِّ أمواج هؤلاء الذين سكروا بخمرة الظّفر. حتى أن جدران المخزن لم تكن لتقوى على احتمال ضغط أولئك العرب.

وقد كان توفيقنا في «شحم» عظيماً جداً إلى حد أن ثمانين في المئة من العرب كانوا مغتبطين لهذه النّتيجة. ولم يبق للصّباح غير هزّاع وجماعة من الرّجال قد شاركونا في الحركات الجديدة. لأنَّ محطة الرّملة كانت مسطورة في برنامج «داوني» غير أن أوامره لم تكن بعد قد أخذت شكلها النّهائي. فلم يدرس الموقع درساً واضحاً. وأرسلنا «وايد» Wade بسيارته المصفحة مع بعض رجاله في سيارة أخرى. فأخذ يقفز حِذاراً قفزات متقطعة وبسكوت عميق، إلى أن بلغها. ولم يطلق عياراً نارياً، ثم دخل فناء المحطة فاحصاً الأرض بدقة خوفاً من لغم ينفجر، وكانت البنايات مقفلة. فربط «وايد» النّوافذ والأبواب بسيور ربطاً محكماً واندفع داخل الموقع فوجده مهجوراً تماماً، ولحسن حظه وحظ رجاله كانت لا تزال كمية من البضائع مخزونة فتهلل «هزّاع»، ورجاله لهذه اللقِيَة الجليلة القدر. وقضينا مابقي من يومنا في تخريب بعض أميال من الخطوط غير المحروسة..

ولم نقف عند حدّنا حتى كنا قد خرّبنا ما يحتاج العدو إلى إصلاحه مدة خمسة عشر يوماً. وكان القدر يتحفز ليقع على «المدوّرة»، إلّا أننا لم نُغذِّ آمالنا كثيراً لأنَّ قواتنا قد نفدت بسرعة. فقد اختفى العرب ولبث رجال پيك خاملين. وعلى كل حال يمكننا أن نستولي على «المدوّرة» في أي وقت كان، كما استولينا على محطة «الرّمْلة» دون

عناء في ساعة وجلَّ يتطرق إلى أفئدة العدو فيجلو عنها فتحتلها ونجلس على خرائبها. وأحاطنا «داوني» الذي لا يعرف التّعب ولا يتطرق الكلل إلى نفسه بحلقة من الحراس الذين لم يشاءوا أن يكونوا أقل نشاطاً وهمّة من رئيسهم. فكان محل راحتنا كأنّه قصر «بَكنغهام» ونحن متمددون على جوانبه كالنّيام. ثم نهضت لأريهم فن الحراسة في الصّحراء.

وعند الصّباح سافرنا للتعرف إلى «المدوّرة». فسرنا بأبهة ملكية في سيارتنا وهي تعجّ على السّهل المنبسط المغطى بالرّمل وشظايا الصّوّان، وطلعت وراءنا شمس صفراء أخفت قليلاً من مشاهدنا، ولم نرَّ المحطة إلّا عندما دنونا منها فأبصرنا قطاراً واقفاً، ليت شعري أللتفريغ هو أم للتّزوّد؟. إلّا أنَّ موقفنا لم يطل حتى انجلَّى. فقد أبصرنا التُّرك وهم في مراميهم، فأمطرونا ناراً حامية من مدافعهم الأربعة منها مدفعا جبل نمساويان سديدا الرّماية. فتركنا مواقعنا وهربنا هرباً خفض من مقامنا الجليل. وبعد أن اختفينا في منخفض من الأرض درنا دورة كبيرة، كي نرى المكان الذي نسفنا فيه أول قطار مع «زعل» والذي سقط دفعة واحدة بضربة من عزمنا الأكيد. وحيث كانت كشافة تركية تحتفل بالقيلولة تحت قنطرته في ذلك اليوم المتقلب المضطرب. ثم رجعنا إلى «رملة» نعيد الكرة على الخطوط نخربها حتى لا نبقي لفخري أملاً بإصلاحه قريباً، وكان فيصل في غضون ذلك قد أرسل محمّداً الضّغلان ليهاجم المحطات التي لا تزال سليمة بين معان وشقة تخريبنا. وسافر «داوني» في اليوم الثّاني إلى فيصل ليعضده. وهكذا أصبحنا مالكين ثمانين ميلاً من الخطوط الحديدية بين معان والمدوَّرة مع السّبع محطات في هذه الشّقة، ووضعنا حداً لدفاع المدينة الفعلي.

* * *

الفصل السّابع والعشرون

نقل وتموين

وكان قد أضيف إلى أركان حربنا ضباط وقوات قدموا من الموصل، فـ«يونغ» كان ضابطاً فنياً وله مزايا حربية نادرة، وقد أضاف عليها اختباراته في هذه الحرب الأخيرة. وفوق ذلك كان يجيد التكلم بالعربية، وكانت مهمته أن يعاوني على شد أواصر العرب بعضهم ببعض، وتدريبهم تدريباً متواصلاً لمحاربة العدو وطرده من البلاد. فقدمته إلى زيد وناصر ومرزوق لأسهل له سبل معرفة البلاد وأهلها ويتسلم مهمّة قيادة رجال العرب لتخريب الخط الحديدي شمال معان على شقة مساحتها ثمانون ميلاً. ثم عدت إلى العَقَبة كي أسافر إلى السّويس وأدرس مع آلِنْبي حركاتنا المقبلة. جاء «داوني» لملاقاتي، ففحصنا التقرير الإجمالي عن أعمالنا قبل أن نتقدم إلى القائد العام. واستقبلنا الجنرال «بولز» باسماً، وقال لنا: «ومع ذلك نحن الآن في مقام طيب في السَّلط»، ولم يلُه باستغرابنا عند متابعة حديثه وقال: إنه في صبيحة يوم من الأيام جاء بنو صخر إلى أريحا وعرضوا أن يقدموا في الحال عشرين ألف رجل من قبائلهم الضّاربة في «ثَمَد». ومنذ الصّباح فكَّر «بولز» ـ وهو لا يزال في الحمّام ـ بوقف الهجوم. فسألت: من هو عميد بني صخر. فقال بحبور هو «فهد». أجل، كان مغتبطاً لانتقاده ماكان في دائرة حماسي وهمتي. وظهر لي أن هذا الخبر غريب، بل حكاية خرافية، لأني أعرف أن فهداً لا يمكنه أن يقدم أكثر من أربعمئة رجل على أكبر تقدير.

ولم تكن في تلك اللحظة خيمة واحدة مضروبة في «ثَمَد» وكان بنو صخر قد ارتحلوا إلى الجنوب إلى جانب «يونغ».

وأسرعنا إلى المكاتب لنجلي هذه الواقعة وهناك عرفنا ـ للأسف ـ بأن «بولز» قد قال حقاً، وكانت فرقة الفرسان البريطانية قد سافرت فجأة لتتدرج تلال «مُؤاب» مهزهزة ببعض مواعيد رؤساء «بني الزَّبَن» الجشعين ناكثي العهد، الذين تراكضوا إلى القدس ليروا إلى أي حد يبلغ بآلنْبي الكَرَم.. إلّا أنَّهم هناك قلبوا لأولئك الخونة ظهر المجِنّ ولم ينقادوا لوعودهم الكاذبة.

أجل! لقد حبطت الغزوة. وكنت لا أزال في القدس متعزياً بعدم أهلية «بولز» لمرافقة «ستورز» حاكم الموقع في ذلك الوقت، والذي كان ينهي أعماله بدقة لا تُبارَى وظُرف لا مثيل له. وفي ذاك الوقت أيضاً ظهر بنو صخر تحت خيامهم وبعض منهم كان قد سافر مع «يونغ» وكان الجنرال «شوڤيل» Chauvel قد حُرِم من مساعدة أبناء البلاد، ورأى الأتراك يحتلون الموقع خلف ظهره ويترصّدون في مخابئ الأردن ويستولون على الطّريق الذي سلكه عند تقدمه.

ولقد استروح آلِنْبي ـ لحسن الحظ ـ وفي الوقت المناسب مسالك الخطر فاتقاها وخلصنا من محنة كبرى. وكان هجوم جنود فيصل مرسوماً بوضوح كلي لو أنهم اشتبكوا وحدهم بالعدو. ومن الآن فصاعداً سيكون معقَّداً مضطرباً، وعلينا نحن الآن أن نكون مع حلفائنا ونتفق مع آلِنْبي. إلّا أنَّه كان في هذه السّاعة مشغولاً. وهجوم الألمان على جبهة فرنسا حرَمَه من النّجدة. ولذلك سيلزم مكانه في القُدس. ولا يسمح لنفسه بأن يفقد رجالاً أو يجازف بهجوم قبل مرور بضعة أشهر. وقد وعده المكتب الحربي بإرسال فرق هندية سُحبت من «بين النّهرين» وبعض مفارز قادمة من الهند. وبهذه النّجدات يمكنه أن يجدد تنظيم جيشه على المثال الهندي، ويكون قادراً على العمل في الخريف. ولم يكن عليه الآن ولا علينا أيضاً إلّا المواظبة على الصّبر.

وفي ساعة شرب الشّاي كان آلِنْبي يتكلم عن جيش الهجّانة الإمبراطوري في سيناء، ويفكر فيحلّ هذه الفرقة ليضم رجالها إليه وهو آسف جداً لهذا الأمر المحتوم. فسألت: «وماذا يكون من أمر الجمال». فأجابه مبتسماً: «سَلْ رئيس أركان الحرب».

فرضخت لهذه الإشارة وجزت الحديقة الغَبِرة وتقدمت إلى السّير «والتر كامبل»

وأعدت السّؤال، فأجابني الجنرالَ ذو العقلية الاسكتلندية جواباً مثبّطاً للعزيمة، ولم يترك له رداً. وقال لي: إن هذه الحيوانات الموسومة على آذانها بميسم فارق قد خصصت لتشكيل قوافل ذخائر للهنود الجدد. إلّا أنني تشجعت وطلبت ألفي جملٍ من هذه الجمال فكان الجزء الأول من جواب لجنرال خارجاً عن موضوع طلبي. والجزء الثّاني يفهم بأنه يمكنني أن أكرّر «طلبي» إلى ماشاء الله، وحاولت أن أقنعه ببعض البيانات فلم يكن مستعداً أن يفهم النّقط الدّقيقة من وجهة نظري لهذا الطّلب. ولا أنكر أن مهمّة رئيس الأركان حرب تحتّم عليه أن يكون شحيحاً بذخائره ووسائله.

فعدت إلى آلِنبي وأسمعت الزّائرين بأنَّ لديهم من الجمال ألفين ومئتين للرّكوب وألفاً وثلاثمئة للحمل وقد خصصوها للنّقل. وعلى كل حال وبدون شك أنَّ النّوق كانت دائماً نوقاً. فأخرج رئيس الأركان حرب صفيراً خفيفاً من بين ثناياه، واتخذ له وقفة غريبة تدل على استغرابه، وأنَّه من غير الممكن أن تصلح النّوق لحمل الأثقال. ففصلت الأمر بنظام فني تفصيلاً أفاد قضيتي، وإنها لشارة شرف لكل ضابط إنكليزي يعرف أحوال الحيوانات ومختلف أجناسها، ولم أستغرب دعوة القائد العام للسّير «والتر كامبل» على العشاء تلك الليلة.

وكنا عن يمين وعن شمال آلِنبي. وما كدنا نتناول الحساء حتى أخذ مضيفنا يتحدث عن الجمال. فلم يبطئ السّير «والتر» أن صرّح «بأنَّ حلَّ فرق الهجّانة يعتبر عملاً إلهياً، وأنه لإرثٌ طيب يكون وسيلة نقل كبرى للفرقة.. عدد!! وتزيد في قوّتها، وقد فتشنا في جميع بلاد الشّرق فلم نلاقِ حيوانات حمولة»، إلّا أنَّه كان يغالي، وكان آلِنبي الفطن قد أدرك ضعف حجج رئيس أركان حربه، ولم يكن يأبه لهذه القافلة التي هي كالأصنام المعبودة لدى مكتب الإدارة.

وغمزني بعينه وقال: «ولأيّ خدمة تريد هذه الجمال؟»، فأجبته بحماسة: «لكي أضع ألف رجلٍ في درعا متى شئتم فخامتكم»، فتبسَّم وهزَّ برأسه نحو الجنرال كامبل وقال له بأسفٍ: «لقد خسرتم يا حضرة الأركان حرب» فشعر الماعز بالدّوار والحَمل بالخجل: فكانت عطية بالغة الحد. بل هدية ملكيَّة حقاً. لأنَّه سهّل لنا حركة وتنقلات

جليلـة الشّـأن في الصّحراء. وصار فـي الإمكان أن يربح العـرب الحرب في أي وقت وأي مكان شاءوا.

وسـافرت في اليوم الثّاني لأصل إلى فيصل المقيم في عشِّـهِ بـ «أبا اللِّسن». وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث عن التاريخ. والقبيلة. والأسـفار. والشّتاء والوسميّ والكلأ، والأخبـار الحديثة إلى ما لا نهاية له. وأضفت إلى ذلـك بأنَّ الجنرال آلِنْبي أهدانا ألفي جمـل؛ فتوقفت أنفاس الشّـريف، وقبض على ركبتيَّ وصـرخ: «ألفا جمل؟»، فأطلعته على الخبر بحذافيره. فقفز قفزة وعانقني وصفَّق بيديه. فظهر سَـدَف هجرسَ الأسـود علـى باب الخيمة. فأمره فيصـل بأن يدعوهم في الحال. فأجـاب هجرس مرتبكاً: من منهم يا سيدي؟ فأجابه فهد وعبد الله وعودة ومتلج وزعل!... فغمغم العبد المسكين: ومـرزوق؟ فانتهـره فيصل فخرج من الخيمة. ثم قلت له: لقـد انتهت مهمتي ويمكنك الآن أن تدعنـي أرحـل. فاعترض علـيَّ وقال: كلا إنك لـن ترحل عنا وسـتلازمنا أبداً لا إلـى دمشـق فقط، كما وعدته سـابقاً لما كنا فـي «أملج»، أنا الذي يذوب شـوقاً إلى الرّحيل!.

وسـمع وقع الأقـدام وراء الخيمة. ثم توقفـت الحركة قليلاً ليتخذ الدّاخلون سِـمة الرّزانة الرّسـمية! ويصلحوا ثيابهم وعمائهـم قبل الدّخول على فيصل، ودخلوا واحداً واحداً وجلسـوا على السّـجادة سـكوتاً وهم يردّدون الواحد تلو الآخر: خيراً إن شـاء الله، وينظرون إلى فيصل مبغوتين، وعيناه تبرقان.

ولما تمّت حلقة المدعوين قال لهم فيصل: «لقد أرسـل الله إلينا وسـائل الانتصار ـ أي ألفـي جمـل، وأنا سنسـير الآن من غير عائق يقف فـي طريقنا إلى النّصـر النّهائي والحريـة». فاهتزَّ الحاضرون لهذه المفاجأة واجتهـد كلُّ واحد في أن يلزم قناع تعجبه كما هو واجب أمام سيد عربي عظيم. وهم ينظرون إليَّ ليعلموا أي شأن كان لي من هذه النّفحة السّامية. فقلت لهم: «هذا كرم آلِنْبي» فهمَّ زعل بالتكلّم عن الجميع: «ربنا يحفظ حياتـك وحياته» فأجبتهم: «لقد أهدوا إلينا الانتصـار». ثم ملتُ على فيصل وقلت له: «استأذِن» وانسَلَلتُ من الخيمة إلى الخارج لأذهب وأبشر «جُويس»، وما كدت أخرج

حتى تحلّق الجميع حول فيصل واستسلموا للرُّؤَى الذّهبية، وهم يحلمون بالغزوات المقبلة الجنونية، ولكن أي حرب سيربحونها إذا لم يشعر كل فرد منهم بالمسؤولية، يتحمّل شقاءها وينعم بهنائها.

وسُرَّ جويس أيضاً بالألفي جمل، إلّا أننا تناقشنا حالاً بقدرتها على العمل بعد سيرها الشّاق من بئر سبع إلى العَقَبة. وبالمناطق الملائمة لرعي مثل هذا القطيع، وعلينا أن نُنْسِيها طعم الشّعير ونعوِّدها حشيش الصّحراء إذا كنا نرجو منها عملاً.

ولم نكن في حاجة قصوى الآن إلى حَلٍّ أية قضية من قضايا هذه الجمال، بل علينا في غضون ذلك أن نثبت على المرتفعات طيلة الصّيف، محاصرين معان ومانعين كل تصليح يحاوله العدو على الخط الحديدي، ولقد كانت مهمتنا شاقة!..

وأول شيء يعترضنا هو قضية التموين، وقد قلَّبت كل التدابير الرّاهنة فوجدت بأن وسائل النّقل اللازمة لنا لم تكن كافية مهما تفاءلنا، وأن مركبات النّقل المصرية بواسطة الجمال المتواصلة بين العَقَبة وأبا اللِّسن، لم تكن تقوى على القيام بعدد رحلات أكثر مما تقوم به الآن، خوفاً على الحيوانات من التّعب والفناء، مع أنه إذا زجرنا الهمَّة ولو قليلاً نلقى شيئاً من الفائدة، فعرضت أن أقوم بأمر هذه الحيوانات بنفسي.

فاقتنع البريطانيون بهذا العَرْض وأقروه حالاً. وعليه كان من الشّاق جداً أن نخلق جمَّالة بهذا القدر فجأة. ونسلم «يونغ» القيادة العامة وهي ملائمة لمزاجه كلَّ الملاءمة، وحد من سلطة هذا الخلاط الغريب، فلم يكن لديه مؤن لوحداته ولا سروج ولا معاونون، ولا أطبَّاء بيطريون، ولا أدوية، ما خلا القليل من الجمَّالة، وعليه كان ضبط مثل هذه القوافل وتسييرها ولو بأبسط نظم النّقل مستحيلاً. إلّا أنَّ «يونغ» قد توفَّق إلى ذلك بطريقته الخاصة، وحلت بفضل مهارته طريقة تموين العرب النّظاميين على الهضاب.

وانتشر العصيان انتشاراً سريعاً، فكان فيصل يُثير الجهاد العربي من تحت خيامه، وغصَّت العَقَبة بالمجاهدين ونهضت الهمم وسارت الأمور على ما نروم، وقد سجَّل

العـرب لهـم انتصاراً ثالثاً في جـردن وخرَّبوا هذه المحطة التي تعـودوا أن يحتلوها ثم يخلوهـا، وفاجـأت سـياراتنا المدرّعة مفـرزةً تركية كانـت تحاول الخـروج من معان وبددتهـا بطريقـة لا تتاح لمثلها فرصة أخرى، وكان زيد على رأس نصف الجيش أيضاً شـمال وُهَيْـدَة يمد لواءَ سـلطانه ويثير كامن جهوده. وكان لابتسـاماته أثـرٌ عميق على ضباطه الفنيين، أكثر مما كان لطبيعة فيصل الرّزينة الخيالية.

فكانـت معاونة الأخوَيْن السّـعيدة توحي إلى فريقَيْ الرّجـال التعلق كل بناحيته من هذين الشّـخصين رئيسـي الثّورة، ولزمنا مكانا مدة ستة أسابيع إلّا أنَّ زيداً وجعفراً كانا يقومـان بأعمال مفيدة بواسـطة مدافعهما فـي منطقة معان. وتقدم الشّـريف ناصر إلى «الحَسَـا» مع «پيـك» و«هورنبي» أربعين ميلاً نحو الشّـمال، وكانا على مسـافة ثمانين ميـلاً من الخـط فخرَّباه تخريباً حتى أساسـاته. وأجهضت خطة التُّـرك الهجومية وهي جنين، وكانوا يدبرونها ضد فيصل في «أبا اللِّسـن» فاغتنمت الفرصة وعدت مع داوني إلى آلِنْبي.

وكانت الحال قد انقلبت انقلاباً ظاهراً في المعسكر العام. فقد كانوا يختلجون كما هـي عادتهم، حماسـةً وأمـلاً. أما لآن فقد اكتسـبوا حكمة واندماجـاً، ووصلت الفرقة الجديـدة مـن «ما بيـن النّهرين» وفي السّـاعة الملائمة وتشـكل الجيش تشـكيلاً طيباً، وقرّرت الاجتماعات السّـرية أن الجيش يتمكن من القيام في شـهر سبتمبر بهجوم عام وبعيد المدى.

وانقشت الغيوم عن الأفق من كل ناحية. ولما مثلنا أمام آلِنْبي جاهر فجأة برغبته في هجوم عظيم في أول سبتمبر لتحقيق خطة «سموتث» حتى دمشق وحلب. وكان دورنا مرسوماً ومحفوظاً منذ الرّبيع الماضي وسنغزو درعا بمعونة الألفي جمل المرسلة إلينا حديثاً.

وزرت آلِنْبي و«بارثولوميو» رئيس أركان حربه مع «داوني» يوم 11 يوليو سنة 1918 فعجبنـا من كرمهمـا وثقتهما. وكان الجنرال يسـتقبلنا ويظهر لنا نوعـاً مما يكنه فؤاده، وكـم كنت مسـروراً مغتبطاً مـن دور الجنرال ذي القدميـن الصّغيرتيـن. والدّور الذي

أتعلمـه وأمثله في منطقتـي الوضيعة! وكانت ثقة آلِنْبي كالصّخـرة التي لا تتحرّك، وقد زار الجيـش المتجمـع خفية فوجده متحفـزاً للهجوم، فأكدَّ له بأنـه معتقد بنجاحه وأنه بهمته ورباطة جأشـه سيأسـر ثلاثين ألف رجل، فعلينا أن نتخـذ إذاً هدفاً واحداً وخطاً مفرداً. إلّا أنَّ «بارثولوميو» كان يبدي شـيئاً من الشّـك، ويجاهر بأن تجهيز جيش كامل في شـهر سبتمبر أمر مستحيل، وأن فرقاً بأكملها لا يمكنها مشاركة الجيش في الهجوم قبـل أن تصـل مهماتها. وأنـه لا يمكن لأحد أن يفكـر ويؤكد بأنَّ التقدم سـيتم كما هو مرسـوم. وأن الهجوم سـيبتدئ في المنطقة السّـاحلية تجاه «رملـة». المحطة التي هي رأس المرحلة. وهي وحدها النّقطة التي تصلح أن تكون مستودعاً للذخائر.

وأضاف «بارثولوميو» قائلاً: «وكان هذا الأمر واضحاً إلى حد أنه ليس من المحتمل أن يكون التُّرك قد جهلوا هذا النّقص في جيشـنا، أو أنهم في اسـتعداداتهم الحربية لم ينظروا إلى هذه الخطط الفنية».

أما خطة آلِنْبي فهي تجمع كل مشـاته وفرسـانه تحت بساتين البرتقال في الرّمْلة قبل التاسـع عشـر من سـبتمبر تماماً. وكان يحسـب بأن يتظاهر في هذا التاريخ بالتقدم في وادي الأردن، ليوهـم التُّـرك بأن جيشـاً كبيراً يسـتعد للزّحف على هـذه المنطقة، لأنَّ العدو بعد غزوتَينا على «السَّلط». وكان يرمق بأنظاره دائماً أبداً ضفة الأردن الشّمالية. وكانـوا يردون أقـل هجوم يقوم به البريطانيون أو العرب على هذه المنطقة، ويسـترون خوفهـم بهذا التيقظ المفـرط. وكانوا يعمون عن حركاتنا السّـاحلية مقر الخطر عليهم ومـورد العطب. فلـم يكن لديهم هناك رجال كثيرون. وكان علينـا مهما كلفنا الأمر أن ندعهم في تقديراتهم ناعمين.. لأنَّ نجاحنا منوط بهذه الغفلة.

ولـم نكن هذه الخدع الضّئيلة في عيون القواد العاديين سـوى مقدمـات طيِّبة لَبِقَة، إلّا أنَّهـا كانـت فـي عَيْنَـي آلِنْبـي ذات أهميـة عظمى فـي حركاتـه الحربيـة، وعليه فقد ضـرب «بارثولوميو» قـرب أريحا جميع الخيام القديمة للجنـود المصرية، ونقل خيام مستشفيات الحيوانات ومستشفيات النّاقهين وأقام شبه معسكرات وجنوداً وخيولاً في المراكز البارزة تجاه العدو، وفي المواقع ذات الأهمية الحربية المعقولة، ومدَّ جسوراً

ثنوية على مجاري المياه، وضرب البلاد التي يحتلها العدو بالمدافع التي استولى عليها الإنكليز. وعند الحاجة كان يرسل جيوشاً من العاطلين على الطّرق التَّربة ليثيروا النّقع فينعقد ضباباً فيعتقد العدو بأنَّ هجوماً قريباً خطراً سيقوم به آلِنْبي. وأضف إلى ذلك الجيش الجوي الملكي الذي كان يدفع عدداً كبيراً من طائراته الحديثة الطّراز فوق مواقع العدو أياماً متواصلة، ليمنع هذا العدو من الاطلاع بواسطة الجو على مواقع خصمه وحيله المدبَّرة.

وكان «بارثولوميو» يعتقد بأننا نعاون جهوده بكل ما لدينا من الحماسة واللباقة في منطقة عمّان، ومع كل ذلك لم يكن يحجم عن أن يحذرنا بأنَّ النّجاح لا يزال بيد القدر. وللحقيقة كان من الممكن أن يقرّر التُّرك الانسحاب، فيتراجع جيشهم السّاحلي سبعة أو ثمانية أميال إلى الوراء. فيحتم علينا إزاء ذلك أن نعيد تجمعنا وضم صفوفنا. إذ يصبح الجيش البريطاني كالسّمكة ترقص على أرض جافة، وتصبح سككُه الحديدية ومدفعيته الضّخمة ومستودعات ذخائره ومعسكراته في حالة لا يحسد عليها. ولا يبقى لديه حَرَجة واحدة من الزّيتون لتخفي حركاته الجدية عن الأنظار. وبما أن آلِنْبي كان واثقاً من نتيجة مجهودات الجيوش البريطانية غير الاعتيادية فقد طلب منا أن لا نقذف بالعرب لنجدته في مأزق لا يمكنهم الخروج منه.

ولهذه الوجهات المضطربة عدت مع «داوني» إلى القاهرة، ونحن في شغل شاغل لاستعداداتنا ولموقفنا، وكانت أخبار العَقَبة الجديدة تدعونا إلى الدّفاع عن الهضاب ضد التُّرك. لأنَّ العدو قد طرد ناصراً خارج «الحسا» ويستعد للانقضاض على «أبا اللِّسن» في أواخر أغسطس، عندما تنسحب مفرزتنا من منطقة «درعا». فإذا لم نتمكن من صد تقدم العدو مدة خمسة عشر يوماً فإنَّه لا محالة يشل حركاتنا بسرعة، فيجب علينا والحالة هذه أن نُعلن ذلك حالاً.

وفي هذه الفرصة نزل الإلهام على «داوني» فتذكر طابور الهجّانة في الجيش الإمبراطوري، وإن هذا الطّابور يمكنه أن يبلبل خطة التُّرك ويفسد عليهم حسابهم. ترى هل تسمح لنا به القيادة العامة؟. فكلمنا «بارثولوميو» بالتليفون، ففهم قصدنا

وساعدنا على الوصول إلى طلبنا لدى «بولز» في الإسكندرية ولدى آلِنْبي، وقد حصلنا على أمنيتنا بعد تبادل تلغرافات عديدة، ووضع الجنرال «بولز» رجاله الهجّانة الثّلاثمئة تحت تصرفنا لمدة شهر كامل على شرطين ـ الأول: أن نقدم تقريراً با لخطة التي ستقوم بها هذه الفرقة ـ ثانياً: لا يجب أن نفقد رجالنا عند القيام بأعمالهم! ورأى «بارثولوميو» أن يعتذر إلينا لهذا الإنذار النّهائي البديع!! الذي لم يكن فيه شيء من الشّهامة العسكرية.

وانحنيت مع «داوني» على الخريطة وألقينا عليها نظرة وقرّرنا أن يقوم «بَكستون» من القناة إلى العَقَبة أولاً، ومنها إلى رم فيستولي ليلاً على المدوّرة ثم يركض إلى «باير» فيجتازها ويخرّب الجسر ويهدم النّفق قرب عمَّان. وبعد ذلك يمكنه أن يعود إلى فلسطين في 30 أغسطس، فتكفل لنا جهود هذه المفرزة الخفيفة هدوءَ شهر كامل، في غضونه يكون قد تبلَّد الألفا جمل، وألفت أضراسها حشيش الصّحراء، ونكون قد ضمنا تموين فرقة «بَكستون» بالزّاد والعَلَف.

ومن ناحية الخطة الرّئيسية، فإنّ آلِنْبي كان يفكر بالهجوم في 19 سبتمبر ويرغب أن نتقدّمه بأربعة أيام لا أكثر ولا أقل من يومين، قبل أن يتحرك بجيوشه، ثم قال لي بالحرف: «إنَّ ثلاثة رجال وغلاماً وفي يدهم المسدسات أجدى من ألوف قبل أسبوع أو بعد أسبوع من هذا التاريخ». وفي الواقع لم يكن يحسب حساباً كبيراً لنجدة العرب. ولم يكن يعتبر خططنا اعتباراً جدياً ضمن خططه الفنية. وكان يعتقد بأن قواتنا معنوية أكثر منها فعلية عملية تسحر القيادة التُّركية في جبهة ما وراء الأردن... وإذا وقفت موقف الإنكليزي ورأيت رأيه ربما كنت شاركته في هذا الحكم، إلّا أنَّني وأنا في عقليتي العربية، أرى أن سحر العدو بالمظاهرات كما في المعركة له الأهمية في عقليتي العربية، أرى أن سحر العدو بالمظاهرات كما في المعركة له الأهمية نفسها، وهي المساعدة الفعلية للنّجاح المشترك ولاحترام العدو ذواتهم، إذ من غير هذا الاحترام، يفقد النّصر نتيجة أدبية نافعة للعرب.

ولذا فقد فكرت في تسيير خمسمئة من المشاة النّظاميين راكبي الجمال، والمدفعية

الجبلية الفرنسية السّريعة رقم 65، وعدد كاف من الرّشّاشات والسّيارات المدرّعة، ورجال يمهدون الطّرق، وكشافة على ظهور الجمال، وطائرات، وتتقدم هذه القوة إلى الأزرق حيث يكتمل تجمعها يوم 13 سبتمبر. وفي يوم 16 منه تحدق بدرعا، وتقطع الخطوط التي تتصل بها، وبعد يومين من ذلك نطوي على الخط الحجازي الشّرقي وننتظر نتائج حوادث آلِنبي. وقد ادّخرنا للطّوارئ علفاً من الشّعير اشتريناه من جبل الدّروز وخزنّاه في الأزرق.

وسيرافقنا نوري الشّعلان مع رجال الرّوَلّة يعضده رجال سرديَّة والسّرحان وفلاحو حوران يقودهم طَلاَل الحريديني. وقد تدخَّل «داوني» فطلب من القيادة العامة أن تضع تحت تصرفنا الضّابط أركان الحرب «سترلينغ» الممتلئ خبرة ودقة وحذراً، «سترلينغ» الولوع بالخيل ولوعاً مكنه في الحال من الإندماج في صلة وثيقة مع فيصل وكبار الرّؤساء..

وقد منحنا ضباطاً من العرب نياشين بريطانية مكافأة على شجاعتهم وإقراراً بإخلاصهم حول معان. ومنحنا جعفر باشا شارة الاستحقاق والأهلية «كوماندر من رتبة مار ميخائيل ومار جرجس» وكانت هذه المنح من بنات فِكر آلِنْبي، في تلك الظّروف الحرجة. فقدم جعفر باشا إلى القيادة العامَة ليتسلم هذه الشّارة العالية من يد القائد العام. واغتنم الأركان حرب هذه الفرصة ليقيم عيداً لأسيره القديم. وكانت فرقة الشّرف لهذه الحفلة «خيّالة دورست» Dorset Yeomanry التي فتكت بمفرزة تركية بالسّلاح الأبيض في إحدى جولاتها على صحراء السّنوسي منذ ثلاث سنوات فسر جعفر لهذه المصادفة نظراً لمزاحِهِ المرِح وميوله الإنكليزية فكان لمجاملة آلِنبي هذه تأثير طيب في صفوف العرب. وتقدم نوري باشا السّعيد ليتسلم قيادة الغزوة على درعا. وكانت شجاعته ورباطة جأشه تؤهلانه أكثر من أي شخص آخر لهذه المهمّة. فانتقى أربعمئة رجل من أشد رجال الجيش، ونشط «بيزاني» قائد المدفعية الفرنسية وتسلم قيادة أربعة مدافع «شنايدر» أرسلها إلينا «كوس» بعد سفر «بريمون» Bremond وكان هذا الفرنسي قد نال وسام «صليب الحرب» ويطمع في وسام «الخدمة العسكرية الممتاز»، ولاقتهم صعوبات شديدة قبل أن يتمكنوا من

الاستيلاء على نصف الجمال لحمولة. ولقد كان يحتاج إليها حقاً لنقل الذّخائر والعَلَف لبغال ولمطبخه وأمتعته الخاصة. وكان المعسكر يتحرّك نشيطاً كالنّمل، ويدور بهمة كالنّحل، ويبشر بالنّتيجة الطّيبة.



جعفر باشا

قائد الجيش العربي الشّمالي، ثم رئيس الوزراء العراقي

الفصل الثّامن والعشرون

بَكستون وجيش الهجّانة الإمبراطوري

وكنا في أواخر شهر يوليو، وعلينا في أواخر أغسطس أن نبدأ بغزوة «درعا» وفي غضون ذلك نكون وحّدنا برنامج جيش الهجّانة الإمبراطوري I.C.C.، فنعلن نوري الشّعلان. وندرب السّيارات المصفحة على الطّرق حتى الأزرق ونفتش على سهل تنزل عليه الطّائرات، وقد استفدنا استفادة طيبة من أيام هذا الشّهر، ففكرنا ملياً بأمر نوري الشّعلان، أولاً: لأنّه بعيد عن منطقتنا فدعي لمقابلة فيصل في «جفر» يوم 7 أغسطس، وبعد ذلك جاء دور الاهتمام بـ «بَكستون» وقد أطلعت الشّريف سراً على وصوله مع الهجّانة. ولكي أجنبهم ضحايا، أمرتهم بالاستيلاء على المدوّرة فجأة وقدتهم بنفسي إلى وادي رمّ ورافقتهم في سيرهم الحرج الدّقيق بين معسكرات الحويطات الذين كانوا لا يزالون حول العَقَبة.

جئت إلى العَقَبة فسمح لي «بَكستون» بأن أشرح لرفاقه كلاً بمفرده ما يترتب عليه من الأعمال بالدّقة وأفهمهم بأن حلفاءنا العرب الذين قدموا إلينا لمساعدتنا دون أن نطلب منهم مساعدة ما. هم على أحر من الجمر للقيام بالعمل أقل إشارة، ورجوتهم بأن «يديروا الخدّ الأيسر» عند أي صدمة ـ أولاً: لأنهم مثقفون أكثر من العرب لا تغرهم الأحلام والأوهام. ثم أن عددهم يسير وهم بين البدو. وكان من الواجب علينا بعد هذه المشورات الأولية أن نجابه معابر إتم المقبضة ونحاذي جلاميد نجد الحمر ونسير في منعرجات عمران المطروقة فنتهيأ ببطء لمشاهد «وادي رمّ» الرّائعة.

ثم خرتنا منافذ صخور «هزيل» كي نصل أخيراً إلى محراب الينابيع في ذلك

المسرح الذي ما لبثنا أن سحبنا هواءَ البليل بالأفواه والقلوب. ولم تكن زينة الطّبيعة هناك زينة عادية تحلي مرحلتنا، بل جمالاً يفوق الرّؤى والأحلام وكنا ـ نحن البشر ـ تراباً تحت أقدامها.

وقد اختبر الرّجال في رمّ لأول مرة رفع المياه مثل العرب، فكانت لديهم أمثولة مرة، إلّا أنَّهم كانوا قنوعين راضين، وكان «بَكستون» الذي شاب وشاخ في السّودان يتكلم العربية ويعرف أحسن من أي شخص آخر، كيف يعامل البدو الرُّحّل ويرضي شهواتهم، وكيف يقود الحملة ويظهر الجلد، وقد عاونه «هزّاع» ببراعة مؤنباً أبناء البلاد، أما «سترلينغ» و«مارشال» اللذين يرافقان الهجّانة فقد عاشا طويلاً في أحسن حال مع بني عطية، وبفضل حسن السّياسة والكياسة، وبفضل مواقف الجنود البريطانيين الرّزينين، لم يحدث ما يكدّر حملتنا.

ومرت أيام قليلة عدت بعدها إلى العَقَبة في المسالك المرتفعة محاذياً جلاميد «إضم» العظيمة، يرافقني ستة من حرسي الخاص صامتين. لا يعرضون أسئلة ويلازمونني ملازمة الظّل، وينساقون انسياق الطّبيعة فيطفون على الرّمل طفواً. ويلامسون الأشواك ملامسة، ويحاذون جبال بلادهم محاذاة. أما أنا فقد شعرت بأن الحنين إلى كوخي يغمرني ويثير فيَّ اللَّهيب. ولقد طالت عليَّ مرارة الحياة بين أبناء الصّحراء كالمنفي الشّريد وكنت أسائل نفسي: ألا يمكن أن أستغل حبهم للحرية وأستفزهم إلى المثل العليا وآخذها عدة تساعدني لأجل انتصار انكلترا!.

وكان باقي حرسي الخاص مجتمعاً في العَقَبة على أهبة الاستعداد للتسابق إلى الانتصار. لأني وعدت رجالي الحوارنة بأننا سنحتفل بعيد النّصر في قراهم المعتوقة وإن هذا لعيد لقريب، ولقد استعرضتهم لأول مرة على شاطئ البحر وكانت الشّمس تلمع على شفرات الأمواج كأن الزّبد فضة حبب، وعلى سلاح رجالي المشحوذة وثيابهم اللامعة شهب ذهب، وكانوا ستين رجلاً، فلم يجمع الزّعاقيّون فرقة أشد منها. ولما بلغنا جبال قويرة المربدة نظمتهم على مثال بني عقيل قلباً وجناحين، وشعراء ينشدون عن يمين وعن شمال، ومغنّين يغنّون ونحن نتهزهز على ظهور جمالنا كأننا

في غزوة من غزوات العصور الغابرة، ويالخيبة الزّعاقيين الذين لم أسمح لهم بنشر علمهم أمامي كأني أمير على الصّحراء!..

وكنت راكباً «غزالة» الجدة الهرمة التي أعيدت إليها قواها واستعادت قوامها، وكان قد نفد نتاجها الأخير فسلخه عبد الله وألقى أديمه وراء سرجه كالحياصة وسار الرّكب بنظام بفضل أغاني الزّعاقي، إلّا أنَّه لم تنقضِ ساعة حتى رفعت «غزالة» رأسها تشرئب وتمشي مضطربة، وترفع أخفافها كأنها ترقص على جمر الغضا، أو تدوس على شوك القتاد. فحاولت ترويضها عبثاً. فترجّل عبد الله متزملاً بعباءته وأخذ أديم الفصيل وقدمه إلى أنف ناقتي فتوقفت، وأنّت برفق وحنان فنشره على الأرض وتركها تشمه قليلاً، وتلمسه بمشافرها اللينة، ثم هدأت وسارت دامعة، وقد تجدد هذا المشهد مراراً حتى بدا لنا في المساء أنَّ هذه الأمُّ الثّكلى قد حاولت السّلوان.

وكان «سيدونز» Siddons الذي قدم طائراً ينتظرني في «قويرة» فدعاني نوري الشّعلان وفيصل إلى جفر في الحال فوجدتهما على أتم حال من الاستعداد والحماسة، وكنت إلى ذلك الحين لا أصدق أن هذا الشّيخ سيكون بيننا وينضم باختياره إلى الشّبان. لأنَّ الشّعلان كان هرماً شاحباً متهدماً حفرت على وجهه أخاديد التبكيت والآلام. وقلما كانت تسطع على هذا الوجه الفاني هبوة ابتسامة. له أهداب سود كثة تهبط مع الأجفان الثّقيلة المضنية. إذا مرت أشعة الشّمس عليها وهي في سمتها وتغلغلت بين تلك الأهداب، توقدت العينان واحمر بياضهما كأنهما في محاجرهما بوتقتان تذوّبان ببطء على نار هادئة ذلك الرّجل، أسد الصّحراء الفاني... إلّا أنَّ الخضاب في شعر رأسه ولحيته، وخلو كل شعور في وجهه كانا يطرحان شيئاً من السّنوات السّبعين التي تهوي على منكبيه.

فتبادلنا المجاملات لدى هذا الرّئيس القليل الكلام، وهو محاط برجاله رؤساء القبيلة يسيرون الخيزلى حوله بثيابهم الفضفاضة التي تسمع لها حفيفاً كحفيف مطارف العرائس وبعضها من هدايا فيصل. فيتهادون بمشيتهم وعلى رأسهم «فارس» كأنه «هاملِت» لا يغفر لنوري الذي قتل أباه «سطّام» وكان «فارس» هذا شيخاً نحيلاً

أبيض البشرة إلى حد لا يصدق، وكان يرد على انتقاد أهل الحضر للبدو باسترحام وعذوبة واعتراض. وكان يقول «يفهم لغتنا العربية؟!» هذا غريب. وكان بين البدو طراد وسلطان. لهما أعين مستديرة ونظرات رصينة شريفة وعلى وجهيهما سمات الشّرف والرّئاسة والفروسية. وقد أحضر فيصل «مجهماً» أيضاً «مجهماً» العاصي وصالحه مع عمه رغماً من أنه لا يطيق مواجهة تلك السّحنة الشّاحبة المتجعدة، ورغماً من أن «مجهماً» كان مهذباً محبوباً.

كان «مجهم» أيضاً رئيساً من الرّؤساء وخصماً لـ «طراد» في قيادة الغزوات، ظالماً ذا خلق ضعيف. فجلس إلى جانب أخي طراد الفارس الشّديد المرح الطّروب، الذي يشبه أخاه في الشّدة والبأس. ثم دخل «درزي بن دغمي» وحياني. وكان «درزي» ذا ملامح مشؤومة وأنف أعقف يشير بمنقاده إلى عور في إحدى عينيه، وكان به بِهاق ولكنه شهم همام. وكان بيننا الخفاجي «بنيامين» نوري في شيخوخته يتوكل على مساعدتي له حباً بأبيه الشّيخ. لا اعتماداً على مقدرته في المستقبل. وكان زهوه بشبابه وخيلاؤه ونسبُه، يدعوه ذلك كله، إلى حمل السّلاح المصقول والاستعداد للقتال...

وكان «بندر» الغلام المرح رفيق الصّبا لخفاجي قد فاجأني في هذا الاجتماع، وطلب إليَّ أن أضمّه إلى حرسي الخاص لأنَّه سمع من أحدهم «رحيل» أخيه في الرّضاع، عن الفوائد الممتازة والمسؤوليات الهامة أيضاً التي تقتضيها هذه الوظيفة، وقد جذبته مخاطراتها العذبة المضطربة. فاعترضت قدر ما استطعت، فألحَّ فانقطعت عنه وغمغمت قائلاً: «أنا لستُ ملكاً لأستخدم أبناء الشّعلان»، فاشتبكت نظرات نوري التي أرسلها من وراء أحداقه المظلمة وأجفانه المثقلة الهاوية بنظراتي.. فقرأت فيها سطور استحسانه!.

وكان رحيل جاثماً ورائي كأرومة ضخمة مجللاً بثيابه الزّاهية الملفتة للأنظار. ولما اختلط النّاس وكثرت الغوغاء دنا من أذني يهمس فيها أسماء الرّؤساء، ولم يكن على هؤلاء الرّؤساء أن يسألوا عمن أكون. لأنَّ ثوبي ووجهي كانا متقابلين متناقضين مع أشكال أولئك النّاس سكان الصّحراء، وكنت وحدي حليقاً بين الذقون الملتحية

والشّوارب المستطيلة، وفوق ذلك كنت دائماً ألبس الخزَّ الزّاهي الخالص البياض ـ خزاً لا يطمع به أحد غيري ـ مزنراً بمنطقة من الذّهب والقرمز صنع مكة، تضم دائماً أبداً خنجراً ذا نصاب من الذّهب الإبريز. وكأني بهذا الزّي الزّاهي كنت أحاول استرداد حقوق مقامي الضّائع. وهي حقوق اكتسبتُها حقاً من احترام فيصل لشخصي جهاراً وفي كل مجتمع.

وكم من مرة كان فيصل يكتسب رؤساء قبائل جدداً في هذه المجالس الاستشارية الحربية ويلهب حماستهم، بينما كان يذهب سعيي أنا بين خيّاب ابن هيّاب. إلّا أنّه لم يتفق قط أننا اجتمعنا قبل اليوم لمثل هذه المداولة الخطيرة، لقد كنا نسند بعضنا ونقر آراء كلينا ونتناوب المداولات للعمل المشترك ـ نحن الذين جئنا كلٌّ من قطب مختلف كل الاختلاف ـ وكانت أعمالنا مع ذلك تنتهي على أحسن ما يكون من التوفيق. ولقد لان أبناء الرّولة بين أيدينا وتحت تأثير حماستنا، وأصبحنا نهزهم بكلمة طيبة وإشارة موفقة، لأنَّ أفكارهم قد اتجهت إلينا ووقفت أنفاسهم على شخصينا، وسطعت في عيونهم أشعة إيمان جديد. وألهمهم فيصل الرّوح الوطنية بكلمة، وذكّرهم بأمجاد لغتهم العربية وتاريخ آدابها الغارق في القدم. ثم صمت الشّريف هنيهة كي يتذوق أولئك الرّؤساء الأميون كل عبارة بتؤدة وهدوء، لأنَّ الكلمة الطّيبة كانت تشبع نفوسهم وعبارة ثانية كانت تكفي لكشف القناع عن روح فيصل رفيقهم وعميدهم، الذي يضحيه حباً بالحرية العربيةَ ثم يعود إلى الصّمت وأنظار الرّجال ترقى عليه وتسهل، ثم تحدق به إحداق السّوار بالمعصم. وتطوف أفكارهم بهذا الجسم السّجين داخل خيمته ليلاً نهاراً، يبشر ويصدر الأوامر ويخلق الأصدقاء. فيرون في شخصه شيئاً من المثل العليا التي تثير الضّرام في هذا الرّجل المعلق كالأيقونة المجردة من الشّهوات والوهن والأطماع والأخطاء.. رجل غني بالمواهب الطّبيعية والصّفات الرّفيعة. مسخر لقضية معنوية، ذو غاية مفردة لا ثانٍ لها، وهي أن يحيا ويموت في خدمة هذه القضية.

واتجه وجه مخابراتنا اتجاهاً حسناً فحركنا كوامن الرّجال، وقد كانوا غارقين في بحر من الأفكار. وتركنا الحرية لأولئك البدو كي يقتنعوا من نفسهم، بأنَّ شعورهم

له ينبوع جارٍ في داخلهم، وأن استنتاجاتهم صادرة عن عقيدة حرَّة لا سيطرة عليها من ناحيتنا. ولقد كنا نراقبهم فإذا هم يتواصلون بالأنظار والعواطف، وتتمشى في جوانحهم حرارة الحماسة تمشّي النّار في جزل الغضا، إلى حد أن الجوَّ أصبح مرتجاً ملتهباً. عندئذٍ أحسوا بأول هزَّة نفسية ـ عند عباراتنا المتقطعة نحوهم ـ ولأول مرة شعروا بالاندفاع إلى استيعاب ما هو فوق ميدان بصرهم الطّبيعي. ثم مالوا إلينا ليثيروا فينا الغيرة. وهاهم الآن قد جاءوا بدورهم يحثوننا نحن الغرباء المتلكئين! ويجتهدون كي يبرهنوا لنا عن إيمانهم الحديث العهد. ويصوّرون لنا الوسائل والنّتائج التي نصبوا إليها بصور زاهية بديعة. وجاءت وفود جديدة من قبائل أخرى وانضمت إلى اجتماعنا. إلّا أنَّ مجرد كلمة «نعم» من نوري تغني عن جميع خطب العرب مجتمعين، وأخذني «سيدونز» في طائرته ذلك المساء إلى قُويرة. ثم حملني في الليل إلى العَقَبة. فأوضحت «لداوني» الذي كان قد قَدُمَ منذ هنيهة بأننا نعيش ممتلئين ثقة، لكن من غير اصطدام، وعلمنا عند الصّباح بوساطة الطّائرة كيف اتجهت جنود «بَكستون» في المدوّرة، وكان قد تقرّر هجوم الثّلاث فرق بالقنابل: الفرقة الأولى تحتل المحطة التي هي غرضنا الأول، وتندفع الفرقتان الأخريان على الاستحكامات الرّئيسية.

ولذا قد نثرنا علامات بيضاً على الطّريق لنرشد المهاجمين إلى النّقطة الأولى. وكان يجب أن نطلق القذائف عند السّاعة الرّابعة إلّا أنَّ المفارز قد لاقت صعوبة بتلمسها الطّريق وفاجأها ضوء النّهار ولم تكن قد انقضَّت على الاستحكام الجنوبي، وما كادت تنفجر بعض القذائف داخل المواقع وعلى جوانبها حتى أصبحت في قبضة المهاجمين. وكانت مفرزة المحطة قد أنهت عملها بسرعة، ولم تمضِ عشرون دقيقة حتى سلَّم رجال استحكامات القلب وانتهى الأمر.

إلّا أنَّ استحكام الشّمال المسلَّح بمدفع قد أراد أن يقاوم، فقذف رصيف المحطة بقنابل مدفعه الوحيد بغزارة بين رجالنا. وكان «بَكستون» متحصناً وراء الاستحكام الغربي، فأدار فوهات مدافع «برودي» وسددها حسب عادته وأطلق القنبلة تلو القنبلة. ثم ظهر «سيدونز» بطائرته وقذف الاستحكام بقنابله فانقضَّت كالصّواعق، بينما كان

جيش الهجّانة الإمبراطوري المرابط في الشّمال والشّرق والغرب يصلي مرامي الأعداء ناراً قاسية حامية من مدافع «لويس» وسلَّم آخر المدافعين بهدوء وسكينة في السّاعة السّابعة صباحاً. ففقدنا أربعة رجال وعشرة جرحى، وقتل تركي واحد وأسر مئة وخمسون، وربحنا مدفعين وثلاثة رشّاشات.

وأرسل «بَكستون» بعض الأسرى من التُّرك ليديروا المضخّة الرّافعة فيسقوا الجمال، بينما كان رجالنا يهدمون أجهزة المحطة ويقتلعون ألفي متر من الخطوط، ودُمِّر الحوض والمضخّة بدورهما عند الغَسَقَ، وتناثرت أجزاؤهما بعيداً في السّهول.

وبعد هنيهة أمر «بَكستون»: «سيروا إلى الأمام!».. ونهض الأربعمئة جمل دفعة واحدة وهي تهدر، فكان كأنَّه يوم الحَشْر وتقدموا إلى «جَفَرَ» فكنا من هناك نستطلع أخبارهم، فقد استراحوا يوماً كاملاً وتموّنوا، واتجه «بَكستون» نحو «باير» واتفقت أنا مع «جويس»، على أن نلحق به وننضم إليه.

فاجتمعنا به في 15 أغسطس وباشرنا استشارة حربية، وكان قد أرسل «يونغ» إلى «باير» مؤنة أربعة عشر يوماً للرّجال والجمال، فلم يبق منها سوى زاد ستة أيام وعلف عشرة، فسارت القافلة مرغمة بأمر «يونغ» الذي لا يُقاوم محملة ذخائر إلى «باير» إلّا أنَّها بلغت جَفَر وأضربت عن السّير، وقد هالها عبور الصّحراء فباعت ما باعت من الذّخيرة اللازمة «لبَكستون» وسرقت ما سرقت وفقدت ما فقدت، فكان علينا إذن أن نضبط أعمالنا بعد هذا الحادث، فخفف «بَكستون» قدر المستطاع من حَمْلَتِهِ، وفصل كل ما هو غير جوهري لها. أما أنا فقد غيرت برنامجي ولم أبقِ سوى سيارة مصفحة واحدة، وسَيَّر «بَكستون» حَمْلَتَهُ عند الأصيل. ولم أسافر إلّا عند المساء بعد أن راقبت حمولة السّتمئة ليبرة من القطن المشرَّب بالبارود على ظهر الثّلاثمئة جمل المصرية. وكان على حرسي الخاص أن يرافق هذه المتفجرات مرغماً.

وظننا أن «بَكستون» سيكون معسكراً على سفح جبل «هادي» فسارت قافلتنا نحو ذاك المكان. غير أننا لم نبصر ناراً موقدة والسُّبلُ لم تكن ملبّدة، ومالبثنا أن شعرنا بالهواء يهبُّ من جبل حرمون ويقرصنا بَرْدُهُ، وأمامنا منحدرات مظلمة صامتة لم تألفها

رجالنـا، غير أن الوطنيين قد تعودوا مثل هـذا لتبخر والعَرَقَ وتخمُّر الأرض المفلوحة حديثـاً، وكانت هذه الرّياح القاسـية في الصّحراء تقلق البـال، بل تنذر بالخطر الدّاهم. فتراجعنا قليلاً وتمكنا من وجود ملجأ أمين في سفح الجبل.

ورأينا عند الصّباح أن أمامنا خمسـين ميلاً من الأرض الموحشـة القفراء، فتسـاءلنا عمـا جـرى لرفاقنا تولتنا الحيـرة، وإذا بـ «ضاهر» يصرخ بنا ويقـول لقد رأيت الحملة تسير بعيداً في الجنوب الشّـرقي من جهة جبل «هادي»، وكانت قد تأخرت لأنها بعد سـفرها بقليل أضاعت أثر السّـبيل واضطرت أن تتوقف إلى الصّباح ثم تتابع سـيرها، ولم يحرم رجالنا أدوار المزاح الدّقيق مع رئيسـهم الشّـيخ «صالح» الذي كان بإمكانه على رأيهم، أن يضل بين «الثّلاث أخوات وباير» كما تقول بين «ماربل آرتش وسـيرك أكسفورد».

وكان الصّباح طيباً جميلاً... الشّمس تدفئ ظهورنا والهواء يهيم على وجوهنا. فعبر جيـش الهجّانة الإمبراطوري بنظـام أمام التلال الثّلاثة المجلـودة، وبلغ معابر ضروَى الخُضـر اليانعة، وأصبح الرّجال منـذ الآن غير أولئك الجنود أصحاب الغزوات الذين قدمـوا من العَقَبة، ولم نكن نحترمهم إلا مجاملة، لأن دماغ «بَكسـتون» المرن وفكرته النّيِّرة وشـدة ملاحظته للأشخاص والأشـياء، أظهرت له في الحال موقف الزّعماء في القتـال وشـروط المعركة معـاً، فنظر ثانية في نظـام القوانين الشّـديدة وجرى عليه عند الضّرورات العارضة.

لنقد غير تنسـيق الحملة وألغى تقسـيمها إلى قسـمين متنافرين، وبدّل تلك الطّريقة العتيقـة التـي تجعل الطّابور ثابتـاً مثقّلاً بأنظمتهِ التـي توثقه بوثاق مُزعجٍ، وقَسَـمَهُ إلى قسـمين متقابلين يمكنهما أن ينفصلا أو ينضما بسـرعة، حسـب طبيعة الأرض، وحالة السّـبُل التي يسـير عليها، وخفَّـف حمولة الحيوانـات حتى يمكنها أن توسـع الخطى، وتقطـع الأميـال البعيدة في كل يوم. وقسّـم المرحلـة إلى أوقات توقـف عديدة، لكي تَبولَ الجمال وتسـتعيد نفسَـهَا، وقَلَّلَ إلى الحد الأدنى من معالجة الحيوانات بالطّريقة المبتذلة، طريقة تدليلها ومعاملتها معاملة الطّفل الغَنِج، وأمر عند توقفها عن السّير بأن

يُحلَّ بطانها وتدلك أوراكها دلْكاً سريعاً شديداً بغطاء السّرج، وتسرح في كل ساعة إلى المرعى.

فلبسَ جيش الهجّانة الإمبراطوري بفضل هذه الوسائل ثوباً جديداً من النّشاط والحركة السّريعة والخفة على السّرج والاتزان، إلّا إذا كثر العدد، فإنَّ الجمال عندئذٍ تحرد وتهدر، وتسمع جلبتها مسافة أميال.

ودبَّت الحماسة بين الهجّانة وحسنت حالهم وطاب عيشهم وخفت أوزانهم وتهيأت أعصابهم لكل بادرة. يُقادون كالتلاميذ المرحين في أجازاتهم. وكان دخول الضّباط عليهم والتغلغل بينهم مجلبة للسّرور والأُلفة والإخاء.

وقد تعودت جمالنا أراجيح الجمال العربية في الصّحراء وهزَّ مفصل الرّسغ وهو طي الثّفنة وتأرجح الخف... وبهذه الطّريقة تكون الخطوة أبعد اتساعاً وأكثر سرعة، وكانت نُوق «بَكستون» تتابع سيرها من غير ما هَمَّ لأحمالها. وكان الخيَّالة بجراميقهم وعلى سروجهم الخاصة الخشبية الفولاذية صَنْع «مانشستر» لا يلمسون المطية مباشرة.

ومنذ ذلك الحين كنت أقطع المسافات بسرعة في الطّليعة مع خمسة من رجالي مصحوباً بـ «بَكستون»، وعلى الأخص عندما أمتطي ناقتي «بَعَاقَ» الضّخمة القوية، ذات العظام الصّلبة. وقد سمُّوها بعاقاً لأنَّها أصيبت برصاصة في فكها فأخذ صوتها رنة «الثُّغاء» وكانت مؤصلة إلّا أنَّ طباعها شرسة وحشية لا تطوي ركبها كالنّوق العربية العريقة، أنفها إلى الجو ووبرها منتفش في الهواء، دائمة الحركة مزمجرة ماشاء الله، تُغضب العُقيليين وتُطربني، فأغدو جذلاً هازئاً من عنادها، لقد كنا نتقدم البريطانيين ونسبقهم ثلاثة أميال فيسمح انتظارنا لهم بالرّاحة والتقلب على العشب النّديّ، وبتسريح إبلنا ترعى وتمرح إلى أن يصل إلينا جيش الهجّانة الإمبراطوري، الممتدّ على طول الطّريق بشكله البديع ونظامه الذي يسحر الألباب.

كنا نرى السّراب يلعلع على صخور الجبل الصّوّانية، وكان الجيش يبدو لنا في

الأفـق كقطعـة مكمَّدة متجمعة تائهـة ترقص في الهَبَوَات الحـارة. ولا يلبث أن يقترب شيئاً فشيئاً وينفصم إلى قطع تروح وتجيء وتتجمع وتتبدد. إلى أن يدنو فتظهر الهجّانة كالطّيـور المائية العظيمـة مغمورةً إلى صدورها بالسّـراب الفضـي المرتّج، وينتصب جسـم كالعملاق ويسـير في الطّليعة ذلك هو «بَكسـتون» الذي يقـود رجاله (الكاكي) فيصلون إلينا مازحين، وقد لفحتهم حرارة الشّـمس، وكم كنا جذلين لركوبهم الغريب المختلف الأشكال. ومنه ممن كان يتربع على السّرج وإن يكن غير صالح للتربع على ظهـر الجمـل، ومنهم من ينحنـي إلى الأمام كفلاحـي العرب، ومنهم مـن يهتز ويدور على ذاته نصف دورة، دوران الأسترالي على ظهر فرسـه. فلم يكن يخلو الموقف من الهـزء والسّـخرية، إلّا أني أكدت لهم بأنه يوجد بينهـم لا أقلَّ من أربعين رجلاً يفوقون بفروسيتهم أربعين من فرسان فيصل أياً كانوا، نظراً لصفاتهم الحربية، وصبرهم الطّويل على الألـم، وركوب متن الأسفار.

وتوقفنـا عنـد الظّهيرة فـي رأس «مُهَيْوَر» ولـم يكن الحر شـديداً، بل كان كحر مصر في أشـهر أغسـطس، غير أن «بَكسـتون» لم يشـأ أن يقطع رجاله السّـهل البعيد قبل أن يسـتريحوا. فحللنـا بطان الحيوانات وسـرحناها وتمددنـا وحاولنا النّعـاس عبثاً، لأنَّ غيومـاً من الذباب كانت تتبعنا منذ «باير» وتتسـاقط على ظهورنا العارقة كتسـاقط ثولٍ من النّحل على القفير. وفي هذه الفرصة كنت أنظر إلى حرسـي الخاص الغضبان لأنه أرغم على قيادة قافلة الأمتعة. ويعتقد هذا الحرس بأنه لـم يُسَّـخر قط لمثل هذا العمل المُذِّل، فكان يدعو الله أن لا يهب هواء طيب على الصّحراء، وأن يسـوء سـبيلنا عليها انتقاماً مني أنا القاسي الظّالم.

وزاد في غضبهم بطء سير تلك الإبل الصّومالية الحمولة التي لا تقطع أكثر من ثلاثة أميال في السّـاعة، وكانت مفرزة «بَكسـتون» تسير أربعة أميال في السّاعة ونحن خمسة فضـاق ذراع الزّعاقيـن وذؤبانهـم الأربعين واشـتد عذابهم، وثـارت عزتهم وانصب انتقامهم على تلك الحيوانات التي كانت تتقلقل أحمالهم وحرنت.

وكنا نهين أولئك القوم، ونسخر من بلادتهم ونعاملهم معاملة رعاة المواشي والفعلة

الصّينيين الأذلاء، وندعوهم إلى شراء الحاجات التي سيأتون بها من السّوق. إلى أن يبلغ بهم الأمر إلى الضّحك من نفوسهم على حالهم التي صاروا إليها، وقد ساوونا في قطع المرحلة بعد أن ساروا قليلاً في الليل ـ وأولئك الرّجال مصابون بالرَّمَد الحُبيبي لا يقوون على تمييز الطّريق في الظّلام ـ وقد نسروا فطورهم وغذاءهم نسراً، وهم على الطّريق. ومع ذلك قد بلغوا آخر المرحلة ولم يفقدوا حزمة قط من حزم الأمتعة. وفياله من شوط بديع لأولئك السّادة فإنهم وهم في هذه الأنفة والازدراء، كانوا أجمل قادة للجمال في العربية كلها.

وقضت المفرزة الليل في «الغدف»، وكانت قد لحقت بنا السّيارة المصفحة، يقودها الشّراري الفخور المبتسم ابتسامة السّخرية من فوق قبة برجها المتسامي. وبعد مرور ساعتين وصل الزّعاقي وبشَّرنا بالسّلامة وطلب ألّا يقتل «بَكستون» المطايا التي نهكت وأضربت عن السّير، لأنَّ كل شلو من هذه الحيوانات المقفعة يدعو الرّجال إلى وليمة فيضيع الوقت.

ولم يكن عبد الله يفهم طريقة البريطانيين الذين يقتلون الحيوانات المنهوكة، فقلت له إننا نحن نجهز على بعضنا في الحرب عندما نكون مجروحين جروحاً لا شفاء لها. فأجاب: بأنَّ سبب ذلك هو عدم تمكنكم من تحمّل آلام الجروح مهما جالدتم. ونظرية عبد الله هي أنَّه لا يوجد إنسان يفضل الموت السّريع على الموت البطيء جوعاً في الصّحراء، ومن رأيه أن الموت البطيء هو أرحم أنواع الموت. لأنَّ الجريح لا يفكر بنتيجة المعركة، بل تحل قيود هذه الدّنيا عنه ويتحول تفكيره إلى السّموات العليا، مستسلماً لقضاء الرّحمة الإلهية، عكس ما نحن عليه، نحن الإنكليز الذين نفضل الإجهاز بسرعة على الكائنات الحية المعذبة، ما عدا الإنسان! فلم يسلم عبد الله بهذا المبدأ.

ومرَّ اليوم الثّاني مملاً كالأمس الدّابر قطعنا فيه أربعين ميلاً ولم يبق لنا سوى يومين لنصل إلى الجسر، ففصلت نصف رجالي عن قافلة الأمتعة ونشرتهم على قنن الجبال من ناحيتي الطّريق التي نسير عليها. فلم تأتِ هذه الحركة بالنّتيجة المطلوبة رغماً من

تنفيذهـا بدقـة، لأنَّ طائرة تركية قادمة من الجنوب قد حامـت فوقنا قبل الظّهيرة ونحن نجد في السّير لبلوغ (موقَّر) وجثمت في عمان قبل أن نصل إلى غرضنا. وبلغنا «موقّر» بصعوبة عند الظّهر في خرائب هيكل روماني.

فترصـد لنا الأعداء على القمم يرقبون السّـهول المحصودة حيث تمرُّ سـكة حديد الحجـاز، وكانـت الصّخـور المربـدّة تتراءى لنـا مـن وراء نظارتنا على سـفوح التلال كأنها قطعان غنم ترعى. فأرسـلنا المخبرين من رجالنا إلـى القرى المنخفضة نفهمهم بـأن يلزمـوا مكانهم، فعادوا إلينـا يقولون إن الحظ قد خاننا لأنَّ مفرزة من مشـاة التُّرك الرّاكبين التي ترافق جباة الضّرائب ومقوّمي الغلال قد رابطت على البيادر حول الغلال التي يذرونها بالمذاري ـ فأرسلنا ثلاث فرق كل فرقة مكونة من أربعين رجلاً ـ ليقضوا الليـل فـي القرى الثّـلاث القريبة من الجسـر، وعلينـا إذن أن نطوف بين هـذه الأماكن المحاطة بالأسوار.

فعقدنـا حالاً مجلسـاً استشـارياً. وقرّرنا أن موقفنـا حرج جداً كشـفتنا الطّائرة أم لم تكشـفنا، لأننا أصبحنا نخشـى معاونة حرس الجسـر لمفرزة المشاة الرّاكبة. أما أنا فلم أضطرب ولم أبلبل أفكاري، واعتقدت أنَّ التُّرك يحسبوننا طليعة غزوة ثالثة على عمان، ومن المعقول عندهم لهذا الاسـتنتاج أن يتجمعوا لا أن يتفرقوا، أما رجال «بَكسـتون» فهـم جنود أشـداء ورجال بأس ونظامهم لا يقبل النّقد، فقد درَّبهم رؤسـاؤهم أحسـن تدريب. وأرى أنَّ النّجاح من نصيبنا.

ولكـن كـم يكلفنـا تدمير هذا الجسـر؟ وبعبارة أصـحّ كم نفقد يا تـرى من الأرواح البريطانية، هذا هو السّؤال الذي كان يجابهنا لدى تحذير «بارثولوميو» وأوامرُه المبرمة بـأن لا يفقـد رجل! وكان وجود أولئك التُّـرك الرّاكبين بغالهم يدعونـا إلى التيقظ عند ارتدادنا. لأنَّ جيش الهجّانة الإمبراطوري سـيترجل ويسير على الأقدام ميلاً كاملاً إلى أن يبلغ جسـر «قصير». والجمال تهدر وتتقلقـل أحمالها، وحركات المهاجمين تقطع سـكون الليل فضلاً عـن الدّمدمة التي سـتردد صداهـا الجبال والوديـان عندما تنفجر الأطنـان الثّلاثـة من القطن وتوقـظ القضاء بأسـره. ومن الممكن أن تهبط الكشـافات

التُّركية على مرابط جمالنا ـ وتكون نكبة كبرى، وتعوق على الأقل سيرنا عند ارتدادنا في أرض وعرة.

ولا يتمكن فرسان «بَكستون» بعد الانفجار من الانتثار كسرب من الطّيور ثم ينضمّون ثانية ونأخذ طريق «موقّر»، ولا بدّ عند وقوعه المعركة من تشتت بعض الرّجال وتيهانهم، فيكون علينا أن ننتظر رجوعهم وربما فقدنا قسماً منهم. وأن هذه الحركة لَتُكَلِّفنا حوالي الخمسين رجلاً. وعندي أن الجسر لا يساوي خمسة. ولم يكن من غاية في تدمير هذا الجسر سوى إرهاب التُّرك وبلبلة وسائل نقلهم كي يريحونا منهم إلى 30 أغسطس وهو تاريخ انتقال جيشنا الطّويل إلى الأزرق. وكان التاريخ في ذلك الوقت 20 أغسطس. أما الخطر الدّاهم في شهر يوليو فلا وجود له الآن.

وكان «بَكستون» من رأيي، فقرَّرنا الارتداد إلى الوراء، وكانت مفارز من العدو قد تركت عمَّان ووصلت في تلك السّاعة واحتلّت تلال «موقّر» الوعرة المسالك.

وتذمَّر رجالنا لما علموا بتغيير خططنا وكانوا قد وقفوا إباءهم وشممهم على هذه الغزوة، وأكلتهم نار الرّغبة ليقولوا في مصر إنهم نفذوا البرنامج بحذافيره. ولكي نستفيدمن انتقالنا أرسلت صالحاً وباقي الرّؤساء ليبلبلوا أهل القرى ويهرفوا بكل خَبَرٍ لصالحنا. فكان عليهم أن يُشيعوا بأننا كثيرو العدد وما نحن إلّا طليعة جيش فيصل الزّاحف للاستيلاء على عمَّان عنوةً وفي أول القمر الجديد، وهاذ ما كان يخشاه التُّرك وترتعد فرائصهم لمجرد الافتكار فيه. ولذلك أزجى العدو بفرسانه في حرص وتيقظ وقذفهم إلى «موقر» حيث تحققت لديهم تلك الأخبار الجوفاء الكاذبة، وقد رأوا قمّة الجبل قد امتلأت بعلب المحفوظات الفارغة وآثار دواليب السّيارات المصفحة الضّخمة العميقة. وكانت هذه الآثار كثيرة ومتعدّدة، فخفت حماسة التُّرك بعد هذه الوقائع، ووقفوا على حذر منا مدة أسبوع كامل دون سفك دماء من ناحيتنا. وكان يمكننا أن نربح خمسة عشر يوماً لو أننا دمَّرنا الجسر.

وماكاد ينسدل ستر الظّلام حتى تحرّك جيشنا ووجهته الأزرق على بعد خمسين ميلاً. وجعلنا أنفسنا نعتقد بأنَّ هذه الغزوة لم تكن إلّا لمجرد الاستطلاع، ولقد تراجعنا

بالفكر إلى العصور الغابرة على أطلال الخراتب الرّومانية وآثار أجنحة القنص في قصور الغساسنة. وسار جيش الهجّانة الإمبراطوري ليلاً كأنه يمشي في النّهار لتعوّده على مفاجآت الصّحراء، ولم تكن وحداته تنفصل وتبعد عنه. وسرنا في ضوء القمر السّاطع وما مشيناه إلى أن شحب لونه عند الفجر، وقد مررنا في منتصف الليل على قصر قديم موحش. فلم يكترث للقيانا ولم يَعجُب لزيّنا الغريب! وكان القمر سبباً من أسباب ازدرائه بنا. لأنه سكب علينا من ضوئه الباهت، وجلد أفكارنا بصقيعه ومحا من ألواننا وظلالنا فكان شأننا كشأن هذا الكوكب البارد السّاجي. فمشينا كمثلهِ سكوتاً، ولا شيءَ حولنا غير الصّمت والسّكون.

وبلغنا «قُصَيْر العَمْرا» وهو جناح صغير لقصر الحارث كان خاصاً برحلات الصّيد. الحارث ذلك الملك الرّاعي شفيع الشّعراء، وهو موقع بديع يتقدم غابةً عظيمةً من الأشجار تحف أوراقها حفيفاً، فنزل «بَكستون» بمركز القيادة في ظُلَيلِ القاعة العظمى الرّطبة، وتمددنا على المقاعد نشاهد مذهولين قوائم الجدران وهي بحالة مزرية، واحتلَّ بعضهم القاعات الأخرى، وتمدد الباقون تحت الأشجار إلى جانب جمالهم وباتوا على أرق وقلق إلى المساء وما بعده. فلم تكتشفنا الطّائرات التُّركية، وكان من المستحيل أن تكتشفنا في ذلك المكان... وغداً نكون في الأزرق حيث الماء العذب يقوم مقام أجاج آبار «باير» الذي كان يَكْرُهُ وينتن في قِرَبنا فتعافه نفوسنا.

ومشينا في اليوم الثّاني على مهل إلى الأزرق، وبلغنا الجبل الأخير المنثورة على سفوحه حصى من الحمم. وتجلّى لأعيننا ذلك المدرج الفخم الذي يسمو بمدافِنِهِ في مقبرة «مجابر» الجميلة. فتوقفنا قليلاً ثم انحدرت مع رجالي خبباً، نرود المدينة خوفاً من كمين وطلباً للرّاحة والهدوء هنيهة قبل وصول ركبنا.

وقضينا يومين في الأزرق. وكانت المستنقعات تخفف من الحرارة وتحسّن من مقامنا فيه. وزرتُ مع «بَكستون» الحصن القديم بشوق شديد لأتفقد هيكل ديوكلسيانوس ومكسيميانوس ولأضيف إلى كتاباته المحفورة في الصّخر كتابة أخرى لمجد «جورج الخامس» إلّا أن غيومَ ذُبابٍ أزرق وحادثة محزنة كدَّرت صفونا في تلك

الزّورة وأحزنت قلوبنا، وهو أنَّ عربياً كان يصطاد السّمك من بحيرة الحصن برصاص بندقيته فأصاب الملازم «رُوَّان» من فرقة الخيَّالة الاسكتلندية فأرداه في الحال. فوارينا هذا الضّابط المنكود الطّالع في مقبرة «مجابر» الصّغيرة التي كان هدوءُها يدعوني إليها فأغار من زائريها عليها.

ومررنـا أمام «عمّـاري» في اليوم الثّاني في وادي «جيشـا» لكي نقترب من «الثّلاث أخـوات» تلك المقاطعة التـي لا تفوتني ناحية من نواحيهـا ولا يخفي عليَّ مطوي من مطاويها. وكنا بجوار «هادي» كأننا في بيوتنا. وسـرنا في الليل سـيراً حسناً بينما رجالنا يزمجـرون ويصيحـون: «هل غذاؤنـا كافٍ. كلا.. إذن أطعمونا شـيئاً جديـداً ـ أجل»، وكان هـذا الكلام يتردد مـراراً وراءنا على المنحدرات. ثم هـدأت صيحاتهم الصّادقة ولكنني مازلت أسـمع قعقعة السّروج الخشـبية والأمتعة المتساقطة عن ظهور الجمال والمعـادة إلـى أمكنتها مما ضاق له صـدري وكنت أفضل طريقة العـرب، وهي وضع كل شـيءٍ فـي الأخراج الواسـعة ورميها دفعة واحـدة على ظهر المطيـة. ولقد ضللت الطّريـق بين «هادي»، و«باير». وأنـا محاط بهذه الفرقة الخيالـة المضطربة البليدة. إلّا أننـي جعلت النّجوم دليلي إلى الصّباح. أما سِـماط رجالي فسـيُمَد فـي «باير» لأنَّ زاد الرّكب قد نفد منذ المساء.

وطلع النّهار علينا في وادٍ ظليل يغص بالعيصان وإنه لوَادي «باير» غير أنه قد استحال علـيَّ أن أعـرف، هل نحـن فوق الآبـار أو تحتهـا. واعترفـت بجهلي إلى «بَكسـتون» و«مارشـال» وتابعونا سـيرنا ركوباً ونحن فـي حيرة وتردد، إلى أن أسـعدنا الحظ بِلقيا «صَقر بن شَـعلان». أحد حلفائنا أيام «الوجه» القديمة فدلنا على الطّريق السّـويّ. ولـم تمضِّ سـاعة حتى كان جيش الهجّانة الإمبراطوري ينعـم بالغذاء تحت خيامه القديمة المنصوبة حول الآبار. ويقدّر فطنة الطّبيب المصري «سلامة» الذي ملأ الأحـواض ماءً قبل وصولنا فتمكنا من إرواء نصف إبلنا.

وقـد قـرّرت أن أتقدم إلـى «أبا اللِّسـن» بالسّـيارات المصفحة. لأنَّ «بَكسـتون» قد أصبـح فـي بلاد مخلصة له، ويمكنه أن يسـتغني عن معاونتي له. وبشّـرني «جويس» و

«داوني» و«يونغ» بأنَّ الأمور سـائرة على الوجه الحسن. وللحقيقة كان الاستعداد تاماً بكل دقائقه. وسـافر «جويـس» إلى القاهرة كي يعالج أسـنانه، ولحقـه «داوني» ليطلع آلِنْبي على الأحوال الطّيبة، وأنا رهن إشارة منه لتنفيذ أوامره.



الفصل التاسع والعشرون

خصومات عائلية

وعـاد الرّكـب الـذي حمـل «جويس» وعلى ظهـره بريد مكـة للأميـر فيصل ففضَّ الشّـريف «القبلـة» ـ جريدة الملك حسـين ـ فإذا في صدرها منشـور ملكي، بأنَّ بعض البُلهاء يعطون جعفراً لقب الضّابط العام والقائد للجيش العربي في الشّـمال، مع أنه لا توجـد وظيفـة في الجيش بهذه الرّتبة، وأن الجيش العربي لا يحوي إلّا ضباطاً من رتبة كابِتن (نقيب) فقط. والشّيخ جعفر في مهمته ـ يقوم بواجبه ككل شخص آخر.

وكان قـد أصـدر الملك حسـين هـذا المنشـور. على أثـر إنعـام آلِنْبي علـى جعفر بالوسـام، ليجرح شـعور أبناء الشّمال وضباط سوريا وما بين النّهرين الذين كان يحمل لهـم الضّغينة لتراخيهم عن عقائدهم الدّينية ولتوجّسـهِ من نفوذهم، وقد أظهروا براعة فائقـة في الحـرب. وكان يعلم بأنهـم يحاربون لخـلاص أبناء وطنهم فينالـون الحرية ويحكمون نفوسهم. وحُبُّ الحُكْمِ مسلّط على عواطف الشّيخ.

فقـدم جعفـر اسـتقالته إلـى فيصـل. وتقدم معـه لهـذه الغاية ضبـاط فرقنـا وأركان حربهم وضباط المفارز والطّوابير، فرجوتهم أن يتجاهلوا منشـور الشّيخ الطّاعن الذي يحمل السّـنوات السّـبعين على منكبيه، ويعيش في مكة بعيداً عن سياسة الحرب. وأن يعلموا بأنهم سـاهموا بقسـط كبير في نجاح القضية العربية، ورفـض فيصل قبول هذه الاسـتقالات مبيناً بأنه منذ الآن هو وحده الذي له حق إصدار ـ الأوامر العالية ـ بما أن والده غير راضٍ عن خدمته، وعليه فإن كلَّ ازدراء وعدم ثقة في هذا المنشور لا يمسان غير شخصه فقط «أي شخص فيصل».

وأبرق إلى مكة بهذا المعنى، فرد الحسين عليه واعتبره خائناً وخارجاً على القانون، فرد عليه الشّريف رافضاً قيادة جبهة العَقَبة فعيَّن ابنه زيداً مكانه، فرفض الشّريف الصّغير. وعادت رسائل الملك الرّقمية غير مفهومة وقد بلغ به الغضب أشده وتوقفت الأعمال الحربية حول «أبا اللِّسن».

وكلمني «داوني» بالتليفون قبل إقلاع السّفينة يسألني دون وَجَل: إذا كنا قد فقدنا كل شيء، فأجبته بأنَّ القَدَر الآن هو الحُكم والحَكَم. وربَّما تمكنا من النّهوض من هذه الورطة.

وكان علينا أن نختار واحداً من ثلاثة أمور: إما التأثير الفعَّال على الحسين ليستردَّ منشوره. وإما إغفال هذا الحادث كأنه لم يكن والسّير في العمل دون تردد. والأمر الأخير هو أن نعلن على الملأ استقلال فيصل. وكان لكل حَلّ أعوان بين العرب كما بين الإنكليز، وقد أبرقنا إلى آلِنبي ليتدخل في أمر هذا الحادث. وكان من المحقق أن يراوغ الحسين ويماطل أسابيع قبل أن يرجع عن قراره ويقدم اعتذاره. وكان من المستطاع انتظار ذلك منه في الأحوال العادية، أما الآن فإن الموقف دقيق لا يتحمّل أقل تمهل. وعلينا أن نقوم بهجومنا على «درعا» في مسافة ثلاثة أيام أو الرّجوع عنه نهائياً.

لا بدّ لنا مهما كلفنا الأمر من مواصلة الحرب. ولندعهم في مصر يفتشون عن حل لهذه المشاكل العربية. فكتبت لنوري الشّعلان بأني لا أتمكن من مقابلته في «قاف» عندما تجتمع قبائله. لكني سأكون مستعداً لهذه المقابلة في الأزرق أول يوم من القَمَر. إنها لمَهلة مفجعة تلقي في قلب نوري جمراً من الشّكوك لهذا الإخلاف بالموعد المضروب وإذا تنحى عنا بنو «الرّوَلة» فقدنا قوة لا يستهان بها في 17 سبتمبر أمام درعا وهبطت قوتنا العاملة إلى النّصف في ذلك المعمعان المقبل. إلّا أنَّ إغضاب نوري الشّعلان سهل إزاء أهمية فيصل وجنوده النّظامية، وإزاء مدافع «بيزاني» عند محاولة القيام بغزوتنا هذه إذن من المحتم عليَّ أن أبقى في «أبا اللِّسن» وأعمل على رد الهدوء والسّكينة إلى النّفوس.

وكان عليَّ واجب ثان وهو أن أراقب قيام الرّكب الذي ينقل المتاع والمؤن والزّيت والذّخائر الخ.. إلى الأزرق. فقام بهذه المهمّة الشّاقة «يونغ» اللّبِق الذي يحسب حساب المفاجآت ويزنها بحكمهِ الصّائب. وإن يكن من طبعه الصّلابة والبلادة فإنه لم يكن يسمح

لأحـد أن يقـوم مقامه في العمل، ولم أنس قَط نوري السّـعيد وقد خـرج يوماً من الاجتماع مشـرق الوجـه متهلـلاً وقال: «سيَّان لدينا أيهـا الإخوان، مـا دام أنه يخاطـب الإنكليز كما يخاطبنا»، ويهتم الآن بمراقبة الفرق المتتابعة، وإن يكن قد تأخرت يوماً واحداً عن الموعد المضـروب تحـت قيادة ضباط معينين من قبل حسـب البرنامج. وكان مـن عاداتنا الموفقة أن نرسـل أوامرنا إلى العرب باسم رؤسائهم وبوساطتهم فلم يكن بإمكانهم أن يتململوا أو يتمحلوا أعذاراً عن عدم الخضوع، بل عليهم أن يسيروا خاضعين كالحملان.

وكان علينـا بعـد ذلك أن ندفـع رجال الحرب إلـى الأزرق في اليوم المعيّـن، وأن نقنع الضّبـاط بأننا على وشـك الانتصـار النّهائي. فناشـدنا فنّ «سـترلينغ» ودهـاءَه وكان نوري الشّـعلان طموحـاً طماعـاً كل جندي في مثل هـذا الموقف. يذوب شـوقاً إلـى التقدم إلى الأزرق إلى أن يهدأ غضب الحسـين ويقدم اعتذاره، وإذا ارتأوا بأن هذا الاعتذار غير كافٍ يمكنه عندئذٍ أن يتراجع عن الأزرق ويحلف يمين الإخلاص. وإذا رآه كافياً فيكون قد كال بكيلين وقاس بمقياسين ـ وقد أكدّت له بأن سيكون كذلك ـ وربما يكون شيخ مكة قد شعر بالخطورة من الوقفة التي أَخَّرَ بها حركات جيش الشّمال وعاد إلى أمل جني ثمار النّجاح.

أمـا باقي الجيوش فكان علينا أن نخاطبه ببسـاطة، ونفهمه بـأنَّ أمراً آخر غير الأكل والأجـر اليومي يسـوقنا إلى هذا الصّراع، ويهمنا أن يحافـظ على النّظام الدّقيق. فاقتنع بهـذا الخطـاب وركبت فرقـة المشـاة وتقدمـت الرّشّاشـات. والهدّامـون المصريون ومدفعيـة «بيزاني» منفصلون بعضهم عن بعض فرقاً فرقاً حسـب الخطط التي رسـمها «سـترلينغ ويونغ» بتأخير يومين فقط عن الميعـاد المضروب. وكان غرضنا الأخير هو أن نثبّت سـلطة الشّـريف فيصل. لأنَّه كان من العبث أن نحاول عملاً جدياً مجدياً بين درعـا ودمشـق بغير نفوذه، وكان يمكننا أن نهجم هجماً علـى درعا يطلبها منا اَلنّبي. إلّا أني وقد أسرفت في صحتي وذكائي مدة طويلة مع العرب من غير حساب فلا يرضيني ويرضي أولئك العرب سوى احتلال دمشق. ولقد قلت إن احتلال دمشق لا يتحقق إلّا بوجود فيصل على رأس الجيوش، لا أن يلهو الشّـريف ببعض واجبات عسـكرية، بل يربح عن سبيل السّياسة ما مهد له رجاله عن سبيل الحرب.

أما الاعتذار من مكة فسيحصل عليه آلِنْبي وويلسن ويعرضانه علينا، ولكنهما إذا خُذلا فلا يكون أمامي إذاً سوى أمر واحد هو سَنْد سلطة الشّريف فيصل بقوة الحكومة البريطانية، وإدخاله دمشق باسم الأمير الحاكم. غير أني لم أشأ أن ألجأ إلى هذا التدبير إلّا إذا ضاقت بي الحيل. وكان العرب إلى ذاك الوقت قد خطّوا لثورتهم تاريخاً لا عيب فيه، فتمنيت أن لا تنتهي جهودنا الجبارة بحرب أهلية وانشقاق فاضح، ونحن على أبواب النّصر المشترك التي يكلّلها السّلام.

وما فتئ الملك حسين يعارض ويداور بخطابات لا نهاية لها غير دار بما لتدخله في شؤون جيش الشّمال من النّتائج السّيئة، فأرسلنا إليه تقريراً ضافياً صريحاً كان حظنا منه، أن أجابنا بشدة، غير أنه بين سطور تلغرافاته دلائل الاضطراب والارتباك، وكانت التلغرافات تصل إلينا عن طريق مصر أو إلى تلغرافنا اللاسلكي في العَقَبة، فتحملها إليَّ سيارة فأسلمها إلى فيصل. وكان اصطلاح أرقام العرب ساذجاً هيّن الحل، فكنت أطمس بعض عبارات وأبدلها بأخرى غريبة لا تصدّق. ثم أقدمها إلى الشّريف بلغة واضحة. وبفضل هذا التلاعب البريء تجنبت غضب الكثيرين من حولي، وخففت من ثَوَرَانهم. وثابرت على هذه اللعبة أياماً عديدة. فخفّت وطأة الغضب في مكة وتغير إنشاء العبارات التلغرافية، فلانت خشونتها إلى أن وصلت إلينا رسالة تلغرافية طويلةٌ، شطر منها اعتذار مبهم لا معنى له واسترداد المنشور الضّار، وشطر آخر يكرر الإساءة في شكل جديد. فحذفت العبارة الأخيرة. وجئت إلى خيمة فيصل وحوله الضّباط وأطلعته على الشّطر الأول المعنون (مستعجل).

وتقدم كاتم السّر وحلّ رموز التلغراف وقدمه للشّريف فأخذ يقرؤه وجميع الأنظار محدّقة به، ثم نظر إليَّ مستغرباً لأنَّ عبارات التلغراف العذبة لا تنطبق على عناد والده وحَرَده. وقرأ الرّسالة جهاراً على مسمع من الجمع وبنبرات خارقة؛ ثم قال: «لقد صان هذا التلغراف شرف الجميع» فتهلّل الحضور وتعالت أصواتهم بالهتاف.

وشكرنا الله ونهضنا للعمل وحدَّدناه وأصدرنا الأوامر مفصَّلة للجيوش القادمة من «أبا اللِّسن» لتخلفنا هنا وتنفذ هذه الأوامر بنصها في المنطقة المخصصة لها.

واسـتأذنت فيصلاً. وسـافر «جويس» إلى مصر ووعدنا الشّـريف بالتقـدم إلى الأزرق مع «مارشـال» والالتحاق بي يوم 12 من شهر سبتمبر على الأكثر. فتهلل كل المعسكر عندما رآني أركب «الرّولز»، ووجهتي الشّـمال. ورغمـاً من أنَّنا قد تأخرنا إلى تاريخ 4 من شهر سبتمبر فإني أمَّلت أن ألتحق بالرّوَلَة الذين تحت قيادة نوري الشّعلان فيتمكنوا من مشاركتنا في الهجوم على «درعا».



صاحب الجلالة الملك فيصل عاهل العراق

الفصل الثّلاثون

في طليعة القوّات

وشعرت بفرح داخلي عميق عندما خرجت من ذلك الجو الأربد، وأحسستُ بأنَّ الصّداقة تتسلل إلى أعماقنا نحن الثّلاثة «ونترتون» و«ناصر» وأنا، كان «لورد ونترتون» الحديث العهد بيننا ضابطاً ذا خبرة وتجارب. وكان تابعاً لفرقة «بَكستون». أما ناصر الذي ظهرت مواهبه منذ أوائل أيام المدينة وكان دائماً في أوائل الطّليعة في الجيش العربي، فقد اخترناه مرة أخرى لقيادة حملتنا وتنظيم حركاتنا المقبلة، وإنه لحقيق به أن يكون أول الدّاخلين إلى دمشق ليضيف أكليلاً آخر من أكاليل الغار لعديدة التي ضفرها لنفسه في «المدينة والوجه والعَقَبة والطَّفيلة».

وكان النّاس متجمهرين ينظرون إلينا في ابتهاج ونحن سائرون. وسارت فرق صغيرة من الهجّانة النّظاميين والبدو، ودواب النّقل التي تحمل الأمتعة ببطء ونظام نحو الشّمال بين سهول جَفَر التي لا نهاية لها.

وبعد أن مررنا بهذا الرّكب الممتلئ حركة ونشاطاً ـ وقد تفاءلت بتجميع قريب مفيد في الأزرق ـ شققنا السّهل ونهبنا المراحل وشدد عليها السّائق «جروان» البديع وقد سلب منها سبعة وستين ميلاً في السّاعة. وهو يصعقها بالبوق ويملأُها صخباً وضجيجاً. فانكمش ناصرٌ في عقر السّيارة لاهثاً مختنقاً يمد يده للسّلام على المودّعين والمتفرجين الذين كانوا يمرقون مُروق السّهم عن جانبينا، وقد جزعَ بنو صخر في باير وأخبرونا بأنَّ التُّرك خرجوا مساء أمس من «الحَسَا» واندفعوا فجأة إلى غرب الطَّفيلة. فلم أتمالك من الضّحك عند سماعي هذا الخبر. فأعتقد «مفلح» بأني جننت. أو أني

أضحك ضحكَ هَذَيان... وقلت لو كان هذا الهجوم قد حدث قبل أربعة أيام لأَوقَفَ إذن تقدمنا إلى الأزرق. أما الآن وقد ابتدأنا بحركاتنا فما يضيرنا إذا احتلّ التُّرك أبا اللِّسن وقُويرة حتى والعَقَبة أيضاً. فإن تظاهرنا قرب عمان والضّجة التي تغلغلت في مواقع التُّرك بأنَّ زحفاً ضخماً يقوم به العرب على هذه النّاحية أوقعت الخديعة في عقولهم فتقدموا لملاقاة شبح العدو. فكان كل رجل يرسلونه إلى الجنوب يذهب ضياعاً، بل كان كأنَّه عشرة رجال ضائعين.

ولقينا في الأزرق بعض خدم لنوري الشّعلان وسيارة الـ «كروسلي» وضابط طيران ومرشداً وبعض قُطَعَ بَدَلَ. وخيمة من القماش لعدَتين. فقضينا الليل داخلها على إحدى الطّائرتين فألَمَّ بنا العذاب لأنَّ النُّعَر. وكانت تلسعنا لسع الزّنابير وتفتك بأعضائنا العارية. ولم يردعنا هجماتها غير هبوط الظّلام فخففَ نسيمه شيئاً من هياج جلودنا. إلّا أنَّ الشّمأل تحول علينا ساحباً ذيولاً تجرُّ وراءَها لوافح من النّار وسوافع من مالح الغبار فعمينا. وسترنا رؤوسنا بالأغطية ورقدنا. ولكنا لم ننم بل كنا بين الآونة والأخرى ننفض ما تراكم علينا من الرّمال التي تكاد تطمرنا. إلى أن هدأت العاصفة عند منتصف الليل، فخرجنا من أوكارنا نعلل الأجفان بالوَسن، ولكن هيهات، فقد غمرتنا غيمة من البعوض حاربناها حرباً عواناً حتى الفجر، ثم هجرنا المكان وصعدنا إلى جبل «محابر» لعلنا نجد لنا راحة هناك. وهو على مسافة ميل غرب موارد المياه. يشرف من علو مئة قدم على المستنقعات المنخفضة المعرّضة من كل اناحية للهواء. ولم نكد نستريح حتى تراكضنا وارتمينا في أحضان تلك المياه الفضيّة. وقد نزعنا ثيابنا حول تلك البرك ذوات القاع الشّهاب تنعكس عليها السّماء بهية كطلعة القمر. ولم أتمالك أن صرخت عندما ارتميت في الماء «ما أعذب هذا المُقام» فسألني «ونترتون»: لماذا تسبح ورأسك تحت الماء؟ ولم يكد يتم كلامه حتى لسعته نُعَرةٌ لسعة قاسية في ظهره، ففطن وغطس واستحممنا وأجسامنا تحت الماء نقاوم ضيق النّفَس لعل ذلك الحيوان يأنف من التقدم إلينا ويخشى البَلَل على أجسامنا. إلّا أنَّ شوق هذا الثّوْل إلى دمائنا بسبب جوعه ونهمه كان شديداً، فلم يحجم عن الهجوم على أجسامنا العارية

المبلَّلة... فعجلنا إنهاء تمثيل هذا الدّور وخرجنا وجلودنا دامية وارتدينا ثيابنا سراعاً.

فضحك ناصر من منظرنا وهو واقف إزاءنا، وذهبنا بعد قليل إلى الحصن لنقضي القيلولة بهدوء وراحة ولم يكن غير برج «علي بن الحسين» القديم، له سقف يمكننا أن نتقي حمَّارة الحر تحته وهي النّاحية الوحيدة في تلك الصّحراء التي ينعم الإنسان بنسيمها وهدوئها. وكاغنت سعف النّخيل ترتعد في الخارج تحت هبوب العاصفة. ذلك النّخيل المرتفع ي الشّمال، ذو التّمر الفَجّ الذي لا ينضج في تلك المناطق الباردة. وذو السّاق الأث غير المشذّب تتدلى سعفه واطئةً فتلقي على الأرض ظلاً ظليلاً. ففرش «ناصر» سجادته وتفيأ تحتها ونعم بالهدوء والرّاحة. ورمى بعقب 345 تحترق وتقدّ ودخانها يتصاعد في الجو الهادئ الحار على شكل لولبي متمعج وينخرط بين الأغصان الغارقة في نور الشّمس، فقال ناصر «أنا سعيد»، وكنا كلنا سعداء.

ووصلت إلينا سيّارة مصفحة عند المساء لتضاف إلى وسائل دفاعنا وإن يكن لا خوف علينا من جهة العدو. وسترشدنا ثلاث قبائل ضاربة بيننا وبين الخطوط الحديدية. ولم يبق في درعا غير أربعين فارساً. ولا أحد قط في عمان. وإذن لم يكن من الممكن أن يكون التُّرك إلى الآن قد خُبِّروا عن حركاتنا. إلّا أنَّ طائرة تركية زارتنا صباح 9 سبتمبر ودارت فوق رؤوسنا دورة مبهمة، وانصرفت دون أن تكشفنا على الأرجح، وكان موقعنا فوق الجبل بديعاً نرقب منه طرق درعا وعمان.

وكنا نحن الإثنا عشر إنكليزياً نقضي النّهار مع ناصر بالتكاسل والطّواف من هنا وهناك والاستحمام عند المساء وخرْت المعابر والأمكنة والتفكير. ثم ننام في الليل مغتنمين فرصة فراق الأصحاب في «أبا اللِّسن» والاجتماع بالأعداء في الشّهر المقبل.

وكان يبدو لي بأن هذه الأُويقات التي لا تقوَّم بثمن لم تكن متمكنة من داخلي إلّا يسيراً. لأنَّ تقدمنا إلى دمشق أفقدني موازنتي العقلية، فأصبحت اليوم غير ما كنت بالأمس، كنت أشعر بكل قوة العرب زاحفة ورائي. وأقدّر بأننا قد بلغنا النّقطة البارزة من الدّوار الذي هيأنا له تبشيراً خاصاً سنين عديدة، وأصبح القوم برمَّتهم يطمحون إلى احتلال عاصمتها التاريخية بحماسة عامة، ورأى متحد.. وكنت مطمئناً آمناً من

السّلاح الذي شحذْتُهُ بنفسي ومتأكداً من كفاءته ليحقق غايتي العليا. وبلغ بي الإغراق بهذا الهمِّ الأوحد إلى نسيان رفاقي الإنكليز الذين لم يدركوا مَثَلي الأعلى فاضمحلُّوا في ظل حرب عاديةٍ ولم أشا أن أشاركهم يقيني.

وقد عرفت بعد حين أن «ونترتون» كان يستيقظ في فجر كل يوم ليستطلعه الأفق، وكان يخشى من أن عدم اكتراثي للحوادث لا يقودنا يوماً إلى مفاجأة سعيدة. كذلك البريطانيون في «التّايهة» وفي «شيخ سعد» قد اعتقدوا بضعة أيام بأننا خسرنا قضيتنا نهائياً وخرجنا من المعمعة صفر اليدين. إلّا أني للحقيقة كنت أعلم ـ كما صرحت أيضاً ـ بأننا على ثقة تامة من نفوسنا أكثر من أيِّ إنسان كان في المعمعان. وكانوا يفخرون بأنهم قد تمكنوا من إخفاء شكوكهم في نجاح خططي.

وكانت هذه الخطط هي أولاً التظاهر حول عمَّان وتقطيع خطوط السّكة الحديد التي تتصل بدرعا... وما علينا أن ننظر إلى أبعد من ذلك لأني اتخذت مبدأ النّظر في الأمور المعجلة وترك الأمور الأخرى البعيدة معلقة إلى أن يأتي دورها، غير ناسٍ عَرْض المحتملات المختلفة الممكنة ودرسها بإمعان.

ولقد نفَّذنا الخطة الأولى بإقامتنا في الأزرق. فأوهمْنا العدو بأننا نقصد عمَّان، وأرسلنا ألوفاً من «خيّالة سان جورج» ملوكنا الذّهبية الجميلة ـ لبني صخر كي يبتاعوا لنا كل ما يوجد من الشّعير وأن لا ينبسوا ببنت شفة. وسنحتاج إلى حبوب كثيرة من الآن إلى خمسة عشر يوماً لتغذية دوابنا ودواب حلفائنا البريطانيين إلّا أن دياب الطّفيلي، هذا الولد المْخلف، المتقلّب، قد نشر هذا الخبر بسرعة البرق في جميع منطقة الكرك.

وفي غضون ذلك دعا فيصل «بني زَبَن» إلى حمل السّلاح وكانوا قد اتجهوا نحو «باير». وكان «هورنْبي» قد تزيَّا بالثّوب العربي.

وفي اعتقادي أنه أسرع في ارتداء هذا الثّوب الزّاهي الفضفاض ـ وأثار ضجة عظيمة لهجومِهِ المقبل على «مادبا» وكان يستعد للقيام بالعمل في 19 من سبتمبر حالما يعلم بتحرّك آلنْبي وبتصميمهِ على التسلّق إلى أريحا، بنوع أنه إذا اصطدمت جنودنا بدرعا

يمكنها أن تتصل به وتعضد قواتِهِ. عندئذٍ لا يكون هجومه تظاهراً بل يكون الوتر الثّاني لقوسنا. غير أن تقدم التُّرك إلى الطَّفيلة يعرقل خطط «هورنْبي» البديعة ويحتم عليه بأن يدافع عن «الشَّوبَك» ويدفعه عنها هجوم العدو.

أما خططنا لأخرى تجاه درعا فهي من الدّقة بمكان، وعلينا توطئةً لذلك أن نقطع الخطوط الحديدية بجوار عمَّان كي لا يتمكن هذا الموقع من معاونة درعا. ملازمين خطة خداع العدو بأننا نقصد عمَّان لا سواها فيتهزهز في أحلامه ناعماً، وقد كلفنا المصريين بتخريب الخطوط. وكان يظهر لي أن الغورخا Gurkhas يقومون بهذه التّمهيدات. ولم يمنع تغيب هذه الفرقة الوقتي من تقدم جيشنا ومتابعة سيره. وكانت وجهتُهُ خطوط حوران الحديدية فيقطعها فتتعطل مدة ثمانية أيام على أقل تقدير. وكان يبدو لي أن إنجاز هذا العمل يقوم على ثلاثة طرق ـ أولاً: ألتقدم إلى درعا وقطع الخط كما فعلنا ذلك في قلب الشّتاء يوم موعدي مع طلال. ثم الاتجاه نحو شرق الخط لجهة اليرموك ـ وثانياً: التقدم جنوب درعا حتى اليرموك مكرّرين غزوتنا الأولى في شهر نوفمبر سنة 1917 مع «علي ابن الحسين» ـ وثالثاً: الانقضاض على درعا مجابهة.

إلّا أنَّ هذه الطّريقة الأخيرة مجازفة لا نجسر على القيام بها إلّا بمعاونة الطّائرات التي تلقي قنابلها طوال النّهار على المحطة، وتفعل فيها ما يساوي مفعول ضربها بالمدافع الجبلية، فبهذه الطّريقة وحدها يمكننا أن نقوم بهجوم على المحطة بقوتنا الضّئيلة. وكان «سالموند» يعتقد أننا ننجح بهذا المشروع، إلّا أنه من المحتم عليه أن يقدر القوة الجوية التي يمكنها أن تنجده في الوقت المناسب. وكان على «داوني» أن يأتي إلينا بطريق الجو في 11 سبتمبر ويعطينا كلمة «سالموند» النّهائية، وقد كانت إلى الآن احتمالاتنا متساوية تجاه هذه الحلول الثّلاثة.

وكان أول من يصل إلينا من بين القوات التي ستَنجدنا هجّانة حرَسي الذين يقومون متبخترين من وادي السّرحان... لقد كانوا سعداء عند بني الرّوَلَة ينعمون شهراً كاملاً هم وقلاصهم يُعلّفون ويسمّنون بضيافة نوري، وقد أنبأونا بأنَّ الشّعلان قد أَتم استعداده

وهو متأهب لملاقاتنا. فدبّت الحماسة والنّخوة في جيوشنا لاستعداد نوري الحَرْبي، وسرتْ منه عدويَ البطولة في كل ناحية من واحي الشّمال.

ووصلت من العَقَبة طائرتان في 10 الجاري يقودهما «مُورفي وجونور» كمرشدَين، واستقبلنا في اليوم التالي باقي السّيارات المدرّعة حاملة «جويس وسترلينغ» وكان على فيصل أن يأتي في اليوم نفسه يحرسُهُ «مارشال». ومتى تسلم «مارشال» القيادة وسار إلى الأمام فهو كفيل بالنّجاح لأنه كان يقود الجيوش على أنوار الخبرة الطّويلة، ونار الحميَّة وصلابة الإرادة والجَلَد. مع ضبط النّفس وصفاء الذّهن.

ولم يتأخر «يونغ وپيك وسكوت هيڠينز» والمتاع. فقد لحقوا بنا وانضموا إلى الأمم في الأزرق! فتهلّلت البحيرات مرة أخرى وتموّجت الأصوات مع تثني مياهها إلى تخضخضها الأجسام السّمر الصّلبة الرّشيقة القوية، والأجسام البيض والنّحاسية، إلى ما هنالك من البُنَى والألوان.

وأطلت علينا طائرة فلسطينية يوم 11 سبتمبر. إلّا أنَّ «داوني». للأسف كانت قد أصابته وعكة فتخلَّف وقام مقامه ضابط أركان حرب. لم يألف بعد جو الصّحراء ـ فقاسى الشّدائد، ونسي أن يبلغنا خبراً هاماً. وهو أن اَلِنْبي ألهم فجأة وقال لـ «بارثولوميو»: «لماذا نكثر من الاهتمام بالمسعودية؟». وانقلبت الخطط لدى هذا القرار السّريع رأساً على عقب، وتحوَّل الغَرَض الثّابت الأول إلى سير سريع إلى الأمام سير لا حدَّ لهُ. ولم نكن نعلم شيئاً من ذلك لو لم نلحّ بالأسئلة ونبالغ في استطلاع الأخبار. فعثرنا على هذه الخطة الحديثة بين أجوبة هذا الضّابط المرشد المرسل إلينا من قبل «سالموند» وفهمنا فوق ذلك مالديهم هناك من وسائل عدد ضرب القنابل وعدد المدافع. وأنَّ البريطانيين لا يملكون هذه العدد ذاتها، ولا أقلَّ مما نحتاج إليه في درعا. فكان علينا أن نكتفي بأي قدر من الضّرب على درعا حتى نتمكن من الدّوران إلى شمالها وقطع الخط الحديدي الموصل إلى دمشق، وهو أمرٌ لا بدَّ منه.

ووصل فيصل صبيحة اليوم الثّاني تتبعه جيوشه ونوري السّعيد الزّاهي الزّاهر دائماً. وجميل «الطّوپجي» وجزائريون تُبَّع «پيزاني» ونماذج أخرى من أولئك الذين

كان يدعوهم آلِنبي مازحاً «جهد الثّلاثة رجال وغلام» وَسَتَلْقَى النُّعَر. ومنذ الآن عيشاً طيباً على جلود ألفي ناقة جديدة.

وظهر نوري الشّعلان عند الأصيل يصحبه «طراد» و«خالد» و«فارس» و«درزي» و«الخفاجي». وقدم إلينا «عودة أبو تايه»، أيضاً و«محمود الدّغلان» و«فهد» و«أدهب» ورؤساء بني زَبَنَ وبني ياني ورؤساء السّراحين «وابن كنج» رئيس السّرديين وقدم إلينا «مجيد بن سلطان» من قبيلة عدوان القريبة من السَّلط لنقول له حقيقة نيَّاتنا إزاء عمان. وفي أول الليل سمعت طلقات نارية فكان القادم طلال الحريديني زميلي القديم يخب خبباً يتبعه خمسون فلاحاً راكبين، وكان وجهه القاني يتهلل بشراً بقدومنا. لأنَّه كان ينتظرنا من زمن بعيد. ووفد علينا سوريون ودروز قادمين من مدن العيسوية وحوران وانضموا إلينا، حتى أنَّ الشّعير الذي كنا قد ابتعناه لخزنه استدراكاً لارتداد محتمل أخذ يرد إلينا قوافل منظَّمة. وكان كل إنسان يشعر بأنه قويٌّ جذلان.

ولم يكن سواي شاذاً وقد حرمتني هذه الجموع لذة وجودي في الأزرق فهرولت إلى مقرنا العزيز البعيد «عين الأسد» وتمددت طيلة النّهار في مقرّي القديم الهادئ بين أشجار الحُمَر. وكان الهواء يداعب أغصانها التربة فتحف حفيفاً وتسمعنا نغمات أشجار إنكلترا. ويهز هذا الرّيح أعضائي التّعبة المنهوكة حتى الموت من جراء هؤلاء العرب السّاميين الذين يتعالون إلى أوج الافتخار. وإن أولئك النّاس ليحققوا ما ندركه عن «المُطلَق» بمقدرتهم غير المحدودة على الخير وعلى الشّر سواء بسواء. ومع ذلك قد التجأت إلى مداراتهم مدة سنتين، ومعاشرتهم معاشرة حقيقية لكي أستغلَّ هذه المقدرة البدوية.

وكان «جويس» في هذه الآونة يكوّم المسؤوليات التي طرحتها عن عاتقي ويحملها على منكبيه. فأمر پيك بأن يسير بجيش الهجّانة الإمبراطوري المصري المتحول إلى مفرزة هدَّامين. «وسكوت هيغينز» Scott-Higgins مع الغورخا Gurkhas المحاربين وسيارتين مصفحتين، وغايتهم الوحيدة قطع الخط الحديدي في جهة إفدن.

وكان على «سكوت هيغينز» أن يقوم بهجوم في الليل على أحد المواقع المحصنة

بمساعدة هنودهِ الرّشق. أجل!.. الرّشَقَ مشاة كما لا يخفى. لأنهم وهم على ظهور جمالهم أكياس محمَّلة. وعلى «پيك» Peake أن يهدم بنايات قبل الفجر وتتبعه عند الصّباح سيارات مدرّعة تخفي ارتداده إلى الشّرق على السّهل الذي سيعبره الجيش الكامل العدد شمال الأزرق ووجهته «التّايهة» حيث الحوض الطّبيعي لمياه الأمطار على مسافة خمسة عشر ميلاً من درعا قاعدتنا الأمامية، وكان دليلهم أحد رجال الدّولة. فأبصرناهم يسيرون متهادين يفيضون رجاءً وثقةً، بنجاحهم في مهمتهم التمهيدية. وسار جيشنا عند الصّباح، فكان رجال «أبا اللِّسن» يربى عددهم على الألف وثلاثمئة رجل منهم فوارس رُحَّل تحت إمرة نوري الشّعلان يقودون أيضاً ألفي جمل للرّوَّلة طلبنا منهم أن يدّخروها في وادي السّرحان ولم يكن من المعقول أن نزجي هذا القدر من البدو غير المدرب إلى العمل بين قرويي حوران قبل أن يأزف يومنا الأعظم. وقد كان أولئك الفوارس مشايخَ وَخَدَمَ مشايخ وملّاكاً موسرين في منطقة نفوذ التُّرك.

وكانت بعض الأعمال معلقة بيني وبين فيصل ونوري أوقفتني يوماً كاملاً في الأزرق. وقد ترك لي «جويس» سيارة «پليموث» بلغت بها الجيش صباح اليوم الثّاني فرأيتُهُ يفطر على أرض رديئة عَشبة في «جيعان الخنَّة» ونعمت الإبل بعد تركها سهول الأزرق القاحلة وملأت بلهفة بطونها الكبيرة من هذا الحشيش الشّهي.

إلّا أنَّ جويس قد أطلعنا على أخبار سيئة: وقد وصل إليه پيك وأبان له بأن صعوبات جدية تعترضه في طريقه إلى الخط الذي يقصد تخريبه. وأن قوماً من العرب الضّاربين حول ذلك الخط يقيمون العقبات أمامنا... وقطع هذا الخط هدف هامٌّ من أهداف خططنا لنفصل عمان عن درعا، فتبلبلت أفكارنا. ولم ألبث أن تركت السّيارة. فدار رفاقي دورة متجنّبين المَهوى البركاني المملوء حمماً. الهابط إلى الغرب نحو السّكة الحديد، أما أنا والعقيليون وبعض البدو والمطايا فقد سلكنا مَخاصر الطّريق، في سهل مكشوف متصل بخرائب «أم جمال».

ولقد كنت غائصاً في لجج الفكر، وشغلني خط عمان عن أي أمر آخر. وفارقتني البديهة لأبتكر أهون وسيلة وأجودها أبلغ بها وطري. وزادت هذه الخرائب الرّومانية

شـواغلي، فـإنَّ مثـل هـذه البنايـات لمدن علـى الحـدود «كأم جمـال» و«أم سـراب» و«التّايهـة» كان أمـراً غيـر منطقـي، لقـد كانت هـذه الأماكن منـذ أجيال ولـم تزل إلى عهدنا هذا حقولاً صحراوية للمقاتلة، تدل على جهل بناتها الأقدمين بشـروط الوجود وأسباب الحيـاة في مثل هـذه القفار. إنما كان هذا تأييداً قاسـياً لحق الإنسـان ـ الحق الرّوماني ـ الذي كان يقضي على المرء بأن يحيا أبداً على وتيرة واحدة من غير أن يغيِّر من طرق عيشـه علـى الأرض الرّومانية الشّاسـعة، وأن هذه البنايـات اللاتينية لـم تكن لتنصب في الصّحراء إلا لجباية الضّرائب الباهظة على سكان تلك الولايات من العالم المتمـدن. وقد كشـف القناع عن عمـى مطبق لألاعيب السّياسـة الزّائلة، وأن مثل هـذه الخالـدات بعـد زوال أغراض بانيها، لتمثـل الكبرياء الوضيعة التي لا تشـرّف من كان مسـؤولاً عن ابتداعها بشـيء، وقد تركتني «أم جمال» الباغية وتلـك الخطوط الحديد والكشـافة التُّركية، هبّت علينا ريح حاملة غبار العشـرة آلاف رجل السّـاخنة الصّاعدة نكهتهـا حولنـا. وبـدت لنا الخرائب مـن هذا العلو الشّـاهق غير ما كانـت عليه لما كنا نشـاهدها منذ ثلاث ساعات مشدوهين منحبسـي الأنفاس. وكانت السّهول المنبسطة منثورة بمواقد لا عدَّ لها. تتلألأ نارها أمام الخيام وترسـل لهبها بين الدّخان المتصاعد هادئاً في الجو السّاكن والليل السّاجي، يتحلق النّاس حولها ويغلون القهوة ويطبخون، ومنهم من يقود الحيوانات الحرنة إلى المساقي ويعيدها إلى مرابطها.

وبينما كان رجالنا يفطرون في الصّباح، ويتمطون لخدر في أعضائهم في الليل البارد لدى أول أشـعة تمن بها الشّمس على تلك المعسكرات البهيجة، أخذنا نشرح لرؤساء العرب المجتمعين للمشـورة بأنه يمكننا أن نغزو الخط الحديدي بوسـاطة السّيارات. وقرّرنا دفع سـيارتين مدرّعتين إلى الجسـر لتجاهدا في هدمه، بينما يتابع الجيش سيره نحـو «تـلّ عرار» المحطة المعترضة بين دمشـق ودرعـا على بعد أربعـة أميال من هذه المحطـة، ويكـون قد ملك زمام الخـط فينزل عليهـا ويحط رحاله مسـتريحاً في اليوم الثّاني 17 سبتمبر سنة 1918 عند بزوغ الشّمس، ونكون في هذه الآونة قد نسفنا الجسر وبلغنا «تلّ عرار» بسياراتنا.

وظهـرت لي عظمـة طائراتنا في الفضاء الشّاسـع في السّـاعة الثّانيـة زوالية تتهادى وتتقـدم نحو درعـا بنظام بديع فملأت قلوبنـا جذلاً، وكانت هذه أول غـزوة تقوم بها. وكان الموقع لا يزال إلى الآن مصاناً من كل مهانة جوية، لذلك قد أصيبت حاميته التي لم تتعود هذا المزاح بأضرار جسيمة، لأنها لم تكن محصنة ولا مسلحة، فجاءت تلك المفاجـأة مفيدة لنـا. لأن معنوية العدو قد تأثرت تأثراً سـيئاً، كمـا تأثرت المواصلات علـى الخـط. وأضاع التُّرك وقتهـم بحفر الخنـادق ليحتموا من ضـرب القنابل قبل أن يصل رجالنا المهاجمون إليهم من الشّمال. وكنا في مكامننا ولدينا كميونات وسيارتان مدرّعتان في أرض مرتفعة الأعشاب كثيرة الحجارة الخشنة، وقد أبصرنا الهدف الذي نرمـي إليـه من وراء آخر جبل أمامنا. وكان على نتوء من الأرض جنوب الجسـر يرتفع موقع مبني بالحجارة.

فشحنت سيارة مصفحة بالقطن المشبَّع بالبارود بعد أن أخفيت الكميونين وأخذت آلة الانفجار. وفكرت بأن أنزل إلى الجسـر رأسـاً بطريق الوادي ونتسلَّل تحت الحنايا ونضع المتفجرات في الأماكن الموافقة ونشـعل النّار قبل أن نغادر الجسـر. وفي هذه الآونة تكون السّيارة المدرّعة الثّانية قد هاجمت الموقع المحصن وألهته عنا.

فسـارت السّـيارتان معاً، وما كدنا ندنو من الجسـر حتى طلع علينا ثمانية جنود من خنادقهـم وهم في حالة اسـتغراب وبيدهم بنادقهم ثم تقدمـوا متفرقين ووقفوا موقف ضرب النّار. ليت شعري أأخذتهم نوبة جنون أم هم سذج مغرورون، أم لديهم شجاعة لا حدَّ لها. إني أجهل ذلك! فقذفت السّـيارة الثّانية ناراً سـلقت أولئك المسـاكين. وما لبثـا أن رأينا أربعة آخرين لا أدري من أين خرجوا واحتموا بالجسـر ورمونا ببنادقهم. فسدد رماتنا عليهم قنبلة قتلت واحداً وجرحت آخر وسلَّم إثنان نزعنا عنهما سلاحهما وأرسـلناهما إلى الكميون حيث كان يرقبنا سـائقهُ من على قمّة الجبل. وسـلَّم الموقع المحسن في الوقت نفسه ولم تمض خمس دقائق حتى كنا مالكين زمام الجسر وخطاً طويلاً من السّكة الحديد ولم نخسر شيئاً، وكانت نتيجة حركتنا موفقة للغاية.

وأسرع «جويس» في سيارته حاملاً أيضاً قطناً مشبَّعاً، وكان الجسر قطعة فنيّة جميلة

وطوله ثمانون قدماً وعلوه سبع عشرة وعليه رخامة متقنة الصّنع مكتوب عليها اسم وألقاب السّلطان عبد الحميد. فحشونا قنوات المياه من ناحيتي العقود كيفما جاءت، وقدَّرْنا حسب الفن أن ستَّ حشوات صغيرة تكفي لنسف القناطر كلها، فكان هذا الدّرس الفنّي على هذه القطعة الفنية أمثولة لنسف البنايات وحفظ الهياكل قائمة على قواعدها، إلّا أنَّه لتجديد مثل هذا الجسر البديع بعد هذا التخريب يجب نزع كل شيء وإعادة البناء ثانية.

وانتهى العمل في الوقت الذي ظهرت فيه كشافة تركية فاعتذرنا لها وجمعنا بضاعتنا سراعاً، وأخذنا بعض معلومات طيبة من أسرانا وكافأناهم بأن أركبناهم على الكميون وتباعدنا وقد مخضتنا تلك العَجَلَة مخضاً في أرض وعرة غير مستوية. إلّا أنَّه للأسف لم نحرص على هذه الشّاحنة وهبطنا في مسيل جاف فسمعنا قصفة مشؤومة تحتها، وانفصل جانب من المخون ولصق بمطاط الدّولاب الخلفي فأرغمنا على التوقف.

وانكسر القسم الدّاخلي من النّابض ودخل في الإطار، ففغرت أفواهنا يأساً وكنا على ثلاثمئة متر من الخطر ولا تمرّ عشر دقائق حتى نترك مركبتنا ونتباعد عن العدو. وإن «رولز رويس» في قلب الصّحراء لَهِيَ أثمن من جوهرة، وقد طفنا في هذه السّيارة ثمانية عشر شهراً من مسالك وعرة لم تُمهّد لمثلها، وسرنا بها بسرعة فائقة وهي مثقلة بالأحمال، وفوقها أربعة أو خمسة رجال، فكان هذا الحادث هو الأول من نوعه في سياراتنا التّسع دائمة العمل.

فبكى «رولز» سائقها يأساً، «رولز» القائد اللَّبق الميكانيكي العجيب ذو الآراء السّديدة الحكيمة والحيَل التي لا ينضب معينها. ذلك الذي حفظ سيارتنا في هذه الشّهور الطّويلة بحالة جيدة تقوم بمهامِّها خير قيام. فأحطنا به ضباطاً وجنوداً إنكليزاً وعرباً وتركاً نظر إلى ملامح وجهه الشّاحب بكرب ولهفة. وفهم ـ وهو الجندي البسيط ـ إنه هو المخلص والحاكم على الأشياء والأشخاص في هذا المأزق فتقلَّص وجهه لدى جهده القاسي وإرادته العنيدة. ثم قال أخيراً. بأنه لم يبقَ لديه سوى وسيلة واحدة وحظ واحد وهو ضمَ القطعة المفصولة عن بعضها بخشبتين متينتين وربطهما ربطاً

محكماً وتثبيت قطعة خشبية ثخينة متينة فوقها بالحبال. فتحمل ثقل المحور (الدّنغل) الذي يمسك الدّولابين الخلفيين بطرفيه، ومن الضّروري أن تحمل السّيارات بعض ألواح خشبية خوفاً من سقوطها في رمال أو أوحال. وكان علينا أن نقطع ثلاث قطع من هذه الأخشاب يكفي سمكها مضمومةً معاً لغرضنا. إلّا أننا لم يكن لدينا منشار فخططنا خطوطاً عليها وأطلقنا بعض رصاصات من مسدساتنا على تلك الخطوط فانفصلت القطع عن بعضها، فتوقف التُّرك وترددوا في التقدم وأسرع إلينا «جويس» لهذا الضّرب المتواصل فألقينا شحنة سيارتنا المخروبة في مركبته وأسرعنا في إصلاحها فسارت خفيفة مسرعة. وتبعناها ضباطاً وأسرى، وباقي العصابة محثِّين منشَّطين، نمِّهد لها السّبيل أمامها ويتَّقى سائقها «رولز» المهاوي والحجارة والمرتفعات.

وأبدلنا الحبال بعد ذلك بالأسلاك التلغرافية وأحكمنا ربط النّابض في الإطار ولما تثبتنا من متانتها أعدنا إليها حمولتها وعادت إلى العمل. وتحمَّلت الأخشاب مدة ثلاثة أسابيع أشغالاً باهظة، ودخلت السّيارة معنا ظافرةً إلى دمشق على هذه الحال دخول الجندي الجريح. فكان «رولز» عظيماً وكان «جويس» عظيماً أيضاً. وكانا يساويان مئتي رجل في الصّحراء.

وأخرَّنَا هذا الإصلاح بضع ساعات فقضينا الليل في «التّايهة» آملين - إذا نهضنا باكراً - أن نلحق بنوري السّعيد في اليوم الثّاني على خط دمشق شمال عمَّان ونقول له إن الخط الحديدي سيكون مخرّباً جهة الجنوب وغير صالح للعمل أسبوعاً كاملاً لتخريب جسرٍ هناك ذي أهمية، وإذا سارت حاميتنا شمالاً يمكنها أن تصل درعا في الوقت المناسب. لأنَّ سقوط الجسر قد أمن مؤخرتنا وأصبنا غرضاً آخر في هذا التخريب، وهو صيانة الأمير زيد المنعزل من ناحية «أبا اللِّسن». لأن التُّرك كانوا يجمعون جيوشهم في الطَّفيلة إلى أن تصلح خطوط مواصلات دمشق. غير أن غزوتنا هذه كانت من سوانح الفرص.

* * *

الفصل الحادي والثّلاثون

نقطع الخطوط الرّئيسية

وبلغنا الطّريق الذي سلكته سيارات «ستيرلينغ» في السّاعة التي قدرناها وذلك عند انبثاق نور الصّباح. وقد جاهدنا حتى ننضم إليها قبل الموقعة. إلّا أنَّ حالة الطّريق الرّديئة لم تسمح لنا بالإسراع. ولم نكد نخلص من انحدار وعر حتى وقعنا على أرض حجرة بعيدة كان علينا أن نداور ونحتال حتى نتمكن من التخلص من هذا الأمعز الصّوّان. وبلغنا انحداراً آخر محروثاً صَعُبَ سير السّيارات عليه لجفافهِ. تفجُّه دواليب السّيارات فجاً إلى عمق متر وعرض ثلاث إنشات. فكانت السّيارات المصفحة ذوات الخمسة الأطنان تسقط في تلك الفجوات وتعلق بها.

وبلغنا الجيش العَرَبي السّاعة الثّامنة صباحاً على منحدر خفيف متصل بالخط الحديدي فانتشر الجنود كي يُهَاجموا الاستحكام الصّغير الذي يحرس الجسر الواقع بيننا وبين «تل عرار» وكنا منه على ذلك المرتفع نرقب المحاربين على اتجاه درعا.

ففرسان الرّوَلَة تحت قيادة طرَّاد ينحدرون خبباً على طول ذلك المنحدر وينخرطون في عقيق نثرت عليه حَصى المرمر الأسود. يندفع وراءهم «يونغ» في سيارة فورد. واعتقدنا ونحن على قمّة الجبل بأننا مالكو الخط دون أن نطلق طلقة واحدة، إلّا أنَّه بينما كانت أنظارنا تتبع رجالنا أطلق التُّرك ناراً حاصدة من استحكامهم الذي كان لا يزال إلى ذلك الوقت منسياً فتساءل أولئك الشّجعان، ماذا يمكننا أن نفعل إزاء هذا الاصطدام البديع، ومالبثوا أن تواروا وأفلتوا من نار العدو.

فأمر نوري السّعيد بإنزال مدفعية «بيزاني» وإرسال بضع قنابل إلى الموقع. ثم

استولى بعض رجال الرَّوَلَة عليه ولم يفقدوا غير رجل واحد وهكذا ملكنا العشرة أميال من الخطوط الحديدية جنوب دمشق منذ السّاعة العاشرة صباحاً ولم يبق خطٌّ قط لا إلى فلسطين ولا إلى الحجاز.

وكان من الصّعب عليَّ أن أصدق السّهولة التي انقاد بها حسن الطّالع لحركاتنا. أو أتصور كيف أننا توفقنا إلى تنفيذ رغبات آلِنبي بهذه السّرعة.

وتدحرج العرب جموعاً جموعاً من الجبل ثم اجتمعوا على قنة «تل عرار» المستديرة. ينظرون إلى السّهل الفسيح تحتهم تُضيئه أشعة شمس الصّباح، وتترك عليه بعض أظلال بارزة، فيرون في الأفق الثّلاث محطات «درعا، ومزيريب، والغزالة» بالعين المجردة، أما أنا فقد كنت أرى أبعد من ذلك. أرى في الشّمال دمشقاً قاعدة التُّرك، الوصلة الوحيدة مع القسطنطينية وألمانيا، وقد انقطعت، وتقطعت المواصلات أيضاً جنوب «عمَّان ومعان والمدينة»، وفي الغرب حيث أصبح «ليمان فون ساندرز» Liman von Sanders معزولاً في النّاصرة ومعزولة معه نابلس ووادي الأردن. وكان اليوم 17 من سبتمبر التاريخ المضروب الذي يتقدم الثّماني والأربعين ساعة لزحف آلِنْبي بكل قواته إلى الشّمال، وكان من الممكن أن يغيِّر التُّرك مواقعهم في مدة الثّماني والأربعين ساعة هذه ويواجهون صدماتنا الجديدة. إلّا أنَّه كان من المستحيل عليهم أن يتحرّكوا قبل هجوم آلِنْبي. وكان «بارثولوميو» قد قال: «أخبروني إذا كان التُّرك يحتلون خط «العوجة» ليلة قيامنا أقل لكم إذا كنا نربح المعركة».

ولقد كان التُّرك في العوجة! إذن سنكون نحن الظّافرين، ولكن إلى أي حد؟ وأين بيت القصيد؟

وكنت أود أن يكون الخط مخرَّباً دفعة واحدة. إلّا أنَّها كانت فترة قام بعدها الجيش بنصيبه منه. ونصب نوري السّعيد رشّاشاتِهِ حول قمّة «تل عرار» كي يمنع رجالها من محاولة الخروج منها. ولكن لماذا توقفوا عن التخريب؟ فاندفعت حتى بلغت پيك Peake وإذا به يفطر مع رجاله المصريين. فذكَّرني هذا المشهد لعبة أكر «درايك». ووقفت مشدوهاً متعجباً. وعلى كل حال قد تمكنا من جمعهم في مدى ساعة ودفعهم

إلى العمل دفعة واحدة. وكانت قد سبقتهم المدفعية الفرنسية وبلغت الجسر القريب منا فلم يتوقَّفوا في دفعتهم الأولى، إلّا أنَّهم نالوا بعض النّجاح في الدّفعة الثّانية.

وصوَّبنا نظارتنا البعيدة المدى إلى درعا قبل أن يرقص السّراب أمامنا ويخفي عنا ما خبأه لنا التُّرك إلى ذلك اليوم. فلم نتثبت لأوَّل وهلة مما شاهدناه. فقد كان ميدان الطّيران يموج ويعج. والجنود تخرجُ من السّقيفةِ عدداً كثيرة تمكنت من عدّ ثمانٍ منها مصفوفة على خط السّفر. أما المشاهد الأخرى فكانت كما في حسبانِنا. فتراكضت بعض الفرق إلى مراكز القتال واحتلّتها وأطلقت المدفعية علينا، إلّا أنَّنا كنا على بعد أربعة أميال. وكانت القاطرات لا تزال موقدة، غير أن الشّاحنات كانت غير مصفحة، أما وراءَنا على اتجاه دمشق فقد كانت البلاد ساجية كالقرطاس. وعن يميننا لم تُبدِ مزيريب أقل حركة. فاحتفظنا بهجومنا وكنا نأمل أن ننثر كالمسبحة ستمئة حشوة من المقذوفات لتعطيل ستة كيلو مترات. وقد اتفقت مع پيك على أن تكون المسافة بين الحشوة والحشوة عشرة أمتار وتوضع الحشوة تحت العارضة بين الخطين تماماً. وكانت العوارض فولاذية مجوّفة من النّاحية السّفلى فيمكننا أن نضع ثماني وثلاثين أوقية من القطن المشبع بالبارود. إذ يصلح هذا التجويف في العوارض غرفةً هوائية، وإذا أحكم وضعها فإنها لا تحطم الخط فحسب بل تقلقه من مكانه بعد أن يكون قد تخلَّصَ من مسكاتهِ. وتقوَّس إلى علو اثنين أو ثلاث إنشات، وبالاختصار قد تحوَّلت تلك العدد المعدنية بعد الانفجار كوماً لا شكل لها ولا نفع منها، وكانت العوارض المجاورة قد تأثرت من النّسف وحفرت فجوات على سَنَد الخطوط. ولقد تمَّ كل ذلك بنظام دقيق، فبينما ينفجر اللغم الأول نكون قد أشعلنا الثّاني، وبلغنا الثّالث، ثم ينفجر الثّاني فنكون قد أشعلنا الثّالث وبلغنا الرّابع، وهكذا كانت تمر فوق رؤوسنا قطع الحديد والحجارة ولا تُصيبنا.

وسيتكلف التُّرك في إصلاح هذه السّتمئة حشوة أسبوعاً كاملاً فما أبدعها فرصة تمت بها نبوءة آلِنْبي إذ قال: «ثلاثة رجال وغلام بمسدساتهم». وقد حدث حادثان عند رجوعي إلى الجيش. وهو أن «پيك» لما أشعل أول حشوة تصاعد دخان في الجو

كمثل شـجرة الحوَر ودمدم دمدمة صُمَّت منها الآذان، فطار فوقنا الطّيار التُّركي الأول فتسـللت مع نوري السّعيد بين شقوق الصّخور جنوب الجبل وانتظرنا سقوط قنبلة إلّا أنَّه كان كشافاً Pfalz فعاد وقصَّ حكايته في درعا.

ولاشـَّك أن هـذه الأخبـار قد أثـارت الاضطراب بيـن الأعداء لأن ثـلاث طائرات بمقعديـن، وأربع طائرات استكشـاف «ألباتروس» قديمـة معصفرة طارت جميعها في الفضـاء، ودارت دورانـاً فوق رؤوسـنا، وألقت بعض قنابل علينا، وحاولت أن تسـف وتقتنصنا برشّاشاتها.

فصوب نوري مدافع «هوتشـكيس» المختبئة في فلوع الصّخـور وقذفها قذفاً قوياً، وتمثـل «پيزاني» بنوري وقذفهم ببعض قذاف المنثار «الشّـراپنل» فخمدت همّة التُّرك لهذا الرّد المفحم، وتواروا في السّحاب خائبين غير صائبين.

ففرقنا الجيش والجمال هنا وهناك، وتشـتت الرّجال غير النّظاميين، والمبدأ هو أن التفـرق يقلل من الضّحايا، وكـم كانت قلوبنا تختلج لهذه الألوف من الرّجال الذين لا ملجأ لهم في السّـهل المكشـوف. وما أروع مشـهد ميلين مربعين أسودين من الرّجال والبهائـم دائمـي الحركة نطل عليه من فوق الجبل، وكنـا من وقت إلى آخر نرى عمود دخان يتصاعد إلى السّـماء، ثم لا نلبث أن نسـمع جرجرة الانفجار. وإذا انعقد الدّخان حجماً كثيفاً أيقنا بأن هذا من رشّاش الطّائرات.

واحتـدم القتـال، إلّا أنَّ المصريين قـد تابعوا عملهم بتؤدة كما كانـوا يفطرون بتأنٍ! فأربع فرق تضع الألغام، وپيك يتبعهم ثاقباً النّار مستعيناً بأحد الضّباط. ولم يكن يسمع صـوت لمتفجراتنـا فلم يفطـن الطّيارون الأتراك لمـا يحدث على الخـط من الانتهاك والتهتـك. وأخذ پيك ورجاله يتباعدون رويداً رويداً عن منطقة الخطر، وهم لا يزالون جادين في عملهم. وكانت أعمدة التلغراف تدلنا على تقدمهم نحو الشّـمال. وتتراءى لنـا العوارض مسـتقيمة، والخطوط ممتدّة مثبتة، إلّا أنَّهـا وراء پيك تظهر على حقيقتها ملتوية مرتجة مطروحة على الأرض.

فتشاورت مع نوري السّعيد و«جويس» في أمر الوسائل التي تبلغنا اليرموك، وتمكننا من مواصلة تقطيع خطوط فلسطين والحجاز، وبما أن استعدادات الأهلين كانت عدائية نحونا. فمن الثّابت أن نصحب كل رجالنا معنا. إلّا أنَّه لم يكن من الحكمة في شيء أن نسير تحت مراقبة الطّائرات التركية المستمرة. لأنَّ قنابلها القاتلة تفتك بجيشنا وهو يسير في السّهل المكشوف. ثم إن پيك وهو في عمله يكون تحت رحمة درعا إذا جرؤت حاميتها وخرجت من مكامنها.. وإذا كان الترك يهابوننا الآن فلربما يتشجعون مع الزّمن.

وبينما نحن في تردد وحيرة خطر خاطر «لجونور» Junor كأنه وحي من السّماء. و«جونور» هذا طيّار طائرة BE 12 والطّيار الوحيد الموجود في الأزرق كان قد سمع «مورفي» يتحدث ـ وهو الآن بعيد عن القتال ـ عن طائرات الأعداء في درعا. فألهمته بداهته أن يقوم مقام طائرة «بريستول فايتر» Bristol Fighter ويطير في الأجواء حال تقدمنا.

فنظرنا إليه نظرة قلق وإعجاب لأن طائرته القديمة الطّراز ستكون هدفاً طيّباً لطائرات الاستكشاف وللطائرات ذوات المقعدين، إلّا أنَّه تصدّى ودار دورة بطائرته ذات المدفعين فوجم منه العدو وتفرقوا ليسبروا غور قوة هذا الخصم المفاجئ فتحول «جونور» نحو الغرب فوق الخطوط فلحقه العدو. ومن المؤكد أن الطّيار يشعر بشيء من الضّعف أمام طيار مثله، ويلهو به عن كل أمر آخر. أفلا يهمل الطّيار التُّركي كل ما هو تحته مهما كان مهمّاً. ويدافع عن نفسه إزاء خصم جديد يناوئه في الهواء.

إذن، لقد تركونا وشأننا، واغتنم نوري السّعيد فرصة هذه الهدنة المؤقتة وتمكن من جمع ثلاثمئة وخمسين رجلاً نظامياً ومدفَعي «پيزاني» ودفعهم في معبر ماء وراء «تل عرار» أول مرحلة لهم في طريقهم إلى مزيريب.

وإذا تكرم الطّيارون بالإغضاء عنا مدة نصف ساعة، فإنهم بلا شك سيرون التل أقل تجمهراً، ولا يبصرون الجنود منثورين في حقول القمح والمنحدرات والأعقَّة. والنّاظر من الجو إلى هذه المنطقة المزروعة يتذكر جلد حمار الوحش وخطوطه

المتقابلـة أو غطـاءَ القَدَمين وقد ازبأرّ عليه الزّغَب. وتنتصب فـي تلك الحقول أنابيب الأذرة كالأسل ورؤوس شوك العاقول تلتطم على سروجنا.

وأرسـلنا القرويين في إثر الجنود، وهممت بعد نصف سـاعة إلى متابعة السّـير مع حرسي الخاص إلى المزيريب لأبلغها قبل الحملة إلّا أني سمعت أزيز محرك في الجو وإذا به ـ وياللعجب ـ «جونور» وهو لايزال حياً يرزق تطارده وتحدق به ثلاث طائرات وتخرَقـهُ بالرّصـاص. «جونور»! أجـل! إنه لا يزال علـى قيد الحياة يكيـل لهم بالكيل الـذي يكيلون ويرد الضّربة بالضربة. إلّا أنَّه النّتيجة المحتّمة ـ للأسـف ـ كانت منتظرة لهذا الطّيار الباسل رغماً من تململ العدو وتزاحمه الطّائش.

لقد أمّلَ «جونور» النّزول على الأرض سالماً، لذلك تراكضنا على الخط الحديدي حيث لقينا بقعة قليلة الحصى، فأسرعنا جميعنا في تنظيفها بحماسة جنونية، والخصم يقذف «جونور» إلى أسفل. فألقى إلينا رسالة يفيدنا بأنه قد نفد منه الوقود، فما لبثنا أن أومأنـا إليـه بالهبوط إلى الأرض فأَسَـفَّ حالاً إلّا أنَّ ريحاً قويـة أمالت بجناحيه فجأة، وكانـت الأرض غير كافية الاتسـاع بالرّغم مـن جهودنا، غير أن طيارنـا الهمام لم يعبأ لذلك بل هبط علينا بخفة ورشاقة. وتعطلت عدّة النّزول ومالت الطّائرة وسقطت على الأرض الخشنة.

فأسـرعنا على صـوت النّجدة فإذا «جونور» لا يزال قائماً على قدميه سـليماً إلّا من قجـرح في ذقنِهِ. فَفَصَلَ مدفع «لويس» ومدافع «ڤيكرز» وتوابعها وألقى بها في سـيارة فورد تخص «يونغ» ونجونا جميعاً سراعاً فأسفّتْ إحدى طائرات التُرك الخبيثة وألقت قنبلة قرب بقايا طائراتنا الهامدة.

ولـم تمر خمس دقائق حتى رجانا «جونور» في القيام بعمل آخر. فأعطاه «جويس» سيارة فورد. فأسرع إسراع الذئب إلى أن دنا من درعا ونسف خطاً هناك قبل أن يتمكن التُّـرك مـن معرفته. فرأى العدو بعد ذلك أنَّ هذه الحماسـة في غيـر أوانها فأطلق عليه النّار وعاد إلينا مسرعاً دون أن يصاب برشّاش ما.

وكان حرسي الخاص ينتظر عودتي على العقيق. ولزم «جويس» «تل عرار» يسترنا بفرقته مع مئة من رجال نوري السّعيد والرّوَلَة والجركس والسّيارات. بينما نحن سير شمال الخط الحديدي لنبلغ خط فلسطين ونخربه. وكان من الممكن أن يمرّ جيش في السّهل المكشوف كأنَّه جماعة من البدو، ولذلك قرّرت أن نسير علانية حتى مزيريب في مخاصر الطّرق لأننا كنا قد تأخرنا كثيراً. ولكن العدو قد تنبه إلينا وأرسل طائرة تلقي علينا قنابلها بنشاط فأخطأتنا مرتين أو ثلاثاً. أما في الدّفعة الرّابعة فقد وقع شواظها في قلب الرّكب فأسقطت فارسين عن متني ناقتيهما سالمين، إلّا أنَّ مطيتيهما قد تقطعتا إرباً.

فحثنا المطايا إذ لم يبق لنا ملجأ في هذه الأرض، ولم نتوقف إلّا لنقول للقرويين بأنَّ غرضنا المزيريب فامتلأت مسالك الحقول بالفلاحين وهم يتراكضون لنجدتنا ويبدون رغبة صادقة في خدمتنا. وكانت قد ألفت أنظارنا على طول عهدنا في الصّحراء تلك السّمرة الضّامرة في رجال البدو، فبدت لنا هذه الأجسام البضّة والوجوه الباشَّة الوردية والشّعور الجعدة والزّنود البيض المكنوزة كأنها زنود صبايا. وقد شمّروا عن سيقانهم حتى ركبهم ليحسنوا العمل، والمرِح منهم النّشيط كان يحرث الحقول المزروعة ليصل إلينا ويمازح رجالي.

ولما بلغنا المزيريب قدم إلينا «درزي بن دُغْمي» وأفهمنا بأنَّ نوري السّعيد وجيشه هم منا على مسافة ميلين إلى الوراء. فسقينا جمالنا وارتوينا بدورنا لشدة ذلك اليوم وحرّه ومتاعبه ولم يكن قد بلغ أجله.

وامتنعنا وراء الحصن القديم وراقبنا الأرض وما وراء البحيرة فإذا بحركة تبدو لنا في المحطة الفرنسية، فقال لنا بعض ذوي السّيقان البيض، إن التُّرك قد احتلّوها عنوة، وكانت الشّهوة إلى الدّنوّ منها بالغة الحد، فتقدم عبد الله لهذه المهمّة. أما أنا فقد ختمت نهائياً على دور فروسيتي لحجَّتي الواهية اللّيّنة بأني أحتفظ بجلْدِي لمهام أشق منها. وبعبارة أخرى إني أريد أن أدخل دمشق!.. وللحقيقة كانت مهمّة عبد الله هينة فقد استولى في المحطة على حبوب ودقيق وبعض أسلحة وخيول وعلى قليل من حزم الأمتعة.

فسال لعاب الطّفيليين لهذا الرّبح السّريع وألهتهم الشّهوة عن العمل. واستروح هذه الغنيمة قومٌ جددٌ وتزاحموا على تلك الحقول كالذباب على العسل. ولحق بنا طلال خبباً كما هي عادته دائماً. وعبرنا الماء إلى الضّفة الثّانية فغمرنا الحشيش الرّديء إلى الرّكَب، وظهرت أمامنا المحطة التُّركية على مسافة ثلاثمئة متر، ولربما تمكنا من الاستيلاء عليها قبل بلوغنا الجسر الكبير تحت تل شهاب. فتقدم طلال من غير ما وجلٍ فظهر فجأة رجال من التُّرك عن اليمين وعن الشّمال. فقال: «حسناً، إني أعرف ناظر المحطة». إلّا أنَّ طَشّاً من عشرين بندقية تساقط علينا ونحن على مئتي متر منها فلم يصبنا منها رشّاشها. فانبطحنا على الأعشاب وكان أكثرها شوك العاقول وحَبوْنا إلى الوراء على مهل. وطلال يحلف ويتوعد!..

فسمع رجالنا إطلاق النّار وصوت طلال!.. وتراكضوا وهم يقطرون ماءً لعبورهم الغدير سراعاً فأعدناهم خوفاً من وجود رشّاشات نصبوها لنا خصيصاً في المحطة. وكانت ساعة نوري السّعيد المنتظرة. فتقدم مصحوباً بناصر وفحصنا الموقف فقدَّر نوري بأنَّ الوقت الضّائع في مزيريب مهما كان يسيراً يحول دوننا ودون تخريب الجسر الذي هو غرضنا الأول فشاركته رأيه إلّا أني فكرت بأن كلمة «خُذْهُ» تساوي مرتين «ستأخذهُ» وأن كلمة «خُذْ» ربما تكون كافية. لأنَّ الخط الذي خرَّبه «بيك» لا يصلح إلّا بعد مرور أسبوع ويمكننا في هذه الفترة أن نكون أمام موقف جديد.

ولذلك قد أحكم «بيزاني» تصويب مدفعيته وأرسل عدة قذائف قوية الانفجار، ثم تقدم نوري تحت حماية مدافعنا ورشّاشاتنا بقفّازيه الجميلين متقلداً سيفه المذهب ليتسلم أربعين أسيراً تركياً أغضْت عنهم مدافعنا!..

فتزاحم مئات من قرويي حوران رجالاً ونساءً وأولاداً على هذه المحطة الغنية بالذّخائر ونهبوها. ونزعوا الأبواب والنّوافذ حتى إطاراتها ودرج السّلالم. وفَلَقَ أحدهم الخزانة الحديدية فلم يجد سوى «طوابع بريد» ولم يعفوا عن خط طويل من الشّاحنات المملوءة أطناناً من البضائع المختلفة، فاستولوا عليها وتركوا ما تركوا مبعثراً على الأرض حول تلك الشّاحنات المسلوبة.

وقطعت مع «يونغ» محطة التلغراف التي كانت تتصل بخطوط هامة رئيسية ومحلية؛ لأنَّ هذه المحطة كانت للحقيقة نقطة الاتصال بين جيش فلسطين وشمال الإمبراطورية العثمانية. وكم كنا نمزح ونفرح عندما كنا نقدر بالخيال لعنات «ليمان فون ساندرز» في النّاصرة عند كل سلك يسقط تحت مقصّنا وقد كنا نقطعها بتؤدة واحتفاء فنُثير الغضب الطّويل المدى في نفس العدو. وأصبح التُّرك محرومين من النّظام والبداهة. وحرمت جيوشهم البعيدة من الأوامر والأخبار والقيادة، وأوشكنا أن نتركهم بعد تقطيع مواصلاتهم خليطاً ملتاعاً لا حول ولا طول له، وقوة منثورة فُصمت عُراها، وأتبعنا حوال المحطة بأسلاك البريد فنسفناه وعطلناه حتى ليصعب إصلاحه. وبينما كنا منهمكين بهذه الأعمال ظهرت قاطرة خفيفة من جهة درعا. إلّا أنّها تراجعت سراعاً لمشهد الدّخان المنعقد في جو المحطة ولدمدمة الانفجار الذي بلغ أذن السّائق المحروب، وبعد قليل زارتنا طائرة معادية.

وكانت بين المؤن التي استولينا عليها شاحنات مسطحة مملوءة بعلب الحلوى لمخزن ألماني فوجم العرب منها ومن المحفوظات والقناني وأعدموها وقد تمكنا من حفظ شيء من علب الحساء واللحم، وقدم لنا نوري السّعيد محفوظات من الهليون كان قد فتح واحدة منها أحد الأتراك ونظر إليها وصرخ «إنها لَعِظام خنزير» وتفل في الأرض وترك لقيتَهُ، فحشر نوري كل مالقيه في خُرْجَيْ سرجه.

وكانت تلك الشّاحنات المكشوفة تحمل قدراً كبيراً من براميل الزّيت وحطباً للوقود فأشعلنا النّار فيما بقي بعد النّهب عند المساء وتباعد رجال القبائل ناعمين على الحشيش الأخضر قرب منبع البحيرة الصّغيرة وأضاءت المحرقة سماطنا فتعشينا على ضوء نارها. وقد اشتعل الحطب اشتعالاً لا مثيل له وقذفت براميل الزّيت في الجو وتعالت على حوض الماء.

وتركنا القوم يخبزون ويطبخون قبل أن نقوم بغزوة أخرى عند هبوط الظّلام على جسر تل شهاب الذي هو على ثلاثة أميال منا. وكانت رغبتنا في الأكل تفوق رغبتنا في ذلك الجسر. إلّا أنَّ زيارات كثيرة قد نفد لها صبرنا لأنَّ نار المحرقة التي بلغت أواسط حوران كانت كأنها نار القِرى في الصّحراء، أو نار هداية.

وكان زوّارنا عيوننا الرّواصد في الصّحراء فعلينا أن نرحّب بهم ونكرم وفادتهم، وكان عليَّ وحدي أن أستقبل كل واحد وأدعه يقول ما يشاء ثم بعدئذٍ أحلّل الأقاويل وأغربل الأخبار وأنفي الجيد من الرّديء وأتمسك بكل ما هو معقول وألقي عني كل خبر مرذول وآخذ صورة كاملة في ذهني لكل ما هو حقيقي، قلت كاملة لا منطقية لأنها لا تستند على معلومات كافية. فالأخبار كانت عديدة بمعنى أنها شدهت لبي فلم يعد يقوى دماغي المسكين على الإجابة إلى كل مايطلب منه.

وكانوا يفدون من الشّمال على خيولهم وعلى جمالهم وعلى أقدامهم مئات مئات بحماسة كبيرة، يرقبون التحرر النّهائي لبلادهم بين ليلة وضحاها. وسيختم النّصر ناصرٌ هذه الليلة ذاتها باحتلاله درعا. وقد قدُمَ إلينا أعضاء البلدية وطلبوا منا أن يفتحوا لنا المعقل. فلو أننا رضينا بهذا العَرْض لكنا مالكين حوض ماء المحطة وبعد\ه البنايات نفسها. لكنه لو فرض أنَّ الحامية التُّركية قد قاومت مقاومة المستميت وطال علينا التسليم، فنلتزم والحالة هذه أن نخلي المدينة، ونكون قد فقدنا سكان السّهل بين درعا ودمشق دفعة وا حدة. وإن النّصر العَرَبي النّهائي لَفي أيديهم فقط. وكان حسابي صائباً وإن لم يكن حديثاً. وتقرّر على كل حال أن لا نقوم بأي حركة ضد درعا ونلغي خطنا نحوها. وعليه قد أجلنا طلب نجدة أولئك الأصحاب ومعاونتهم إلى أمد آخر، منتحلين أعذاراً توافق أفهامهم. ولم يكن بالأمر الهين إقناعهم.

ولما أنهينا أعمالنا معهم ظهر عامل جديد أمامنا. ذلك أن رئيس «تل شهاب» الشّاب قد طلع علينا ـ ونحن نعلم أن قريته مالكة جوانب الجسر متحكمة فيها. فوصف لنا موقعه ومخفره ومواقف حراسه المختلفة، إلّا أنَّ هذا الحل لم يكن سهلاً كما يتبادر لنا لأول وهلة، وقد خالجنا شك في صراحة هذا الشّاب الذي كان أبوه المتوفى أمس الدّابر خصماً للقضية العربية، وها إن ولده الآن يندفع فجأة وينضم إلى صفنا، مع أن المثل يقول تلك العصا من هذه العصيَّة. لكنه ما زال يعمل على إقناعنا حتى عرض علينا أن يقدم لنا صديقه الضّابط التُّركي قائد المخفر. فأرسلناه ليأتي بصاحبه وأومأنا إلى الرّكب بالتوقف.

وعاد الشّاب مع الكابتن، وهو ضابط أرمني يحتدم حقداً على دولته ويتمنى لها أقصى ما يمكن من الضّرر. وكان حاد المزاج فجهدنا في إقناعه بأننا قد اطلعنا على كل شيء. ثم قال لنا بأنَّ معاونيه الضّباط ورجاله الحراس هم أمناء متمسكون بتركيتهم. وعرض علينا أن نكمن قريباً من القرية ويختبئ أربعة من رجالنا العرب الأشداء في حجرته، فيدعو رجاله إليه واحداً واحداً فيوثقوهم ويخلو لنا الجو.

إنها لحكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فقبلنا هذا العرض الحماسي وكانت السّاعة التاسعة مساءً، وعلينا أن نأخذ أماكننا حول القرية السّاعة الحدية عشرة تماماً، ونتظر إحضار الرّجال فرادى إلى حجرة القائد. وتَرَكَنا المتآمران فأيقظنا رجالنا المنهوكين النّائمين إلى جانب جمالهم المحملة وكان الليل مشتد الحلك.

وابتدأ حرسي الخاص بتحضير المتفجرات وملأت جيوبي منها استعداداً لنسف الجسر. وحذَّر ناصر كل فرقة من فرق جيش الهجّانة الإمبراطوري ونبههم إلى الهجوم القادم ودعاهم ليكونوا شجعاناً وفي مستوى هذه الحملة العنيفة. وألّا يدعوا الجمال تهدر عند اعتلائهم متونها. وكان كذلك. وسار جيشنا في الوقت المضروب صفين متوازيين وتسلل في السّبُلُ الملتوية محاذاة قناة للرّي تتلّوى مثلها على عُرْف الجبل. فإذا كانت هناك خيانة، وغدر بنا غادر في هذه الأرض المكشوفة التي لا ملجأ فيها، لا من اليسار ولا من اليمين فإنا هالكون. وتابعنا السّير في طريق ضيق ملتوٍ زلق تتخلله البرك الآسنة. فسرت مع ناصر في الطّليعة تحت حراسة رجالنَا الأخصاءِ ذوي الآذان المرهفة والعيون النّافذة والحواس المتنبهة دائماً أبداً إلى أقل حركة أو صوت. وكانت مساقط المياه تهدُر أمامنا فتنقبض لها صدورنا وتذكرنا بتلك الليلة القديمة التي لا تُنسى مدى العمر، عندما حملنا أنا وعلي بن الحسين على هذا الجسر. وكنا اليوم أقرب إلى الشّلال من المرة الأولى والانقباض يضغط علينا أكثر من ذي قبل ويصمّ آذاننا. وتابعنا التسلل حفاة وبهدوء وحذر والجنود وراءنا يحبون حبواً ويقطعون أنفاسهم. وتمثلوا بنا فلم يَبْدُ منهم أقل حركة، لأنَّ الجمال في الليل تسير ساكنة صامتة، والأحمال مشدودة شداً، والسّروج محكمة الأربطة، فلا قعقعة إذاً ولا هدير، فركَّبَ

هذا السّكوت على الظّلام ظلاماً ملأ الوادي شراً ووعيداً كأنَّ هذا الغور يهمس في أذن القَـدَر لابتلاعنا! وكانت نسـمات خفيفـة تمر على الغدير وتمسـح وجوهنا. ولحق بنا رُحَيل قادماً عن شمالنا وأمسك بذراعي وأراني في الظّلمة عموداً من الدّخان الأبيض يصعـد مـن الأعماق، فزحفنا إلى شـفير الوادي وأرسـلنا أنظارنا إلى الغـور بين أمواج الليل المدلهم. لكننا لم نتميز شيئاً، خيالات مبهمة غير ثابتة تتحرّك بين الضّباب الحائر علـى وجه المياه. وكانت غيوم بيض على الجرف تتصاعد وتتحول إلى سـهام ترشـق السّـماء. فـلا بدّ إذن أن تكون السّـكة الحديد في تلك النّواحي. فأمرنـا بالتوقف خوفاً مـن الكمين المزعوم، وتسـلل ثلاثة منا علـى المنحدر الوحِل إلـى أن تمكنا من تمييز الأصـوات، وانقَدَّ عمود الدّخان فجأة وسـمعنا زفيـراً موقَّعاً ولهاثـاً متواصلاً. فكانت قاطرة تسعى. ثم صرَّتْ ألجمتها فعرفنا أنها توقفت. وأيقنا أنَّ قطاراً طويلاً كان ينساب خلف القاطرة، ولما تأكدَّنا منه تابعنا تقدمنا إلى السّنَدَ القائم تحت القرية.

وانتشـرنا خطاً واحداً وانتظرنا ونحن سـكوت خمس دقائق. ثم عشراً بعدها، وكان الليـل الحالك يوحي الصّمـت ففرضَهُ على رجالنا المضطربيـن صارماً رغماً من نباح الكلاب وصدى نداء العَسَس الذي يتردد حول الجسر بين آونة وأخرى. وتركنا رجالنا ينزلـون عن ظهر مطاياهـم بصمت وسـكون، وانتظرنا طويلاً مستغربين هذا الإبطاء، يقظيـن يقظـة التُّرك فـي مراصدهم هامدين همـود القطار في الـوادي. وثقلت عباءاتنا الصّوف على أكتافنا لشدة الضّباب الكثير النّدَى، وتصلبت على أعضائنا فكنا نرتعد.

وأخيـراً... وبعـد فترة طويلة كدنا نفقد معها الصّبر ظهـر ضياء يثقب الظّلمة وعرفنا الشّـيخ الشّاب إذ أزاح عباءته البُنّية عن قميصه الأبيض وهو شعارنا المتعادل. وهمس بأنَّ خطتنا قد فشلت، لأنَّ قطاراً وصل إلى المحطة يحمل كولونيلاً ألمانياً، وحامية من ألمان وترك أرسلهم «ليمان فون ساندرز» من «العَفُولة» لينجدوا مدينة درعا الملتاعة، وأوقـف الكولونيل الضّابط الأرمني البائس مؤنباً لأنّه لـم يكن في موقفه، وأنزل عدداً كبيراً من الرّشّاشات. فدبت الهمة في العَسَس وتقدمت الكشافات إلى جوانب الجسر تفحصه فحصاً دقيقاً بحماسـة لا مزيد عليها. والحق يقال، إنَّ مفرزة قوية للعدو كانت

علـى الطّريـق، لا تبعد أكثر من مئة متر عن مواقفنا، فلـم أتمالك من الضّحك في كمّي لهذا التقارب الغريب.

فعـرض نوري السّـعيد أن نحـاول هجوماً صادقـاً دفعة واحدة دفعـة واحدة. وكان لدينـا قنابل كافية وذخائر تضمـن لنا النّجاح. فضلاً عن مزايا هجومنا المفاجئ وعددنا الفائق. إذن سـيلعب الطّالع بين الفريقين سـواء بسواء إلى أن يسـعد أحدهما. غير أين كنت أقدر الخسـارة إزاء الرّبح فوجدت أن الخسـارة سـتكون جسـيمة. ولا يخفى أنَّ الحـروب توجب التضحية، وأنَّ المعـارك تكلف أرواحاً وذخائر تفـوق قيمة النّتيجة. إلّا أنّي لم أشـأ أن أتبع القواعد القديمة. ولقد كنت فخوراً في داخلي رغماً من دفاعي عن نظريتي بأولئك الرّفاق المستعدين دائماً إلى كل تضحية. وكان اعتراضي قوياً بقدر حماسـتهم. ولقد قطعنا خيوط دمشـق ـ فلسـطين مرتين متواليتين في هذا النّهار نفسـه وأرغمنا العدو على إرسال حامية عقولة. فكان توفيقنا هذا فائدة ثالثة لـ «آلِنْبي» وشرفاً عظيماً لنا، لأنا قمنا بتعهداتنا باحتدام لم يكن يحلم به أحد.

وأقرني نوري السّعيد على رأيي بعد تبحّر قليل فاعتذرنا للشّيخ الشّاب الذي جازف لأجلنا بشـمم ونبل ومررنا على جيشـنا فدعونا رجاله إلى الانسـحاب في سكون تام. وجلسـنا وبنادقنا في أيدينا. وكانت بندقيتي موسـومة بأحرف ذهبيـة وعليها كلمة «لِيْه أنفيلْد» وهي من أسلاب الدّردنيل كان قد أهداها أنور إلى فيصل منذ بضع سني.

وكان الليـل إلـى هذا الوقت قاسـياً علينا حرجـاً. ولما انتهت مهمتنـا غالبتنا الرّغبة إلـى إيقـاظ هؤلاء الألمـان المزعجيـن. وكان بإمكاننـا أن نقذفهم قذفةً ناريـةً، ونبلبل معسـكرهم. فيُخرج الهَـوَس بعض الجنـود المغالين في النّظـام ويمزقون برصاصهم تلـك المنحـدرات الهابطة إلى الوادي الخالية حديثاً من النّاس ويقلقون سـكون الليل ويضيئـون ضبابـه الكثيف. وقد خطرت هـذه الفكرة أيضاً ببال ناصر ونوري السّـعيد، فقذفناهـا طيشـاً ولـم نلبـث أن خجلنا مـن بعضنا لهذا العمـل السّـخيف وتعاونا على الانسحاب ونجونا.

***

الفصل الثّاني والثّلاثون
الصراع في الأعلى والأسفل

ووصل باقي جيوش نوري السّعيد ومدافع پيزاني الأخرى إلى تل عرار في الصّباح. وبعثنا رسولاً إلى «جويس» نعلنه بأننا سنعود غداً إلى الجنوب بطريق «نصيب» كي نتم الإحاطة بدرعا. وعرضت عليه أن يعود إلى التّايهة، وينتظرنا هناك لأنَّ هذا المورد الغزير الماء المعشوشب بالكلأ والذي هو على مسافة متساوية بين درعا وجبل الدّروز وصحراء الرّوَلّه كان على ما ظهر لنا أبدع موقع لاتصالنا ببعضنا وحيث يمكننا انتظار أخبار آلِنْبي براحة وهناء. والقوة التي تقيم في «التّايهة» تفصل الجيش التُّركي المرابط على ضفة الأردن اليسرى عن دمشق التي هي هدفنا الأسمى ثم إننا نكون في موقف بديع يسمح لنا بتجديد تخريب الخط الحديدي الكبير كلما حاول العدو إصلاحه.

وقد أُرغمنا على الصّبر واستعادة الشّجاعة إزاء نهار كامل في الإجهاد والنّصب، ودعونا الجيش ليعبر محطة مزيريب فسار عصابة شاسعة من غير نظام. وانطفأت آخر شعلة في حرائقنا وأخذ المكان شكلاً موحشاً مفجعاً. ووضعت مع «يونغ» ألغاماً أخرى على الخط، بينما الرّجال يتقدموننا ويبتعدون عنا على أرض غير مستوية، ووجهتهم «الرَّمْثا» حيث يتوارون عن أنظار درعا، وتل شهاب معاً، فسمعنا أزيز طائرات تركية تحوم فوق رؤوسنا وتحاول أن تكشفنا. فأسرعنا لإرجاع القرويين إلى قراهم في طريق مزيريب. وعلم الطّيارون بأننا كنا كثيري العدد نبلغ الثّمانية أو التسعة آلاف رجل بوجه التقريب، وأن دوراننا يدل على انتشارنا في مختلف الجهات. وهدمت قنبلة المدفع الفرنسي برج الماء في محطة مزيريب فأحدثت دوياً عظيماً في الوقت الذي كان فيه

الألمـان ينتقلون من تل شـهاب إلى درعـا، فالتاع الألمان المحرومـون من الهناء لهذا الانفجار الغريب وقضوا القسم الثّاني من النّهار على حذر شديد. وكنا في ذلك الوقت نسـير من غير توقف وجهتنا نصيب، وبلغنا قمّة الجبل السّاعة الرّابعة، فاستراح المشاة الرّاكبون قليلاً واصطفت المدافع والرّشّاشـات على أول عرف من أعراف المرتفعات حيث تنحدر الأرض انحداراً متقطعاً بالحفر والفجوات حتى المحطة.

وطلبنـا من رجال المدفعية أن يصوبوا النّار بتـؤدة على بنايات المحطة التي هي منا على بعد ألفي متر فسدد رماة بيزاني مراميهم فلم يمرّ وقت يسير حتى ظهرت الفجوات الواسعة في جميع جدران البنايات وسطوحها ثم حولنا المدافع إلى شمالنا كي نكتسح الخنادق إلّا أنَّ هذه الخنادق أطلقت علينا بدورها مدافعها بحماسـة شـديدة، ولحسن الحظ كان رجالنا محصنين والشّمس وراءهم لا تبهر أبصارهم فلم يجرح منا أحد، ولا من أعدائنا. وعلى كل حال، لم تكن تلك المناوشـة سـوى ألعوبة، والمحطة نفسها لم تكـن من أغراضنـا، إلّا أنَّ همنا كان محصوراتً في الجسـر الكبير غربي القرية، وكان الجبـل تحـت أقدامنا يمتد كأنَّه كَفَل فرس متجمع ثم ينحـدر رويداً رويداً بعد أن يدور دورانـاً طويلاً ثـم ينتهي إلى هذا النّموذج وكان أحد سـفحيه جرفاً لـوادٍ يمرّ فيه الخط الحديدي ويبلغ الجسر المعهود.

وعلى السّـفح الآخر ترتفع البلـدة مواجهة حيث أقام التُّرك موقعـاً للخفراء في العقيق. وسـكن باقـي المفرزة في البلدة نفسـها فـي حِمى جدرانهـا. فصوّبنا مدفَعَيْ بيزاني وسـت رشّاشات على الاستحكام الضّئيل المدفون في الأعماق راجين أن نطرد المحتلين، ونعمل في البلدة نار خمسة رشّاشات أخرى. فلا تمر ربع ساعة حتى يتراكض إلينا وجوهها وذوو النّفـوذ فيهـا. وكان نـوري قـد وعدهم بالكف عـن إطلاق النّار على شـرط واحـد وهو أن يطـردوا مـن منازلهم كل جنـدي تركي. فبروا بوعدهـم، وهكذا انعزلت المحطة والجسـر عزلاً تاماً. وأصبحت بنايات المحطة هدفاً لخمسة وعشرين من رشّاشاتنا ترد ببراعة مدافع التُّـرك الحامية الكثيرة الذّخائر ثم دخلت مدافع بيزاني المعمعة وألقت بعض قنابل قلقلت الحامية التُّركية من مكانها وتسلل رجالها وراء الخط لناحية الجسر.

وكان يبلغ علو هذا السّند عشرين قدماً فلو شاء الحارس أن يدافع عن الجسر محتمياً بدعائمه لكان موقفه حرجاً، إلّا أننا قدرنا بأن مواقع الرّفاق في بنايات المحطة ستجذب رجال الحرس إليها. فسلمت متفجرات لنصف رجال حرسي الخاص فتسلّلوا على طول عرف الجبل المرصوص برشّاشاتنا ثم تقدموا من الاستحكام على مسافة رمية حجر.

وطلع الليل فخماً على آخر أشعة ذهبية تودع النّهار. فكان ساجياً، عذباً فائق الوصف على نقيض مدافعنا التي لا تهدأ نارها. وتلكّأ النّور في انحداره على رؤوس التلال وأعراف الجبال وبرزت نواتئ الطّبيعة تحت أشعة الشّمس المنحرفة وانكشفت دقائقها الغريبة الوضع بين النّور والظّلال الزّاحفة. ثم هبطت الشّمس وراء الأفق في المَهْمَه البعيد. واكمَدت القمم وتحولت رؤوسها ألماساً أسود يمتص آخر لمعان ترسله الشّمس الهاربة.

وقد هجر الحرس الاستحكام. فترجلنا وأومأنا إلى نوري ليكف عن الضّرب وهبطنا تحت الحنايا في سكون الغَسَقَ فلم نلاقِ جندياً قط.

فأسرعنا في حشو فجوات الجسر السّميك البنيان وعرض جدرانه خمس أقدام وعلوها خمس وعشرون تقريباً. لقد كان جسراً جميلاً حقاً. وكان آخر التسع والسّبعين ضحية التي حطمتُها. وسيكون تخريبه عملاً حربياً نحيا تحت رحمته في «التّايهة» منتظرين قدوم آلِنبي ليطلق سراحنا. ولذلك صممت بأن لا أترك منه حجراً على حجر.

وتقدم نوري بالمدفعية والمشاة والرّشّاشات في ظلمة الليل إلى الخط الحديدي وابتعد عنه ميلاً وأعاد تنظيم قافلته منتظراً أوامر جديدة، وكان اجتياز حملة كهذه لخطٍ واحد مملاً فكنا نمزح تحت الجسر والثّقاب بين أصابعنا لنُشعل الذبال لأول حركة تبدو من ناحية العدو. رغماً من قرب رجال حملتنا منه. إلّا أنَّ حسن الطّالع كان رائدنا فعبر نوري ورجاله ومهماته في ظرف ساعة واحدة. ثم أبدى إشارة فانتظرت نصف دقيقة. وثقبت النّار وأسرعت فعثرت في الاستحكام التُّركي وانفجرت ثمانون ليبرة دفعة واحدة فزلزلت الأرض زلزالها وتطايرت الحجارة من كلِّ ناحيةٍ وزمجرت

المفجرات في الجو، وكنت منبطحاً على بعد عشرين متراً فشعرت برجة عنيفة. ولا بدَّ أن يكون قد سُمع صوت الانفجار إلى منتصف طريق دمشق.

فقلق نوري وأسرع للتفتيش عليَّ وأمر بإطلاق المدافع قبل أن يعلم بأنَّ فرقة مشاة لم تصل بعد. إلّا أنَّ رجالي لحسن الحظ كانوا يلتهبون غيرة وحماسةً. فقاد طلال الحريديني الرّجال إلى القمّة وبقيت مع نوري في تلك الفجوة التي كانت منذ هنيهة جسراً. وكنا نحمل فانوساً كهربائياً فأضأنا لهم. ولم تمر ساعة حتى ظهر محمود وهو يقود الفرقة الضّائعة. فأطلقنا بعض عيارات نارية لننبه باقي الرّجال الذين انتثروا في كل جهة للتفتيش على الضّائعين، وتقدمنا في العراء ثلاثة أميال لجهة «التّايهة». وصارت الأرض منحدرة صعبة المسالك، ذات حجارة جيرية.

فتوقفنا منتظرين الحملة واسترحنا راحة نستحقها.

ويظهر أني وناصراً قد فقدنا عادة النّوم، وقد دلت علينا الانفجارات في «نصيب» والحرائق في «مزيريب» فما كدنا نحط الرّحال ونستلقي حتى توافد علينا الرّجال من ثلاث جهات مختلفة جماعات جماعات. وراجت الأراجيف عنا بأننا سنغزو غزوتنا ونعود من حيث أتينا كما فعل البريطانيون في السَّلط ونترك أصحابنا وأهل البلاد ليسددوا الحساب مع الأتراك.

وانقضى الليل على هذه الوتيرة متقطعاً بقدوم الوفود الجديدة يدورون حول المعسكر وينادون بأعلى أصواتهم بأنهم أرواح تائهة قدمت إلينا وتريل أفواههم على أيدينا التي يستولون عليها حسب عادة القرويين ويعتبروننا أكبر ساداتهم وهم أصغر خدمنا. وربما لمن نستقبلهم استقبالاً حسناً كما كانت عادتنا الطّيبة لاستقبال الأصحاب. إلّا أنَّهم قد انتقموا منا وحرمونا النّوم بأحاديثهم وتطوافهم، وكنا قد جاهدنا ثلاثة أيام بلياليها جهود الجبابرة، والآن ونحن على عتبة الرّاحة والسّكون لا نقوى على قضاء ليلة رابعة في المجاملات المملة لاكتساب أصدقاء.

وقد تقلقلت نفسيتهم فكان شعورنا نحوهم سيئاً، وتنحى بنا ناصر ناحية وأفهمني

بأنــه علــى مقربة منــا توجد بُؤَرٌ نشــك في إخلاصها لنا. فأرسـلت قرويين من حرسـي الخاص ليمتزجوا بالفلاحين ويتسـقطوا الأخبار. فعـادوا وأفهمونا بأنَّ الحذر منا آخذ مآخـذه في طيّبه وأنهم رأوا سـيارات «جويـس» المصفحة تتراجع أمس عند المسـاء، فخافـوا ـ ولا غرابـة في خوفهم ـ أن يكونوا هدفاً لانتقام التُّرك بعد انسـحابنا، فدعوت «عزيزاً» وذهبنا تواً إلى «طيّبة» على أرض وعرة لا سُبُل فيها.

ونحن نمشـي علـى الأمعز الصّـوّان. وكان المجمـع منعقداً في كـوخ العميد ومنه تصـدر المفاسـد وتفـرق علـى قصادنـا. وهبطنـا عليهـم فجأة دون سـابق علـم وهم يتناقشـون في مَنْ يكون رسول السّـلام إلى التُّرك يطلبون رحمتهم ويستمدّون عونهم. فأخذهـم الانبغـاث لهذا النّزول غير المنتظر. فتبادلنا الحديث مدة سـاعة عن الأشـياء والأشـخاص وثمن الحيوانات والعلف والحصاد والدّجاج. وشربنا القهوة وعدنا من حيث أتينا وعقدوا المجمع بعد خروجنا باحتدام أشد، لأنَّ أفكارهم قد تقلقلت ودبَّ فيهـا شـيطان التردد، وأخذوا يسـتروحون الهـواء الطّيب فلم يعثروا علـى النّاحية التي يهـب منهـا. ولم يبعثوا برسـول إلى العدو. وعنـد الصّباح أمطرناهم وابـلاً من القنابل لعنادهم وتآمرهم علينا!...

وعدنـا عند الفجر وتمددنا ولعلنا ننعم «بغفوة الإصباح بعد تهجُّدِ». وما كدنا نطبق أجفاننا حتى سـمعنا جرجمة قطار يسير على الخط، وفوجئنا بقنبلة انفجرت في قلب معسكرنا السّاكن النّائم... وكان القطار مصفحاً مجهزاً بالمدافع. فلو أني كنت وحدي مفـرداً في ذلك المكان لجازفـت بحياتي حباً بإطالة غَفْوتي العذبـة التي كنت أنعم بها وتركتني هدفاً للعدو. إلّا أنَّ الجيش قد غفا سـت سـاعات فنهض مذعوراً وكان هربنا مـرّاً مرعبـاً، وكانت ثالثـة الأثافي طائرة استكشـاف تحوم فوقنا وترشـد القطـار إلينا. فتكاثرت القنابل في طريقنا فأسـرعنا في السّـير وتشتتنا شر مشتت، ثم ظهر بأن الطّائرة تـدور وتحـاول النّزول إلى الأرض، وسـقطت قنبلـة صائبة فقتلت جمليـن فَقَدَ بعدها العدو الضّبط وحسـن الرّماية. وألقى قدر خمسـين قنبلة على غير جدوى حتى تباعدنا عن متناولها.. فحول «طيّبه» إذاً كان عقابنا!.

وصحا «جويس» في «التّايهة» على صدى صوت القنابل وأسرع إلى نجدتنا، وكانت الخرائب وراء جسمه العملاق تموج بين عصائب من البشر غريبة الأشكال مختلفة الألوان انتقوها من كل قرية ومن كل قبيلة في حوران. وهم قادمون إلينا ليقدموا لنا لشكر والنّجدة ولو بالكلام.

فتركت هذه الجموع لناصر، فتملّكه الملل والتّعب وغضب لهذه الهدية.

وسافرت مع «جويس» و«ونترتون». وأخبرتهم بهبوط الطّائرات التُّركية وعرضت أن تُرسل سيارة مصفحة للتفتيش عليها. وظهرت في هذه اللحظة طائرتان وطارتا مكان زميلتهما.

غير أن فطورنا ـ الفطور الأول لنا منذ أيام طويلة ـ كان جاهزاً فجلسنا حوله وآنسنا به بينما يروي لنا «جويس» بأنَّ رجال «طيّبة» قد رموه بالرّصاص عند مروره في هذا المكان مظهرين ما يكنونه للأجنبي الذي يلقى الاضطراب في وكر التُّرك ثم نجوا بنفوسهم.

وطلبنا بعد الفطور سيارة مأجورة كي نرقب مطار العدو. فتقدم إليَّ جميع السّواقين بغيرة صامتة فتأثرت لهذه التلبية السّريعة وخنقتني العبرة. فانتقى «جويس» سيارتين لي «ولجونور» وطفنا خمسة أميال في ذلك الوادي الذي ظهر أن الطّائرتين ستنزلان عليه.

فأوقفنا السّيارتين ومشينا على الأقدام قدر المستطاع، وكان هذا الوادي ينفرج بعد التوائه على مسافة ميلين من الخط كالحقل المنبسط، وفي الجهة المقابلة تجثم الطّائرتان. فالنّتيجة إذاً بديعة! فانقضينا إلى الأمام. إلّا أنَّ خندقاً عميقاً ذا حافتين عموديتين تصدى لنا وكان اجتيازه مستحيلاً، فحاذينا ذلك الخندق مسافة ألف ومئتي متر بصبر وجلد، وما كدنا نتوقف حتى طارت الطّائرتان فرميناهما مسترشدين بالغبار الذي أثارتاه وراءهما لكنهما كانتا قد ارتفعتا في الجو فوق رؤوسنا وتهادنا قليلاً.

أما الثّالثة فقد حرنت ولم تشأ أن تذهب لأمر قائدها. وحاول السّائق والمرشد أن يديرا المروحة فلم يفلحا وأبصرانا فسقطا في الخندق فأطلقنا النّار وعطّلنا آلة الرّماية

فتحطمت وتفتت. ثم أرسلنا ألفاً وخمسمئة رصاصة وانصرفنا. وعند المساء أضرموا النّار في الطّائرة الحرِدة.

أما لطائرتان الأخريان فقد بلغتا «درعا» وللأسف، رجعنا إلينا محتدمتين أشد احتدام. أما الأولى فقد كانت بلهاء بليدة وقد أرسلت خمساً من قنابلها من علو شاهق فسقطت بعيداً، وأما الثّالثة فقد أسفَّت وكانت تلقي القنابل بتؤدة وروية. فتابعنا سيرنا بهدوء ولم يكن لدينا ملجأ نلتجئ إليه سوى بعض الصّخور. وكنا نشعر كأننا نُزَجُّ في علبة من السّردين كلما ضيق علينا لطياران وقربا منا. وسقطت قنبلة حطمت صندوق المحرك تحطيماً، ولم يتعطل المحرك، وقنبلة ثانية فجّرت الدّولاب الأمامي، إلّا أني سلمنا من خطر جنوح السّيّارة.

وبلغنا «التّايهة» سالمين، وتمكنا من الإشارة إلى نجاحنا في تقريرنا الذي قدمناه لـ «جويس» وقد أرينا التُّرك عدم الفائدة من هذا لمطار وأن «درعا» معرّضة دائماً لغزوات السّيارات، ثم نمت عند الظّهيرة نوماً عميقاً في ظل إحدى المركبات. وكان عرب الصّحراء يرودون من حولي وطائرات العدو تقذف قنابلها علينا إلّا أنّها لم تكن لتقلقل سلامي الدّاخلي، إن المرء في صدمات الحوادث وفوران الدّم في حومة الوغى لا يشعر بالتّعب. أما اليوم فقد ختمنا غزوتنا بنجاح، والنّوم لا بد منه لأجل ذاكرتي المثقلة بالأعمال العظيمة التي تنتظرني. وتمددت حسب عادتي وتلقاني النّعاس فلم أستيقظ إلّا وقد أدبر النّهار أو كاد.

* * *

الفصل الثّالث والثّلاثون

سلاح الجو الملكي ينجدنا

ومن إصالة الرّأي في خططنا هو أن لبث في «التّايهة» نرقب منها الثّلاثة خطوط المتصلة بدرعا. وإذا ثبتت فيها عشرة أيام نخنق العدو من هذه الجهة كما يفعل آلِنْبي كذلك من ناحيته. إلّا أنَّ موقع «التّايهة» خطر علينا إذا نظرنا للأصول الفنية. فمن المستحيل على فريق ضئيل من النّظاميين العرب أن يثبتوا مطمئنين دون مناوشات تسترهم. وهذا ما نفتقر إليه قريباً ما زالت قوتنا الجوية معدومة فاضحة.

إلّا أنَّ التُّرك كانوا يملكون تسع طائرات على أقل تقدير. ونحن على اثني عشر ميلاً من محطتهم في قلب الصّحراء وعلى أرض مكشوفة تماماً على مقربة من مورد ماء واحد وعندنا من الجمال والخيال عدد عظيم يرعى حولنا. ولقد تقلقل الرّجال غير النّظاميين لأول هجوم من ناحية الأتراك ولأول قنبلة انفجرت بينهم. وأولئك الرّجال هم عيوننا وآذاننا. وسيتشتَّت أولئك العرب ليعودوا إلى خيامهم ويصبح مقامنا في «التّايهة» عبثاً لا فائدة فيه، ثم إن أول قرية تسترنا من ناحية درعا ليس لها مُدافع يدافع عنها وقد أصبحت تحيا حياة هلع من جراء هجوم التُّرك المتواصل. فإذا كنا نبغي المُقام في «التّايهة» وجب علينا أنّ ندافع عن «الطَّيْبة».

وكانت مهمتنا الأولى بالطّبع طلب قوة جوية من آلِنْبي. وموعدنا معه غداً لإرسال طائرة تحمل إلينا أخباره. فصمّمت أن أركب إليه مستصرخاً وأعود يوم 22 منه. فلعلَّ «التّايهة» تصمد إلى هذا الوقت.

ويمكننا نحن أن نلجأ دائماً إلى الخديعة مع العدو فننتقل إلى «أم سراب» البلدة القريبة ذات الخرائب الرّومانية.

ولا فرق عندنا بين التّايهة وأم سراب، إلّا أنه يجب علينا أن نحتفظ بقوتنا المعنوية إلى حين البدء بهجومنا النّهائي وقد قفلت درعا بوجوهنا مؤقتاً لعدم ثقة القرويين المحيطين بها وشكهم في نجاحنا. إلّا أنَّ الخط الحجازي هو أمامنا. وقد أصلح الجسر في كيلو متر 149 فعلينا إذاً إعادة تخريبه مع جسر آخر إلى الجنوب كي نمنع وصول قطار التصليح، وقد حاول «ونترتون» في تلك الليلة أن يقوم بعمل حاسم فعلم أن هدم الجسر الأول لا يتم إلّا بالرّجال والمدافع. وأما الجسر الثّاني فبمفرزةٍ خاصَّةٍ مُدبَّرة.

فعرضت على «جويس» إذاً بأنَّ هذا يعيد المصريين والغورخا إلى العَقَبة ويعيرني سيارة مصفحة فأرافقهم إلى خط السّكة الحديد التي هي مرحلتهم الأولى، فربما حاولت القيام بعمل مفيد على هذا لخط. وقمنا إلى «ناصر» و«نوري السّعيد» لنطلعهما على رحلتنا وعلى عودتنا يوم 22 سبتمبر مصحوبين بطائرات حربية يمكنها أن تقتنص لنا طائرات تركية. ومتى عدنا إلى «التّايهة» يمكننا أن نعوَّض الخسارة التي قد يكون ألحقها بنا لعدو. ويكون «جويس» قد مهَّد لنا أرضاً هنا وفي أم سراب لنزول طائراتنا العتيدة.

وحدث التخريب عند منتصف الليل بارتباك لا مزيد عليه. واتجهنا عند بزوغ الفجر إلى وادٍ مكشوف على بعد ثلاثة أميال من الخط الحديدي. وخشيت من متاعب تخلق لنا في محطة «المفرق» فتبع «جونور» سيارتي المصفحة وهو في سيارة فورد، وكنت أرقب النّواحي وأهتم بكل حركة معادية، وكان على المصريين أن يتقدّموا إلى الخط ويخرَّبوه.

وقد ضللت الطّريق وقضينا ثلاث ساعات في تيه من الوديان دون أن أعثر على الخط الحديدي، ولا على المصريين، ولا على مكان بداية رحلتنا! إلى أن أبصرنا نوراً فتقدمنا إليه وإذا بنا أمام محطة «المفرق». فتراجعنا محاذين الخط فسمعنا صفير

قاطرة. وإذا بقطار يقوم من المحطة متجهاً نحو الشّمال. فتبعته سياراتنا على ضوء مصابيحه المتقطع لعلها تبلغه. وبينما كنا نحاول عبثاً اللحاق به سمعنا انفجاراً هائلاً أمامه، فكانت متفجرات پيك Peake قد فعلت فعلها.

ومرَّ بنا رجال هاربون وهم يركضون مطاياهم خبباً ووجهتهم الجنوب. فأتبعناهم ببعض رصاصات، ولم يلبث القطار الكشاف أن عاد مهرولاً لينجو من خطر پيك، فتتبعناه مقابلين شاحناته نرسل إليها شواظاً من مدافع «ڤيكرز» وكان «جونور» من ناحيته يكتسحها بقنابل «لويس» المضيئة، وسمعنا الأتراك يهدرون وجلاً والتياعاً من هذا الهجوم المشع.

ويخفي صياحهم صدى أصوات مقذوفاتنا وجرجمة القطار المسرع. إلّا أنهم قد أطلقوا علينا من كل ناحية على غير هدى. وشعرنا فجأة بصدمة قنبلة قوية عطلت المحرك وتوقفت سياراتنا. لأنَّ القنبلة خرقت طرف حوض الزّيت، القسم الوحيد الذي لم يكن مصفحاً. فقضينا ساعة كاملة لسد الثّقب الذي اندفع منه البنزين.

وتابعنا على الخط الحديدي وكان ساجياً صامتاً، قضبانه ملتوية التواء الثّعبان وقناطره مندكه دكاً، إلّا أنَّنا لم نعثر على أصدقائنا. فتباعدنا ميلاً عن الخط ونمت ثلاث ساعات إلى أن بزغ الفجر فاستيقظت مرتاحاً واهتديت إلى الطّريق، ولا شك بأنَّ الليالي الخمس التي قضيتها ساهراً قد أطفأت نور الذاكره من دماغي. فتقدمنا إلى الأمام وسبقنا المصريين والغورخا ودخلنا الأزرق بعد الظّهر فكان «فيصل» و«نوري الشّعلان» يتلهفان إلى الأخبار، فشرحنا لهما مفصلاً ـ ما جرى لنا من الحوادث. ثم ذهبت إلى «مارشال» لأعود جرحانا فكانوا أقل مما كنا ننتظر وسهل عليه إعطائي محفة لأنام عليها بدلاً من السّرير.

ووصل «جويس» فجأة عند الصّباح معتقداً بأنه من الواجب عليه أن يغتنم فرصة الهدنة السّريعة ليقوم إلى «أبا اللِّسن» ويعاون زيداً وجعفراً المشتبكين في معان وأن يتقدم مع «هورنبي» إلى قلب بني صخر. وبعد طول الانتظار وصل الطّيار من فلسطين ناقلاً إلينا الأخبار. وشرح لنا انتصار آلنبي المدهش. فقد اخترق جنودنا جبهة الأتراك

وتعقبوهم وكبدوهم خسارة فادحة. وتغير وجه الحرب وتبدَّل اتجاهها. فأطلعنا فيصلا على شيء من هذه الأخبار سراعاً وأضفنا إلى ذلك بعض مشورات للقيام بعمل تتمكن الثّورة بواسطته أن تغتنم هذه الفرصة الفريدة وتستفيد استفادة محسوسة، ولم تمض ساعة حتى كنت على أرض فلسطين.

سمحت لي قوة الطّيران في الرّملة بسيارة أوصلتني إلى المعسكر العام وقابلت بطلنا الحربي العظيم فكان ساكناً رزيناً لا تظهر على ملامحه علامة التأثر إلّا أنَّ شعاعاً خفيفاً من النّور ينبُعث من حدقتيه عندما يركض إليه «بولز» كل ربع ساعة ويبشره بنجاح جديد. وكان الجنرال منتظراً هذه النّتيجة قبل الموقعة، وكانت دقة خططه تجعله أميناً من النّصر فكان يستقبل أنباءه بهدوء وجلال. إلّا أنَّ الإنسان مهما كان عظيماً لا يقوى على ضبط عواطفه عندما يرى أن أوامره تنفذ بالدّقة في ميدان حرب شاسع وتأتي بالغرض المطلوب. ولقد كان هذا لنصر نتيجة بعد نظره في الأمور واتساع مداركه في تسيير الجيوش على مبادئ تفكيره البعيدة عن القواعد الفنية الموروثة. وضرب صفحاً عن النّمط الإداري القديم. فتمكن بذلك من إجراء ما يدركه تفكيره ومنطقه، ومن الفوز دائماً في كل مهمّة من مهامه الأدبية والمادية أو السّياسية أو العسكرية.

ولخص آلِنْبي مقاصده. وأفهمني بأن فلسطين التاريخية أصبحت ملكه والترك المقطعو الأوصال المشتتون في الجبال يعتقدون بأن المطاردة قد جهزوا ثلاث حملات جديدة. الأولى يقوم بها جنود «نيوزيلندا» تحت إمرة «شايتور» Chaytor وينتشرون على الأردن ضدَّ عمان. والثّانية الفرقة الهندية بقيادة «بارو» Barrow التي تقوم من هذا الوادي وتتجه إلى درعا. وأما الثّالثة فهي فرقة الاستراليين يقودها «شوڤيل»، والتي تخرج من الأردن إلى القنيطرة، وسيتوقف «شايتور» في عمان. أما «بارو» و«شوڤيل» فإنهما بعد أن يبلغا هدفهما يزحفان معاً إلى دمشق. فكان علينا نحن إذن أن نعضد كلا الفريقين وأن أنزع عني فكرة الاستئثار الوقح بدخولي دمشق قبلَ الجميع! وأن أنتظر إلى أن نلتقي ونسير معاً إلى ضالتنا عاصمة بني أمية.

وشرحت خططي لآلِنْبي وأفهمته بأن ضعف قوتنا الجوية يخيب آمالنا فضغط

على زر الجرس فظهر لديه «سالموند ونورتون» فتباحثنا في الموضوع، وكانت مهمّة طائرتيهما محدودة لدى آلِنْبي وقد انتهينا منها، فما أ عجب هذا الرّجل ! قائدنا العظيم! لقد كان يوفق إلى تحريك كل قوة لديه مشاة كانت أو فرساناً مدفعية أو سلاح طيران بحرية أو سيارات مصفحة، ولا تفوته الخِدع الحربية والتنكر والفرق غير النّظامية.

فقلت لهما فوراً: «لم يبق أتراك في السّماء إلاّ من ناحيتنا» فأجابني سالموند: «حسناً»، ووعدنا بطائرتين «بريستول» للتّايهة تلازماننا إلى أن أستغني عنهما.. ثم سألني: «وهل عندكم عدد بدل.. وزيت» فأجبته: «كلا ولا نقطة واحدة» فقال: «وكيف يمكننا أن نحصل عليه»، قلت: «بطريق الجو» فقال متهكماً: لم نسمع قط بواحدة محاربة لا يمكنها أن تحصل على الزّيت بغير طريق الجو. وإلى الآن لم يحدث مثل هذا!».

إلّا أنَّ «سالموند ونورتون» كانا دائماً من محبّي التجديد والمفاجآت. فتداولا في أمر طائرتي د.هـ 9DH- و«هاندلي بايدج». وكان آلِنْبي جالساً إلى جانبهما وهو يبتسم ومتأكد بأنهما سيقومان بما يجب عليهما عمله. وقد كان متصلاً تمام الاتصال بالقوة الجوية، ويعلق عليها أهمية كبرى في حركاته الفنية فكانت على أتم استعداد للطّوارئ، رشيقة لينة عند التنفيذ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجيش سريعة الاندفاع. ألم يكن بفضل سلاح الطّيران الملكي قد تحوَّل ارتداد التُّرك إلى هزيمة، وبفضله تقطعت أوصال مواصلاتهم التلغرافية والتليفونية وحوصرت مركبات نقلهم وتموينهم وتبددت وحدات مشاتهم.

ولم يشترك «سالموند ونورتون» مع آلِنْبي في الأعمال الفنية فحسب بل في الحركات الحربية نفسها، إذ فصلاً إذ فصلا «طولكرم» و«مسعودية» و«جنين» و«العفولة»، الواحدة تلو الأخرى فصلاً تاماً بفضل قوتهما الجوية.

إلّا أنَّ تدخل سلاح الطّيران الملكي كان بديعاً جليل الشّأن حقاً في «بيسان» حيث قدمت القرابين التُّركية المنكودة في ذلك الوادي الذي يجري فيه غدير «جزريل» إلى الأردن. وكان الطّريق الجديد لمرور السّيارات وهو السّبيل الوحيد للفرق التُّركية

المنهزمة الملتاعة يضيق ويزم. وينتهي إلى معبر مبيد بين المهاوي والجلاميد!. فظلت طائراتنا تتناوب أربع ساعات متوالية أفواجاً فوق الفرق المنكودة الملتاعة الهاربةِ عبثاً من القدر المحتوم. وقد أنزلنا من السّماء تسعة أطنان من القنابل الصّغيرة وقنابل اليد. وأطلقنا عليها خمسين ألف رصاصة من سلاح طائراتنا الخفيفة.. ولما تبدد الدّخان عن الوادي كانت القوة التُّركية قد امحت، ولم يكن يرى غير جماعات مشتتة هاربة راكضة تأوي إلى الكهوف والمغاور وشقوق الأرض لتحتمي بها. ولم يسعَ قط رؤساؤهم إلى لم شعثهم، فتقدم فرساننا في اليوم الثّاني، فإذا بتسعين مدفعاً وخمسين مركبة نقل كبيرة وألف مركبة صغيرة بأحمالها تضطجع على الوادي جيشاً كاملاً.!.

ونظر إليَّ رئيس سلاح الطّيران وسألني إذا كان لدينا مكان تنزل عليه «الهاندلي بايدج» Handley-Page مع مهماتها، وكنت قد رأيت يوماً هذه الطّائرة الجبارة في خيمتها، لكني لم أتردد بأن أجبت بالإيجاب واستحسنت بأن يرسل معي خبيراً أقوم به غداً على الطّائرة «بريستول» ويمكنه أن يعود قبل الظّهر وتقوم «الهاندلي بايدج» السّاعة الثّالثة بعد الظّهر، فنهض سالموند، وقال:

«حسناً يا سيدي سنعمل اللازم»، وانصرفت لأفطر.

وكان مركز القيادة العامة مريحاً عذباً، يحوي بيتاً ناعم الهواء مبيَّضاً بالجير ممَّنعاً عن البراغيث لا يسمع حوله سوى حفيف أوراق الشّجر راقصةً على أغصانها في مهبّ الصَّبا. وقد شعرت في داخلي بأنَّه ليس من حسن المنطق ولا من الشّيَمَ الكريمة أن أنعم هنا على الخِوان الأبيض النّاصع وبالقهوة الفائحة الشّذى وبالحراس والخدم. بينما رجالنا في «التّايهة» ينبطحون كالضَّبَبة بين الصّخور ويأكلون الخبز الفطير وهم فم وجل الانتظار لاستقبال الطّائرات التي ستحوم فوقهم وترمي عليهم قنابلها القاتلة، واهتززت لهذه الخواطر اهتزازاً هذه الهبآة من النّور التي تدور بذرّاتها بين الأشجار، وترسم على الأرض رسوماً غريبة. وقد تأملت بعد طول القيام في الصّحراء القاحلة، بأنَّ الزّهور هنا على هذه السّوق الضّئيلة تذبل للإفراط في ريِّها، وأن الأغصان المبرعمة من كل ناحية أصبحت اعتيادية ساذجة لكثرة الإفراط في تناسلها. وكان «كلايتون

ودَدْس وداونـي» فـي غاية الظّـرف، بل كانوا الجـودة بالذات، وتبارى رجـال الطّيران بإكرامـي ولـم تقصّـر القيادة عن تقديـم المآكل والتوصيـات الطّيبة لهـذا الكائن الذي أنهك قواه الجوع والنّصب والصّحراء والسّـهر وتوتّـر الأعصاب. وكان «بارثولوميو» يُعيـد نظره على خارطة حركاته المقبلة ويشـرحها لنا. وكنـت قد تمكنت من هدية إلى العدو في بعض مواطن غابت عنه لأني كنت ضابط اسـتعلاماته. وكانت نظرياته تثبت عقيدتي في الانتصار. ولو أنَّ هذا الانتصار يأتي فجأة من جانب جيشنا الصّغير.

وكان يخيـل إلـيَّ بـأن اختيار أمرٍ من اثنين سـيعرض على العرب: إمـا عَدُّ الانتصار عَمَـلاً فنياً عادياً بين الأعمال العديدة، وإما إنهاء الحرب حالاً بثمن بعض مجاذفات.. لا لأنَّ هـذه المسـألة المعروضـة تحتمل أي تردّد، بـل لأن النّصب يبلـغ بالمرء أحياناً الحـدَّ الأقصـى كما كان شـأني في ذلك الحيـن فيتمحَّل أعذاراً غيـر معقولة لينجو من مواطن الخطر.

وظهـرت على مطـار الأسـتراليين قبل طلـوع النّهار طائرتـان «بريسـتول» و د.هـ. DH-9 ودُعي «روسّ سـميث» Ross Smith مرشـدي القديم ليقود «هاندلي بايدج» Handley-Page الجديـدة الوحيـدة من نوعها فـي القطر المصري والتـي هي حَدَقتا عينيّ سـالموند... ولقـد حكمنا بعد هـذه التضحية بأن رئيس سـلاح الطّيران الملكي طيّـب القلـب. ولـم يكن ليقدّم هذه الآلة العَزيزة على قلبهِ لتقوم بأعمال حقيرة وتحمل أمتعة خسيسـة لولا عطفه الحق علينا. فوصلنا إلى «التّايهة» بسـاعة واحدة. حيث كان الجنود والسّـيارات والعرب الذي سـمعوا أزيز طائراتنا فالتبس عليهم وهربوا من كل ناحيـة. أمـا الجمال فقـد كانت تنعم بالحشـيش الطّيب في المراعـي الخصبة. وما كاد «يونـغ» يتبيَّننا حتى عَرَض إشـارة الهبـوط وأطلق قنابلِ من الدّخـان على ذلك الحقل الأخضر اليانع الذي مهّده بمعاونة نوري السّـعيد. وحلَّق «روس سـميث» بلهفة طولاً وعرضاً فوق المكان المعد لنزوله ودرس عيوبه ثم أسفَّ ونزل قرب السّائقين الجذلين المتحلقين حول فطورهم. وقد رأى «سـميث» بأنَّ الأرض طيبة المناخ لمثل «هاندلي بايـدج» وأطلعنـا «يونغ» علـى القنابل التـي ألقوها ليلـة البارحة وقبلهـا فقتلت بعض

النّظاميين وعدداً من رجال مدفعيتنا. فالتزم «يونغ» بأن يقوم بالجيش إلى أم السّراب، وكان لا يزال أولئك التُّرك البلهاء يلقون القنابل على «التّايهة»، مع أنَّ رجالنا لم يكونوا يأتون إليها لأخذ الماء إلّا في ساعات الحياد أي في وسط النّهار أو في الليل.

وعلمت أيضاً بأفعال «ونترتون» الأخيرة وقد نسف خطاً مرة أخرى. فكانت ليلة مضحكة إذا اتفق والتقى «ونترتون» بجندي مجهول فسلم عليه وأخبره بقدر ما تمكنه اللغة العربية ـ بأنَّ كلَّ شيءٍ قد تم على ما نروم. وصرفه. فهرول الجندي شاركاً المولى الكريم على خلاصه واختفى في الظّلام، ولم يلبث «ونترتون» أن دهمه على الخط الحديدي رشّاش من رشّاشات العدو، إلّا أنه كان قد أنهى مهمته ونفدت متفجراته فعاد سليماً، ولحق بنا «ناصر» وقال: فلان كان جريحاً والآخر قتيلاً وفلان يستعد للالتحاق بنا وذكر لنا أسماء الذين لازموا الجيش والذين رجعوا إلى بيوتهم. وبالاختصار قد أخبرنا عن كل شاردة. إلّا أنَّ الثّلاث الطّائرات المعدنية قد رفعت عن مستوى معنوية أهل البلاد، فتغنى العرب بالثّناء على البريطانيين. وفاخروا بشجاعتهم هم أيضاً وبمقاسات أبناء الصّحراء الأهوال ردعاً على أخباري الحربية التي لا تكاد تصدق عن آلِنْبي ونتيجة فوزه الباهر. ولقد أخذت نابلس وأخذت العفولة. وسقطت بيسان، وسمخ، وحيفا، فسلبت لبهم بهذه الأخبار وكأني حركت فيهم قوة مغناطيسية كامنة. وتملّكت طلال النّخوة والحماسة. وطلب مني الرّوله بصوت صارخ أن نتقدم إلى دمشق. وارتجت المضارب ثقة وجذلاً، وتمكن كل إنسان من نفسه فتحرّكت الهمم وماجت الرّجال. وصمَّمت أن أستقدم «فيصلاً»، و«نوري الشّعلان» ليشاهدا بأم عينيهما الجهاد الأخير.

وحانت ساعة الإفطار وقد تنبأنا عنها برائحة النّقانق، وما كدنا نتحلق حول الطّعام حتى صرخ الرّقيب «طائرة في الأعلى» وكانت قادمة من درعا. فارتمى الأستراليون في مقاعد طائراتهم التي لا تزال محركاتها حامية وانطلقوا في الفضاء كالنّسور الخاطفة، فتسلق «روسّ سميث» Ross Smith طبقات الجو كالهر البرّي وتبعه «پيترز» Peters وأما الثّالث فقد وقف أمام طائرته د.هـ. وينظر إليَّ محدّقاً. فتظاهرت بعدم الإلتفات

إليه وعدم فهمي لمراده. لقد كانت هناك مدافع «لويس» وهبوط فجائي وأتعاب ميكانيكية، وروافع ومرامٍ على أنواعها من سرعة وقيادة حسب اتجاه العدو، كل ذلك لا يهمني ولا أفهم منه سوى النّظريات. إلّا أني أستطيع أن أؤدّي عنها امتحاناً. وهي محفورة في تلافيف دماغي، أما القواعد فهي حبائل لا يتخلص منها المتعلم إلّا إذا خلصت من المخ إلى أيدي المِران!..

وما كنت لأركب متن الطّائرة لهذا المعمعان فأسقط هالكاً. وما علي إذا فقدت احترام هذا الطّيار الوقح.. فإنه أسترالي من نسل أولئك القوم الذين يتهلّلأون لازدياد المخاطر والمجاذفات عليهم، لا عَرَبِي يجب أن أحتفظ بنفوذي عليه.

وكان يحترمني فلم يقوَ على مخاطبتي إلّا أنَّه رماني بشواظ من لحاظه بينما كنا نشاهد الموقعة في السّماء. وكانت للعدو ثلاث طائرات استكشافية من ذوات المقعدين. فاحتدم «روس سميث» ضد أكبرها حجماً. ولم تمرّ خمس دقائق حتى تساقطت نيران الرّشّاشات على الألماني فأسفَّ قرب الخط الحديدي وهوى كالزّوبعة وراء الأكمة فأبصرنا شهباً داكنة تتساقط، ثم غيمة مكمدة ترتفع من مكان سقوطه فصرخ العرب «آه!» صرخة ارتياح وتهليل، ثم عاد «سميث» بعد مرور خَمس دقائق إلى المطار ونزل من طائرته جزلاً وأقسم بأنَّ الجبهة العربية ستكون منذ الآن ميداناً طيب المقام فسيح الجوانب للأعمال الحربية.

وكانت لا تزال النّقانق ساخنة فأكلناها وشربنا الشّاي بعدها (وكانت آخر جرعة لدينا فحفظناها لضيوفنا). وما كدنا نفتك بعنب جبل الدّروز حتى لوَّح لنا الرّقيب بعباءته، وصرخ ثانية: طائرة!.. فقام «بيترز» هذه المرة لينازل خصمه ثم تبعه «روس سميث» أما «ترايل» Traill فلم يتحرّك كأنَّه يحتفظ بذخيرته. وأسرع العدو في الجو بحذر وفطنة بحيث لم يتمكن منه «سميث» إلّا على حدود «عرار» حيث صرع خصمه بعد عراك شديد. وبعد مدة من الزّمن، وعندما ارتدت أمواج الحرب عن هذه الأماكن، عثرنا على حطام الطّائرة وعلى جثتي الألمانيين وقد صارتا حِمَماً.

وكان «روس سميث» يود أن يلازم هذه الجبهة العربية مع عدو يتقدم إليه كل

نصف ساعة، لكنه كان مرغماً على الرّحيل ليأتي بطائرة «هاندلي بايدج» والزّيت والمؤن وقطع الغيار. أما الطّائرة الثّالثة! فإنها ستأخذ طريق الأزرق لتحمل الرّقيب الذي تركناه البارحة. وسافرت لأجتمع بفيصل، وعدنا إلى الأزرق بعد ثلاثين ساعة من تركنا الشّريف، وأرجعت الغورخا Gurkhas والمصريين إلى الوراء لينضمّوا إلى الجيش، ويقوموا بغزوات جديدة على الخط الحديدي، ثم ركبت و«فيصل» و«نوري الشّعلان» سّيارة الـ (ڤوكسهول) الخضراء إلى أم السّراب كي نشاهد نزول الطّائرة الجبارة « هاندلي بايدج».

وكانت سيارتنا المتينة تقطع المراحل على أرض منثورة بالحصى الأملس، وأحياناً على أرض جافة الطّين، إلّا أنَّ الحظ كان يخاصمنا فالتزمنا أن نميل إلى طريق آخر ونصلح بين متخاصمين في معسكر صغير للسّراحين. ولم أضيع من الوقت دقيقة فقد اغتنمت فرصة أخرى وأرسلت الرّجال المسلحين إلى «التّايهة». ورُسُلاً إلى ما وراء الخط أُبشِّرُ بانتصار البريطانيين كي يسدّ البدو المنافذ على الجيوش التُّركية المنهزمة التي تحاول الخلاص نحو الشّمال، والدّفاع عن المسالك التي تخترق جبال «عجلون».

ثم تابعت سيارتنا الإسراع نحو الشّمال، فأبصرنا بدوياً واحداً على بعد أميال من أم السّراب يركض نحو الجنوب وقد أظهر عليه الاضطراب وانتشرت لحيته في الهواء، وانتفش شعر رأسه، وانتفخ قميصه المربوط بحبل على وسطه، وترك طريقه ومال إلينا ورفع ذراعيه المجرودتين وهو يصرخ: «أعظم طائرة في العالم»...! ثم تركنا وأطلق ساقيه للرّيح ليذيع هذه العجيبة في معسكرات البدو.

وكانت «الهاندلي» مستوية بعظمتها على العشب في أم سراب. وكانت طائرات بجانبها كالظِّلمان تحتمي تحت جناحَيْ أُمِّها. وكان العرب ينظرون إلى هذا العملاق بأفواه مشدوهة ويقولون «حقاً إنهم أرسلوا إلينا أعظم طائرة، فإنها كالنّسر بين الزّرازير»، وتغلغلت الإشاعات عن وسائل «فيصل» الحربية العظيمة، في جميع جبل الدّروز وحوران تبشر بالفوز له على أعدائه.

وجاء «نورتون» ذاته على ظهر «هاندلي بايدج» ليشاهد بنفسه مساعدتنا للعرب. وكنا نتحدث بينما كانوا ينزعون منها طناً زيتاً وشحماً وعِدَ تغيير لطائرات «بريستول» وشاياً، وسكراً، ومؤنةً، وأدوية، ثم كتباً وتلغرافات من مكتب روتر. وارتفع الطّائر العظيم في ظلال الغسق ليعود إلى «الرّملة» مارّاً فوق درعا والمفرق وينتهي بطريقه من تخريب وسائل النّقل التي شرعنا فيها.

وكان علينا نحن أيضاً أن نعيد الكرة ونواصل استعمال القطن المشرّب بالبارود. لأنَّ آلنبي قد نصب الجيش التُّركي الرّابع هدفاً لنا. فعلينا أن نطارده بهجوم لا انقطاع له، ونشدد عليه حتى يخرجه «شاينور» Chaynor من عمّان فنتعقبه بقسوة ونلاحقه باطّراد في ارتداده. أما هذا الارتداد فلن يكون إلا ابن ليلة وضحاها، لأننا قد أثرنا ضده جميع العرب القاطنين بين دمشق وبيننا، وقرّر فيصل أن يعضدنا بهجّانة الرّوَلَة لـ «نوري الشّعلان» الذين قدموا من الأزرق. فيتعاظم جيشنا العامل إلى أربعة آلاف رجل ثلاثة أرباعهم من غير النّظاميين إلّا أنّه يمكننا أن نعتمد عليهم، لأنَّ نوري الشّيخ القاسي الصّامت المستهتر كان قابضاً بيده على قبيلته. وكانت تلك اليد من حديد.

وكان نوري يمثل هذا الخلق النّادر في الصّحراء. بدوي لا يعرف الجدل والمنطق. يريد أو لا يريد وليس شيء سوى ذلك. وعندما ينتهي القول من الكلام يصدر إرادته بعبارات قصيرة بسيطة للغاية وينتظر الرّضوخ إلى إرادته والإذعان إلى أمره بهدوء وسكينة. ويستسلمون.. لأنَّ نوري كان يبسط الرّعب في كل مكان.. لقد أصبح الآن شيخاً متهدماً لكنه حكيم. أعني تعباً يائساً. وماكان أشدَّ إعجابي واستغرابي لهاذ الشّيخ الفاني وهو يشاطرنا حماستنا ونشاطنا.

* * *



قصف القوّات الترّكية المنسحبة في وادي الفارعة بفلسطين

عن لوحة للرّسام سيدني كارلين

الفصل الرّابع والثّلاثون

التُّرك يتهاوون

جلست في اليوم الثّاني داخل خيمة ناصر بين القرويين الذين جاءوا للسّلام عليه، واستخلصت أخباراً من أخبارهم الكثيرة الموافقة لمزاجهم الحاد وحسن رغبتهم في خدمتنا. وسار نوري السّعيد في ذلك اليوم الهادئ مع «پيزاني» ومدفعيه و«سترلينغ» و«نترتون» و«يونغ» وسياراتهم المدرّعة يصحبهم جيش من الجنود وخرّبوا ألف متر من الخط جهاراً وحرقوا القالب الخشبي الذي نصبوه ليصلحوا الجسر الذي دمرناه مع «جويس» قبل هجومنا الأول على درعا. وكان نوري الشّعلان يرتدي عباءة سوداء من الجوخ الفاخر فركب في طليعة فرسان الرّوَّلة وسار خبباً كأحسن فارس بينهم. وقد برهنت هذه القبيلة تحت أنظار سيدها عن شجاعة نادرة حتى إن نوري السّعيد شهد لها وأثنى عليها.

وكانت غزوة نوري هذه المرة هي الضّربة القاضية على التُّرك، فلم يصلحوا هذا الخط بعدها قط بين درعا وعمان، إلّا أننا قد جهلنا هذا الأمر وتابعنا التخريب مسافات شاسعة، على هذا الخط المنتشر أمامنا كالشّبح المشؤوم. وتقدمت في اليوم الثّاني عند الفجر في سيارة مع «جميل» و«ونترتون» كي نتفقد الخط جنوب محطة المفرق. فاستقبلتنا الرّشّاشات بحماسة وغزارة لم نلق مثلهما حتى الآن. ـ ولقد أسرنا بعد مدة وجيزة هؤلاء الرّماة الأذكياء الذين كانوا ينتمون إلى وحدة ألمانية لرماة الرّشّاشات ـ وتراجعنا سراعاً عن هذه الوقفة المهلكة صاخبين وانتقمنا لنفوسنا من جسر كان يغرينا. وصممت بأن أقفز قفزة بالسّيارة وأحتمي بالدّعامة وأضع كمية من المتفجرات

كانت مربوطة في مؤخرها فأمرت السّائق بأن يسير سراعاً حتى يبلغ الدّعائم ويحتمي بها. وتبعني «ونترتون» و«جميل» في السّيارة الأخرى المسعفة. فإنَّ «جميل»، وقال: «إنَّه لَحرٌّ لافح»، فأجابه «ونترتون»: «وسيكون لهباً في المكان الذي نقصده». وتابعنا السّير على أرض وعرة وقنابل العدو تتساقط من حولنا. وتوفقنا إلى الوصول على بعد خمسين متراً من سند الخط. فأمطرتنا الرّشّاشات رذاذاً يحتدم على دروع سيارتينا وانقضَّ علينا رجل من الأمام وألقى علينا قنبلة يدوية.

لم نعد نفكر في الوصول إلى الجسر تحت نيران تنقضُّ علينا كصواعق السّماء وخشينا فوق ذلك انفجار المتفجرات المربوطة في المؤخرة وعدم مقاومة الدّروع للقنبلة المشرشرة الجوانب، وتراجعنا مبلبلين حانقين على طرف ضئيل من هذا الخط. إلّا أنَّ دفاع العدو المستميت عن هذا الجُسَير بعد رقاده وغطيطه شهوراً! كان موضوع هزئنا وسخريتنا.

وعلمنا عند عودتنا إلى أم السّراب بأنَّ ناصراً يريد أن يعود فيعسكر ثانية في التّايهة.. فكانت إذن هذه النّقلة أول مرحلة من مراحلنا إلى دمشق. فهللت لهذه الفكرة وسافرنا سعداء معتذرين إلى الحظ الذي أخلفنا بوعدنا معه في تلك الليلة. وتحلقنا وتحادثنا منتظرين قدوم منتصف الليل موعد ضرب «هاندلي بايدج» للمفرق بالقنابل، فبلغت الطّائرة جو «المفرق» في الأجل المضروب تماماً وألقت قنابل زنتها مئة رطل بين خطوط السّقائف المتشابكة، فاضطرمت النّار في الشّاحنات، وتوقفت مرامي العدو عن الضّرب.

واحتدمت النّيران طوال الليل والنّهار وكتبت في الفضاء بحروف من لهب ذوبان التُّرك! فقرأها العرب وأذاعوها في البلاد وأخبر رجالنا بأن الجيش الرّابع قد أخلى عمان وارتدَّ مشتتاً ملتاعاً. وأن بني حسن، الذين قبضوا على المتلكئين والمنهوكين والجماعات الصّغيرة المفصولة قد شبّهوهم بقطعان من النَّوَر.

وتداولنا وقد انتهت مهمتنا من تجاه الجيش الرّابع، وإذا أفلتت بعض مفارز من مخالب العرب فإنها ستصل إلى درعا يائسة عاطلة من السّلاح، فعلينا إذن أن نطارد

التُّرك ونجبرهم على إخلاء درعا سراعاً كي لا يوحدوا قوة من الهاربين اللاجئين إليها فتغدو ساقه قوية لجيش مضعضع مقطع الأوصال، فعرضت أن نتقدم شمالاً ما وراء تل عرار ونعبر الخط الحديدي في غد اليوم الثّاني عند الفجر ونحتلّ «شيخ سعد». تلك البلدة التي عرفناها قبلاً معرفة جيدة وهي ذات مورد ماء غزير ومرقب بديع. تسهَّل لنا ارتداداً أميناً من الشّمال والغرب حتى ومن الجهة الجنوبية الغربية إذا هوجمنا حالاً، فعضدني طلال متحمساً وأقرني على ذلك نوري السّعيد وناصر ونوري الشّعلان. فتأهبنا للرّحيل. إلّا أنَّ السّيارات المصفحة لم تكن تقوى على مرافقتنا. وكان الأفضل أن تبقى في الأزرق فتساعدنا على دخول دمشق. وأنهت طائرات «بريستول» مهمتها بعد أن نظفت السّماء من التُّرك، ويمكنها أن تطير إلى فلسطين وتبلغهم هناك تقدمنا حتى «شيخ سعد»

وبينما كنا ننظر إليها سابحة في الفضاء نحو الجنوب أبصرنا غيمة ربداء من الغبار ممزوجة بدخان حريقة يتصاعد بطيئاً من محطة المفرق وتراجعت طائرة وألقت علينا قصاصة ورق مخربش عليها: بأنَّ مفرزة قوية من الخيالة دارت حول الخط واتجهت نحونا.

فبلبلتنا هذه الورقة كأننا لم نتزين إلا لنقتتل، وكانت السّيارات قد سافرت وكذا الطّائرات، وفرقة المشاة الرّاكبة وبغال پيزاني المحملة تسير بنظام. فركضت لألحق بنوري السّعيد وكان واقفاً مع ناصر على قمّة الجبل وتساءلنا: هل يجب علينا أن نتراجع أم نلزم مكاننا. فترددنا في الأمر. ثم قرّرنا الانسحاب نظراً لموافقة «الشيخ سعد» لتوقفنا وأرسلنا النّظاميين أمامنا.

إلّا أنَّه لم يكن بالإمكان أن ندع الأمور تجري على هواها، وأرجع نوري الشّعلان وطلال خيَّالة الرّوَّلة وحوران إلى الوراء كي يؤجّلوا اللحاق إذا قضت الحال. فالتقوا مصادفة بحليف لهم بسيارة عائدة إلى الأزرق وقد رأت العدو في الطّريق وأفهمتنا بأنه لم يكن يقصدنا وأنه مؤلف من عناصر مختلفة تجمعت وجدَّت في السّير لتبلغ درعا من أقرب السّبل. فأسرنا فأسرنا بعض مئات من العطشى الجائعين واستولينا على كمية

كبيرة من المركبات التي قطَّع الحوذيون سيور خيولها وتركوها في أماكنها ونجوا على الخيول، ونشر الرّعب لواءه على طول الخط وألقى العدو كل مالديه حتى بنادقه وولَّى الأدبار، لا يلوي على شيء، ناشداً درعا التي هي على اعتقاده الملجأ الأمين.

فأخر هذا الحادث إنجاز برنامجنا. ولم نتمكن من تسيير مفرزة ترتدي الكاكي وتجتاز حوران ليلاً مع جيش من الهجّانة النّظاميين، إلاّ إضا تقدمها فرسان من أهل البلاد ليسكِّنوا روع أبناء القرآن ويُفهموهم بأننا لسنا أتراكاً. وتوقفنا عند الأصيل ننتظر طلالاً وناصراً ونوري الشّعلان ليلحقوا بنا.

إلّا أنَّ الظّلام قد خدعهم فجاوزوا الدّرب. ولما تجمعت قواتنا تابعنا السّير شمالاً بين القرى ننشق رائحة الأرض المفلوحة. وهبّت علينا ريح فأصابنا منها دوار، وجزنا أرضاً محصودة بالمنجل أقرب إلى التشذيب منها إلى الحصد. وقد علا شوك العاقول كقامة الولد يابساً وهو لمَّا يخضَرَّ، ويقتلع الصّبَا جذوره اليابسة فتتشابك سُوقُه وتتركّب على بعضها وتهرب في الحقول البائرة ككوم التبن تذروها الرّياح.

وكانت هناك نساء راكبات على حُمُرُهنَّ لِيستقين، فتراكضنَ إلينا وصرخنَ وقلنَ بأنَّ طائرة قد سقطت منذ هنيهَةَ قريباً من هذا المكان وهي تحمل على جناحها حلقات وشارة «الجَمَلَ الشّريفي» فتقدم پيك إلى المكان المعين فوجد رجلين استراليين قد أصابت رصاصة خزَّان ماء طائرتهما بمرورهما فوق درعا. فتهللا لسقوطهما بين أصدقاء. وبعد أن سددنا الثّقب وملأت النّساء خزان «بريستول» ماءً، ركب الطّياران وعادا إلى مقرهما.

وكان الفرسان والهجّانة يتواردون إلينا من كل صوب وينضم إلينا الشّبان العاطلون والمجاذفون من جميع القرى ويتبعوننا على الأقدام ووصلنا عند الظّهيرة إلى حقل مزروع بطيخاً فتساقط الجيش على هذه الوليمة الحلوة بينما نحن نتقدم لنتعرف على خط حديدي مهجور تلمع قضبانه تحت أشعة شمس النّهار المشرقة. وسار قطار على ذلك الخط الذي أصلح في المساء ونحن نشاهده مختبئين. ثم تقدم الجيش ونثر على مسافة ميلين متفجرات كيفما جاءت. ورغماً من وضع تلك المتفجرات من غير فن وبسرعة فائقة فقد أدت مهمتها فوق ما كنا ننتظر منها.

ارتعب العدو وتملكته الدّهشة من هذا الانفجار القريب ولم يبق لدينا أمام هذه الحيرة إلّا أن نتابع القدَر. وعليه تقدمنا إلى نوري الشّعلان وإلى عودة وطلال وطلبنا منهم أن يقوموا بالعمل الذي يحلو لهم والذي يتفق مع وسائلهم فعزم طلال الشّجاع على مهاجمة «إزْرَع» المستودع العظيم للحبوب في الشّمال. وانتقى عودة محطة «خربة الغزالة» المقابلة جنوباً لمحطة أزرع. وأما الشّعلان فسيهتم باحتلال طريق درعا الرّئيسي كي يصدّ كل مفرزة تركية تحاول شنَّ الغارة.

أحلام عَذْبة هزهزت الأبطال الثّلاثة!.. وسار كل إلى تنظيم برنامج غزوته. وتقدمنا نحن بالجيش على الطّريق الذي يمرّ بجهة «مزرعة الشّيخ مسكين» التي تبدو تحت نور القمر موحشة مقفرة. وكانت هناك قنوات مملوءة ماءً وطيناً تحيط بها، فمنعت الألوف من جيوشنا التقدم فتوقفنا في حقل محصود إلى أن طلع الصّباح، وأوقد البعض ناراً ليتقوا برد الضّباب على طين بلاد حوران، واستلقى البعض وناموا على الأرض اللزجة من تساقط النّدى، وتصاعدت أصوات بعض الضّالين ينادون إخوانهم بصوت حَلْقي مرتج وهي صفة صوت العربي القروي. وانحدر القمر وراء الصّحراء وأظلم كوكبنا البارد.

وأيقظت حرسي الخاص ومشينا سراعاً كي نطلع على الشّيخ سعد مع الصّباح، فمررنا بحقل ينتهي إلى الصّخور. وكانت الشّمس تداعب الطّبيعة وتوقظها من سباتها الطّويل وتفضِّضُ أوراق الزّيتون، وتُدفئُ قوماً جالسين أمام خيامهم الكبيرة المنسوجة بشعر الماعز وهم يحيوننا ويدعوننا إلى ضيافتهم.

وعادات مفارزنا الليلية بنصيب كبير لأنَّ عبد القادر الجزائري على رأس رجاله الأخصاء ورجال التُّرك وبعض المتطوعة لم يحسنوا الدّفاع عن «أزرع». لأنه عند ما أطلَّ طلال تراكض هؤلاء الأخيرون وانضموا إليه وفر الجنود وترك عبد القادر وجنوده الموقع دون مدافع فشغل الكسَب الفيَّاض رجالنا وثقلت أحمالهم فلم يهتموا لمطاردة ذلك الخليط من الأحناس المعادية.

ثم ظهر عودة بدوره يختال بفعاله، وقد استولى على خربة الغزالة عنوة وعلى قطار

مهجور وعلى مدافع وعلى مئتي رجل بينهم بعض الألمان. وقدم نوري الشّعلان يسوق أربعمئة أسير أمامه وبغالاً ورشّاشات. فأرسلنا الأسرى التُّرك إلى القرى البعيدة ليكسبوا عيشهم بالاشتغال عند الأهلين الموسرين.

وحوَّمت طائرة إنكليزية فوق رؤوسنا تحاول أن تعرف إذا كنا نحن الجيش العربي أو جيش الأعداء. فعرض «يونغ» شارات على الأرض فرمتنا بألوك تُنبئنا بتسليم بلغاريا. ولم نكن نعلم قط بهجوم في البلقان ولم نهتم لهذا الخبر. وعلى كل حال كنا موقنين لا بدنوّ أجل الحرب العالمية فحسب، بل باحتضار حربنا نحن في البلاد العربية وأن جهادنا الهائل ومحنتنا الكبرى سيزولان ويعود كل منا إلى أعماله الخاصة ناسياً جنونه. وكانت هذه الحرب هي الأولى لكثيرين منا فاعتقدنا بأنَّ نهايتها بداية الرّاحة والسّلام.

وكان قد وصل الجيش فغصَّت حَرجَة الأشجار به وتفرَّقَ جماعات جماعات في أركانها كل على هواه. وحل الفرسان بِطان مطاياهم وأنزلوا عنها أمتعتهم هذا تحت النّخلة وذاك تحت الزّيتونة، فأجفلت العصافير وطارت مزقزقة وقاد رجالنا الحيوانات نحو الغدير المنثني كالثّعبان بين الأشجار المثمرة والحشيش الأخضر الزّاهر. وكان كلُّ شيءٍ جديداً لدى أولئك الجنود المساكين الذين ضلوا سنين في صحراء لا تنبت إلّا حجارة. وحاول سكان «شيخ سعد» الحيُّون المتشوقون لرؤية جيش فيصل أن يتقدموا إلينا. ذلك الجيش الذي كان عندهم حُلماً وأوهاماً فأصبح لديهم حقيقة واضحةً يسعى في قريتهم ويقوده رجال بعيدو الشّهرة يُلقى اسمهم الرّعب في كل مكان، مثل: طلال، وناصر، وعودة، فألقينا عليهم نظرة حسد لاستكانتهم في قراهم المطمئنة الهادئة وحياتهم النّاعمة.

وبينما كان الرّجال يتمطّون على الأرض بعد طول الرّكوب صعدنا وكنا خمسة أو ستة فوق الخرائب لنكشف السّهول الجنوبية. وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما أبصرنا مفرزة ضئيلة من النّظاميين يرتدون الأزياء التُّركية والنّمساوية والألمانية، وثمانية رشّاشات محملة على البغال، وكان أولئك الجنود البائسون قادمين من الجليل

محاولين الوصول إلى دمشق بمشقة بعد انكسار الجيش التُّركي الأخير تجاه قوات آلِنْبي، فقرّرنا أن لا نطاردهم حباً براحة جنودنا. إلّا أنَّ «درزي بن دُغمي» قد ركب متن فرسه بهدوء فتبعه بعض الشّبان من أقاربه وهبط عليهما فجأة، فأراد الضّباط الدّفاع فقتلوا حالاً، وألقى الجنود السّلاح ولم تمر خمس دقائق حتى فُتِّشوا ونُهبوا وأُخذوا أسرى وحُشِروا في بيت له جدران ولا سقف له فكان سجناً مبتكراً فوفَت شيخ سعد دينها بسرعة وفاءً مبرماً.

وظهر في الأُفق ثلاث أو أربع جماعات يتجهون نحو الشّمال، فأرسلنا إليهم بني الحويطات فعاد هؤلاء بعد ساعة فرحين وكل منهم يقود فرساً أو بغلاً، حيوانات بائسة مهشمة مثخنة بالجروح تدل على شقاء أصحابها وعلى هول الصّدمة في فلسطين، وعلى الهرب من أمام البريطانيين. وأنف «بنو تايه» من أن يأسروهم وقال لنا زعل مازحاً طاوياً شفتيه الرّقيقتين: «لقد وكّلنا غلمان القرية وبناتها بشأنهم».

وجاءتنا أخبار من الغرب بأنَّ جماعات من التُّرك ينسلُّون بين القرى لينجو من مطاردة «شوڤيل». فأرسلنا إليهم مفارز «نعيم» الحسنة السّلاح. وكانت هذه القبيلة قد لحقت بنا أمس فطلب منا ناصر أن ندفعها إلى عمل تقوم به قدر المستطاع. وكانت قومة هذه القبيلة كمثل أخواتها الكثيرات نتيجة جهودنا القديمة، فشرعت الأقوام الآن تتوافد علينا من كل فجٍّ عميق وتفصح عن تمرّدها بحماسة مسرعة إلى نجدتنا، ولا يمرُّ يومان حتى يكون لدينا فوق ما عندنا ستة آلاف رجل مسلَّحاً.

وشممنا دخاناً عاقداً وراء الأكمة التي تخفي عنا درعا، ثم أقبل فارس وأخبر طلالاً بأنَّ الألمان قد أضرموا النّار في الطّائرات والمخازن واستعدوا لإخلاء المدينة، وحوّمت طائرة بريطانية ورمتنا بألوكة تنبئنا بها بأن الجيش البريطاني قد بلغ «الرَّمثا» بقيادة «بارو» Barrow وأن فصيلتين قويتين واحدة مؤلفة من أربعة آلاف رجل، والأخرى من ألفين تتقدمان نحونا، ومن الممكن أن تكونا قادمتين من درعا ومزيريب.

وكان يلوح لي بأنَّ هذه السّتة آلاف جنديّ هي البقية الباقية من الجيش الرّابع في درعا وبقية الجيش السّابع الذي كان يقاوم تقدم «بارو» فإذا تمكنا من تشتيته نكون قد

أنهينا مهمتنا في هذه المنطقة. وعلى كل حال لا يمكننا إخلاء «شيخ سعد» إلّا بعد أن نتأكد من عدم وجود عوامل أخرى لهذا الجيش. فتركنا الفرقة القوية تمر. وإلّا أننا أرسلنا في إثرها خالداً ورجال الرّوَلَة وكثيرين من رجال الشّمال لينهكوها ويفتكوا بجناحيها وساقتها. أما الألفا جنديّ الآخرون فقد جابهناهم بنصف رجالنا النّظاميين وبمدفعي پيزاني، لقد قلق «طلال» على بلدته «طفس» التي قرّرنا أن ندحرهم إليها، فألحَّ علينا بأن نعجّل في احتلال الجبل جنوب البلدة، إلّا أنَّه كيف يمكنني أن أسرع مع رجال منهوكي القوى كرجالنا.

فتقدمت مع جيشي نحو «طفس» آملاً أن أحتلّ مكاناً أحتمي به وأحتك بالعدو. ثم أرتد مقاتلاً إلى أن تصل إليَّ النّجدة. والتقينا في الطّريق بعرب يقودون عصابة من الأسرى المسلوبين ويجرونهم بقسوة، وكانت السّياط تترك جلودهم مُعْلَمة كجلد حمار الوحش فلم أتدخل في أمر أولئك الأسرى لأنهم كانوا أتراكاً من رجال شرطة درعا الذين ظلموا واستبدوا وأذرفوا دموعاً كثيرة في تلك القرى المجاورة.

وأخبرنا العرب بأنَّ فرقة حملة مزاريق جمال باشا دخلت «طفس» وما كدنا نطل عليها حتى كان التُّرك قد توقفوا بها وكانت تسمع طلقات نارية بين آونة وأخرى. وترى حرائق هنا وهناك يرتفع دخانها في الفضاء ورجال ونساء وأطفال تائهون غائصون في شوك العاقول إلى الرّكب بحالة تفتت الأكباد. ويروون أخباراً ترقص لها العجائز وترتعد منها الفرائص فكيف لا يرقص لها «طلال» وهي بلدته، وهم عشيرته، وهو بطلها وحامي ذمارها. لقد حرق التُّرك «طَفَساً» وفتكوا بكلّ حي تمكنوا منه».!

لقد شاهدناهم من مكان عال يتجمعون خلف البيت ويسيرون متجهين نحو «مسكين» طليعتهم، وساقتهم الرّماحة يحيطون بخليط من المشاة ورجال المدفعية وعربات لا عدَّ لها بحراسة الرّشّاشات على الجناحين، فأطلقنا مدافعنا حال خروجهم من القرية فصوبوا علينا مدفعين فكانوا على عادتهم مخطئين، وكان الشّراپنل يمرُّ فوق رؤوسنا ويسقط وراءنا.

وانضم إلى «نوري» و«پيزاني» و «عودة أبو تايه» يسير في الطّليعة ويقود الرّجال.

و«طلال» المذهول للأخبار المريعة يثور كالأسد المحروب. فتقدم رجالي ليخففوا من لوعته، وأمطر المشاة هطلاً من الرّصاص على العدو الهارب، وانضم «بيزاني» بمدافعه وبالمتفجرات الفرنسية القوية وبددوا شمل الفرقة تبديداً.

وكان الدّخان لا يزال يتصاعد من القرية بطيئاً فتقدمنا بحذر وكل شيء ساكن صامت إلى أن أبصرنا بين العشب على الأجسام البائسة التي تعضّ الأرض وتروي التراب بدمائها فأشحنا عنها عيوننا ألماً وما لبثنا أن انتفض أمامنا طفل في الثّالثة أو الرّابعة كأنه يريد الهرب وعلى قميصه بقع حمر، وإذا في عنقه جرح فاغر لا بدّ أن يكون طعنة مزراق.

فركض الطّفل قليلاً ثم توقف وصرخ بصوت غريب قوي ـ وكان سكوت عميق ـ «لا تضربني يا بوي»!... وخنقت عبد العزيز العبرات فلم يقو على الكلام ـ لقد كانت «طفس» بلدته ويمكن أن يكون الطّفل من أولاد أسرته فهوى عن الجمل وركع أمام الطّفل الذي ارتمى على العشب، فخاف الولد البريء من هذه الهجمة ورفع يديه وأراد أن يستغيث إلّا أنه سقط كومة صغيرة والدّم يسيل على ثيابه، وسيلفظ قريباً نفسه الأخير.

ومررنا بجثث رجالَ ونساء وبأربع جثث أطفال ممزقة. فأيقنا بأن البلدة المنكودة قد خربت وكتب عليها الدّمار. ثم لحنا شيئاً أبيض أحمر على سور إحدى الحظائر فتقدمت فإذا بي أمام جسم امرأة ملقى على الحائط بشكل مرعب: الجِذع إلى أعلى والرّأس إلى أسفل وقد سُمّرت هذه المنكودة على حائط الآجرّ بحربة غائصة إلى النّصاب بين فخذيها العاريتين، ومن حولها جثث مذبوحة بطرق مختلفة.

فضحك الزّعاقي ضحكة وحشية كأنها ناقوس الهول يدق في السّكون العجيب على تلك الهضاب العالية. فصرخت: «يا للهول!! إن أشجعنا أكثرنا جثثاً من جثث أولئك الأعداء» وتسابقنا للحاق بهم وهم يتوارون عنا نقتل من نلتقي به من المنهوكين المتنحين عن الطّريق ولا نسمع لهم شفاعة. ولقينا رجلاً منهم نصف عار لم يعد يقوى على الوقوف من النّهك فجلس يبكي فمال عبد الله عليه إلاّ أنّ «الزّعاقي» تخطى السّبيل وهو يحتدم لعناً وسباً وأرسل ثلاث رصاصات من مسدسه على صدر الرّجل فسقط صريعاً.

ولقد رأت عينا طلال ما رأينا! فكان يئن كالنّمر الجريح. ثم ركض إلى المرتفعات وتوقف مع فرسه مختلجاً وعيناه ترسلان شواظاً من نار على العدو الهارب، فتقدمت لأكلمه فزَّم «عودة» لجام فرسي وأوقفني. إلّا أنَّ «طلالاً» أسدل كوفيته على وجهه وكأنَّه يريد أن يتمكن من متن فرسه وضغط على شاكلتيها وسار خبباً سراعاً حاني الرّأس منحنياً على حِنوها يصوّب إلى السّهل نحو العدو.

فانحدر عن قمّة الجبل وتخطى قاعاً عميقاً فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسّهم. جمد الكون من حولنا، وصمتت الطّبيعة فلا يسمع غير وقع سنابك فرسه. وانقطع تركٌ وعربٌ عن إطلاق النّار ينظرون إلى طلال يتهادى يمنةً ويسرى عند زوال ذلك النّهار المشؤوم. وماكاد يدنو من العدو حتى صرخ صرخة الحرب «طلال! طلالِ!..» فتساقط رصاص رشّاشات التُّرك عليه فسقط مع فرسه صريحاً مخرّقاً بين حَمَلةِ الرّماح.

فتابع «عودة» هذه المأساة حانقاً مزمجراً، ثم قال: «رحمة الله عليه»، «إنهم سيدفعون غالياً ثمن هذه القوة الضّائعة»، وهزَّ اللجام وتقدم بتؤدة نحو العدو. ودعونا الرّجال السّكارى الآن من الدّم والهول إلى تقطيع جناحي العدو. واستيقظ أسد القتال في روح «عودة» وأصبح رجل الصّحراء رئيسنا جميعاً. وقد تمكن بإحدى حيله من قذف العدو إلى أرضٍ رديئة ومن تقطيعه ثلاث قطع.

وكانت القطعة الثّالثة الأقل أهمية مؤلفة من رشّاشات ورجال مدفعية ألمان ونمساويين مجتمعين حول سيارة. ومن بعض ضباط وجنود راكبين لقد دافعوا دفاعاً بديعاً ثلاث مرات، ودفعوا هجومنا بشجاعة فائقة إلّا أنَّ العرب كانوا يحاربون كالجن ودائماً إلى الأمام رغماً من العرق الذي كان يتساقط على عيونهم والغبار الذي يملأ حناجرهم، فلهب شهوة الانتقام والقسوة يثير فيهم حماسة لا يصفها قلم، ورجّة تكاد تمنعهم من تثبيت بنادقهم وإطلاقها.. فأمرت بأن لا يستولوا على أسرى قط. وكانت هي المرة الأولى التي أصدرت فيها مثل هذا الأمر!..

ثم تركنا مابقي من هؤلاء المنكودين للقدر. وسرنا وراء القطعتين الأخريين

نتعقبهما وهما يجدان في الهَرَب. ولم تغرب الشّمس حتى أفنيناهما تماماً، وانضمَّ إلينا جمهور من الفلاحين، وكانت كل قطعة سلاح قبل اليوم لخمسة من المقاتلين. أما الآن فقد أصبح كل واحد مسلحاً بسيف أو بمزراق أو بمسدَس وكلهم ركوباً على بغال أو حمير أو أفراس. ثم عما قليل سيكون لكل ع ربي بندقية وفرس. وما هبط الليل حتى تراكمت أحمال الغنائم على ظهور المطايا لسليمة. ونثرت على تلك الحقول الجميلة جث الرّجال ورمم الحيوانات. وقتلنا وما انفككنا عن التقتيل لحادثة «طفس» المشؤومة دونَ مَلل وكلل حتى أجهزنا على الجرحى المتوسدين على الثّرى. كأنَّ موتهم ونزف دمائهم يرفع عنا كابوس «طفس» الرّهيب.

إنَّ طلالاً ونكبة طلال ذلك الرّئيس الفخم والفارس الجميل المغوار والرّقيق المجازف الشّديد الكريم الظّريف. ألهياني عن جراحي وعذابي وضجري، فلم أكن أتمكن من تحويل أفكاري عنه. وأخيراً لم أعد أقوى على هذه الإلفة فطلبتُ قلوصي وتبعني فارس من حرسي وتابعت السّرى لأبلغ رجالنا الذين يتعقبون الفرقة الأخيرة الأشد مراساً الهاربة من أمام وجهنا.

وكان ظلام. والهواء يهبّ من الجنوب ومن الشّرق هبوباً شديداً. ولولا قصف المدافع ولمعان نيرانها لما اهتديت إلى مواقع القتال. وكنا نرى في كل منعطف تركياً. وفي كل وادٍ، وفي كل حفرة، الهاربين والمنهوكين والمستسلمين والمختبئين. ولكنهم لم يفلتوا من مخالب العرب. وما كاد ينفلق الصّباح حتى شدّدوا عليهم فلا يمرّون من قرية إلّا ويطاردهم سكانها مشتركين مع الجيش المنصور. وكان الهواء العاصف والشّديد البرودة يمتزج بدمدمة القنابل وصياح الرّجال وقصف بنادق الأتراك ودبدبة سنابك الخيل واصطدام العرب بالأتراك وقرع السّلاح بالسّلاح إلى أن أقبل الليلُ الأَلَيل.

وتوقف العدو عندما اشتدَّ الحلك وأراد النّزول في مكانِهِ فمنعه خالد من ذلك وأرغمه على التقدم إلى الأمام، فهرب من قوي على الهرب، ولبث البعض مكانه مستسلماً وتمدّد بعضهم في أخاديد الطّرق، لقد فقدوا النّظام وحسن الاندماج، وبلغ

منهـم الهلـع إلى ضيـاع الصّواب، فكانوا يطلقـون النّار على كل إنسـان صديقاً كان أو عدواً، وتمثلَ العرب بهم فكانوا سائرين على غير هدىً.

أما المفرزة الألمانية فهي وحدها التي حافظت على رباطة جأشها فلم يسعني لدى هـذه الشّـجاعة إلّا أن أعجـب لأول مـرة بأولئك الرّجـال الذين كانوا يقتلـون إخواني وأفخـر بمثل هـؤلاء الأخصام. لقد كانـوا بعيدين قدر ألفي ميلٍ عـن أوطانهم. لا أمل لهم ولا معين، وفي مواقف يأس توهن عزيمة أشـجع الشّـجعان، ومع ذلك لم تتفرق مفرزتهـم، بـل حافظت على انضمامهـا كأنها في عَرض، بينما التُّـرك والعرب يتفكون ويتراكضون على غير هدى، فظهر الفرق بين النّظام والفوضى ظهوراً بيّناً، والضّدُّ يُظهر حسنَهُ الضّدُّ.

وكنـا عندما نهاجمهم يتوقفون ويقفون موقف ضرب النّـار ويطلقون بنادقهم علينا بأمر ضباطهم، فلا عجلةِ ولا صراخ، ولا تردد في حركاتهم. لقد كانوا مدهشين.

والتقيت بخالد فطلبت منه أن يدعو بني الرّوله ونترك الوقت للفلاحين كي ينهبوا أعمال التخريب والتنظيف، فلربما يظهر لنا عمل شاق آخر في الجنوب، وسارت إشاعة في سهول درعـا عند الغسـق بأن قد أخلاها العـدو وذهب طراد أخو خالد إليهـا ليتحقق من الأمر مع نصـف رجـال «عَنْزَة» فخفت أن يقع في كمين لأنه مـن المعقول أن يكون لا يزال أتراك في المواقع وفي أماكن أخرى يحاولون جمع شتات الهاربين ويرتدون متبعين الخط الحديدي أو مخترقيـن جبـال «إربد» ولنفرض بـأنَّ أتراكاً قد تلـكأوا في «الرَّمثـا». إلّا إذا كان «بارو» Barrow قد تبعهم ولـم يتلكأ هو أيضاً عنهم، فتكون ولا بدَّ قد بقيت السّاقة من هذا الجيش المنهـزم تقـاوم وتجالد. فيكون علينـا إذن مطاردتها. فأردت أن يذهـب خالد لنجدة أخيه. فمضت ساعة تمكن فيها بعد أوامره الصّارمة من جمع بعض مئات من الفرسان والهجّانة. وحدثت مناوشـات فـي قلب الظّلام بينه وبين مفارز تركية وهو سـائر إلـى درعا. ولما بلغ الموقـع وجـد أخاه طراداً متمنعـاً محصناً. وقد ضـرب الحامية على آخر ضيـاء من أضواء الغسق. وسار إلى المحطة خبباً واستولى عليها، وتخطى الخنادق وبدّد شمل رجالها، بينما كان فرسانه يقتحمون آخر قوة تركية تحاول المقاومة.

ونهب الرّوَلَة الموقع بمعونة رجال البلاد، واستخلصوا من المخازن غنيمة كبيرة بالرّغم من اتقاد النّار في سقوفها وقد عرّضوا أنفسهم للهيب غير مرَّة. فكانت ليلة من الليالي التي يكثر فيها الجنون ويعزّ الموت مهما بلغ عدد الذين يموتون من حولك. وكان موقفاً من تلك المواقف الغريبة في أدوار وجود الإنسان حيث تكون حياة قريبك دُمَيةٌ من الدُّمَى تحطمها وتلقيها بعيداً.

وتعكر الليل في «شيخ سعد» واضطرب إضطراباً من الصّياح والاندفاع وهزيم رصاص البنادق والقنابل وفوَران القرويين الذين يهددون الأسرى بالذبح انتقاماً من الأتراك الذين قضوا على طلال وقريتهِ وقد كان الشّيوخ العُقلاء وقد خرجوا لمطاردة العدو فلم يبق في «شيخ سعد» سوى الشّباب النّزق الثّائر وليس من يكبح جماحَه، وحدثت مذبحة عند الأصيل أحيا فَوَرَانُها ضغائن كان كامنة تحت الرّماد فبسط «نوري السّعيد» و«يونغ» و«ونترتون» نفوذهم وشجاعتهم الفائقة حتى تمكنوا من حفظ السّلام حولنا.

وعدت بعد الظّهر وكان قد وصل رسل طِراد من درعا فتقدم ناصر للإنضمام إليه. أما أنا فقد تولاني سلطان النّوم ولا رادع له عني، وكانت رابع ليلة قضيتها على ظهر ناقتي. إلّا أنَّ نار الحماسة كانت تلهيني عن كل تعب جثماني، وعند السّاعة الثّانية صباحاً ركبت ناقة ثالثة وأخذت وجهة درعا سالكاً مسالك «طفس» المنكودة.

وسار نوري السّعيد وأركان حربهِ على البرنامج ذاته وتقدموا مشاتهم الرّاكبين وسرنا سرعاً حتى مطلع الفجر. ونفد صبري من بطء خطى الجمال فأطلقت العنان لناقتي «بعاق» الصّعبة المراس فسارت بأقصى سرعتها وأرغمت باقي الرّكب على اللحاق بها، وطال الرّكض أميالاً وبعاق تركض بخطاها الواسعة حتى أدخلتني قبل الجميع إلى درعا عند شروق الشّمس.

* * *

الفصل الخامس والثّلاثون

الانضمام إلى البريطانيين

واحتلّ ناصر دار الحكومة واهتم بتنظيم إدارة عسكرية وإدارة الشّرطة ومراقبة الموقع مراقبة دقيقة. وعرضت عليه ـ لأساعده في مهمته ـ بأنْ يضع حراساً على الآلات الرّافعة. وعلى سقائف الطّائرات ومخازن العِدَد، وأن يحرص على مابقي من الذّخائر والأدوات. ولم تمر ساعة حتى ألقيت بين يديه برنامج العمل التام حتى لا تضطرنا الحال إلى الفشل والتراجع. فنظر إليَّ ناصر مشدوهاً.

وسألت عن أخبار «بارو» فقال لي رجل قدم من الغرب، إن الإنكليز قد أطلقوا عليه الرّصاص وهم ينتشرون الآن للإحاطة بدرعا. فتسلقت مع «الزّعاقي» عرف قمّة «البُوَيْب» حيث تمكنا من رؤية رجال المدفعية الهنود، فأخذوا يجرّبون علينا رمايتهم متهللين لهذا الهدف البراق الثّياب. إلّا أنه لحسن الحظ قد تقدم إليَّ ضابط بريطاني وبعض الجنود فتفاهمنا. وعلمت منهم بأنهم في حالة التفاف بديع حول درعا. وبينما نحن نتحادث ألقت الطّائرات قنابلها على نوري المحروب بينما كان يدخل المحطة. وكان هذا عقاباً له لأنه أضاع وقعة «شيخ سعد»! وإن يكن لم يصب بأذى.. ومع ذلك كان علينا أن نوقف هذه النّيران التي أضرموها في غير موضعها! وأسرعت راكضاً إلى الجنرال «بارو» الذي كان يرقب الطّليعة من سيارته.

وقال لي إن عليه أن يقيم حرساً في البلدة ليخفف من روع الأهلين ويمنع القلاقل. فأجبتُهُ بتؤدة بأن العرب قد نظموا حكومة عسكرية. ثم لما تقدم من الآبار قال لي: إنَّ رجاله الممهّدين سيحرسون الآلات الرّافعة للمياه، فأجبته بأنَّ هؤلاء الرّجال

الممهدين سيكونون موضع احترام العرب، فنظر إليَّ شذراً وقال: يظهر لي أنكم في درعا كأنكم في منازلكم، إذن لا أتعرّض إلّا للمحطة فأحتلّها إثباتاً لوصولي. فأشرت إلى قاطرة متجهة نحو مزيريب ـ وقد وقفت في المكان الذي مَنَعَ فيه شيخُنا الصّغير الأتراك من نسف جسر تل شهاب. وقد أصبح الآن في يد العرب ـ أشرت إلى تلك القاطرة وطلبت ألّا يتعرّض حرّاسها لشؤوننا، وألّا يعترضوا على استغلالنا لخط.

ولم يكن «بارو» قد تلقى قط تعليمات بكيفية التعامل مع العرب. ولا شكَّ بأن «كلايتون» قد أراد من هذا الإهمال أن يخدمنا مقدراً استحقاقنا لهذا العطف واسترجاع البلاد لأهلها.. واستغرب الجنرال «بارو» وهو الرّجل المنتصر كيف أنه يحل ضيفاً فأكرم أنا وفادته بهدوء وسكينة، إلّا أنه أيقن أن لا سبيل إلى غير ذلك. وكان فكري في ذلك الوقت يغلي غلياناً فأسرع في تنفيذ كل أمر مفيد فائدة مشتركة. واستعملت أقصى قدرتي لوقف التدابير المشؤومة التي أراد أولئك البريطانيون اتخاذها في حكم البلاد ـ وهم لا يملكون من ذلك سوى حسن النّية ـ وسلب بنيها المتصلبين المنتصرين كل مسؤولية. وهم بطريقتهم الطّائشة هذه يخلقون لنا سنين من القلاقل، وانقلابات متوالية رديئة التنظيم، وأخيراً ثورات وفِتن نضطر إلى إخمادها.

فأذعن «بارو» في النّهاية وطلب إليَّ عَلفاً وزاداً. وأريته لِواءً ناصر المرفوع فوق الحديقة العمومية على طُنُفُ مكاتب الحكومة المحترمة وكان تحتها حرس يتثاءب. فانتصب «بارو» وحيا بحماسة. فتمشت رعشة السّرور والغبطة في مفاصل الضّباط والجنود العرب لدى هذا الاحترام لرئيسهم..

وعدنا من عند ناصر وجاهدنا في وضع اختصاص العرب في نصابه وإقامة حد لحكمهم البلاد، حسب مقتضيات السّياسة، وأفهمنا العرب بأنَّ الهنود هم ضيوفنا وليس علينا أن نتحمّل أهواءَهم ومنازعهم فحسب، بل علينا أن نسهل لهم الحصول على رغباتهم، فحدث لنا بسبب هذا التسامح بعض حوادث لم تكن في حسابنا وقد اختفى دجاج القرية بأجمعه بين سمع الأرض وبصرها. ولقد راقت لثلاثة منهم فكرة اختلاسَ عَلم ناصر. لأنَّ عقدة هذا اللواء الحريري البرّاق واللهذم المشحوذ السّاطع

كالنّجمة في رأس القناة قد استهوت نفوسهم وطاب لهم التلاعب بها؟!.. فيالها من مناقضة غريبة بين الجنرال الإنكليزي الذي يحيي العلم، وبين الجندي الهندي الذي يسرق الدّجاج، وتمازح العرب لهذا التناقض الغريب وهم لا يدركون عقلية هذا الجنس من البشر وعاداته.

وما زلنا نستولي على مدافع وأسرى ترك في كل ناحية حتى كانوا يعدون بالألوف، فسلمناهم إلى البريطانيين فأحصوهم وأبقينا القسم الأكبر من الأسرى في القرى. وعرف الأزرق في الحال كثيراً عن دقائق انتصارنا، ودخل فيصل في اليوم الثّاني يرافقه خط طويل من سياراتنا المصفحة. ونزل الشّريف في المحطة فأسرعت إلى لقائه وقدمت إليه تقريراً عن الإدارة التي نظمناها. ولما انتهينا من تلاوته ضجت القاعة بالتصفيق والتهليل.

وتموّن «بارو» زاداً وماءً واكتفى بهذا القدر. وسيرحل عنا إلى موعدٍ مع «شوڤيل» قرب دمشق ليهيء دخولهما المتتابع إلى تلك المدينة. وطلب إلينا قبل ذهابه أن نسير مع الجناح الأيمن دائماً في تقدمنا. وكان هذا من حسن توفيقي وغاية مناي لأنَّ الجناح الأيمن هو من نصيب جيش الحجاز الذي يقوم على رأسه ناصر. ذلك الذي لا يفتأ يطارد التُّرك، ويقطّع أوصالهم ويشتت قواهم ليلاً ونهاراً وبدون انقطاع، وكان عليَّ أن أقوم بأعمال كثيرة فبت ليلة أخرى في درعا، هادئاً ناعماً برقاد هني، وكانت المحطة خارج البلدة في قلب السّهل الخالي، وقد أغضبني الهنود الذين نزلوا حولها لأن تجمعهم على هذا المنوال مما لا يطابق المحيط الذين هم نازلون فيه. لأنَّ جوهر الصّحراء نفسهُ يُوحي العزلة والاستقلال والإنفراد، فهي لابن الطّريق، المنعزل عن العالم. الصّامت كالقبر. وإن ذلك النّوع من البشر الذي يطوف كقطعان الغنم جماعات جماعات حول المحطة لا يستحق نعمة الفضاء الشّاسع أمامه.

لقد اكتشفت في الجندي الهندي البسيط شيئاً من المسكنة والضّآلة. فهو يعتقد بأنَّه مكروه. ولذلك تراه يعيش بوحدة حذرة راضياً بها. نقيض خلق البدوي الجافة والسّليمة معاً. وكان موقف الضّباط الإنكليز تجاه رجالهم قد أثار في رجال حرسي الخاص

كرهـاً عميقاً لأنهم إلـى ذلك اليوم لـم يألفوا التمييز والتفاضل في معاملة الأشـخاص. وكنت أستلقي كل ليلة مع رجالي على ذلك المطار المهجور منذ ذلك الحين، وكانوا لا ينفكـون، نظراً لعـدم ثباتهم على خُلُقٍ واحد عن المشـاجرة مع بعضهم البعض كما هي عادتهم. وكانت آخر مرّة يحمل إليَّ عبد الله حصتي من الأرز في مِئكلة من فضة. وحاولت بعد العشاء أن أفكر في مستقبلنا القريب. إلّا أنَّ دماغي كان خالياً كالقرطاس الأبيـض، وكانت ريح انتصارنا تهب على أحلامي فتهزهزها كلهب الشّـمعة. لقد مثل أمامنا الآن الفوز المؤكد والغرض الأسـمى. إلّا أنَّ سـنتين وراءنا مملوءتين بذكريات الشّقاء كان علينا أن نمجّدهما أو ننسيهما.. وقد مرت أسماء في رأسي تخيّلتْ مخيّلتي وصفاً لكلٍّ منها. رَمّ الفخمة، وسلع (البَتراء) الزّاهرة وبَطرة النّظيفة. والأزرق القاصي البعيـد، إلّا أنَّ الرّجـال قـد تبدّلـوا. فقد صرعت المنـون أفضلهم. وصدمتني خشـونة الأحيـاء. فلم أقوَ على النّوم. ولـم يسـط عليَّ النّعاس. فأيقظت «سـترلينغ» والسّـائقين وارتمينـا نحـن الأربعة في الرّولـس... ووجهتنا دمشـق على طريق مملـوء بالأخاديد لمرور المركبات المثقلة ومسدود المنافذ بساقة فرقة «بارو» Barrow وركبها ومركبات ذخائرها. فتركناها وانخرطنا في قلب الحقول لنصل إلى الخط الفرنسي وقد تمكنا من السّير على سَنَدِهِ المخشوشن وأسرعنا عليه. وعند الظّهيرة أبصرنا لواء «بارو» مرفوعاً فوقَ معسـكرهِ على جـدول ماء ترتوي منه الخيالة، فركبـت ناقتي واتجهت إليه، وكان الجنرال كأكثر الضّباط يحتقر النّوق. وقد أشاع في درعا بأنَّ قلانصاً لا يمكنها أن تلحق بفرسانِهِ الذين يحسبون أنهم يبلغون دمشق بثلاث مراحل شاقة.

واسـتغرب لمَّا أبصرني سـبَّاقاً ليّناً على ظهر ناقتي. وسـألني: أي متى تركتم درعا. فأجبتُهُ: في هذا الصّباح. فتمدّدتُ هيئتُهُ واستطال وجهه. ثم سألني: وأين تتوقفون هذا المسـاء؟ قلت: في دمشـق، وتبسّـمت وتركتُهُ. وها أنا الآن قد اشـتريت لي عدوّاً آخر، فأنّبنـي ضميـري لهذا التلاعـب. مع أنه كان يظهـر نحوي كل ظرف وبشاشـة مع تلبية المطالبـي. إلّا أنَّ الخدعـة كانـت بعيدة عـن متناول نظرهِ، وعلى كل حـال لم أقلقِ لما سيقول عني أو يضمر لي على شرط أن ننتصر.

وعدت إلى «سترلينغ» وتابعنا سيرنا. وكنا في كل قرية نترك كلمة لطليعة البريطانيين نرشدهم إلى مكان وجودنا، ونذكر لهم المسافة التي بينهم وبين العدو. وكنت أغضب لمثل «سترلينغ» لتقدّم «بارو» البطيء الحذِر. لقد كان روّاده في صياصي الجبال يرقبون الوديان الخالية. ومفارزه تتوقل على أعراف التلال المهجورة. وكثيراً ما تُرفع السّتائر بِوَجَل على مسرح يلعب عليه الأصدقاء لا الأعداء. فكم كان البون شاسعاً بين تأمين الحركات وحذر التقدم في الحرب العادية، وبين حربنا البدوية التي كان رائدنا فيها الحدث والتخمين.

لم يكن حائل يحول بيننا وبين الوصول إلى «الكِسْوة» حيث يجب علينا أن نلتقي «بشوڤيل» وحيث يدنو الخط الحجازي من السّبيل الذي نسلكه. لأننا سنلقى على هذا الخط «ناصراً» و«نوري الشّعلان» و«عودة» مع القبائل التي لا تزال تتعقب الأربعة الآلاف تركي والتي هي في الحقيقة سبعة آلاف رجل قدّرها طيارنا في «شيخ سعد» منذ ثلاثة أيام، تلك الأيام الثّلاثة التي انهمك فيها العرب بهذه الجيوش التي باءت بالخسران، حتى إننا نحن أيضاً قد سمحنا لنفوسنا بالرّاحة والفراغ.

وبينما كانت سيارتنا تنحدر على سفح تل أبصرنا إلى يميننا وميض رصاص شرابنل وراء الجبل يحث يمرّ الخط الحديدي. ثم لم تلبث أن ظهرت طليعة الجيش التُّركي مؤلفة من ألفيْ رجلٍ. وكانوا يمشون متجمّعين ولا يتوقفون إلّا ليطلقوا بعض قنابل من مدافعهم الجبلية. فأسرعنا لنتقدم هذا العدو الهارب، وكان يذوب لون الرّولس الضّخم أزرَقَ زمرّدياً على الطّريق المكشوف. وبعض فرسان من العرب بأخراج تركية يتقدّمون إلينا تعوقهم شجيرات نابتة في طريقهم. فتعرفنا إلى «ناصر» وهو على مُهْرِهِ الكُميت الفحل، ذلك الحيوان الجميل الأرِن رغماً عن المئة ميل التي قطعها جرياً خبباً. وتعرفنا كذلك إلى «نوري الشّعلان» ومع كليهما حوالي ثلاثين من أتباعهما. ولما دنوت منهما قالا لي: إن ما تراه الآن هو بقية السّبعة آلاف تركي. وقد تعلق بنو الرّولة بحماسة واستسلام بجناحي العدو بينما «عودة أبو تايه» يجمع أصحابه أولاد على وراء جبل معين وينصب كميناً للفرقة المنهزمة التي قَدَّرَ أنه يتمكن من جرّها إلى الجبل. ترى هل كان ظهورنا نجدة لهم.

وقلت لهم إن البريطانيين قادمون وراءنا بقوة عظيمة. أفلا يتمكن العرب من إيقاف سير التُّرك ولو ساعة واحدة. ونظر «ناصر» إلى الأمام فرأى قرية صغيرة محاطة بالجدران والأخشاب كأنها تسد السّبيل في وسط الصّحراء العارية. فدعا إليه «نوري الشّعلان» وركضا إلى ذلك المكان ليحاولا وقف التُّرك.

وتراجعنا ثلاثة أميال إلى الوراء وإذا بالجنود يسيرون في الطّليعة. فتقدمنا إلى قائدهم الكولونيل المقطّب العَبوس وقلنا له: إنها لهدية لا تُقَدَّر بثمن هذه التي يقدّمها لنا العرب. فظهرت عليه علامات عدم الرّضى أمام واجب تغيير خطة سيره المنظمة. وقرّر أخيراً بأن يرسل مفرزة من فرسانِهِ إلى السّهل تسير بتؤدة نحو التُّرك. فصوّب العدو على هذه الحملة الضّعيفة مدافعه المزرية. وسقطت قنبلة أو قنبلتان انخلعت لهما قلوب أولئك الخيّالة الجبناء ـ وكان «ناصر» قد جازف متكلاً على نجدة جدية فلم نلبث أن رأينا الكولونيل يأمر بارتداد حملتهِ وانطوائها على الطّريق. فركضت مسرعاً مع «سترلينغ» كمجنونين ورجوناه ألّا يخشى مدافع ضئيلة لا قوة لها ولا حول، شأنها شأن مسدس التدريب.

إلّا أنَّه لا وعد كان يدعه يخطو خطوة إلى الأمام ولا وعيد. فعدنا ثالث مرة نركض وراء سلطة عليا فالتقينا بضابط أركان حرب فقال لنا إن الجنرال «غريغوري» قريب منا. فحمدنا الله لأنَّ عِزَّة «سترلينغ» لا تقوى على احتمال مثل هذه الحملات رديئة النّظام. وتقدمنا من صديقنا الجديد وحملناه على سيارتنا إلى الكولونيل فأرسل للخيالة أوامر قاسية كي يصمدوا للعدو. وأسرع رسول على ظهر جواد يطلب مدفعية سواري فألقت المدافع شواظها عند آخر ضوء من أضواء النّهار الذي ينحل على أعراف الجبل، ويذوب في الغيوم البيض المتجمعة عند الأفق وظهرت «خيّالة ميدلسِكس» Middlesex Yeomanry بدورها وارتمت بين العرب لتضرب مؤخرة التُّرك، ولم يهبط الليل حتى شاهدنا العدو مشتتاً مقطع الأوصال تاركاً مدافعه ومركباته وعددَه. وتوارى الهاربون في سفح جبل «المانع»!.. وأعرافه يحسبون بأنَّ النّجاة وراءه. وأن ما وراءه بادية بيداء.

فقد كان عودة رابضاً ما وراء ذلك.. فأمعن الرّجل الشّيخ في تلك الليلة. التي كانت آخر لياليه في المعارك في التقتيل والتشريد. ولم يرتوِ من الدّماءِ ومن سلبٍ وأسرٍ، وما فتئ يقتل ويسلب ويأسر ويشرّد حتى طلع كوكب النّهار. فأكدَّ له عند مطلعه بأنه لم يبق من يقتله ولا من يسلبه ولا من يأسره ولا من يشرّده!.. وهكذا فني هذا الجيش الرّابع الذي قضى سنتين متتاليتين يقض مضاجعنا ويكاد يفني جهودنا.

وإن حماسة «غريغوري» الذي جاء في أوانه شجعتنا على اقتحام ناصر والاتصال به. وكان موعدنا معه قبل نصف الليل في الكسوة. فذهبنا إليه مسرعين. وجاء وراءنا الهنود جماعات جماعات. وكنا نحاول عبثاً أن نجد مكاناً هادئاً نسكن إليه. فإنَّ ألوفاً من النّاس كانوا قد قدموا إلى المدينة فغصَّت بهم.

وكنت أدور مثل أولئك القوم فيرتج دماغي ولا أهدأ، ومن الذي يستطيع أن يتعرف عليَّ في ذلك الليل المظلم بجلدي المصبوغ، لقد كنت أطوف بحريّة كل عربي لا أهمية له بعيداً عن حرسي وإخواني حتى وجدتني في وحدة رهيبة. وكان سائقو سياراتنا المصفحة يبدون لديَّ كائنات ضئيلة لقلة عددهم. لأنَّ تلك الشّهور التي قضوها في الحر اللافح والسّموم والسّوافع قد جردت عظامهم فضؤلت أجسامهم.

وكانوا يشعرون بالوحشة والخجل وهم بين أولئك الخليط المتجمع من أربعة أقطار لعالم. إنكليزاً كانوا أو أستراليين أو هنوداً. وكان شعوري كشعورهم.. فلفتت قذارة ثيابهم الأنظار لأنهم قد ارتدوها من زمن بعيد ولم ينزعوها عنهم إلى ذلك الحين فنتنت رائحة العرق عليهم ولصقت قمصانهم بجلودهم كالقوالب، حتى لتحسب أطمارهم شرائح من لحومهم لا ثياباً تستر عراهم.

أما هؤلاء النّاس المختلفو الأجناس فقد كانوا جنوداً حقاً. وعلى طول عهدي بهم راق لي زيهم الحديث، وقد قضيت سنتين في غزوات مع رفاق عاديين. وعادت إليَّ فكرة سر توحيد الزّي. فكم لهذا اللباس من عوامل القوة والسّلطة والنّظام في الجيش. فإنه يصيره مندمجاً ممتزجاً كأنه رجل واحد. وإنَّ هذا الثّوب المميز لكالجدران الحاجز الذي يصد لابسه عن أي كائن آخر في الحياة العادية. والشّاهد عليه أنه قد

باع للدّولة إرادته وجسـده معاً. ولا ينقص من وضيعتِهِ أنه تطوع لهذه الخدمة بمحض إرادته.. من النّاس من يخضع لهذه الغريزة التي تقود البعض إلى التفتيش عن الملذات الهينـة. والبعض الآخر إلى الهـرب من الجوع. بينما آخرون يتلظـون ظمأً إلى النّفوذ، وقد اعتقد هؤلاء بأنَّ الحياة العسكرية تنعم عليهم بهذه المنح. أما أولئك فإنهم ينعمون ببعض ملاذ تزيد في وضيعتهم إزاء أصدقاءَ السّـلام ويعدّهم هؤلاء دون الإنسـانية. لا ينجـذب إلى ثوبهم العسـكري المغري سـوى بنات الهوى!.. وإن أجـر الجندي ليس كأجـر العامل الذي يكتسـبه بنبل وحق. والجندي يبـدد الدّريهمات التي يحصل عليها كيفما يتفق له بشرط أن يسكر وينسى.

يتمـرد المحكوم عليه عند العنف ويطمح العبد الرّقيق إلى الانعتاق أو يحق له على الأقل أن يفكر فيه. أما الجندي فإنه يسلم جسده لصاحبه مدة من الزّمن. وينتظر صاغراً ما يوحيه فكراً هذا الصّاحب وشـعوره. يظل المحكوم حراً يكره الشّـريعة التي سجنته ويلعـن البشـرية جمعـاء إذا كان قلبه مملـوءاً حقداً. أمـا الجندي الحَـرِد الكاظم على جرّته فهو جندي رديء. أو بالقول الأصح، ليس جندياً إنما هو تمثال مأجور لشطرنج الملك.

وكان يرود حول الجنود عرب.. ودنيا العرب ذوي الأنظار الرّزينة غير دنيا الجنود. وقد رماني القدر لمهمّة غير محدودة لمدة سـنتين فكنت كالطّريد بينهم. وشـعرت في تلك الليلة بأني أقرب إلى البدو مني إلى الجيش الإنكليزي. وأثور على نفسي عند هذا الشّـعور كأنه أمر مشـين. فبلبل فكري هذا التناقض. وكان شـيء داخلي يشحذ رغبتي وحنينـي إلـى وطنـي، إلّا أنه في الوقت نفسـه يُثيرُ فيَّ نفـوراً إلى حدّ أنـي لا أرى رأيي جيـداً في مختلف الأجناس ومختلف اللغات فحسـب، بل كنت أتبينهم من رائحتهم، تلـك الرّائحة القويـة الحامضة الثّابتة بالعـرق الجاف على الثّيـاب القطنية المتصاعدة مـن جميع العرب... ورائحـة الإنكليز تلك الرّائحة التي لا توصف، وتَبَخُّرٌ حارّ وصنة تنتشر من الثّياب الصّوف. وحموضة نشادر تقبض على الحَلَق. رائحة تتخمَّر كالنّفْط.

* * *

الفصل السّادس والثّلاثون

الدّخول إلى دمشق

الآن قد انتهت حربنا، إلّا أننا لا نزال نقضي الليل في الكسوة وقد أخبرنا العرب بأنَّ الطّريق غير آمنة، ولذلك لم تكن رغبتنا قوية في أن نموت في ذلك الليل بُلْهاً بُلَداءَ على أبواب دمشق. أما الاستراليون الرّجال الرّياضيون عشاق الفروسية في كل مكان وأوان فقد كانوا يعدون الحرب نوعاً من السّباق المحدود من مركز إلى آخر، وأن هذا السّباق هو جسر العبور للوصول إلى دمشق. إلّا أننا منذ الآن قد أصبحنا تحت إمرة آلِنبي وأنَّ النّصر منطقياً هو ثمرة عبقريته وثمرة جهود «بارثولوميو». وعلى الاستراليين أن يكونوا على خيولهم شمال دمشق وغربها على الخط الحديدي قبل أن تدخل فرقة الجنوب هذه العاصمة. ولقد انتظرنا نحن الرّؤساء العرب تقدّم البريطانيين البطيء، لأنَّ آلِنبي لم يكن يشك قط في الدّقة التي كنا ننفذ أوامره بها. فكانت قوته مستمدة من هذا الإيمان الرّاسخ فيه، وكانت طاعتنا له على قدر ثقته بنا.

وكان يرغب في أن نكون حاضرين عند دخوله، لأنه كان يعلم بأنَّ العرب يقدّرون دمشق فوق قيمة الغنيمة. ثم لأسباب أخرى نأخذ لها الحيطة والحذر. أما مجيء فيصل فقد ترك المناطق المعادية رحبة سهلة للحلفاء، وكلّما تقدم الشّريف ازداد الترحيب بهم، فأصبحت الرّكْبان تسير في البلاد من غير حرَس، والمدن تنظم دوائرها من غير حامية. وكان من الممكن أيضاً أن يُلاقوا بعض المقاومة، إلّا أننا نكون قد بلغنا نتيجة مشؤومة، وربما أضعنا المستقبل القريب فأعطينا مهلة اثنتي عشرة ساعة ندعوا فيها الدّمشقيين إلى استقبال الجيش البريطاني كحليف لهم.

فيالها من ثورة في العمل إن لم تكن في المبدأ، إلّا أنَّ لجنة فيصل في دمشق كانت تستعد منذ شهور للقبض على زمام الإدارة حال انحلال التُّرك، فلم يكن علينا إذاً إلّا أن نجتمع بأفراد تلك اللجنة ونشرح لهم مقاصد الحلفاء، وما يقتضي عمله في مثل هذه المواقف. ولمّا حلك الليل أرسل ناصر فرسان الرّولة في طلب علي رضا رئيس لجنتنا أو شكري باشا الأيوبي مساعدة عند عدم وجود الأول لإفهامها بأن ستُقدَّم لهما كل مساعدة منذ الصّباح إذا شكّلا إدارة أهلية في الحال. إلّا أنَّ الإدارة للحقيقة كانت قد نُظمت منذ السّاعة الرّابعة بعد الظّهر قبل أن نفكر فيها. وكان من المحال أن نقبض على علي رضا وقد سلَّمهُ التُّرك في آخر لحظة قيادة جيش الجليل المتقهقهر أمام «شوڤيل» Chauvel إلّا أن شكري قد وجد عوناً له في الأخوين الجزائريين محمّد سعيد وعبدالقادر، فرفعوا العلم العربي بمساعدة رجالهم على سراي الحكومة قبل غروب الشّمس، وبينما كان يمرّ آخر صف من الجنود التُّرك والألمان أمام سراي البلدية، ويُقال إنه قد حَيَّاه آخر جنرال بسخرية.

ومَنَعْتُ ناصراً من دخول دمشق والليل مضطّرب على المدينة الهائمة، ومن اللائق بمقامه أن يدخلها هادئاً في الصّباح، وكان قد جاء معي آخر ركب من الهجّانة الرّويليين منذ الصّباح من درعا، فأوقفهم ناصر ونوري الشّعلان في الطّريق وأرسلاهم إلى دمشق فوراً ليعضّدوا فيها مشايخ الرّوَلَة. وهكذا كان لدينا عند منتصف الليل أربعة آلاف رجل شاكي السّلاح في المدينة، فذهبنا للرّقاد.

وكنت أرغب في النّوم، إلّا أنَّ مهمّة شاقة تنتظرني في الغد، فلم أنم لأنَّ دمشق كانت غاية سنيّنا المضطربة وكانت أفكاري تطن في دماغي طنيناً وتجول فيه أحلام أبدّد منها ما أبدّد وأقبل منها ما أقبل. وفوق ذلك كدنا نختنق في الكسوة من جراء التبخر، والرّوائح المتصاعدة من العشب والأشجار والكائنات الحية ـ عالم صغير يتزاحم ويرتجّ من حولنا!

وقد أشعل الألمان النّيران عند خروجهم من دمشق في المستودعات والمخازن فكان الانفجار يتتالى بين آونة وأخرى ويلهب السّماء بشهبه ودخانه، ويرجّ الأرض

رجاً من صعقاته، وأبصرنا نحو الشّمال في الجو الشّاحب حِزَماً من الشّهُب النّارية تنقَدُّ عند انفجار القنابل المقذوفة إلى علوٍّ شاهق، ثم تنتثر عناقيد وثُريَّات متلألئة هاوية، فالتفتُّ إلى «سترلينغ» وغمغمت: «إنَّ دمشق تحترق»، وقلت في نفسي حانقاً: «أَتُقدِّمُ المدينة العظيمة رمادها ثمناً لحريتها؟!..».

وربكنا السّيارة عند طلوع الفجر كي نبلغ قمّة الجبل الذي يشرف على ساحة دمشق واجمين من أننا لا نرى سوى أنقاض المدينة، غير أنه لم يكن شيء مما خشيناه، بل كانت خمائل خُضراً صامتة مربدة تحت غمام النّهر الباهظ، و المدينة تتلألأ وتتراءى على صفحات الماء دائمة الجمال كالجوهرة داعبتها أشعة شمس الصّباح. ولم يبق من ضجيج الليل وهذيانه سوى عمودٍ من الدّخان المربّد المرتفع في السّماء من مخازن المؤن قرب محطة القدَم حيث ينتهي خط الحجاز.

فتقدمنا في الطّريق المسوّر بالعشب الأخضر الذي لا يزال يمجّ النّدى عن وريقاته لؤلؤاً منثوراً، والقرويون يباشرون أعمالهم اليومية، وفارس يسعى إلينا خبباً ويقف أمام السّيارة. ولما رأى العقال على رؤوسنا حيّانا متهلّلاً وقدّم لنا عنقوداً من العنب وقال: «نبأ سار: إن دمشق تحيّيكم».

وكان ناصر متنحّياً عنا قليلاً فأطلعناه على الحوادث ليكون على علم بها ويدخل دخولاً جديراً بخمسين معركة نازل فيها العدو، وكان نوري الشّعلان إلى جانبه فخبَّتْ فَرَسُهُ الخَبَبْ الأخير وتوارى في غيمة من الغبار فتركناه يتقدم بأُبَّهة وملُت مع «سترلينغ» إلى جدول يمرّ بين حافتين وعرتين وكان الهواء ناعماً فاغتنمنا فرصة الرّاحة والانفراد فخلقنا ونظفنا أنفسنا بقدر ما سمحت الحال.

وكان جماعة من الهنود تنظر إلينا وإلى سيارتنا والسّوّاقين، وإلى سراويلنا الخلقة الممزقة باستغراب، وكنت أرتدي ثوباً عربياً، وكان «سترلينغ» في زي الضّابط الإنكليزي أركان حرب ما عدا غطاء رأسه، فحسب الملازم الهندي الأبله السّيئ الخلق بأنه وقع على غنيمة، وأن قد استولى على أسرى، وما انتهينا منه حتى أزفت ساعة الالتحاق بناصر، فتقدمنا في الشّارع الذي أوصلنا إلى سراي الحكومة على

ضفاف «بردى» وكان الطّريق غاصاً بالجموع المتلاصقة وكان الفضوليين يأخذون علينا الأبواب ويملأون النّوافذ وسطوح المنازل، وكثيرون من هؤلاء كانوا يذرفون الدّموع، وغيرهم كثيرون كانوا يحيوننا بهدوء، والجسور منهم من يرفع صوته عالياً وينادينا بأسمائنا. إلّا أنّ أكثرهم كان ينظر إلينا طويلاً ولا يملّ وبريق السّرور والابتهاج يلمعان في أحداقهم، وتنفس الصّعداء من الصّدور يتبعنا إلى أن دخلنا.

وكانت قد تبدّلت معالم سراي الحكومة، فغصّت السّلالم والمدارج والدّهاليز بالنّاس يغنّون ويهزجون ويرقصون ويتعانقون، واصطفّت الجماهير لمرورنا تفسح لنا حتى بلغنا الرّدهة الدّاخلية، حيث لقيت ناصراً السّاطع البهي جالساً وإلى جانبه نوري الشّعلان والإثنان محاطان بالأخوين عبد القادر عدوي القديم ومحمّد سعيد. فوقفت مشدوهاً متعجباً، إلّا أنَّ محمّد سعيد قد انتفض وتقدّم إليَّ وصرخ بي قائلاً: إنهما حفيدا الأمير عبد القادر يعضدهما شكري الأيوبي سليل صلاح الدّين والذي ألَّف حكومة بالأمس ونادى بالحسين ملكاً على العرب، على مسمع مرأى من التُّرك والألمان المقهورين.

والتفتُ إلى شكري بينما كان محمّد سعيد يخطب، ولم يكن الأيوبي رجل دولة بل كان محبوباً جداً، وكان ضحية في عيون الشّعب نظراً لما ابتلاه به جمال، وأسرَّ إليَّ بأنه لم يعضد التُّرك أحدٌ قط في دمشق سوى الجزائريين ولازماهم إلى أن أبصراهم يولون الإدبار، فظهرا بعد ذلك في لجنة فيصل المجتمعة اجتماعاً سريَّاً وتولَّيا مراقبتها بعنف يعضدهما رجالهما المسلّحون.

فلم يكونا إلّا متعصبين مشبعين بالأفكار الدّينية، خاليين من حسن المنطق. ونظرت إلى ناصر أريد أن أدفعه لوضع اللجام فوراً لمثل هذه الوقاحة وإذا بحادث ألهاني عنهما، وقد زمجر الجمهور وتدافع بالمناكب وتقلقل كالجمال نشطت من عُقُلُها. أو كأنَّ كبشاً يشق الجموعَ بقرنيه. وانشق القوم إلى شطرين وانقلبت بهم الكرسي والمناضد وسُمِعَ هدير صوت معروف، فصمتت الجموع.

وانقشع الازدحام عن فرجة ظهر فيها عودة أبو تايه وسلطان الأطرش عميد

الـدّروز يتشـاجران ويزمجـران، وأتباعهمـا مـن حولهمـا يتراكضـون مـن كل ناحية، فأسـرعت لحسـم الخلاف فوقعت على محمّـد الضّغلان فتعاونّـا عليهما وفصلناهما عن بعضهما، فأبعدتُ عودة بضع خطوات وحمل حسـين الأطرش سلطاناً إلى إحدى الغـرف المجـاورة، ولما سـكنت الضّجة فتشـت عن ناصـر وعبد القـادر لأضع نظاماً لحكومتهمـا فكانـا قد خرجـا، وقد أقنع الأخـوان ناصراً بأن يزورهمـا ويأخذ عندهما شـيئاً مـن المرطبات، فما أسـعد هذه المصادفـة! وإن مهام مُلحّة لتدعونـا إلى العَمَلَ، وعلينا أن نُفهم الشّـعب بأن الأيام السّـالفة قد انقضت وأن يداً وطنية تقبض الآن على زمام الحكم، ولا شـيء أجدى من تسليمه ليد شـكري، وعليه قد ركبنا سيارتنا الزّرقاء لنعرض نفوسـنا على الشّـعب، لأن إعطاء شـكري سـلطة وافية كافٍ وحده لأن يكون رمزاً للثّورة في عيون النّساء الدّمشقيات.

ومـا كدنـا نخرج من السّـراي حتى طغـت علينا جماهيـر النّاس على مسـافة أميال لتحيينـا وترحـب بنـا، فبُرِّئَت بهذا الاحتفاء سـاحة الأهليـن وظهرت نواياهـم نحونا، وكانـت هـذه المدينة ذات الرّبع مليـون من الأنفس رجالاً ونسـاءً وأطفالاً قد خرجت إلى الشّـوارع وتولّاها جنون الفرح، يقذف الرّجال عمائمهم في الفضاء تهليلاً والنّساء ينزعـن حُجُبهـنَّ ترحيبـاً وتكريمـاً. ويُلقـي المتفرّجـون من النّوافـذ عند دنوّنـا أزهاراً وسـجّاداً وسُجُقاً! ويتلَصَّص نسـاءٌ جذلات متحجبات من خصاص الأبواب والنّوافذ ويرششن علينا العطور.

وتقـدم لخدمتنـا بعـض الدراويش المسـاكين فكانـوا يركضون علـى أقدامهم أمام عربتنـا ووراءهـا وعلـى جانبيهـا يشـقون لنا الطّريـق بصوتهـم الجهوري وحماسـهم الجنوني فيخفون زغاريد النّساء، وتطغى على أصواتهم أغاني الرّجال: فيصل، ناصر، شـكري، أورَنس! تلك أسـماء كانت بارزة بين الأسماء تطوف وتتسامى فوق الشّوارع وفوق الأسـواق حتى «باب شـرقي» ويتردد صداها حول الجـدران ويدوي في حديقة «الميـدان» حتى يبلـغ القلعة حيث كنا مُقيمين. وأخطروني بوصول «شـوڤيل» فالتقت سيارتانا ببعضهما في الضّواحي الجنوبية، وأفهمته حالة المدينة الفائرة، وأنها لا تستقر

إلّا بعد يومين وعندئذٍ يمكنني أن أحضر إلى مكتبه وندرس بيننا حاجاته وحاجاتنا معاً، وفي غضون ذلك تحمّلت مسؤولية الأمن العام.

وطلبت منه أمراً واحداً فقط هو أن يُبقي جيوشه خارج السّور، لأنَّ الدّمشقيين سيقيمون في هذه الليلة مهرجاناً عظيماً لم تر دمشق مثله قط منذ ستمئة سنة، وأن الضّيافة السّخيَّة التي يقدمونها للجنود يمكنها أن تسد عليهم نظامهم.

* * *

الفصل السّابع والثّلاثون

تشكيل نواة حكومة

وعدنا بصعوبة إلى دار الحكومة، وقد كادت تنشب معركة بيننا وبين عبد القادر، إلّا أنَّه لم يَعد، فدعوته ودعوت أخاه وناصراً. فأجابوني بجفاء بأنهم لا يزالون نائمين. وكنت أود أن أتمثل بهم غير أني بدلاً من الرّاحة كنت أنا وثلاثة أو خمسة أشخاص نزدرد طعامنا ازدراداً في قاعة فخمة شاسعة الأطراف ونحن جلوس على كرسي وحول مائدة مذهبة قوائمها مخلعة متقلقلة.

فشرحت للرّسول مقاصدي دون مواربة فانصرف. ثم لم تمضِّ برهة وجيزة حتى رأيت ابن عمٍّ للجزائريّين يهرول مسرعاً ويخبرني بأنهما قادمان، وكان يكذب بوقاحة إلّا أني تظاهرت بالتصديق وقلت له: إنه كان بإمكاني بعد مرور نصف ساعة أن أرسل جنوداً بريطانيين يبحثون عنهما، وكان في الإمكان أن أكتشف مخبأهما. فذهب ركضاً. وسألني نوري الشّعلان بهدوء عما أفكر في القيام به فأجبتُهُ.

«إني أسقط عبد القادر ومحمّد سعيد وأقيم شكري موقتاً إلى أن يصل فيصل» قلت ذلك بلطف لأني آنف من أن أجرح شعور ناصر. ثم إني إذا لقيت مقاومة ألتجئ إلى قوة السّلاح... ثم سألني نوري إذا كان البريطانيون لا يدخلون المدينة. فأجبته: «سيدخلون حتماً إلّا أنهم للأسف لن يخرجوا بعد ذلك.» ففكر نوري قليلاً، وقال: «لو أنك تعمل بملء إرادتك لكنت ترى رجال الرّولة على أتم استعداد لخدمتك».

وخرج الشّيخ بلا تردد ليجمع قبيلته لنصرتي. وجاء الجزائريان وشرر التهديد يتساقط من عيونهما يحيط بهما حرسهما الخاص. إلّا أنهما قد التقيا عند مرورهما

برجال نوري الشّعلان مجتمعين وفي عيونهم شواظ العداء وكان رجال نوري السّعيد مجتمعين في الحديقة ورجالي داخل سراي الحكومة.. وكان الجسور يتمشى في الرّدهة المعترضة!.. ولقد رأوا أننا قد ربحنا الموقعة. ومع ذلك كان الاجتماع عاصفاً مرعداً.

وبصفتي مندوباً من قبل فيصل قد قرّرت حلَّ حكومة دمشق المحلية وكلفت شكري باشا الأيوبي بتأليف محكمة عسكرية. يكون فيها نوري السّعيد قائداً للجيش وعزمي مساعداً له وجميل مديراً للأمن العام. فجابهني محمّد سعيد بحرارة وشهّرني بأني مسيحي إنكليزي، ودعا ناصراً لنجدته.

فاستولت الحيرة على ناصر الطّيب السّريرة. ولم يبق لديه إلّا أن يحضر المعركة النّاشبة بين أصدقائه مقطع القلب حزيناً. وانتفض عبد القادر وأمطرني شتماً إلى أن بلغ احتدامه حد الهذيان،غير أنَّ موقفه تجاهي لم يكن منطقياً. ثم إني لم أردّ عليه شتائمه ـ وأغيظُ مَنْ عادَاكَ من لا تُجيبهُ ـ وحافظتُ على جَلَدِي ورباطة جأشي. إلّا أنَّهُ هجم عليَّ فجأة واستلَّ سيفه. فانقضَّ عليه «عودة» كالنّسر الخاطف وكان هذا الرّفيق منذ الصّباح متوتر الأعصاب محتدماً ينتظر أحداً من النّاس ليفتك به.

وكأني به ينتظر إشباع رغبته النّهمة لو أننا مكّناه من تمزيق خصمه بمخالبِهِ الحادة ـ فغلبت عبد القادر على أمره ـ ووضع نوري الشّعلان حداً لهذا الهياج إذ قال للجموع المتجمهرة الهائجة: «الرَوَلة مع أورَنس فلا داع للجدل». فقطعتُ جُهَيزة قول كل خطيب. وخرج الجزائريان من القاعة غاضبين.. وكنت مقتنعاً بأنهم سيقبضون عليهما ويذبحونهما وإنهما لا يقويان على الدّفاع أو على الأذى. غير أنه كان يستحيل عليَّ أن أقدم مثلاً للعرب وأتخذ المذابح وسيلة واقية من وسائل السّياسة المقبلة.

وابتدأنا في العمل وكنا نود أن نشيد حكومة عربية ثابتة على قواعد متينة واسعة النّطاق ترضي الوطنيين. وتكون حكومة «حقيقية» لشعب مبتهج ضحى بكل غالٍ أثناء انتفاضه على الدّولة التُّركية لاكتساب حريته.

وكان علينا أيضاً أن نقذ ولو قسماً من نفوذ شيخ الإسلام الدّيني الذي ينضم إليه 99 ٪ من الشّعب. ذلك الشّعب الذي كان شديد التمسك بإيمانه إلى حد أنه عصى الدّولة العثمانية، فعلى مثل هذه الدّعائم إذاً يجب أن تقوم الدّولة الحديثة.

ولا يخفي أن الثّوار، الثّوار المظفرين كانوا قليلي الخبرة عديمي المرونة السّياسية ينقصهم حسن الإدارة، وكان على فيصل إذن أن يحزم ويثير في داخله شجاعة شاقة ويفصل من حوله رجال الثّورة إخوان الحرب ويقرب إليه رجالاً أظهروا كفاءة ومقدرة في الحكومة التُّركية. ولم يكن ناصر متعمقاً في فلسفة السّياسة ليعرف مناحيها المتشعبة وأسرارها البعيدة القرار، إلّا أنَّ نوري السّعيد كان يفهمها. و نوري الشّعلان يحسنها كذلك.

فألَّفوا في حماسة نواة أركان الحرب. وتقدموا برباطة جأش إلى الإمام أفلا يرون لنا التاريخ أن الحكومات تتعاقب لكنها تسير دائماً على وتيرة واحدة ويصدر عنها نغم واحد. فمن تعيين، ووظائف، وممارسة في الخدمة، وفي الصّف الأول يكون رجال الشّرطة، وإذا انتخب رئيس يعين له معاونون، فحدّدوا المراكز وحدوا من اختصاصها الوافي. وأقروا شروط الخدمة وزي اللباس.. والمسؤوليات.. وبدأت الآلة تتحرّك وتشتغل. ولم تلبث أن تقدمت شكاوى لأجل الماء. لأنَّ القنوات كانت تؤج بالحشرات، وبأشلاء الرّجال، والحيوانات المنتنة. فأوجدوا مكتباً للمراقبة وعمالاً له ونفذت الأعمال المعجلة.

لقد انقضى النّهار ولا يزال النّاس يطوفون الشّوارع ويضجون. واخترنا مهندساً ليدير مصانع البلدية وكلفناه إنارة المدينة في نفس تلك الليلة. ولا شيء أدل على رجوع السّلام إلى المدينة مثل تبديد الظّلام. فكان نور.. وخيم النّظام على المدينة بفضل همّة ذلك المهندس في تلك الليلة الهادئة. ليلة الانتصار.

وكان الشّيوخ ذوو الوقار. شيوخ المقاطعات المختلفة يعضدون رجال شرطة المدينة.

تنظيف: وكان العدو عند ارتداده قد ترك في الطّرقات مخلفات من جميع الأنواع: مركبات نقلن وسيارات، وأمتعة، ومواد، وجثاً متروكة، وتيفوس، وداء الزّحار، والبيلاغرا pellagra، المنتشرة بين الجنود التُّركية، وفي كل بقعة يمرّ بها عند ارتداده، ونظم نوري فرقة النّزّاحين فشرعوا في نزح أولي للشّوارع والأزقة والحدائق العمومية. وأرسل الأطباء إلى جميع المستشفيات ووعدهم بإرسال الأدوية والمآكل التي يمكنه أن يحصل عليها منذ صباح اليوم الثّاني.

فرقة مطافئ: ونظمت فرقة مطافئ لأن التُّرك قد خرّبوا الآلات الرّافعة للمياه وكانت لا تزال مستودعات الجيش تتقد وتحترق وتنذر الأحياء المجاورة بالنّيران فطلبوا نجدة فأرسل رجال لحصر النّار.

السجون: كانت خالية من الحَرس ومن السّجناء فاغتنم شكري هذه الفرصة وأعطى مهلة سياسية مدنية حربية، ودَعي الأهلون لتعسليم السّلاح أو على الأقل عدم حمله جهاراً. وقد شرعوا في إعلان ذلك ملاطفينه مازحين مع المحصنين عن هذه الأوامر. ثم لم يلبثوا أن انتهوا في وقت قريب إلى أوامر قاسية من لدن رئيس الشّرطة... وكانت أربعة أيام كافية لأن تُنهى جميع هذه الأعمال.

برّ وإحسان: وكان الفقراء منذ أيام عديدة يتضورون جوعاً فوزعنا عليهم الزّاد الذي لم يكن كثير الرّداءة، وكان لا يزال مخزوناً، إلّا أن تموين المدينة كان متعذراً بحيث كان يخشى أن تموت دمشق بأجمعها جوعاً في ظرف يومين فقط، لأنَّ الزّاد قد نفد تماماً، وكان يستحيل على القرى المجاورة أن تقدم مؤناً إلّا ببعض شروط، فكان علينا أن وجد الثّقة ونؤمن الطّرق ونقدم الحيوانات التي استولينا عليها عوضاً عن التي أخذها التُّرك. إلّا أنَّ البريطانيين قد امتنعوا عن اقتسام الغنيمة فكان علينا أن نتنازل عن الحيوانات الخاصة بفرق الجيش. وكنا في حاجة إلى السّكة الحديد لنؤمن تموين المدينة، فعلينا إذاً أن نجد خبراء في التحويلات ومديري قطرات وسائقين مقاولين ومتعهدين نتعاقد معهم في الحال.

البرق والبريد: كان سهلاً علينا أن نجد الموظفين العاديين إلّا أنَّ المديرين غير

موجودين، والخطوط في حالة سيئة يجب الاهتمام بها. أما البريد فيمكنه أن يصبر علينا يومين آخرين، وكان أهم شيء يقف أمامنا صارخاً هو أمر إسكاننا وإسكان البريطانيين وإعادة حركة التجارة وفتح المخازن وتموينها بالبضائع. وأخيراً تثبيت النّقد.

وكان النّقد بخساً مريعاً، وقد نهب الاستراليون ملايين من القراطيس التُّركية.. النّقد الوحيد في ذلك الحين، فكانوا يبددونه من كل ناحية وكيفما سمعت الحال. رغماً من أن قيمته قدهبطت إلى صفر، وكان الجندي ينقد الغلام الذي يمسك له رسن الفرس خمسمئة فرنك عن طيب خاطر.

وقد حاول «يونغ» ـ وفيه استعداد خاص للمسائل الاقتصادية ـ أن يثبت رأس المال على كمية الذّهب الوحيدة الباقية لحسابنا في العَقَبة. إلّا أنَّه كان علينا أن نطبع قراطيس محدودة الثّمن. وإذا توفقنا إلى ذلك طالبنا الشّعب بصحيفة يومية، وفوق ذلك كان على العرب وارثي الحكومة التُّركية أن يتابعوا القيد في سجل الأموال الأميرية والضّرائب. وفي سجل المساحة وسجل إحصاء النّفوس، كل ذلك والموظفون القدماء ينعمون بالإجازات الطّويلة.

وكانوا يأتون إلينا شاكين بينما نحن لا نزال جياعاً. «فشوڤيل» ينقصه العلف لأربعة آلاف حصان. فإذا منحناه ذلك قام بنفسه ليستولي على مؤونة خيله. ونكون بذلك قد أطفأنا بأيدينا شعلة الحرية الضّئيلة كأنها نار في الهشيم. وكانت مؤن سوريا الضّرورية معلّقة بهوى «شوڤيل» ونواياه... ومن «شوڤيل» لا يرجى رحمة ولا تسامح.

وقصارى القول قد كانت ليلة! فشغلناها. إلّا أننا قد توصلنا إلى إتمام كل شيء بوساطة السّلطة النّافذة الأمر وقتئذٍ، تلك السّلطة التي كانت أحياناً في أيدٍ غير جديرة بها، مبعدين شخصياتنا موقتاً قدر المستطاع.

وكان «سترلينغ» الشّهي العذب. و«يونغ» القدير. و«كيركبريد» السّريع البديهة يشحذون ذكاء الضّباط العرب المستعدين لقبول الأفكار الحديثة.

وكان غرضنا الأول أن نقيم واجهة لا أن نبني بناءً كاملاً، وكان العمل قائماً على قدم

وساق بمعنى أني لما تركت دمشق في 4 أكتوبر كانت لسوريا حكومة سنتين دون أي مساعدة أجنبية رغماً من الاحتلال ومحن الحرب. ورغماً من عناصر مختلفة هامة في صفوف الحلفاء.

* * *

وبعد مضيّ زمن! وفي المساء.. كنت جالساً وحدي إلى نافذة غرفتي أصغي إلى طنينٍ في رأسي يعيد إليَّ ذكريات النّهار، فأقول: أيّة الطّرق يا ترى هي الأصلح لهذا الشّعب السّوري! وكان المؤذّنون من على مآذنهم يرسلون الدّعوة إلى صلاة المساء في الليل السّاجي المشع بأنوار المدينة المعيَّدة. وكان أحد الأصوات يصل إلى أذني من المئذنة المجاورة. ففهمت هذا النّداء: «الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمّداً رسول الله. حيَّ على الصّلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر لا إله إلا الله».

وانتهى المؤذّن خافضاً صوته كأنه يتحدّث. ثم أضاف بعذوبة:

«وطيّب الله يومنا يا أهل الشّام» وانتهى الضّجيج وأذعن المؤمنون للدّعوة إلى الصّلاة في تلك الليلة. ليلة الحريّة!...

* * *

فهرس الكتاب

* * *

ثورة في الصّحراء

لورَنس العرب، صانع الملوك، ملك الجزيرة غير المتوّج.. أسماء رنّانة حملها البريطاني توماس إدوارد لورنس الذي تحوّلت سيرة حياته إلى ما يشبه الأساطير، عبر ملحمة حربيّة خلّدها الدّهر إبّان مجريات الحرب العالميّة الأولى، وضمن إطار الثّورة العربيّة الكبرى ضدّ الأتراك 1916-1918، التي أفضت إلى هزيمة الألمان والأتراك وانهيار الدّولة العثمانية نهائياً. وإذا رحنا نعدّد الكتب والمؤلفات والدّراسات والأفلام العالميّة التي وضعت عن حياته وإنجازاته، لوقعنا في دوّامة كبيرة ولضاق بنا المجال.

تحمل سيرة حياة هذا الرّجل الكثير والكثير من المغامرات والمبالغات والمفارقات، ولم يكن أقلّ منها موته بحادث درّاجة ناريّة في عام 1935. وبغية دراسة تاريخ هذا الشّخص الاستثنائي، وإضافة كتب مفيدة وشائقة عن مغامراته في بلادنا، رأينا أنّ من الأفضل عدم الرّكون إلى ترجمة دراسات عنه وضعها آخرون، بل تقديم كتابيه الشّهيرين: "أعمدة الحكمة السّبعة" و"ثورة في الصّحراء". والثّاني طبعة مختصرة ومعدّلة عن كتابه الأول. فها نحن أولاء نشرع بالكتاب الثّاني، واعدين بترجمة الأول، مع تصحيح الكثير من الأغلاط الفادحة في أسماء الأشخاص والأماكن التي وردت في التّرجمات العربية السّابقة. ولو لم يكن الكتاب يستحق إعادة النّظر، لما كنّا لنفعل ذلك أصلاً.

السعر 65 درهماً


9789948171751



